

كلية الآداب والحضارة الإسلامية  
قسم التاريخ



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية  
قسنطينة

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

## الصوائف والشواتي ضد الروم في العصر الأموي

41-132هـ/661-749م

(دراسة وصفية تحليلية)

مذكرة ليل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي

تخصص: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المشرق الإسلامي (1-132هـ/622-749م)

اشراف الأستاذ:

د. مراد لكحل

اعداد الطالب:

منصف مباركية

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
إبراهيم بن مهية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	رئيسا
مراد لكحل	أستاذ محاضر قسم. أ	جامعة محمد بوضياف - المسيلة -	مشرفا
نصيرة عزرودي	أستاذة محاضرة قسم. أ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	عضوا
عبد الجليل قريان	أستاذ محاضر قسم. أ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة -	عضوا
عبد الغني حروز	أستاذ محاضر قسم. أ	جامعة محمد بوضياف - المسيلة -	عضوا
خميسي بولعراس	أستاذ محاضر قسم. أ	جامعة محمد لمين دباغين - سطيف -	عضوا

السنة الجامعية 1442-1443هـ/2021-2022م

أهدي هذا العمل ...

إلى والديّ خاصة، من أجل كل التضحيات التي قاموا

بها

إلى عائلتي، مقابل كل الدعم والشجيع الذي وفرته

طيلة سنوات البحث

إلى الأساتذة المشرفين، نظير كل النصائح والارشادات

التي قدموها

إلى كل من كان لي سندا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## مقدمة

## مقدمة:

## 1- التعريف بالموضوع:

حظيت العلاقات الأموية البيزنطية باهتمام كبير من طرف الدارسين<sup>1</sup> باعتبار هاتين الدولتين كانتا أكبر قوتين متجاورتين في وقتها وجمعتهما علاقات ندية إلى أقصى حد، وقد ركزت الدراسات التاريخية التي تعرضت لهذا الموضوع بشكل خاص على إبراز الصراعات والصدامات العسكرية المستمرة بين الطرفين على طول الحدود بينهما برا وبحرا، باعتبارها المظهر الغالب على علاقات التفاعل بينهما، وفي إطار هذه الحروب المستمرة كانت الدولة الأموية قد اعتمدت منذ تأسيسها في مواجهة خصمها الرئيسي الوحيد المكافئ لها تقريبا على استراتيجية ردعية تقضي بإرسال حملات عسكرية موسمية تعرف بالصوائف والشواتي، تقوم بعمليات سريعة وحاطفة لاستهداف مناطق متفرقة من الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى بشكل سنوي، ورغم أنّ هذا التقليد الموسمي قد تمّ استحداثه واعتماده منذ العهد الراشدي على شكل حملات صيفية فقط في البداية، إلا أنّ الدولة الأموية تركت بدورها بصمة واضحة على هذه الاستراتيجية العسكرية ليس فقط من خلال الحفاظ عليها، بل أكثر من هذا، المساهمة في ترسيخها وتثبيت معالمها واستكمال حلقاتها مع إضافة الحملات الشتوية إليها، وأيضاً العمل على تطوير أدائها حتى بلغت بها مستوى عال من الفعالية والأداء العسكري، وهذا الموضوع يقدم دراسة وصفية تحليلية لعمليات الصوائف والشواتي ضد الروم خلال العصر الأموي بين 41-132هـ/661-750م مع إبراز كل ما يرتبط بها من إجراءات مثل مراحل الاعداد لها، وكذا دوافعها وأهدافها، والعوامل المؤثرة فيها، وأهم الآثار المترتبة عنها، وهذا الموضوع الذي يغطي زمنياً تقريبا القرن الأول لظهور واعتماد عمليات الصوائف والشواتي، يركّز على دراسة فترة الخلافة الأموية لأنها بالتحديد تمثل الفترة التي عرفت نضج واستقرار معالم هذه الحركة العسكرية، وشهدت أيضاً ذروة نشاطها وأهم أحداثها منذ اطلاقها.

سنحاول من خلال هذا العمل أن نقدم قراءة متكاملة عن موضوع مهم يشغل فضاء مشتركا من التاريخ العربي والبيزنطي، وذلك من خلال جمع المعلومات والمعطيات المتعلقة بهذا النشاط العسكري من مختلف المصادر ذات الصلة بالأحداث، سواء العربية أو البيزنطية وحتى السريانية المتعلقة بفترة الدراسة، لرصد الوقائع ومقارنتها ومقاربتها ومحاولة التوفيق بينها حتى تكون النظرة متوازنة وشاملة وغير اقصائية، ثمّ

<sup>1</sup> - من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

\* إبراهيم العدوي في كتابه: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية / الأمويون والبيزنطيون، البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية.

\* عمر يحي محمد: البيزنطيون والعرب (641-711م/20-93هـ)

\* وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي.

\* M. A. Cheira: La lutte entre Arabes et Byzantins, La conquête et l'organisation des frontières aux 7<sup>e</sup> et 8<sup>e</sup> siècles.

العمل على استقرارها وتحليلها وتعليلها بشكل موضوعي ومنهجي من أجل رسم صورة متكاملة أقرب إلى الحقيقة التاريخية حول أهم أحداث هذا النشاط وطبيعته وأبعاده.

وهذا يقتضي بالضرورة توظيف مناهج وآليات بحث مختلفة حسب الحاجة ومقتضيات الدراسة، فطبيعة الموضوع تحدد نوع المنهج المستخدم، حيث تم الاعتماد أساسا -بحكم طبيعة الدراسة- على المنهج التاريخي في رصد ووصف الأحداث المتعلقة بالموضوع، وأقصد هنا بشكل خاص ما يتصل باستعراض وسرد حيشات الحملات العسكرية السنوية، مع مراعاة التسلسل الكرونولوجي لها حفاظا على الترتيب المنطقي والتاريخي للأحداث حتى يُسهل علينا بعدها ملاحظة وفهم ملامح ومؤشرات التطور الذي عرفته الظاهرة موضوع الدراسة، وهذا طبعا بعد جمع الأخبار والروايات التاريخية من المصادر الأساسية المتوفرة في الفضاءين الإسلامي والمسيحي، بحيث نتجنب أن تركز الدراسة على اتجاه واحد فتكون منغلقة على رؤية ومنظور ضيقين للأحداث، وعليه تم بشكل متواز توظيف المصادر المسيحية أيضا -البيزنطية والسريانية- ليس فقط من أجل التعرف على صورة العمليات العسكرية للمسلمين -الصوائف والشواتي- ضد البيزنطيين في العهد الأموي من زاوية الطرف الآخر ومحاولة عرض رؤيته للأحداث بدوره حتى نصل إلى طرح أكثر توازنا وبالتالي أكثر موضوعية، وإنما أيضا من أجل ملء بعض الثغرات التي خلقتها المصادر الإسلامية أو تصحيح بعض أخطاء المعلومات التي وقعت فيها.

كما تم أيضا الاعتماد على آليات التحليل، خاصة في الجوانب التي تقتضي دراسة البعد التفسيري للظاهرة موضوع البحث، مثل ما يتعلق بدوافع وأهداف حملات الصوائف والشواتي، وكذا الأبعاد الاستنتاجية فيما يخص النتائج المترتبة عن هذا النشاط العسكري مثلا بما يتماشى والإطار العام للموضوع كما هو مثبت في العنوان.

واستعنت كذلك بالمنهج المقارن في بعض الحالات عندما كانت تقتضي ضرورة البحث ذلك، وقد ساهم تنوع مناهج وآليات البحث ضمن هذه الدراسة في تحقيق معالجة أفضل للموضوع من زوايا مختلفة، ما قربنا أكثر من تحقيق الأهداف المرجوة من وراء هذا العمل.

## 2- دوافع وأسباب اختيار الموضوع:

للأمانة، كان هذا الموضوع من اقتراح الأستاذ محمد فرقاني الذي أشرف على مذكرة الماجستير التي أنجزتها في إطار استكمال متطلبات هذه الشهادة، وكانت ميولاتي في البداية تتجه لاختيار موضوع خاص بالدكتوراه مختلف تماما عن هذا النوع من الدراسات، وبعد مناقشات مع أستاذي وتفكير عميق، استقر رأيي على القبول المبدئي لهذا المقترح مع التوسع في الاطلاع عليه للإلمام بحيشاته قبل اتخاذ القرار النهائي، خاصة أنّ هذا الموضوع -جزئيا- لم يكن مستجدا عليّ ولا غريبا عن دراستي السابقة في مرحلة الماجستير عندما تناولت النشاط الاقتصادي خلال العصر الأموي على ضوء كتاب فتوح البلدان للبلادري، وبما أنّ الغنائم والخمس كانت من موارد بيت المال الرئيسية، فالاطلاع على عمليات الفتوح على مختلف الجبهات

- بما في ذلك على الجبهة البيزنطية- كان جزءا رئيسيا من عملية البحث التي قمت بها خلال إنجاز مذكرة الماجستير، كما أنّ هذا الكتاب الذي درسته يعتبر سجلا غنيا بالمعلومات التاريخية عن الحركة العسكرية التي عرفتها الأمة الإسلامية في القرنين الأولين للهجرة، وبالتالي كانت لدي حينها فكرة -ولو أنّها سطحية جدا- عن العمليات العسكرية التي اضطلعت بها الدولة الإسلامية ضدّ الروم فيما يعرف بالصوائف والشواتي، لكن هذا لم يكن ليفقدني الحافز مطلقا، بل بالعكس استفزتني روح التحدي لمعالجة هذا الموضوع، والحقيقة أنّ القراءة الأولى فيه قد زادتني شغفا به، رغم احساسني بصعوبة المهمة منذ البداية في ظلّ شحّ المادة الخيرية المتعلّقة بالموضوع في المصادر، لكن مع ذلك لفت انتباهي بشدّة الحرص والاهتمام الكبيران الذي أولته الدولة الأموية لهذه العمليات العسكرية الموسمية ضدّ الروم ما ولّد مزيدا من الفضول في نفسي للتوسع والتعمّق أكثر في دراسة هذه الظاهرة، وما حفّزني أكثر ادراكي أنّ هذا الموضوع سينقلني إلى ميدان أوسع وأكثر تنوّعا في الدراسات التاريخية، من فضاء الدراسات الإسلامية حصرا - كما كان الحال في مرحلة الماجستير - إلى التوسّع في الدراسات البيزنطية أيضا باعتبار هذه الظاهرة تختص بالتاريخ المشترك للعالمين الإسلامي والمسيحي معا، كما أنّ هذا الموضوع الذي يبدو -ظاهريا- أنّه يتمحور بشكل مقيد حول دراسة نشاط حربي روتيني تقوم به دولة ضدّ أخرى، في الحقيقة ترتبط به بشكل وثيق العديد من مجالات الدراسة الأخرى كالديبلوماسية والاقتصاد والمجتمع والجوانب الحضارية، ما يجعل منه موضوعا ثريا للبحث والدراسة سيساهم -من دون شك- في تنويع معارفي العلمية والتاريخية، وهكذا اقتنعت -أخيرا- بأهمية هذا الموضوع، خاصة أنه ما زال قابلا لاستيعاب المزيد من الاجتهاد والإضافة.

### 3- الدراسات السابقة:

رغم عملية البحث المعمّق عن المراجع المساعدة لإنجاز هذه الرسالة، فإنه لم يقع بين يدي أي دراسة متكاملة متخصصة تناولت موضوع عمليات الصوائف والشواتي بشكل محدّد ومستقل، مع أنّ العلاقات الإسلامية البيزنطية كانت موضوع العديد من الأبحاث والأعمال التاريخية التي تتطرّق بصورة اجبارية وحتمية إلى هذه العمليات العسكرية الموسمية التي كانت تضطلع بها الدولة الإسلامية في مواجهة الروم، لكنّ اهتمامها بها لم يكن إلاّ بصورة سطحية لم تتجاوز الإشارات العابرة، مع التركيز على أهمّ العمليات التي تمّ تنفيذها دون التطرّق إلى ما يرتبط بها من عوامل واستعدادات ودوافع وأهداف ونتائج وغيرها، وعليه يمكن اعتبار هذا الموضوع إضافة نوعية إلى هذا الحقل من الدراسات ما يساهم في إثراء الأعمال التاريخية المتصلة بالعلاقات الإسلامية البيزنطية، أمّا الأعمال التي تعرّضت في جانب منها إلى الصوائف والشواتي فهي عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

\* أساليب المجابهة بين العرب والبيزنطيين، للدكتور عدي سالم عبد الله حمد الجبوري، الذي يعتبر أكثر المراجع توسّعا التي تطرّقت للصوائف والشواتي، حيث أفرد لها المؤلف فصلا كاملا استعرض فيه بدايات هذا النشاط العسكري، ودواعي اعتماده، وكيفية اعداد الحملات والتعبئة القتالية التي

كانت تنتهجها، بالإضافة إلى أهداف هذه المنظومة. ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الحديثة نسبياً حيث صدر سنة 2014.

\* الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، لفتحي عثمان، حيث استعرض حملات الصوائف والشواتي منذ اطلاقها حتى نهاية العصر الأموي في الجزء الثاني من الكتاب الذي يتكوّن من ثلاثة أجزاء، وقد جاء عرضه للصوائف في معظم الأحيان دون تعمّق أو تحليل حيث يكتفي بذكر اسم قائد الحملة والسنة فقط دون التطرّق لتفاصيل أحداثها.

\* فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، لبسام العسلي، الذي ركّز بشكل موجز جداً على تحليل منظومة الصوائف والشواتي وإبراز بُعدها كأداة استراتيجية اتبعتها الدولة الإسلامية في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية دون استعراض هذه الحملات وما يرتبط بها من أحداث وذلك في الجزء الأول من الكتاب.

\* علاقة الدولة الأموية مع الدولة البيزنطية في عهد معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/660-681م)، مقال للدكتور عبد الله حسين ولي عرفات من جامعة الكوفة، استعرض فيه حملات الصوائف في تلك الفترة بعد تعريفها وإبراز أهم أهدافها بشكل مختصر.

#### 4- إشكالية الموضوع:

تتمحور الإشكالية الرئيسية للموضوع، كما يشير إليه العنوان، حول النشاط العسكري الإسلامي على جبهة الروم أو ما يعرف بحملات الصوائف والشواتي، خلال العصر الأموي 41-132هـ/661-749م؟ وترتبط بهذه الإشكالية المحورية مجموعة من التساؤلات الفرعية المكتملة لها، والتي تغطّي الظاهرة موضوع الدراسة كمنظومة متكاملة وليس الجانب الاجرائي العمليّاتي البحث المتعلّق بها فقط، ومن هذه التساؤلات:

- \* ما هي الظروف التاريخية التي صاحبت استحداث واعتماد هذه الاستراتيجية في مواجهة البيزنطيين، وكيف كانت عمليّاتها الأولى في الفترة المبكرة؟
- \* هل رافق منظومة عمليّات الصوائف والشواتي، التي اعتمدها الدولة الأموية، إجراءات وترتيبات مكتملة لها في المنطقة الحدودية مع بيزنطية؟
- \* كيف تعاملت الإمبراطورية البيزنطية مع هذه الاستراتيجية الحربية التي وظّفتها الدولة الأموية اتجاهها؟
- \* ما هي الدوافع التي جعلت الدولة الإسلامية تعتمد هذا الشكل من المواجهة مع الروم؟ وفيم تتمثّل الأهداف التي كانت تسعى لتحقيقها؟
- \* هل كانت الحملات الموسمية عرضة لعوامل أثرت على حيويتها وأدائها؟
- \* كيف كان يتمّ اعداد الحملات الموسمية والمراحل التي تمرّ بها؟

\* ما هي النتائج التي حققتها والآثار المترتبة عنها سياسيا وعسكريا واقتصاديا وحضاريا؟

هذه التساؤلات تحدّد مسار البحث والخطوط العامة التي يجب التطرق إليها ومعالجتها، والاجابة عنها كفيل بأن يكشف لنا كلّ الجوانب الأساسية المرتبطة بهذا النشاط العسكري الموسمي، وبالتالي إبراز صورة متكاملة عن هذه المنظومة حتّى نصل إلى تحقيق الأهداف المرجوة من هذه الدراسة.

## 5- أهداف الدراسة:

يتمثّل الهدف الأساسي لهذا الموضوع في اخراج دراسة علمية متخصصة ومتكاملة وفق أسس منهجية مضبوطة حول عمليّات الصوائف والشواطي في العهد الأموي، من خلال توضيح صورة هذه الحملات الموسمية التي كانت تقوم بها الدولة الأموية ضدّ الأهداف البيزنطية في آسيا الصغرى بشكل سنوي تقريبا، وكذا اظهار مجرياتها وكلّ ما يرتبط بها من إجراءات، كما تسعى لتحقيق النقاط الأساسية الآتية أيضا:

\* إبراز الصوائف والشواطي كمنظومة واستراتيجية متكاملة وليس فقط كمنشآت عسكرية روتينية كانت تضطلع به القوّات الإسلامية كلّ موسم في إطار صراع الخلافة مع عدوّها الرئيسي الإمبراطورية البيزنطية، وهذا من خلال التعرّف على كل الإجراءات المرتبطة بهذه العمليّات، مثل التحضير اللوجستي، المادي، والبشري، والنظام المتّبع في اعداد الحملات، والمراحل التي يمرّ بها، وطبيعة التكتيكات الحربية التي تطبّقها، وخاصة دوافع اعتماد هذا الإجراء والأهداف التي كان يسعى المسلمون لتحقيقها من خلاله ... إلخ.

\* تتبّع وتيرة أداء حملات الصوائف والشواطي، والإلمام بالتطوّرات والتعديلات التي طرأت عليها منذ استحداثها حتّى نهاية العهد الأموي.

\* استكشاف الانعكاسات المترتبة عن هذا النشاط العسكري في جميع المجالات: عسكريا، سياسيا، اقتصاديا، اجتماعيا، وحضاريا.

\* الاطلاع على وجهة نظر المصادر الأجنبية ذات الصلة بالموضوع -البيزنطية والسريانية- من خلال تقديم روايتها للأحداث ومقارنتها بما جاءت به المصادر الإسلامية.

\* إبراز الاستراتيجية البيزنطية في مواجهة حملات الصوائف والشواطي خلال فترة الدراسة بين القرنين الأول والثاني هجريين/السابع والثامن ميلاديين.

\* المساهمة في إثراء الدراسات المتعلقة بالتاريخ الاسلامي والعصر الأموي بشكل عام، وتاريخ العلاقات المشتركة الإسلامية البيزنطية بشكل خاص.

\* المساهمة في إبراز جزئية مهمّة من التاريخ الأموي المتعلّق بصراعها مع الدولة البيزنطية، من خلال هذا النشاط العسكري الاستثنائي الذي كانت تقوم به سنويا تقريبا لكنّه مع ذلك لم يحظّ بالاهتمام الكافي ولم يخصّص له ما يستحق من مساحة في الدراسات التاريخية المعاصرة.



**6- خطة الدراسة:**

لمعالجة الإشكالية والتساؤلات الفرعية المرتبطة بها والمكملة لها، ومن أجل تحقيق الأهداف التي من أجلها تمّ التعرض لهذا الموضوع بالدراسة، وضعت خطة منهجية تراعي متطلبات الدراسة العلمية الجادة تشمل مقدمة وتمهيد، ومتمن يتشكّل من ثلاث فصول، وخاتمة، بالإضافة إلى مختلف الملاحق المتعلقة بالدراسة.

وقد ارتأيت ادراج تمهيد خصّصناه لإلقاء الضوء على البدايات الأولى لعمليات الصوائف والشواتي في العهد الراشدي، حيث قدّرت أنّه من الضروري أن أحيط بالظروف والمؤثرات التاريخية المرتبطة بظهور هذه الاستراتيجية باعتبار أنّ استحداث واعتماد هذا النشاط العسكري كان سابقاً لتأسيس الدولة الأموية التي تمثل المجال الزمني للموضوع، وهذا حتّى لا تأتي الدراسة مبتورة من خلفيتها التاريخية.

أما الفصل الأوّل الذي جاء تحت عنوان "حملات الصوائف والشواتي ورد الفعل البيزنطي" فقد ضمّ ثلاث مباحث رئيسية، قمت في الأوّل منها باستعراض أحداث الحملات التي جرى تنفيذها خلال العهد الأموي في الفترتين السفينانية والرومانية بكلّ تفاصيلها ومجرباتها، وتطرّقت في المبحث الثاني إلى نظام الثغور في فترة الدراسة باعتبار المنطقة الحدودية الفاصلة بين الطرفين كانت حيويّة في الصراع مع الروم أين تجرّي فيها آخر استعدادات الحملات الموسمية قبل اقتحامها الأراضي البيزنطية، وتحتوي على أهم المراكز والمسالك الرئيسية التي تمرّ بها قوّات الغزو، بالإضافة إلى الدور الدفاعي الأساسي الذي كانت تقوم به أيضاً بما يتكامل مع دوافع وغايات منظومة الصوائف والشواتي، وفي الأخير استعرضت في المبحث الثالث الاستراتيجية البيزنطية التي طوّرتها وتبنّتها الإمبراطورية للتعامل مع حملات المسلمين والإجراءات التي اتّخذتها للتكيّف مع هذا المد العسكري الإسلامي ومحاولة الحدّ منه وتحميم خسائرها في مواجهة الدولة الأموية.

حمل الفصل الثاني من الرسالة الذي عنوان "الإجراءات المرتبطة بالصوائف والشواتي" وقد احتوى أيضاً على ثلاث مباحث، قمت في العنصر الأوّل منها باستعراض وتحليل مختلف الأبعاد المتعلقة بدوافع وأهداف اعتماد حملات الصوائف والشواتي حتّى أوضح جوهر هذه العمليات كاستراتيجية ومنظومة ذات معنى وليست مجرد حملات غزو تخريبية تهدف للسلب والنهب، وتمّ تخصيص المبحث الثاني في هذا الفصل لتحديد وتحليل الظروف والعوامل الداخلية والخارجية التي تؤثر في سيرورة هذه الحملات وأدائها وفعاليتها، وخصّصت المبحث الأخير لإبراز كميّة اعداد وتحضير الحملات بكلّ مراحلها وتفصيلها وجميع الترتيبات المرتبطة بها، مع توضيح الأساليب والتكتيكات التي كانت تطبّقها في مواجهة العدو أثناء أداء مهامها القتالية داخل بلاد الروم.

وفي الفصل الأخير "الانعكاسات المترتبة عن حملات الصوائف والشواتي" فقد تمّ تخصيصه لشرح الآثار المترتبة عن عمليات الصوائف والشواتي في مختلف المجالات، على العلاقات بين المسلمين والروم

أولاً، وأيضاً ما ألقته العمليّات المتواصلة لمُدّة سبعين سنة خلال العهد الأموي بالبنية الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية البيزنطية، وأخيراً تأثير الحملات على التفاعل الحضاري بين الطرفين. وفي الأخير تمّ تسجيل النتائج التي توصلتُ إليها من خلال هذه الدراسة في خاتمة تضمّنت حوصلة عمّا تمّ عرضه بالتفصيل عبر كل عناصر الفصول.

## 7- قراءة في المصادر والمراجع:

اعتمدت أساساً في جمع المادة العلمية لإنجاز الموضوع على خليط من المصادر الأساسية المبكّرة القريبة زمنياً من الأحداث، مثل المصادر الإسلامية الرئيسية المتعارف عليها، بالإضافة إلى المصادر البيزنطية والسريانية أيضاً، كما استعنت بالمراجع والدراسات العربية والأجنبية في حدود ما هو متوفّر لتحليل بعض الأحداث ودعم الاستنتاجات التي توصلت إليها.

**المصادر الإسلامية:**

من أهم المصادر التي تمّ توظيفها بشكل كبير كتب الطبقات، ويأتي على رأسها "تاريخ دمشق" لابن عسّكر، المتوفّي في القرن السادس هجري (سنة 571هـ) ويحتوي هذا الكتاب على معلومات غنيّة جداً عن أحداث حملات الصوائف، حيث يتضمّن تفاصيل مهمّة ودقيقة عن مجرياتها في معرض ترجمة ابن عسّكر للشخصيّات الفاعلة فيها، وفي الحقيقة المادة التي يقدّمها ابن عسّكر في هذا الشأن ينقلها في معظمها عن محمد بن عائذ الدمشقي (ت 233هـ) الذي دوّن كتاباً مفقوداً للأسف تحت عنوان "الصوائف"، وقد قام الأستاذ بجامعة محمد بن سعود الدكتور سليمان بن عبد الله السويكت باستخراج الروايات التي أوردها ابن عسّكر في كتابه نقلاً عن ابن عائذ وجمعها في بحث تحت عنوان "كتاب الصوائف (المستخرج)"، وعلى الرغم من أهميّة المادة التي يوردها ابن عسّكر في كتابه إلا أنّه يهمل في الكثير من الأحيان تدوين تاريخ بعض الأحداث المهمة، حيث يوردها في سياق عام ما يصعب على الباحث ربطها بحملات محدّدة.

وتمّ الاعتماد أيضاً على كتب الفتوح، خاصة كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري، المتوفّي أواخر القرن الثالث هجري (سنة 279هـ) الذي يعدّ من المصادر المهمّة جداً بحكم احتوائه على أخبار وتفاصيل على قدر كبير من الدقّة حول بعض الحملات ضدّ الروم خاصة في الفترة المبكّرة، وحتى حملات المسلمين في أرمينية طيلة العهد الأموي، كما يتحدّث بالتفصيل عن المناطق الحدودية "الثغور" وأهم مراكزها والتطوّرات التي عرفت منذ الفتح حتّى عهد الدولة العبّاسية، ويفيد أيضاً في دراسة قضية الجراحة في جبال لبنان وتحركاتهم في الشام وعلاقتهم بالدولة البيزنطية.

كما تمّ الاستعانة بشكل كبير بالمصادر الإسلامية الرئيسية التي استخدمت المنهج الحولي في أخبارها مثل كتاب "تاريخ خليفة" لصاحبه خليفة بن خياط العصفري، المتوفّي في القرن الثالث هجري (سنة 240هـ)، وكتاب "تاريخ الرسل والملوك" لابن جرير الطبري، المتوفّي في مطلع القرن الرابع هجري (سنة

310هـ)، وكتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، المتوفي في القرن السابع هجري (سنة 630هـ)، وكتاب "تاريخ اليعقوبي" لأحمد بن اسحق اليعقوبي، المتوفي نهاية القرن الثالث هجري (سنة 292هـ) والذي رغم عدم اعتماده المنهج الحولي في كتابه إلا أنه يقدم في نهاية ترجمة كل خليفة قائمة بأسماء قادة حملات الصوائف والشواتي طيلة سنوات حكمه، وهذه المصادر التي تحرص على تدوين أخبار الحملات ضد بلاد الروم وأسماء قادتها وفي كثير من الأحيان أيضا حتى نوع الحملة -صائفة أو شاتية- على أهميتها في تحديد تواريخ الحملات وأسماء قادتها وفي بعض الأحيان النتيجة التي انتهت إليها العمليات والحصون والمدن التي تم فتحها، إلا أنّها مع ذلك لا تنقل إلا مادة مختصرة جدا عن هذا النشاط العسكري، ففي أغلب الحالات تكتفي بذكر اسم قائد الحملة ونوعها فقط دون تفاصيل إضافية عن تعداد جيش الغزو ومناطق نشاطه والمواجهات التي خاضها وحجم الغنائم التي حصلها ما عدا بعض الحالات الاستثنائية المتعلقة بالحملات المهمة، ما يضع الباحث أمام مشكلة كبيرة في تتبع الأحداث التي رافقت عمليات الغزو، كما أنّ معلوماتها الجغرافية عن بلاد الروم غير دقيقة حيث أنّها تخطئ في تحديد الأماكن، خاصة في السنوات الأولى لبداية نشاط حملات الصوائف والشواتي.

#### المصادر البيزنطية:

من المصادر البيزنطية الأساسية التي اعتمدت عليها ووظفتها بشكل كبير في هذه الدراسة هو كتاب "حولية ثيوفانس المعرف" **The Chronicle of Theophanes Confessor** الذي عاش صاحبه بين القرنين الثامن والتاسع ميلاديين/الثاني والثالث هجريين وتوفي سنة 818م، ويعتبر هذا العمل مصدرا رئيسيا ليس فقط لدراسة التاريخ البيزنطي بل أيضا الشرق الأدنى بعد الفتح الإسلامي، والمعلومات التي تهمنا ويعرضها ثيوفانس بين سنتي 602-813م تعتبر مصدرا أوليا بالنسبة إلينا لأنّ المخطوطات التي اعتمد عليها في تدوين عمله ضاعت كلّها تقريبا حسب ما يذكره محقق الكتاب، وفيما يتعلّق بقيمة هذا المصدر بالنسبة لبحثنا فيمكن التأكيد ليس فقط على قيمته التاريخية الكبيرة، بل وأيضا على أساسيته حيث لا يمكن إهماله أو الاستغناء عنه في موضوعنا، ذلك أنّ ثيوفانس كما المؤرخين المسلمين يحرص بدوره كثيرا على ذكر حملات العرب ضدّ بلاده كل سنة، وهذا المصدر على قدر كبير من الأهمية حيث يتميّز بدقّة كبيرة في تحديد أسماء قادة الحملات من المسلمين (لكن بصورة محرّفة طبعا) وبشكل خاص تحديد مجال نشاط الحملة، كما نجد فيه تفاصيل مهمّة عن بعض الحملات والأحداث التي لا تتوفر حتى في المصادر الإسلامية، لكن ما يُعاب عليه هو عدم دقّته الزمنية حيث نسجّل بعض الاضطرابات وغياب التوفيق في تحديد تواريخ الحملات في كثير من الحالات، كما أنّه على غرار المصادر الإسلامية أيضا لا يهتمّ بسرد تفاصيل كل الحملات بل يكتفي فقط بذكر اسم قائد الحملة مع الإشارة إلى النتيجة التي حققتها (غنائم وأسرى)، بالإضافة إلى تأثير مواقفه ونظراته السلبية تجاه المسلمين في المادة الخبرية التي يوردهم عنهم.

وهناك أيضا كتاب "مختصر التاريخ" **Short History** للبطريرك نففور Nikephoros Patriarch of Constantinople الذي قام بتأليفه على الأرجح نهاية القرن الثامن ميلادي/الثالث هجري بالاعتماد على مصادر مبكرة غير متوفرة حسبما يذكر محقق الكتاب، ويتناول "مختصر التاريخ" الأحداث في الفترة بين 602-769م، وهو مصدر أساسي مهم أيضا رغم النقائص التي تشوبه وتضعف من قيمته بالنسبة لموضوعنا إذ لا يحتوي على تحديد زمني للأحداث التي يعرضها، والمعلومات التي يوردها مختصرة جدا، كما أنه لا يهتم بإدراج أخبار حملات المسلمين على بيزنطة إلا فيما يتعلق بالعمليات الكبرى، بالإضافة إلى أنه أهمل بشكل كلي فترة حكم قنسطانز الثاني Constans II بين 641-668م، وهي فترة حيوية تتزامن مع البداية الفعلية لحملات الصوائف في العهد الراشدي، وإعادة إطلاقها من جديد في عهد معاوية بن أبي سفيان بعد فترة توقّف اضطراري نتيجة الفتنة الكبرى.

#### المصادر السريانية:

يأتي على رأسها كتاب "تاريخ ميخائيل السرياني" **Chronique de Michel le Syrien** لبطريرك أنطاكية مار ميخائيل الكبير، الذي عاش في القرن الثاني عشر ميلادي/السادس هجري، ورغم بعده الزمني عن الأحداث إلا أنّ المعلومات التي يوردها مهمة وفي بعض الأحيان استثنائية وتحتوي على تفاصيل كثيرة غير متوفرة في غيرها من المصادر سواء الإسلامية أو البيزنطية، لأنه أساسا ينقل عن مصادر سابقة بعضها معاصر للفترة الأموية، وقد اعتمدنا في هذا العمل على نسخة مترجمة باللغة الفرنسية للكتاب، طبعة أرنست ليرو Ernest Leroux (باريس 1899م).

و"كتاب العنوان" أو ("تاريخ العالم" **Histoire Universelle**) لأغابوس المنبجي **Agapius de Menbidj** أو كما يُعرف بمحبوب بن قسطنطين، الذي توفي حوالي منتصف القرن العاشر ميلادي/القرن الرابع هجري، ونجد في كتابه روايات عن حملات المسلمين في بلاد الروم بعضها يتفق مع ما جاءت به بقية المصادر والبعض الآخر ينفرد بذكره دون غيره من المؤرخين، لكن نجد بعض الأخبار التي يوردها في هذا الشأن يغلب عليها طابع المبالغة وعدم الدقة.

وهناك كتاب "تاريخ إيليا النصيبي" **La Chronographie d'Elie Bar Šinaya** لصاحبه إيليا بن سينا النصيبي، الذي عاش بين القرنين العاشر والحادي عشر ميلادين/الرابع والخامس هجريين، ويستعرض المؤلف في هذا الكتاب أهم أحداث التاريخ الإسلامي وأيضا الحملات السنوية على بلاد الروم بشكل مقتضب جدا لكنه أكثر دقة في تحديد تواريخها من بين المؤرخين السريان.

المراجع:

تمّ توظيف العديد من المراجع العربية والأجنبية التي ساعدت في تحليل بعض الجوانب من موضوعنا، أهمّها:  
\* كتاب الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، لفتحي عثمان.

\* أساليب المجاهدة بين العرب والبيزنطيين، لعدي سالم عبد الله حمد الجبوري.  
\* دراسات في حضارة الإسلام، لهاملتون جب.

- La lutte entre Arabes et Byzantins, La conquête et l'organisation des frontières aux 7<sup>e</sup> et 8<sup>e</sup> siècles. Par M. A. Cheira.
- A History of Later Roman Empire. by J. B. Bury.
- The Arab-byzantine frontier in the eighth and ninth centuries. by J. F. Haldon and H. Kennedy.
- A History of the Byzantine State and Society. by Warren Treadgold.

وبعد هذا العرض أودّ أن أسجّل بعض الملاحظات حول الصعوبات والعراقيل التي اعترضتني في إنجاز هذا العمل، يأتي على رأسها:

\* شحّ المعلومات في المصادر الأساسية عن مختلف جوانب الظاهرة موضوع الدراسة، حيث تكتفي بإدراج أخبار مقتضبة جدا عن الحملات السنوية، ما يجعل الصورة ضبابية في كثير من الأحيان حول الأحداث التي ترافق عمليات الصوائف والشواطي.

\* عدم توفّر مراجع ودراسات متخصصة يمكن أن تساعد في إنجاز هذا العمل.

\* عدم التمكن من الحصول على بعض الكتب القيمة القريبة من موضوع دراستنا، التي لو توفّرت لدي لكانت ربّما قد ألقت الضوء على جوانب مهمّة يمكن أن أكون قد سهوت عنها، وأذكر هنا بالخصوص كتاب "العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتّى منتصف القرن الثامن الميلادي" للمؤلف وسام عبد العزيز فرج، غير المتوفّر للأسف في مكتبات الجامعات الجزائرية.

وفي الأخير أود أن أتقدّم بالشكر لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل، وبشكل خاص الأستاذ محمد فرقاني، الذي اقترح عليّ هذه الفكرة ثمّ رافقني في بداية إنجاز الرسالة بالتوجيه والإرشاد، والأستاذ المشرف أيضا مراد لكحل على ما بذله من وقت وجهد في مراجعة هذا العمل، كما لا يفوتني الترحم على الأستاذ بلقاسم فيلاي، الذي كان قد أشرف على هذا الرسالة كذلك بعد تقاعد الأستاذ محمد فرقاني، ثمّ وافاه الأجل قبل اتمامها. وقد كان لهم جميعا بصمتهم في اخراج هذا الموضوع في شكله النهائي فبارك الله فيهم على صبرهم ومجهوداتهم واخلاصهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

## تمهيد:

إنّ عمليّات الصوائف والشواتي، وهي حملات عسكرية سنوية تنطلق في فصلي الصيف والشتاء، تكاد ربّما تختزل المشهد الذي طبع بشكل عام العلاقات بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وقد ظهر هذا التقليد العسكري ضدّ الروم في الفترة السابقة للعهد الأموي، الذي يمثّل المجال الزمني لهذه الدراسة، ولفهم هذا النشاط الحربي والأسس التي قام عليها يجب الرجوع إلى الفترة قبل قيام الدولة الأموية، إلى مرحلة البدايات والتأسيس لهذه المنظومة الحربية، وهو ما سنستعرضه في هذا التمهيد لكي لا تكون الدراسة مبتورة عن خلفيتها التاريخية عندما انطلق هذا النشاط العسكري وبدأت الجيوش الإسلامية تقطع الدروب<sup>1</sup> وتنشط عسكرياً داخل بلاد الروم.

لقد تمّ استكمال فتح الشام والجزيرة، وهي من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في الشرق في ذلك الوقت، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وهكذا نتيجة امتداد حدود الدولة الإسلامية الناشئة أصبحت في احتكاك مباشر مع الإمبراطورية البيزنطية في البر والبحر، ومع الاستيلاء على أنطاكية ونواحيها سنة 637/16هـ بدأت معالم الحدود تستقرّ بين الطرفين<sup>2</sup>، حيث شكّلت بعدها جبال طوروس Taurus الحدّ الطبيعي الفاصل بين القوّتين، لكن حتّى مع تقدّم المسلمين واستخلاص الشام والجزيرة وغيرهما من الإمبراطورية البيزنطية، لم تضع المواجهات بين الطرفين أوزارها، إذ ستعتمد بعدها الدولة الإسلامية بدل حركات الفتح الكبرى والمواجهات المفتوحة مع الروم، على أسلوب جديد للضغط عليهم يتمثّل في إرسال حملات سنوية للإغارة على مناطق مختلفة من ممتلكات الروم في آسيا الصغرى، تُعرف بالصوائف والشواتي، وهي حملات عسكرية تنطلق التي تُعرف منها بالصوائف عادةً مع اعتدال المناخ بين شهري أيار (ماي) وتموز (جويلية)، وتستمرّ حتّى نهاية فصل الصيف وتُعتبر هذه الحملات الصيفية هي الحملات الرئيسية ففيها يكون الجو ملائماً والغزو ميسوراً والمراعي متوفرة والخيل قويّة بعد أن تمّ تهيئتها طيلة فصل الربيع، أمّا الشواتي فتنتطلق عادة نظرياً أواخر شهر شباط (فيفري) وتستمرّ حتّى شهر آذار (مارس)، وبخلاف الصوائف لا تستغرق هذه الحملات الشتوية وقتاً طويلاً كما أنّها لا تتوغّل كثيراً في بلاد الروم، وهي لا تكون إلّا للضرورة نظراً للبرودة الشديدة التي تميّز بلاد الروم (آسيا الصغرى) في هذا الفصل وأيضاً لعدم توفر المراعي لخيول المسلمين أثناء الغزو ما يضطرّهم إلى حمل أعلاف دوابهم معهم<sup>3</sup> ما يحدّ من مجال نشاطهم كثيراً.

<sup>1</sup> - الدروب (مفرده درب)، هي المضيق في الجبال، وكل مدخل إلى الروم، ويُقال أدرب القوم إذا دخلوا أرض العدو من بلاد الروم. ابن منظور، جمال الدين (ت 711 هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 1، ص 374.

<sup>2</sup> - M. A. Cheira: La lutte entre Arabes et Byzantins, La conquête et l'organisation des frontières aux 7 et 8 siècles, Société de publications égyptiennes, Alexandrie 1947, p 58.

<sup>3</sup> - ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت أواخر القرن 3هـ): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن 1889، ص 259.

بدأت أولى الخطوات لتنظيم الثغور<sup>1</sup> وإطلاق حملات الصوائف والشواقي في لقاء الجابية الشهير الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب مع قادة جيوشه في الشام سنة 17هـ/638م<sup>2</sup>، حين وضع أسس نظام محكم لمواجهة أخطار الجبهة البيزنطية، أين قرّر تأمين منطقة الحدود وتنظيم الشام إدارياً وعسكرياً ومباشرة إرسال حملات لاستهداف بلاد الروم<sup>3</sup>.

وتختلف المصادر في أوّل صائفة غزت بلاد الروم، ويمكن أن نحصر في هذا الصدد ثلاث روايات متباينة جاءت كالآتي:

الرواية الأولى عند الطبري وينقلها عن سيف بن عمر التميمي يذكر فيها أنّ خالد بن الوليد، عامل قنسرين، وعياض بن غنم، اجتازا الدروب سنة 17هـ/638م فأصابا أموالاً كثيرة في حملتهما على بلاد الروم حتّى تسامع بذلك الناس في كلّ مكان<sup>4</sup>، وقد نقل هذا الخبر بجانب الطبري عدد آخر من المؤرخين أيضاً مثل ابن مسكويه، وابن الجوزي، وابن الأثير<sup>5</sup>، وهذه الرواية يصعب تصديقها إذ من المستبعد أن يكون المسلمون قد باشروا إطلاق حملات الصوائف تلك السنة مباشرة بعد أن قرّر عمر بن الخطاب هذه الخطوة في لقاء الجابية نظراً لضيق وقت التحضير لها، وأيضاً لأنّ سيطرة المسلمين على الشام لم تكن قد استقرت تماماً حتّى ذلك التاريخ، حيث كانت الإمبراطورية البيزنطية لا زالت تستطيع التنسيق مع القبائل العربية المنتصرة في الجزيرة الفراتية ضدّ المسلمين وقامت حتّى بإرسال حملة بحرية من مصر بقيادة قسطنطين (ابن الإمبراطور هرقل) انتهت إلى الاستيلاء على أنطاكية لفترة قصيرة<sup>6</sup>، بالإضافة إلى أنّ الجزيرة حتّى ذلك الوقت كانت خارج نفوذ المسلمين وتعتبر السيطرة عليها أولوية استراتيجية بالنسبة لهم من أجل تأمين مواقعهم في الشام مقارنة بحملات محدودة تستهدف بلاد الروم، وأكثر من هذا كما سنرى لاحقاً لن

1 - الثغور: الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من فروج البلدان.

ابن منظور: المصدر السابق، مج 4، ص 103.

2 - Cheira: Op cit, p 68.

3 - الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرف، مصر، ط 2، 1969، ج 4، ص 64.

4 - الطبري: المصدر نفسه، ج 4، ص 66-67.

5 - مسكويه، أبي علي أحمد بن محمد (ت 421هـ): تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003، ج 1، ص 234 / ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن (ت 597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992، ج 4، ص 230 / ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987، مج 2، ص 380.

6 - أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، ط 1، 1955، ج 1، ص 245-246.



نسجل استمرارية في إرسال الحملات سنويا إلا منذ سنة 21هـ/642م ما يثبت أنّ الانطلاقة الحقيقية لها لم تكن سنة 17هـ/638م كما يذكر الطبري.

أمّا الرواية الثانية، والتي نجدها عند الأزدي والواقدي، وتتضمّن وصفا مفصّلا عن الحملة بأحداثها الدقيقة، فتجعل من ميسرة بن مسروق، أوّل من دخل بلاد الروم عبر محور قنسرين-قورس حين وجهه أبو عبيدة بن الجراح في ألفين -أو أربعة آلاف- من المسلمين لاستهداف الروم ما وراء الدروب واستكشاف المنطقة، حيث اصطدم بقوات بيزنطية في موضع تقدّمه الروايات تحت اسم "مرج القبائل" فاشتبك معهم وكانت بينهم موقعة عظيمة انتصر فيها المسلمون وغنموا<sup>1</sup>، وهذه الرواية غير متماسكة لأنّ المصادر تختلف فيمن قاد الحملة بين ميسرة بن مسروق، وعبد الله بن قيس الكندي، ولأنّ اليعقوبي وابن عساكر يؤرّخان هذه الحادثة سنة 20هـ/641م<sup>2</sup>، وهي لا بدّ أن تكون قد حدثت قبل ذلك، فمن المعلوم أنّ أبو عبيدة بن الجراح -الذي يُفترض أنّه المسؤول عن إرسال هذه الحملة- كان قد توفي سنة 17هـ/638م، أو 18هـ/639م في طاعون عمواس بالشام<sup>3</sup>، والأهم من ذلك أنّ روايات في مصادر أخرى تذكر أنّ أبا عبيدة، وجه ميسرة بن مسروق، عبر درب بغراس حتّى بلغ زنده فلقبي الروم ومعهم جمع من القبائل العربية النصرانية، غسان وتنوخ وإياد، كانوا بصدد الالتحاق ببيزنطة فأوقع بهم وقتل عددا كبيرا منهم<sup>4</sup>، وكما يبدو واضحا فإنّ هذه العملية تكون قد حدثت مباشرة بعد القضاء على تحرك الروم في أنطاكية وقبل اجتماع أبو عبيدة بعمر بن الخطاب في الجابية أين قرّر الخليفة استحداث حملات الصوائف، وعليه يبدو أنّ حملة ميسرة بن مسروق، لم تكن على الأرجح صائفة وإنما عملية انتقامية ضدّ فلول البيزنطيين والقبائل المنتصرة التي تعاونت معهم، ويمكن أن يعزّز هذا الطرح الاسم الذي أطلقته الروايات على ميدان المواجهة (مرج القبائل) في إشارة إلى القبائل العربية النصرانية.

أمّا الرواية الثالثة، والتي نجدها عند البلاذري، فيذكر فيها أنّ أوّل صائفة دخلت بلاد الروم كانت بقيادة عمير بن سعد الأنصاري، سنة 21هـ/642م وضمّت عددا كبيرا من الجند وانتهت إلى منطقة

<sup>1</sup> - الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله (ت 321هـ): فتوح الشام، تصحيح وليم ناسوليس، كلكتة، 1854، ص 214 وما بعدها / الواقدي، أبي عبد الله محمد بن عمر (ت 207هـ): فتوح الشام، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997، ج 2، ص 3 وما بعدها.

<sup>2</sup> - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 292هـ): تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 2000، ج 2، ص 47 / ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 571هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأمثال أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، دراسة وتحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995، ج 61، 320.

<sup>3</sup> - خليفة بن خياط العصفري (ت 240هـ): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط 2، 1985، ص 138 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 60.

<sup>4</sup> - البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ): فتوح البلدان، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1992، ص 192-193.

تُطلق عليها المصادر العربية اسم "الحمار" فخرّبتها وقتلت أهلها<sup>1</sup>، ويبدو أنّ هذه الرواية أكثر موضوعية وقبولاً، فهذه الخطوة جاءت مباشرة بعد إتمام تأمين الشام من الجهة الشرقية عقب سيطرة المسلمين على منطقة الجزيرة وتنظيم المنطقة الحدودية بما سنة 20هـ/641م<sup>2</sup>، وهكذا يبدو أنّ كل الظروف أصبحت مواتية لإطلاق حملات الصوائف بعد حوالي أربع سنوات من مؤتمر الجابية.

كان الهدف الأساسي من أول حملة صائفة التي قادها عمير بن سعد، على ما يبدو استكشاف منطقة ما وراء الدروب من بلاد الروم، بالإضافة إلى العمل على إعادة ربط الاتصال بالملك الغساني جبلة ابن الأيهم، الذي كان قد أسلم ثم ارتد والتحق ببلاد الروم مع ثلاثين ألفاً من أتباعه، حيث كُلف عمير ابن سعد من طرف عمر بن الخطاب بمحاولة إقناعه للرجوع إلى بلاد الإسلام من جديد مقابل اعطاءه وضعا خاصا يبقى فيه على نصرانيته مع دفع الصدقة بدل الجزية، لكن جبلة بن الأيهم رفض عرض الخليفة وفضّل الاستقرار نهائيا ببلاد الروم<sup>3</sup>.

وبعد هذا التاريخ نجد أخبارا متفرقة في المصادر العربية، وأيضا البيزنطية والسريانية، عن حملات كل سنة تقريبا تستهدف مناطق مختلفة من آسيا الصغرى، وبرز بشكل كبير في هذه المرحلة المبكرة لعمليات الصوائف، معاوية بن أبي سفيان، وكان حينها وال على الشام ثم أضيفت له الجزيرة لاحقا في عهد عثمان ابن عفان<sup>4</sup>، ومع اشرافه بشكل منفرد على كل المنطقة الحدودية البرية مع بيزنطة نتيجة تأسيس قيادة موحدة بين سوريا والجزيرة سنة 25هـ/646م<sup>5</sup>، أبدى معاوية قدرة ونشاطا كبيرين في قيادة وتنظيم حملات الصوائف عبر الجزيرة والشام مستهدفا عدّة مناطق داخل بلاد الروم، بل ووصل بجيوشه حتى العمق البيزنطي.

ففي سنة 22هـ/643م قاد معاوية الصائفة على رأس عشرة آلاف من المسلمين<sup>6</sup>، وإن كانت المصادر العربية لم تذكر وجهة هذه الحملة، لكن يبدو أنّه قد استهدف منطقة قيليقية Cilicia<sup>7</sup>، حيث

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 159-160.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 67.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 160.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 211.

<sup>5</sup> - Cheira: Op cit, p 69.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 160.

<sup>7</sup> - قيليقية: منطقة جغرافية تقع جنوب شرق آسيا الصغرى محصورة بين البحر من الجنوب، وجبال طوروس من الشمال والغرب التي تمتد حتى تلامس البحر، ومن الشرق تحدها جبال الأمانوس.

W. M. Ramsay: Cilicia, Tarsus, and the Great Taurus Pass, The geographical Journal, Vol 22, No 4, 1903, p 357.

تذكر المصادر السريانية أنّ جيشاً عربياً كان ينشط في تلك الناحية هذه السنة فأصابوا بها سبياً كثيراً وألحقت عملياً بهم أضراراً كبيرة بالمنطقة<sup>1</sup>.

وغزا معاوية مرةً أخرى صائفة السنة التي تلتها، عام 23هـ/644م، مع عدد من كبار الصحابة وبلغ فيها مدينة عمورية (Amorion)<sup>2</sup>، التي استهدفها مرةً أخرى على ما يبدو بعد ذلك بسنتين، عام 25هـ/646م، أين قطع الدروب عبر أنطاكية حتى أفضى إلى مدينة طرسوس (في منطقة قيليقية) فوجدها خالية من سكانها بعدما كان الإمبراطور هرقل قد بدأ بترحيلهم منها عند انسحابه من الشام بعد معركة اليرموك، فخلف بها معاوية مجموعة من جنود الشام والجزيرة وقنسرين مرابطين بها<sup>3</sup> ليحمي ظهره من أيّ تحرك يمكن أن يقوم به الروم، ويؤمن طريق عودته عبر المنطقة حتى لا يقع في كمائن القوّات البيزنطية، وواصل التقدم حتى بلغ عمورية، وعلى الأرجح أنّ هذه الصائفة كانت تهدف لمساندة ودعم الحملة الأكثر أهميّة التي قادها حبيب بن مسلمة ضدّ شمشاط وقاليقلا في نفس السنة، من خلال تشتيت القوّات البيزنطية ومنع أو تأخير وصول النجدة للمناطق التي استهدفها حبيب، لكنّ مهاجمة عمورية لا يبدو منطقياً مع هدف الصائفة حيث كان العرب في هذه الحالة بحاجة إلى التحرك ضدّ قيصرية Caesarea التي تتحكّم في الطريق الرئيسي المؤدّي إلى أرمينية<sup>4</sup>، وهنا نجد رواية مهمّة عند ميخائيل السرياني تدعم هذا الطرح يذكر فيها أنّ معاوية قاد في نفس السنة، وبالتزامن مع حملة حبيب على شمشاط، حملة على بلاد الروم واستهدف مدينة قيصرية على مرتين وبعد إخضاعها أبّجه إلى عمورية قبل أن يرجع محمّلاً بالغنائم والسبي<sup>5</sup>، وهذه الرواية لا تختلف كثيراً عمّا جاءت به المصادر العربية وتبدو أكثر منطقية ومنسجمة مع أهداف الحملة التي قادها معاوية.

<sup>1</sup> - Agapius de Menbidj: Histoire Universelle, Edite et traduite en français par Alexandre Vasiliev, Paris 1909, Partie 2, p 218 / Michel le syrien: Chronique de Michel le Syrien, Traduite par J. B. Chabot, Paris 1901, Tome 2, p 431.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 241.

عمورية: مدينة عظيمة ببلاد الروم، لها قلعة حصينة. انظر، أحمد بن يوسف القرمانى (ت 1019هـ): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1992، مج 3، ص 420.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 192-193 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 480.

طرسوس: مدينة من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقع على نهر بردان، ياقوت الحموي، شهاب الدين (626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج 4، ص 28.

<sup>4</sup> - Cheira: Op cit, p 76.

قيصرية: تعرف بقيسارية في المصادر الجغرافية العربية، وهي مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 421 / أحمد بن يوسف القرمانى: المرجع السابق، مج 3، ص 442.

<sup>5</sup> - Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 441.

وفي السنة الموالية، 26هـ/647م، أرسل معاوية على رأس الصائفة يزيد بن الحر العبسي<sup>1</sup>، وكما السنة السابقة كان هدف هذه الحملة إشغال الروم عن شمشاط بعدما تقدّموا على حساب المسلمين في ملطية واسترجعوها بعد فتحها بمدّة قصيرة<sup>2</sup>، ولا ترد أي إشارة عن وجهة هذه الحملة ولا ما حقّقه من نتائج ما يجعلنا نعتقد أنّها لم تستهدف العمق البيزنطي ولم تكن ذات أهميّة كبيرة.

أمّا سنة 28هـ/649م، فقد شهدت تقدّم حملة إسلامية إلى منطقة سورية كما تسمّيها المصادر العربية (إيسوريا Isauria) بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري<sup>3</sup>، وهذه الحملة تكون قد انطلقت من سميساط على الأرجح، واستهدفت بلاد الروم بشكل متزامن مع حملة معاوية بن أبي سفيان على جزيرة قبرص، ومجال نشاط هذه الحملة يرجّح أنّها كانت لدعم عمليات الأسطول البحري<sup>4</sup>.

ويبدو أنّ منطقة إيسوريا قد تعرّضت لحملة أخرى في السنة الموالية، 29هـ/650م، بقيادة بُسر (ربّما ابن أبي أرطأة) الذي حقّق نتائج جيدة إذ تذكر المصادر أنّه عاد مع خمسة آلاف أسير<sup>5</sup>، وفي سنة 30هـ/651م غزا سفيان بن عوف، فاتّخذ طريق مرعش حتّى دخل بلاد الروم ولم تصادفه مقاومة جدّية على ما يبدو فساح في بلادهم ورجع<sup>6</sup>.

وغزا معاوية الصائفة مرّة أخرى سنة 31هـ/652م، وبلغ هذه المرة درولية (أدرولية) Dorylaion على ما تذكر المصادر العربية، ودخل بلاد الروم عبر درب بغراس ومرّ بالمصيصة، وفي طريق عودته قام بتدمير حصون الروم في المنطقة الحدودية ما وراء أنطاكية<sup>7</sup> (منطقة قيليقية)، وكما الحملات السابقة يبدو أنّ الهدف من هذه الصائفة كان التغطية على عمليات حبيب بن مسلمة في أرمينية الرابعة<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 193 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 65، ص 151.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 76.

ملطية: بلدة مشهورة في بلاد الروم تتاخم الشام. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 5، ص 192.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 263.

<sup>4</sup> - Cheira: Op cit, p 77.

<sup>5</sup> - Theophanes: The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History AD 284-813, Translated with introduction and commentary by Cyrill Mango and Roger Scott. Clarendon press. Oxford 1997, p 479.

<sup>6</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 223.

<sup>7</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 193.

درولية: مدينة في أرض الروم، وهي مجمع عساكرهم. ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 113 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 453.

المصيصة: مدينة من ثغور الشام تقع على ضفّة نهر جيحان وهي بين أنطاكية وبلاد الروم. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج 5، ص 145.

<sup>8</sup> - Elie Bar Sinaya: Chronographie de Mar Elie Bar Sinaya, Traduite par L. J. Delaporte, Paris 1910, p 86 / Cheira: Op cit, p 78.

وتزعم المصادر أنّ معاوية غزا بلاد الروم مرة أخرى سنة 32هـ/653م، حتى بلغ مضيق القسطنطينية مصطحبا زوجته معه في حملته<sup>1</sup>، بينما يعتقد الأستاذ عبد الهادي شعيرة أنّه ربّما وصل مدينة خلقدونية<sup>2</sup>، نقلا عن المؤرخ الأرمني سيبوس Sebeos (عاش في القرن السابع ميلادي)، صاحب كتاب تاريخ هرقل الذي يذكر أنّ معاوية جهّز قوّات ضخمة جدا برّية وبحرية لاستهداف المدينة واستطاع اخضاع كل المناطق التي مرّ بها<sup>3</sup>.

وفي سنة 33هـ/654م قاد معاوية الصائفة من جديد فأتجه نحو ملطية Melitene أوّلا فأعاد تأهيلها وتهيئتها حتى تصبح قاعدة لتجهيز واطلاق حملات الصوائف، وأنزل بها جماعة من أهل الشام والجزيرة<sup>4</sup>، ثمّ دخل بلاد الروم واستهدف حصنا هناك يُعرف باسم "حصن المرأة"<sup>5</sup>، بينما يذكر إيليا النصيبي أنّ معاوية توغّل في بلاد الروم هذه السنة حتى بلغ منطقة تعرف بـ "مرج الشحم" وفتح مدينة أنقرة Ankyra<sup>6</sup>.

ونجد في المصادر البيزنطية حملة أخرى قام بها معاوية ضدّ الأراضي البيزنطية مستهدفا مدينة قيصرية في منطقة قبادوقيا في نفس السنة التي جرت فيها المعركة البحرية المعروفة باسم "ذات الصواري" بين المسلمين والبيزنطيين<sup>7</sup>، ويعرى الأستاذ عبد الهادي شعيرة أنّ هذه الحملة البرّية تكون قد حدثت في ربيع سنة 34هـ/655م قبيل معركة ذات الصواري بهدف دعم الأسطول الإسلامي، عن طريق توجيه ضربة قوية للروم قبيل المواجهة البحرية، وكذا تشتيت بيزنطة عن التركيز على أرمينية<sup>8</sup>، لكننا لا نجد لهذه الحملة أيّ أثر في المصادر العربية أو السريانية، وهذه الأخيرة لا تذكر إلّا استهداف المسلمين لمدينة قيصرية في فترة سابقة عن هذا التاريخ.

وبشكل منفرد أيضا يذكر المؤرخ ميخائيل السرياني حملة برّية قام بها المسلمون ضدّ منطقة إيسوريا بعد معركة ذات الصواري، وسبب ذلك حسب الرواية السريانية دائما، أنّ الروم قد بلغهم قبل هذه الحملة استعداد المسلمين لاستهداف القسطنطينية، فتعهدوا لمعاوية بدفع جزية سنوية مقابل عدم القيام بأيّ عمل

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 64 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 304.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 78.

<sup>3</sup> - Sebeos: Histoire d'Héraclius, traduite et annotée par Frédéric Macler, Imprimerie nationale, Paris, p 140.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 167 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 317.

Agapius: Op cit, Partie 2, p 224.

<sup>6</sup> - Elie Bar Sinaya: Op cit, p 86.

أنقرة: مدينة مشهورة بالروم يقال لها أنكورية، وتقع على تل عال بين الجبال. أحمد بن يوسف القرواني: المرجع السابق، مج 3، ص 306.

<sup>7</sup> - Theophanes: Op cit, p 482.

<sup>8</sup> - Cheira: Op cit, p 79.

عسكري ضدّ العاصمة البيزنطية لكنّهم لم يفوا بالتزاماتهم فاجتاح المسلمون إسوريا، ما أجبر الإمبراطور على إرسال الأموال مع مبعوث له، وتوصّل الطرفان إلى اتفاق هدنة لمُدّة ثلاث سنوات وتمّ وضع ابن أخ الإمبراطور رهينة في دمشق لضمان الاتّفاق<sup>1</sup>، هذه الأحداث منطقيا يجب أن تكون قد وقعت سنة 35هـ/656م، لكننا لا نجد في المصادر العربية والبيزنطية ما يدعم هذه الرواية، وما يُضعف من مصداقيتها أنّ المؤرّخ البيزنطي ثيوفانس يذكر أحداثا مشابهة لها، لكن سنة 29هـ/650م<sup>2</sup>.

وابتداء من أواخر سنة 35هـ/656م، ستعرف الدولة الإسلامية اضطرابات داخلية خطيرة لمُدّة ست سنوات كاملة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، هذه الفترة التي تُعرف بالفتنة الكبرى شهدت انكفاء المسلمين على صراعاتهم الداخلية أين تمّ توظيف كل مقدراتهم العسكرية في حروبهم على السلطة، ما سيشغلهم عن مواصلة حملاتهم السنوية ضدّ بيزنطة لسنوات عديدة، وهكذا ستنتقطع عمليات الصوائف حتّى استرجاع المسلمين لوحدهم من جديد عام 41هـ/661م الذي يُعرف بعام الجماعة.

<sup>1</sup> - Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 446.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 479.

## الفصل الأول: الصوائف والشواتي ورد الفعل البيزنطي

المبحث الأول: عمليات الصوائف والشواتي (عرض عام)

المبحث الثاني: نظام الثغور في العهد الأموي

المبحث الثالث: استراتيجية الدفاع البيزنطية

## المبحث الأول: عملیات الصوائف والشواتي (عرض عام)

أولاً- في الفترة السفيانية 41-60هـ/661-680م:

ما أن تجاوز المسلمون فتنة الصراع الداخلي وأعادوا توحيد الأمة تحت سلطة مركزية واحدة بعد أن استقام الأمر لمعاوية بن أبي سفيان عام 41هـ/661م حتى استأنفوا الحرب ضدّ الروم من جديد، وما يميّز هذه المرحلة من النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية، كما سيأتي تفصيله فيما يلي من ورقات، هو تركيز المصادر على ذكر الشواتي بصفة خاصة.

تذكر بعض المصادر أنّ معاوية أغزى حبيب بن مسلمة بلاد الروم عام الجماعة 41هـ (661م)<sup>1</sup>، ويتزامن هذا مع استرجاع المسلمين لوحدهم السياسية من جديد وانتهاء الخلاف والانقسام الذي كان بينهم فيما يعرف بالفتنة الكبرى، لكن مع ذلك يبدو هذا التاريخ لاستئناف الحملات السنوية ضدّ بيزنطة غير منطقي لسببين: أولاً، لانشغال معاوية بمحاولة حلّ الخلاف مع الحسن بن علي حول قضية الخلافة، والذي لم يصل إلى توافق معه إلا في سبتمبر 41هـ/661م، وكان بذلك موعد انطلاق الحملات قد فات. وثانياً، حاجته الظرفية للحفاظ على الصلح مع الروم الذي كان قد توصل إليه في هذه السنة بالذات 41هـ/661م، حسب المصادر العربية أو سنة 37هـ/657م حسب المصادر البيزنطية<sup>2</sup>.

وعليه يبدو أنّ الانطلاقة الحقيقية للحملات السنوية على بلاد الروم تحت الحكم الأموي كانت عام 42هـ/662م، أين عبر المسلمون جبال طوروس فاصطدموا بقوّات بيزنطية وألحقوا بها هزيمة كبيرة وأسروا العديد من الناس، وخلفت هذه الحملة دماراً كبيراً على طول مسارها في مناطق عملياتها داخل أراضي الإمبراطورية<sup>3</sup>، ولم تذكر المصادر العربية وجهة هذه الحملة ولا من قادها، بينما نجد إشارة عند المنبجي عن حملة قادها بُسر بن أبي أرطأة، في هذه الفترة على معقل الروم في بلاد اللان انطلاقاً من أرمينية<sup>4</sup>، ويذهب الأستاذ عبد الهادي شعيرة إلى اعتماد هذه الرواية ويعتبر هذه الحملة اجراء وقائياً حيويّاً كان على الدولة الأموية أن تقوم به للحيلولة دون عودة الروم إلى أرمينية التي كانت قد رجعت لتوّها إلى السيادة الإسلامية<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 152.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 203-205.

Theophanes: Op cit. p 486.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 172.

Theophanes: Ibid. p 486.

<sup>4</sup> - Agapius: Op cit. Partie 2, p 227.

<sup>5</sup> - Cheira: Op cit, p 114.



لكن ما يشير الانتباه أيضا هو إرسال حملة بحرية ضدّ المعقل البيزنطية بالتزامن مع الحملة البرية، شارك فيها عبد الملك بن مروان على رأس أهل المدينة وهو في السادسة عشر من عمره فقط حينها، ويبدو أنّ الحملة أمضت فصل الشتاء على السواحل البيزنطية، وهذه السابقة الاستثنائية لم تغفل عنها المصادر وسجّلتها كأول شاتية قام بها المسلمون في أرض الروم<sup>1</sup>. إنّ هذه الإشارة الأولى من نوعها التي تضمّنتها المصادر تبرز لنا تحوّلا مهمّا في الاستراتيجية العسكرية الاسلامية ضدّ الإمبراطورية البيزنطية، حيث ستصبح الحملات البحرية تقليدا معمولا به سنويا تقريبا لدعم الحملات البرية ولزيادة الضغط أكثر على الروم، وأيضا لحماية خطوط مواصلاتهم وامداداتهم خاصة في الحملات التي تستهدف العمق البيزنطي.

ويبدو أنّ حملة سنة 42هـ/662م لم تكن ذات شأن كبير من الناحية العسكرية إذ لم تُفض إلى الاستيلاء على أيّ مكان مهم، لكنّها مع ذلك تُعدّ اعلانا صريحا من الدولة الأموية -السلطة الجديدة- باستئناف الحملات الموسمية والضغط العسكري على الإمبراطورية البيزنطية بعد فترة انقطاع دامت حوالي ثماني سنوات كاملة<sup>2</sup>.

عرفت السنة الموالية، 43هـ/663م، حملة جديدة (صائفة) ضدّ الروم بقيادة بُسر بن أبي أرطأة الذي على ما يبدو استطاع أن يحقّق نجاحا معتبرا في هذه الحملة بعد أن أوقع بالجيوش البيزنطية الهزيمة وأحرز عددا معتبرا من الأسرى ثمّ أمضى الشتاء هناك<sup>3</sup>، ويذكر كل من الطبري -في رواية عن الواقدي- وأغابوس (محبوب بن قسطنطين) المنبجي أنّ بُسرا وصل بجملته حتّى القسطنطينية<sup>4</sup>، وغياب تفاصيل هذه الحملة في المصادر وما حقّقه من إنجازات يجعل من فرضية وصولها إلى القسطنطينية أمرا مستبعدا ولا يصمد أمام التحليل البسيط، وما يسترعي الاهتمام أكثر أنّ هذه الحملة شكّلت تحوّلا مهمّا في نمط الحملات السنوية ضدّ بيزنطة فهي تعتبر سابقة من حيث امتدادها الزمني الطويل نسبيا الذي استغرق فصلي الصيف والشتاء، وستمثّل مرجعية لما سيليها من حملات على هذا الشكل مستقبلا<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج 37، ص 114.

<sup>2</sup> - آخر صائفة إلى بلاد الروم في العهد الراشدي كما جاء في التمهيد، كانت إمّا سنة 33هـ/654م حسب ما تذكر المصادر العربية أو بعدها بسنة، عام 34هـ/655م حسب الروايات البيزنطية.

<sup>3</sup> - Agapius: Op cit, Partie 2, p 228 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 88.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 181.

Agapius: Ibid, p 228.

<sup>5</sup> - يعتقد الأستاذ شعيرة أنّ حملات الصوائف كانت تبقى في بلاد الروم حتّى انقضاء فصل الشتاء ولم تكن هناك حملات مستقلة في الفصلين، وهذا يبدو منطقيًا وصحيحًا وله ما يدعمه في المصادر، إذ نجد رواية مهمّة في هذا الصدد عند ابن عساکر يذكر فيها أنّ معاوية كان يُرسل الحملات على بلاد الروم تصيف بما وتشتوا ثمّ ترجع فندخل معقبتها، انظر تاريخ دمشق، ج 59، ص 159.

في سنة 44هـ/664م غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم، وكما فعل بُسر من قبل، أمضى هو أيضا الشتاء هناك<sup>1</sup>، ومرة أخرى لا تذكر المصادر العربية أي تفاصيل عن هذه الحملة ما عدا إشارة بسيطة عند يعقوبي وإيليا النصيبي يذكران فيها أنّ عبد الرحمن قد بلغ في حملته مدينة "قلونية" Koloneia<sup>2</sup> شمالا في منطقة بنطس Pontus عند الحدود الأرمينية، لكنّ الأستاذ عبد المهدي شعيرة ينفي ذلك بحجة أنّ هذه المدينة بعيدة عن منطقة العمليات الحربية التي كان ينشط فيها عبد الرحمن، ويفترض أنّ هناك خطأ في نقل الاسم ويذكر عوض عن ذلك مدينة كلوديوبوليس Claudiopolis على الطريق بين ملطية وأنقرة وعمورية<sup>3</sup>، لكنّه مع ذلك لا يعطي دليلا حاسما يمكن أن يدعم استنتاجه هذا.

على كل حال تشير المصادر البيزنطية أنّ حملة عبد الرحمن (التي تكون قد امتدّت لأشهر عديدة) أدت إلى تخريب العديد من المناطق وأنّ مجموعة من السلاف قد انضمت إليه ورجع معه إلى الشام خمسة آلاف منهم أين استقرّوا هناك في منطقة أفامية Apameia<sup>4</sup>، وفي هذه السنة أيضا غزا بُسر بن أبي أرطأة الروم في البحر وشقّ هناك<sup>5</sup>، ونجد عبد الرحمن بن خالد من جديد على رأس شاتية عام 45هـ (665م)<sup>6</sup> في اتفاق بين جميع المصادر. لكن هل سار عبد الرحمن بقواته من الشام في حملة مستقلة؟ أم أنّه بقي في بلاد الروم من الحملة السابقة؟ يذكر ابن عساکر في رواية عن ابن عائذ أنّ عبد الرحمن بن خالد أقام بأرض الروم سنتين يأتيه المدد من معاوية كلّ سنة<sup>7</sup>، ربّما يكون ذلك صحيحا فالأوضاع التي كانت تعيشها بيزنطة في تلك الفترة لم تكن تسمح لها بالتحرك عسكريا ضدّ قوات إسلامية مقيمة في أراضيها لسنتين متتاليتين، فقد كان الإمبراطور قنسطانز Constans بعيدا في صقلية منذ سنة 662م (42هـ)،

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 207 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 212.

Theophanes: Op cit, p 487 / Agapius: Op cit. Partie 2, p 288 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 89.

<sup>2</sup> - تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 152.

Elie Bar Sinaya: Ibid, p 89.

قلونية: بلد بالروم بينه وبين القسطنطينية ستون بريدا (أكثر من 1300 كيلومتر). ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 393.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit, p 115.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 487.

أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 1، ص 227.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 212 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 10، ص 148.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 207.

<sup>7</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 34، ص 330.

بعدها انتقل إليها مصطحبا معه عشرين ألفا من رجال جيشه المتمركز في آسيا الصغرى<sup>1</sup>، مشغولا بمحاولة تجميع خطر اللومبارد في إيطاليا وتثبيت سلطانه في الجهات الغربية من إمبراطوريته<sup>2</sup>، ما يمثل تحديا أكبر من قوات إسلامية -محدودة العدد بكل تأكيد- تتحوّل دون هدف محدّد. وبعد حملته هذه المكثّلة بالنجاح، أين استطاع عبد الرحمن أن يستولي على عدّة حصون ومدن في آسيا الصغرى<sup>3</sup>، انصرف راجعا إلى حمص فمات هناك مطلع سنة 46هـ/666م في ظروف غامضة (يقال أنّه قُتل مسموما بتدبير من معاوية الذي كان يخشى من تزايد نفوذه في الشام) وكان قد ترك أثرا جميلا في جهاد الروم فعظمت مكانته عند الناس واشتهر بذلك<sup>4</sup>.

وتختلف المصادر في قائد حملة عام 46هـ/666م التي أمضت الشتاء في بلاد الروم، بين مالك بن عبد الله الحثعمي الذي كان يعرف بمالك الصوائف لنشاطه الكبير في غزو الروم، ومالك بن هبيرة السكوني (أو الفزاري)<sup>5</sup>، بينما يذكر ابن عسّاكر أن بُسر بن (أبي) أرطأة غزا مع شريك؟ حتّى بلغا أذنة<sup>6</sup> التي تقع في منطقة قيليقية، إلا أننا نعلم من مصادر أخرى مبكّرة أنّ بُسرا وشريك بن سُمي المرادي كانا ابتداء من هذه السنة مع عقبة بن نافع في حملته على بلاد المغرب<sup>7</sup>، وعليه فالأرجح أنّ مالك بن عبد الله هو صاحب الصائفة، إذ يذكر البلاذري أنّه غزا بلاد الروم تلك السنة من الثغور الجزرية وسلك طريق درب الحدث (وبالتالي يكون قد استهدف منطقة قبادوقيا Cappadocia على الأرجح) ويبدو أنّه حقّق نتائج طيبة في حملته هذه فقد رجع سالما ومحمّلا بغنائم كثيرة فأقام لها سوقا لمُدّة ثلاثة أيام حتّى فرغ من بيعها بالقرب من درب الحدث<sup>8</sup>.

ويبدو عام 47هـ/667م أكثر نشاطا، حيث نلاحظ لأوّل مرّة إطلاق حملتين منفصلتين أمضيتا الشتاء داخل بلاد الروم، الأولى بقيادة مالك بن هبيرة وليس معلوما مكان نشاطها لكنّها على الأرجح استهدفت منطقة قبادوقيا انطلاقا من الجزيرة، والثانية بقيادة أبي عبد الرحمن القيني (يكون قد اجتاز بقوّاته

---

1 - لويس أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط 500-1100م، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقدم محمد شفيق غزال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 94.

2 - J. B. Bury: A History of Later Roman Empire, Macmillan and co, London 1889. Vol 2, p 299.

3 - Cheira: Op cit, p 116.

4 - الطوري: المصدر السابق، ج 5، ص 227.

5 - خليفة: المصدر السابق، ص 208 / الطوري: المصدر نفسه، ج 5، ص 227.

6 - تاريخ دمشق، ج 10، ص 148.

7 - ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت 275 هـ): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1996، ص 329.

8 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 226.

منطقة قيليقية) الذي تمركز بمدينة أنطاكية<sup>1</sup> وهناك أمضى شتاء سنتي 47-48هـ/667-668م على التوالي<sup>2</sup>. هذا النشاط الاستثنائي يمكن تفسيره باضطراب أحوال البيزنطيين ورغبة المسلمين في استغلال هذا الوضع المستجد، مع اندلاع تمرد في آسيا الصغرى ضدّ الإمبراطور بقيادة ضابط رفيع يدعى سابور Saborios<sup>3</sup>.

في عام 48هـ/668م توجه عبد الله بن قيس الفزاري على رأس الصائفة نحو ملطية أين أمضى الصيف هناك، وتمّ تجهيز حملة بحرية أيضا شارك فيها كلّ من أسطول الشام ومصر تحت قيادة خالد بن عبد الرحمن حفيد خالد بن الوليد<sup>4</sup>، وتعوزنا المعلومات حول مناطق نشاط هذا الأسطول لكنّه ربّما يكون قد استهدف الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى من أجل دعم عمليات أبي عبد الرحمن القيني في المنطقة والذي أمضى شتاء هذه السنة أيضا في أنطاكية كما السنة التي سبقتها<sup>5</sup>.

بعد ذلك تتضارب المعلومات بين المصادر حول حملات الصوائف والشواتي وحملة القسطنطينية المفترضة منتصف القرن الأوّل هجري، لكنّ محاولة التوفيق بين مختلف الروايات والمصادر ستساعد في إعادة بناء الحادثة التاريخية ورسم صورة منطقية عن الأحداث رغم أنّها لا تحمل للأسف الكثير من التفاصيل.

شهد عام 49هـ/669م نشاطا عسكريا إسلاميا حيثما ضدّ الروم تكليل بإرسال أكثر من حملة في السنة نفسها، حيث كانت البداية مع إرسال معاوية مطلع السنة -أو قبلها بقليل- حملة يقودها فضالة بن عبيد الله الأنصاري<sup>6</sup> من أجل دعم موقف قائد تيم (بند) الأرمنيّ الذي تمردّ ضد الإمبراطور، ويدعى سابور Saborios بعد أن اتفق مع معاوية على إخضاع بلاد الروم للمسلمين مقابل دعم عسكري من الخليفة، تقدّم فضالة بقواته في الأراضي البيزنطية ناحية ملطية (منطقة Hexapolis) لكنّ مجرى الأحداث كان قد تعيّر، فموت قائد التمردّ سابور في حادث عرضي توحدت صفوف البيزنطيين من جديد<sup>7</sup>، ورغم ذلك واصل فضالة توغله داخل بلاد الروم أين استطاع أن يحقق انتصارات مهمّة على

<sup>1</sup> - أنطاكية: مدينة داخل بلاد الروم تعرف في المصادر البيزنطية بـ Antioch of Pisidia فتحها العباس بن الوليد أواخر القرن الأوّل

هجري فخرها وأحرقها حتى اشتهرت بأنطاكية المحترقة. البلاذري: المصدر السابق، ص 200 / 533 Theophanes: Op cit,

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 208-209 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 229-231.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 488 / Cheira: Op cit, p 117.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 231.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 209.

<sup>6</sup> - ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء (ت 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع

والإعلان، مصر، ط 1، 1997، ج 11، ص 180.

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 90.

<sup>7</sup> - Theophanes: Op cit, p 490 / Bury: Op cit, Vol 2, pp 306-307.

حساب القوّات البيزنطية وأمضى الشتاء هناك، ربّما في خرشنة غرب مقاطعة الأرميناك معقل التمرد<sup>1</sup>، وأرسل في طلب المدد من معاوية، وعرفت هذه السنة أيضا (49هـ/669م) حملتين منفصلتين على مناطق متفرقة من بلاد الروم، الأولى في الصيف بقيادة عبد الله بن كرز البجلي، والأخرى في الشتاء بقيادة مالك ابن هبيرة، يدعمهما أسطول بحري من مصر والشام<sup>2</sup>، الذي تكفل بشلّ كل تحرك محتمل للأسطول البيزنطي<sup>3</sup>. ورغم غياب المعطيات عن وجهة الحملتين وما قامتا بإنجازه، لكن يبدو أنّهما ربّما كانتا تهدفان لتخفيف الضغط عن قوّات فضالة داخل بلاد الروم من خلال تشتيت تركيز وجهود القوّات البيزنطية في انتظار تجهيز جيش الدعم الرئيسي الذي يبدو أنّه لم يصبح جاهزا عمليا إلا في الفترة بين أواخر سنة 49هـ/669 وبداية سنة 50هـ/670م، تحت إشراف يزيد بن معاوية وقيادة سفيان بن عوف الغامدي، هذا الأخير الذي التحق سريعا بفضالة وتقدّما داخل بلاد الروم عميقا حتّى بلغا مدينة خلقدونية (قرقدونة أو فرقذونة أو غذفذونة في المصادر العربية)، ويبدو أنّ القوّات الإسلامية واجهت هناك العديد من الصعاب فقد فشا فيهم المرض وعانوا من نقص حاد في المؤونة، فلمّا بلغ ذلك معاوية حمل ابنه يزيد - الذي كان قد تقاعس عن الالتحاق بالحملة وتروي المصادر أنّه قال شعرا يستهزئ فيه بما أصاب الجنود المسلمين من أمراض - على رأس قوّات من أنطاكية وبعلبك وغيرها لتعزيز الجيش الإسلامي هناك<sup>4</sup>. هذا ما يمكن استنتاجه من خلال الترتيب المنطقي للأحداث التي وردت في المصادر الإسلامية ومحاولة التوفيق بينها وبين ما جاءت به المصادر البيزنطية، لكن هل وصلت الحملة التي شارك فيها يزيد إلى القسطنطينية فعلا؟ وهل كان الهدف منذ البداية إسقاط عاصمة الإمبراطورية والاستيلاء عليها؟ يذكر البلاذري أنّ يزيد ابن معاوية بلغ الخليج ثم انصرف، بينما يذكر كلّ من الطبري وابن عسّاكر أنّ يزيد بلغ مدينة القسطنطينية، ويوافقهما في ذلك المؤرّخ السرياني إيليا النصيبي لكنّه يؤرّحها في سنة 51هـ<sup>5</sup>، في حين يشير المؤرّخ البيزنطي ثيوفانس أنّ يزيدا أتى خلقدونية مع جيش كبير من "البرابرة" أين أصابوا العديد من الأسرى، ولا يُظهر أيّ إشارة عن وصول المسلمين للعاصمة البيزنطية<sup>6</sup>، وهو ما يذهب إليه المؤرّحان

<sup>1</sup> - ابن كثير: المصدر السابق، ج 11، ص 180 / فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، ج 2، ص 43.

Cheira: Op cit, p 120.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 232.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit, p 135.

<sup>4</sup> - البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ): أنساب الأشراف، تحقيق وتقديم سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1996، ج 5، ص 93-94-301 / اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 138 / ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 65، ص 405.

<sup>5</sup> - أنساب الأشراف، ج 5، ص 301 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 232 / تاريخ دمشق، ج 65، ص 405.

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 90

<sup>6</sup> - Theophanes: Op cit, p 490.

السريانيان أغابوس وميخائيل الزهاوي أيضا، اللذان يذكران أنّ المسلمين بعدما قاموا بتخريب ونهب البلاد، وصلوا بملتهم حتى خلقدونية ثمّ قفلوا راجعين<sup>1</sup>. وفي ظلّ سكوت المصادر عن تفاصيل حملة بهذا القدر من الأهمية يبدو من المرجح أنّ هذه المحاولة ربّما لم تبلغ أسوار القسطنطينية وإنّما أشرفت على المدينة فقط من البر الآسيوي عند مدينة خلقدونية ولم تعبر مضيق البوسفور نحو البر الأوربي، وما يعزّز هذا الطرح غياب أيّ أخبار عن دور فعّال يمكن أن يكون قد قام به الأسطول لدعم الحملة، سواء في فرض الحصار على الواجهة البحرية للمدينة أو المساهمة في نقل الجند إلى البر الأوربي عبر المضيق، حتى وإن كانت المصادر تتحدث عن تحركات للأسطول الإسلامي في المياه البيزنطية في تلك الفترة<sup>2</sup> دون أن تحدّد المهمة التي اضطلع بها ومكان نشاطه بدقّة، كما سنرى لاحقا خلال حصار السبع سنوات أو حصار سنة 98هـ (716م)، وهذه المحاولة على كل حال كانت حملة بريّة خالصة<sup>3</sup>. إنّ عدم وصول الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية -وحتى لو وصل- يجعل من فكرة محاولة الاستيلاء عليها ووضعها كهدف للحملة منذ البداية أمرا مستبعدا، والأقرب إلى الواقع أنّ هذه الحملة تحكّمت فيها التطورات والمتغيّرات التي حصلت على الأرض فأفضت بها إلى خلقدونية، فبعدها توغّلت قوّات المسلمين بقيادة فضالة بن عبيد الله في آسيا الصغرى علمت بانتهاء التمرد بوفاة قائده سابور وزوال التحالف الظرفي الذي كان يجمعهم بالتمردين، قرّر معاوية أن يختبر جاهزية البيزنطيين الدفاعية وأن يستكشف الطريق المؤدّي إلى العاصمة البيزنطية كنوع من جسّ النبض لمشروع لاحق أكثر جدّية، إنّ المحاولة الحقيقية لفتح القسطنطينية ستحدث بعد خمس سنوات من ذلك كما سنرى لاحقا من خلال زيادة نشاط البحرية الإسلامية والاستيلاء على الجزر المتحكّمة في الطرق البحرية نحو القسطنطينية والتحضير الجيّد لمشروع يمثل هذه الأهمية. لكن مع ذلك كانت هذه الحملة ضرورية لاكتساب الخبرة اللازمة وتدريب ميداني حقيقي لمخطّط فتح العاصمة البيزنطية من خلال اختبار تحصينات المدينة وامكانيّاتها الدفاعية والتعرّف على طبيعة المنطقة المحيطة بها.

وبينما تسكت المصادر العربية عن إنجازات هذه الحملة، تذكر نظيرتها البيزنطية أنّ المسلمين كانوا قد نجحوا في الاستيلاء على مدينة عمورية المهمة وحلّفوا بها حامية من خمسة آلاف رجل قبل أن يعودوا إلى الشام، لكن ومع حلول فصل الشتاء كان البيزنطيون قد استطاعوا استرجاع المدينة والقضاء على الحامية الإسلامية فيها بالكامل<sup>4</sup>، فهل أراد المسلمون من وراء ترك حامية في عمورية الاحتفاظ بالمدينة كمركز متقدّم داخل بلاد الروم مستغلّين الفوضى التي كانت تعيشها الإمبراطورية البيزنطية؟ خاصة إذا أخذنا في

<sup>1</sup> - Agapius: Op cit, Partie 2, p 229 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 454.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 232.

<sup>3</sup> - J. R.Partington: A History of Greek Fire and Gunpowder, The Johns Hopkins University Press, Baltimore 1999, p 13.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 490.

الاعتبار التجارب السابقة الناجحة في الاحتفاظ بقوّات إسلامية داخل الأراضي البيزنطية مدّة سنتين متتاليتين دون أن تتعرّض لتهديد حقيقي، يبقى هذا الاحتمال واردا جدا رغم أنّ هذه الخطوة لا تتماشى مع الاستراتيجية التي اتّبعتها المسلمون في حربهم ضد الروم، ومع ذلك تبقى هذه الرواية في نهاية المطاف بحاجة إلى دليل يدعمها خاصة في المصادر العربية.

لقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ حملة "القسطنطينية" المفترضة هذه، التي شارك فيها يزيد بن معاوية، فالطبري يوردها في أحداث سنة 49هـ، بينما يجعلها خليفة سنة 50هـ، وأبو زرعة الدمشقي سنة 55هـ، واليعقوبي يذكرها سنة 56هـ، بينما يصبح الأمر أكثر اضطرابا عند ابن عساكر الذي يعتمد روايات مختلفة تجعلها مرة في سنة 49هـ، وفي أخرى سنة 50هـ، و52هـ، و55هـ<sup>1</sup>. وهذا التضارب الكبير بين المصادر ربّما يرجع إلى أنّ يزيد يكون قد شارك في حملة ثانية على المدينة كما سنوضّح لاحقا، لكن يبدو أنّ الفترة بين أواخر سنة 49هـ وبداية سنة 50هـ هي الأكثر قبولا وموضوعية إذا ما أخذنا في الاعتبار أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، حيث لم يكن هناك ما يكفي من القوّات في الأناضول لمواجهة المد الإسلامي<sup>2</sup>، كما أنّ الدولة كانت تعيش عدم استقرار وفوضى داخلية بعد التمرد الذي قاده سابور قرب الحدود الأرمينية كما سبق الإشارة إليه، وتعرّض الإمبراطور للاغتتيال في صقلية<sup>3</sup> أواخر سنة 668م (48هـ) وما أعقب ذلك من انتقال ابنه ووريث عرشه قسطنطين Constantin من العاصمة الإمبراطورية إلى إيطاليا للانتقام لمقتل أبيه وتحييد المعارضين والمنافسين له على الحكم<sup>4</sup>.

تواصل الضغط الأموي على بيزنطة بعد حملة فضالة ويزيد بن معاوية، حيث استهدفت بلاد الروم بحملتين برّيتين وأخرى بحرية في السنة نفسها، عام 50هـ/670م، صائفة بقيادة بُسر بن أبي أرطاة وشاتية بقيادة سفيان بن عوف دون تفاصيل عن أحداثهما<sup>5</sup>، بينما قاد غزوة البحر فضالة بن عبيد الأنصاري<sup>6</sup>

<sup>1</sup> - تاريخ خليفة، ص، 211 / النصري، عبد الرحمن بن عمرو (ت 281هـ): تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1996، ص 42 / تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 153 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 232 / تاريخ دمشق، ج 16، ص 38؛ ج 59، ص 159؛ ج 65، ص 404-405.

<sup>2</sup> - Walter Emil Kaegi: Byzantine Military Unrest 471-843, Adolf M. Hakkert Publisher, Amsterdam 1981, p 165.

<sup>3</sup> - صقلية: جزيرة في البحر قبالة افريقية، عامرة وحصنة كثيرة البلدان والقرى والقلاع، يغلب عليها الجبال والحصون، فتحها أسد بن الفرات سنة 212هـ في عهد الأغالبة. راجع ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 3، ص 416-417-418.

<sup>4</sup> - Bury: Op cit. Vol 2, p 302 / Timothy Venning: A Chronology of the Byzantine Empire, Palgrave Macmillan, New York 2006, p 175.

<sup>5</sup> - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 152 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 234.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 234.

الذي أمضى الشتاء في شبه جزيرة كيزيكوس Kyzikos<sup>1</sup> (أرواد في المصادر العربية؟) بمنطقة ميسيا على الضفة الجنوبية لبحر مرمرة ثم قفل راجعا مع حلول فصل الربيع.

ترد الأخبار عام 51هـ/671م عن إرسال معاوية لصائفة دون أي ذكر لشاتية في البر، وقاد الحملة ضد الروم هذا العام أيضا بؤسر بن أبي أرطأة<sup>2</sup>، بينما كان على شاتية البحر فضالة بن عبيد<sup>3</sup>، ويبدو أنّ المصادر قد اختلط عليها الأمر من حملته في السنة السابقة أين أمضى الشتاء في بلاد الروم ولم يرجع إلا مع حلول الربيع كما سبق ذكره، وهو ما يترك له مجالا واسعا لإعداد حملة جديدة في نفس السنة.

ونجد اسم بؤسر ضمن قادة الحملات مرّة أخرى في عام 52هـ/672م، لكن هذه المرّة على رأس الشاتية وبجانبه سفيان بن عوف<sup>4</sup> وربما يكون قد بقي في بلاد الروم من صائفة السنة السابقة والتحق به سفيان لتعزيز موقفه العسكري في مواجهة البيزنطيين، وتحمل المصادر البيزنطية والسريانية اشارات عن حملة موقّعة قام بها بؤسر إذ أنّه ألحق بالبيزنطيين هزائم وخسائر كبيرة وأسر عددا معتبرا منهم<sup>5</sup>، بينما دخل بلاد الروم على رأس صائفة هذه السنة محمد بن عبد الله الثقفي<sup>6</sup>.

ستركّز الجهود بعدها على استهداف القسطنطينية بشكل جدّي بڑا وبحرا، أين سيبدأ حصار طويل للعاصمة البيزنطية استمرّ سبع سنوات كاملة، وسنعمد في هذا الصدد على ترتيب الأحداث منطقيا ونتجاوز -كلّما دعت الحاجة إلى ذلك- الترتيب الزمني المتضارب وغير المستقر الوارد في المصادر، ذلك أنّها قليلا ما تتفق.

ستستمرّ سياسية الحملات البرية في الشتاء والصيف لكن الجهود الحقيقية لتحضير استهداف القسطنطينية ستكون في البحر، ففي سنة 53هـ/673م كُلت حملة جنادة بن أبي أمية الأزدي على رودس بنجاح كبير حيث فُتحت الجزيرة وتم الاحتفاظ بها لمدة سبع سنوات، لتحوّل إلى مركز متقدّم لاعتراض السفن البيزنطية وإعاقة حركتها<sup>7</sup>، وفي نفس السنة (53هـ/673م) تقدّم أسطول بحري إسلامي كبير إلى بلاد الروم أين أمضى الشتاء على الساحل الجنوبي والغربي لآسيا الصغرى، في قيليقية وليقيا وأزمير، وتعززت القوّة الإسلامية لاحقا بأسطول آخر بقيادة خالد (ربما خالد بن عبد الرحمن) الذي

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 492 / Timothy Venning: Op cit, p 176.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 253.

Theophanes: Ibid, p 492.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 218 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 48، ص 300.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 218.

<sup>5</sup> - Theophanes: Ibid, p 492 / Agapius: Op cit. Partie 2, p 231.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 287.

<sup>7</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 275 / الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 288.



تصفه المصادر البيزنطية بالكفاءة والشجاعة<sup>1</sup>. وبجانب هذا النشاط البحري الكبير تم إرسال حملة برية بقيادة عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي أمضت الشتاء في بلاد الروم<sup>2</sup>.

مع حلول فصل الربيع تقدّم الأسطول الإسلامي عبر مضيق الدردنيل وسرعان ما استرجع المسلمون مواقعهم السابقة في منطقة كيزيكوس Kyzikos<sup>3</sup> على بحر مرمرة، بعد أن فتح جنادة بن أبي أمية أرواد<sup>4</sup>، وتمّ اتّخاذها كقاعدة خلفية تنطلق منها العمليات الحربية ضدّ القسطنطينية، حيث يتمّ الانزال على البر الأوربي في تراقيا أين كان المسلمون يهاجمون المدينة من البرّ والبحر دون انقطاع من شهر أفريل حتّى شهر سبتمبر ثمّ يتراجعون إلى قواعدهم في كيزيكوس إلى غاية انقضاء الشتاء، واستمروا على هذا الحال سبع سنوات كاملة<sup>5</sup>، وفي نفس السنة (674هـ/674م) توّغلت حملتان برّيتان في الأراضي البيزنطية احداها شاتية بقيادة محمد بن مالك، والأخرى صائفة بقيادة معن بن يزيد السلمي<sup>6</sup>.

تواصل تدفّق حملات الصوائف والشواتي على بلاد الروم طيلة سنوات حصار القسطنطينية، ففي السنة التالية لبداية الحصار سار يزيد بن شجرة الرهاوي على رأس صائفة عام 55هـ/675م<sup>7</sup>، بينما توجه سفيان بن عوف -وهو فارس مجرّب اشتهر بغزو الروم- على رأس حملة الشتاء لتعزيز الجيش الإسلامي المرابض هناك أين قُتل في إحدى المعارك ومعه عدد كبير من المسلمين، ربّما قرب جزيرة كيزيكوس (يذكر ابن عساكر أنّ سفيان بن عوف توفي في منطقة تعرف بالرومية باسم خازق، ويظهر جلياً مدى تشابه هذه الكلمة مع اسم شبه جزيرة كيزيكوس) معقل تمركز قوّات المسلمين في حملتهم على عاصمة إمبراطورية الروم<sup>8</sup>. وفي هذه السنة يظهر اسم يزيد بن معاوية مرّة أخرى على رأس القوّات المحاصرة للقسطنطينية (وفي سنة

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 493.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 219 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 289.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 494.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 275 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 293.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, pp 493-494 / Nikephoros: Short History, Translation and Commentary by Cyrill Mango, Dumbarton Oaks, Washington D.C. 1990, pp 85-87.

تنفي بعض الدراسات التاريخية المعاصرة أن يكون حصار القسطنطينية استمرّ سبع سنوات كاملة، بل دام خمس سنوات فقط (674-678م) مثل ما يذهب إليه والتر إميل، وسيريل مانغو محققاً كتاب تاريخ ثيوفانس وغيرهما، رغم أنّ المصادر الإسلامية (الطبري مثلاً) تشير أنّ المسلمين مكثوا في أرواد بعد فتحها عام 674هـ/674م سبع سنين حتّى وفاة معاوية بن أبي سفيان عام 680هـ/680م.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 293.

<sup>7</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 223.

<sup>8</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 21، ص 351-352.

Theophanes: Op cit, p 494.

يذكر ثيوفانس أنّ عدد من قُتل في المعركة من المسلمين مع سفيان بن عوف، ثلاثون ألفاً، وهذا أمر مبالغ فيه ولا يمكن التسليم بصحته، بينما نجد رواية مهمة عند ابن عساكر يذكر فيها أنّ سفيان بن عوف كان شاتياً فلما صاف اختار ثلاثة آلاف أغار بهم على الروم (تاريخ دمشق، ج 21، ص 350)، وهذا العدد يبدو منطقياً أكثر من تقديرات ثيوفانس.

57هـ عند إيليا النصيبي<sup>1</sup>، فهل اختلط الأمر على المصادر مع حملة خلقدونية -الفاشلة- سنة 49-50هـ/669-670م؟ لا يبدو هذا منطقياً ففارق السنوات بين الحادثتين ليس بالقليل، ونجد في هذا الصدد ثلاث روايات على قدر كبير من الأهمية يمكن أن تساعدنا على توضيح الأمر، اثنتين منهما عند ابن عساکر، يذكر في الأولى نقلاً عن صفوان بن عمرو أنّ عبد الله بن قيس الفزاري غزا القسطنطينية بالسفن المحرقات فالتحم بسفن بيزنطية في الخليج فهزمها وظفر بعدد من الأسرى فجاء بهم إلى يزيد بن معاوية فقام بضرب أعناقهم والروم تنظر إليهم<sup>2</sup>، وتكمن أهمية هذه الرواية في أنّ المصادر لا تأتي على ذكر اسم عبد الله بن قيس في الحملات البحرية على بلاد الروم إلاّ سنة 55هـ/675م<sup>3</sup>. أمّا الرواية الثانية عند أبي زرعة الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز فيذكر فيها أنّ معاوية أغزى ابنه يزيد سنة 55هـ في جماعة من أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم فجاز بهم الخليج وقاتل أهل القسطنطينية على باجها، ويعلّق أبو زرعة على هذا الخبر بأنّه يدلّ على أنّ وفاة الصحابي الكبير أبو أيوب الأنصاري كانت سنة 55هـ وأنّه دفن عند سور القسطنطينية كما أوصى بذلك<sup>4</sup> (وليس قبل هذا التاريخ كما تشير بعض الروايات)، وفي الرواية الثالثة عند ابن عساکر دائماً مرفوعة إلى يحيى بن عبد الله بن بكير يذكر أنّ أبا أيوب الأنصاري ركب البحر إلى القسطنطينية في غزوته التي مات فيها وعليهم عبد الله بن قيس<sup>5</sup>، ومعلوم أنّ يزيد عندما غزا القسطنطينية (أو خلقدونية) سنة 49هـ/669م شارك في حملة برّية بينما توحى الروايات التي تذكر غزوه القسطنطينية سنة 55هـ/675م أنّه كان في البحر. فهل جاء يزيد بن معاوية إذاً مرةً أخرى في حملة ضدّ القسطنطينية؟ لا يبدو الأمر مستبعداً تماماً، ففي ذلك الوقت كان معاوية يسعى جاهداً لحشد الدعم من أجل البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، وتوجّه في سبيل ذلك إلى الحجاز سنة 56هـ/676م لتذليل آخر العقبات وتحييد كل معارضة محتملة، خاصة من طرف أبناء كبار الصحابة<sup>6</sup>، وعليه كان إرسال ابنه يزيد في حملة عسكرية كبيرة ضدّ هدف بحجم القسطنطينية (خاصة أنّ حملة خلقدونية لم تنته إلى شيء يذكر) من شأنه أن يدعم مركزه كقائد كفاء يستطيع أن يقوم بأعباء الدولة من بعده، كما سيحدّ من المعارضة التي لقيها معاوية في سبيل هذا الأمر مع ما يجده الناس على يزيد من تهاون.

واصل معاوية بعد ذلك تجريد الحملات العسكرية (صوائف وشواتي) برّاً و بحراً لدعم الحصار والعمليات الحربية ضدّ القسطنطينية حتّى آخر سنوات حكمه، وتكتفي المصادر كالعادة بذكر أسماء قادة

<sup>1</sup> - Elie Bar Sinaya: Op cit, p 91.

<sup>2</sup> - تاريخ دمشق، ج 32، ص 119.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 299 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 36، ص 353.

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 90.

<sup>4</sup> - النصري: المصدر السابق، ص 42.

<sup>5</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 16، ص 52-64.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 301.

الحملات مع غياب التفاصيل، لكن ما يلفت الانتباه أنّ المصادر تذكر خلال هذه الفترة حملات الشواتي سنويا ونادرا ما يتم الإشارة إلى الصوائف<sup>1</sup>، وهذا يبدو غريبا فالمعلوم أنّ الشواتي لا تكون إلا للضرورة، نظرا للعوامل المناخية الصعبة التي تميّز بلاد الروم في فصل الشتاء، ومشكلة إيجاد العلف والمرعى، ما يخلق مصاعب كبيرة أمام الحملات العسكرية<sup>2</sup>، والتفسير المنطقي الوحيد الذي يبدو مقبولا هو ما ذهب إليه الأستاذ عبد الهادي شعيرة الذي يرى أنّ السلطة الأموية رجعت إلى التقليد السابق الذي تقوم فيه بمدّ فترة نشاط الحملات السنوية من الصيف حتى الشتاء، وهو مؤشّر على عدم وجود مخاطر حقيقية يمكن أن تهدّد سلامة القوّات الإسلامية داخل أراضي العدو نتيجة انشغال بيزنطة بالحصار البحري المفروض عليها<sup>3</sup>.

ونسجّل في هذا المقام أيضا أنّ المصادر العربية تتجاهل تماما تفاصيل حملة القسطنطينية -رغم أهميتها ورمزيتها باعتبارها عملا عسكريا استثنائيا يستهدف عاصمة خصم عنيد للدولة الأموية- بينما نجد وصفا دقيقا في المصادر البيزنطية لتحركات الأسطول الإسلامي والمواجهات بين الطرفين.

انتهت هذه المحاولة لإسقاط العاصمة الإمبراطورية إلى فشل ذريع، فاضطرّ معاوية إلى سحب قوّاته التي تكبّدت خسائر كبيرة خلال فترة الحصار، وازداد الوضع سوءا مع تحطّم ما بقي من الأسطول بشكل كامل في عاصفة بحرية قرب السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى في طريق العودة، ما سيحجر معاوية في آخر سنوات حكمه على عقد معاهدة مع الروم تقضي بدفع ثلاثة آلاف قطعة ذهبية مع خمسين عبدا وخمسين جوادا كلّ سنة للإمبراطورية البيزنطية لمدة ثلاثين عاما<sup>4</sup>، حسب ما تذكره المصادر البيزنطية أيضا ولا نجد له أي صدى في المصادر العربية.

لقد كان لهذا الفشل آثارا خطيرة، فلن يحاول العرب مجددا تهديد القسطنطينية إلا مع نهاية القرن الأول هجري، وهذه الانتكاسة التي مُنيت بها الحملة تحت أسوار القسطنطينية ترجع إلى تظافر مجموعة من العوامل، ليس هنا المقام للتفصيل فيها وعرضها بشكل مستفيض، لكن يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولا: توظيف البيزنطيين لسلاح فتاك سمح لهم بتحقيق تفوّق استراتيجي على المسلمين، كان ذلك من خلال استعمال "النار البحرية" التي ستعرف لاحقا باسم "النار الاغريقية" التي تمّ تسليطها ضدّ الأسطول الإسلامي أواخر سنوات الحملة، على الأرجح سنة 678م (58هـ)، وهي ضرب من النار يدخل في

<sup>1</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 301-309.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: The Arab-byzantine frontier in the eighth and ninth centuries, p 113.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit, p 124.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, pp 494-496 / Nikephoros: Op cit, p 87.

قيمة الاتاة المترتبة عن معاهدة الصلح التي أوردها ثيوفانس تبدو ضئيلة ولا يقبلها العقل، لهذا يرى بعض المؤرخون (من أمثال بيوري وأرشيبالد لويس مثلا) أنّ القيمة هي ثلاثة آلاف رطل من الذهب سنويا وليس ثلاثة آلاف قطعة نقدية.

تحضيرها مزيج من المواد الكيميائية تشتعل بسرعة حتى مع ملامستها الماء<sup>1</sup>، ما شكّل مفاجئة واريكا كبيرين للمسلمين وألحق بهم ضررا بالغاً، وتُرجع المصادر البيزنطية هذا الاختراع إلى مهندس سوري يدعى كالينيكوس Kallinikos كان قد فرّ إلى بلاد الروم واستقرّ به المقام في القسطنطينية في تلك الفترة الحرجة بالذات حين كانت تعاني المدينة من حصار المسلمين<sup>2</sup>، ولهذا الرواية ما يدعمها في المصادر العربية التي تذكر بدورها أنّ هذا الشخص بالذات كان قد اتّصل بمعاوية وعرض عليه أن يصنع له هذه النار ليواجه بها الروم في البحر، لكنّ الخليفة رفض اقتراحه بسبب موانع دينية (رد معاوية على اقتراحه بقوله: "لا أكون أول من حرّق بها، وعدّ بعباد الله")، فالتجأ إلى الإمبراطور البيزنطي فصنعها له<sup>3</sup>.

ثانياً: انتقال الروم من وضعية الدفاع إلى وضعية المبادرة، حيث أرسل الإمبراطور قسطنطين حملة بحرية ضدّ المعقل الإسلامية في صيدا وصور سنة 57هـ/677م<sup>4</sup>، وقام بإدخال عناصر مقاتلة إلى جبال لبنان - يعرفون بالمردة- للضغط على الدولة الأموية وإثارة القلاقل بها، حيث استطاعوا بدعم من عناصر محليّة (الجراجمة) السيطرة على معظم المنطقة الجبلية<sup>5</sup>، وقد ساهم هذا الأمر في تشتيت جهود المسلمين والحدّ من قدرتهم على مواصلة العمليات الخارجية<sup>6</sup>، لما كانت تشكّله تحركات المردة من خطر كان ينذر بقطع الاتصال بين السواحل والأقاليم الداخلية في الشام ما يهدّد بانكشاف الدولة الأموية أمام البحرية البيزنطية تماماً<sup>7</sup>.

ثالثاً: تأثير العوامل الجغرافية، فالقسطنطينية كانت تتمتع بموقع محصّن طبيعياً يتيح لها الدفاع بشكل جيّد عن نفسها ضد التهديدات الخارجية، بالإضافة إلى أنّ جهل العرب بحركة التيارات المائية في بحر مرمرة ومضائقه حدّ من قدرة الأسطول على احداث فارق في العمليات الحربية<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - J. R. Partington: Op cit, pp 21-32

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 494.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 74، ص 140.

<sup>4</sup> - Elie Bar Sinaya: Op cit, Partie 2, p 232.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 496 / Bury: Op cit, Vol 2, p 312.

**المردة (المرديين Mardaites):** مجموعة من سكان آسيا الصغرى أدخلها البيزنطيون إلى جبال لبنان في النصف الثاني من القرن السابع ميلادي لمناوئة الدولة الأموية. إبراهيم بيضون: تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ص 191.

**الجراجمة:** مجموعة سكان كانوا يستوطنون جبل اللكام (الأمانوس) ولهم مدينة عامرة بما تعرف بالجراجمة، فتحها حبيب بن مسلمة الفهري وصالح أهلها على أن يكونوا أعواناً للمسلمين. البلاذري: المصدر السابق، ص 187.

<sup>6</sup> - Cheira: Op cit, p 138.

<sup>7</sup> - إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون، البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 111.

<sup>8</sup> - عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ص 102.

وفي عهد يزيد بن معاوية 60-64هـ/680-683م تظهر إشكالية تتطلب الوقوف عندها، تتمثل في حقيقة استمرار حملات الصوائف والشواتي على بلاد الروم في فترة خلافته؟ فإذا تجاوزنا حملة السنة الأولى لبداية حكمه عام 60هـ/680م التي تتفق عليها المصادر، وهي على الأرجح كانت من اعداد والده قبل وفاته، وتكون قد انطلقت أواخر سنة 59هـ/678م قبل عقد الصلح بين معاوية والإمبراطور البيزنطي وأمضت شتاء سنة 60هـ/680م في بلاد الروم، فإنّ ما بقي من سنوات حكمه يخلو من أخبار حملات الصوائف والشواتي في المصادر الرئيسية بشكل تام ما عدا ما يورده خليفة وابن عساكر -ينقلان عن محمد ابن عائذ- اللذان يستمرّان بذكر الحملات العسكرية تباعا. فهل سكوت المصادر عن ذكر الصوائف والشواتي في عهد يزيد بن معاوية يرجع إلى ايقاف هذا الأخير العمليات العسكرية ضدّ الروم التزاما منه بمعاهدة الصلح التي عقدها أبوه معاوية مع الإمبراطور البيزنطي؟ أم أنّ روايات خليفة وابن عساكر هي الصحيحة؟

تتفق المصادر أنّ مالك بن عبد الله الحثعمي غزا بلاد الروم سنة 60هـ/680م واستهدف في حملته سورية (إقليم إيسوريا Isauria) مع بداية عهد يزيد بن معاوية<sup>1</sup>، ثمّ ينفرد خليفة وابن عساكر، كما سبق الإشارة إليه، بذكر صائفتين سنتي 61هـ/681م، و62هـ/682م، الأولى بقيادة مالك بن عبد الله دائما الذي بلغ في حملته هذه المرّة عمق الأناضول وصولا إلى قونية! والثانية تحت امره يزيد بن أسد القسري الذي بلغ قيسارية مما يلي الحدث<sup>2</sup> (أي مدينة قيصرية في إقليم قبادوقيا).

لا يمكن التسليم دون نقاش بقدره يزيد على مواصلة إرسال الحملات العسكرية إلى بلاد الروم والدولة الاسلامية في عهده كانت تعيش استقرارا هشا على الصعيد الداخلي والمعارضة كانت شديدة لحكمه، فقد تمردّ عليه الحسين بن علي بعد ستّة أشهر فقط من توليه الخلافة واتّجه إلى العراق بدعوة من شيعة الكوفة، وقد أثبتت هذه المنطقة أنّها ما زالت على معارضتها لحكم بني أمية وأبعد ما تكون عن الإذعان مطلقا لحكام دمشق، فقتله عبيد الله بن زياد والي العراق سنة 61هـ (680م)<sup>3</sup>، وامتنع عبد الله ابن الزبير عن البيعة ليزيد وهرب من المدينة إلى مكة عائدا بالحرم<sup>4</sup>، ثمّ ما لبث أهل المدينة أن ثاروا ضدّ يزيد سنة 63هـ/682م، فبعث إليهم بجيش من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المري فأوقع بهم وهتك حرمة المدينة ثلاثة أيام<sup>5</sup>. هذه الأحداث "الأليمة" نفرت المسلمين من يزيد وأبغضوا حكمه، وفي هذه الحالة كان من الحكمة أن يتمّ الاحتفاظ بالجند الشامي -ذي الولاء المطلق- داخل الدولة لمواجهة أيّ

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 231 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 169 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 322.

2 - خليفة: المصدر نفسه، ص 235-236-254 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 65، ص 106.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 347-400.

4 - الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 340-341.

5 - الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 482-484-491.

معارضة جدية يمكن أن تندلع ضد الخليفة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يزيد قد اضطرّ حتى إلى سحب الحماية الإسلامية في جزيرة رودس بعد تسلّمه الخلافة مباشرة، وكذا استرجاع آلاف الجنود الذين كانوا متمركزين في جزيرة قبرص أيضا<sup>1</sup> التي كانت تعتبر مركز عمليات متقدّم ضدّ الروم في البحر، وبذلك أصبحت سواحل الشام مكشوفة تماما أمام البحرية البيزنطية، وعليه كان الحال يقتضي ضرورة التخلّي ولو مؤقتا عن أيّ عمل عدائي ضدّ بيزنطة، فكان من مصلحته الحيوية إذا الحفاظ على السّلم مع الإمبراطورية البيزنطية. وهذا ما يذهب إليه فتحي عثمان وفلهوزن أيضا عندما يذكران أنّ يزيد ومع تولّي الخلافة كان قد وضع حدّا للحرب مع الروم التي استمرت سنين كثيرة<sup>2</sup>، وهكذا فمن الواضح أنّ الهدنة مع بيزنطة والاضطرابات الداخلية التي اعترت الدولة الأموية في عهده قد أثّرت على سيرورة حملات الصوائف والشواتي الدورية وساهمت في توقّفها طيلة سنوات خلافته.

إنّ المنطق والتحليل الموضوعي للأحداث يقود نحو هذا الاستنتاج، فالتحدّيات الداخلية التي كانت تواجه يزيد بن معاوية في تثبيت سلطانه، واستمرار تهديد المردة وحلفائهم الجراحمة، بالإضافة إلى الفشل الذريع الذي مُنيت به محاولة فتح القسطنطينية قبل بضع سنوات خلّت، وما تلى ذلك من ابرام الصلح بين الدولتين الأموية والبيزنطية، قيّدت كلّ تحركات يزيد بن معاوية ضدّ الروم طيلة سنوات حكمه.

#### ثانيا- في الفترة المروانية 73-125هـ/693-743م:

بعد موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م اضطرت أحوال الدولة الإسلامية وانكفئت الأمة على صراعاتها الداخلية من جديد، فاستغلّ الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian II انشغال المسلمين وتفرّق كلمتهم للأخذ بزمام المبادرة فبدأ يزيد الضغط العسكري عليهم، فأرسل حملة بحرية ضدّ السواحل الشامية سنة 65هـ/685م أسفرت عن تخريب مدينتي عسقلان وقيسارية<sup>3</sup>، وحملة بريّة أيضا استهدفت ملطية ومرعش انتهت بتدميرهما بعدما هجرهما سكانهما مع بداية فتنة ابن الزبير خوفا من الروم، ما اضطرّ عبد الملك بن مروان إلى طلب الصلح مع الإمبراطورية البيزنطية للتفرّغ لترتيب أوضاع الدولة الداخلية<sup>4</sup>، وفي سنة 70هـ/689م شعر الإمبراطور جستنيان بالثقة الكافية لمعاودة هجومه على المسلمين فأرسل أحد

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 181-275.

2 - يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 2، 1968، ص 165 / فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج 2، ص 41.

3- البلاذري: المصدر السابق، ص 167-168.

Timothy Venning: Op cit, p 181.

4 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 220-223.

Cheira: Op cit, p 147.

قاده على رأس حملة أتت المصيصة<sup>1</sup>، ثم تقدّمت إلى جبال الأمانوس (اللكام) ونزلت لبنان فانضمّ إليها عدد كبير من الجراجمة، ومن الخارجين عن سلطان بني أمية فاحدثوا اضطرابا كبيرا بالمنطقة، وصادف ذلك تمردا في عاصمة الخلافة دمشق، قاده عمرو بن سعيد الأشدق بعد خروج عبد الملك لمواجهة مصعب بن الزبير في العراق<sup>2</sup>، هذه الأحداث اضطرت عبد الملك في النهاية إلى طلب تجديد الصلح مع الإمبراطور البيزنطي مرّة ثانية على ما كان عليه أيام معاوية، لكنّ الروم هذه المرّة غالوا في شروطهم مستغلّين الظروف الحرجة التي كان يمرّ بها المسلمون، وتختلف المصادر في تحديد بنود الصلح فبينما تذكر الروايات البيزنطية والسريانية أنّ الروم فرضوا على عبد الملك دفع 365 ألف قطعة ذهبية كل سنة، مع 365 عبد ومثل عددهم من الخيل، بالإضافة إلى اقتسام دخل قبرص وأرمينية وأذربيجان مناصفة بين الدولتين، مقابل سحب الروم اثنا عشر ألفا من المردة من جبال لبنان<sup>3</sup>، لا نجد المصادر العربية تذكر من مضمون المعاهدة إلّا مبلغ الصلح، والذي تقدّره بألف دينار كل أسبوع<sup>4</sup>.

غير أنّ انتهاء الأعمال الحربية بين الدولتين لم يُقدّر له أن يستمرّ طويلا، فقد قام الإمبراطور جستنيان الثاني بخرق معاهدة السلام في السنة السابعة من حكمه، (أي عام 693م/73هـ) بعد رفضه الالتزام ببنود الصلح فيما يخص تقاسم السيادة على قبرص بين الإمبراطورية والخلافة وقيامه بمحاولة نقل سكان الجزيرة إلى الأراضي البيزنطية، ما أثار استياء عبد الملك بشكل كبير وحمل الإمبراطور تداعيات عمله العدواني وعدم التقيّد ببنود معاهدة الصلح حتّى انتهاء المدّة المتفق عليها<sup>5</sup>، لكنّ المصادر البيزنطية تضيف سببا آخرًا مباشرًا لتجدّد المواجهات العسكرية بين الطرفين يتمثل في رفض الإمبراطور قبول الاتاة السنوية المقرّرة على المسلمين في معاهدة الصلح التي بعث بها عبد الملك وكانت تحتوي عملة جديدة (دنانيرا إسلامية) غير العملة البيزنطية التي كانت معتمدة حتّى ذلك الوقت في المعاملات بين الدولتين، ونتيجة سوء تقدير منه أرسل الإمبراطور إلى عبد الملك يُعلمه أنّه لن يلتزم بمعاهدة السّلم بعد الآن، وقام بتجهيز حملة قوامها فرسان الفرق العسكرية المتمركزة في آسيا الصغرى، مع ثلاثين ألف فرد من العناصر السلافية كان قد أتى بهم من البلقان في وقت سابق، واتّجه بهم نحو سيبستوبوليس Sebastopolis (سببسطة أو سبسطة

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 188.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 187-188 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 140-150.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 503 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 237 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 469.

كانت مدّة الصلح (الهدنة) عشر سنوات حسب ما ذكره ميخائيل السرياني، وربّما كان هذا الصلح الذي عقد سنة 689م (70هـ) بين عبد الملك وجستنيان تأكيدا لصلح 685م (65هـ) السابق بين عبد الملك وقسطنطين الرابع مع بعض التعديلات والإضافات.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 150

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 93.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 509 / Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 470.

في المصادر العربية) التي تقع على الطريق الرابط بين القسطنطينية وقاليقلا<sup>1</sup>، فتحرك محمد بن مروان عامل الخليفة على الجزيرة لملاقاته وانتهت المواجهة بين الطرفين بهزيمة منكرة للروم<sup>2</sup>. ويذكر كل من ثيوفانس و بدرجة أقل ميخائيل السرياني تفاصيل هذه المعركة التي يبدو أنّها بدأت بتفوق واضح للروم على العرب، لكنّ محمد بن مروان استطاع أن يثبت أمام الهجوم البيزنطي ثم تمكن بدهاء كبير من القضاء على تلاحم جيش جستنيان ويقلب الموازين لصالحه عن طريق اغراء واستمالة قائد مجموعة السلاف Slavs (الصقالبة) في جيش الإمبراطور البيزنطي مع عشرين ألفا من أتباعه (سبعة آلاف في رواية ميخائيل) - كان جستنيان قد قام بتوطينهم آسيا الصغرى قبل ذلك بمدة قصيرة- ما أجبر الروم على الانسحاب<sup>3</sup>.

لقد أتاحت خطوة الإمبراطور جستنيان العدائية تجاه المسلمين، لعبد الملك بن مروان معاودة اطلاق حملات الصوائف والشواتي من جديد، كما أنّها حرّرتهم من أي التزام تجاه الروم ففي الأخير كانوا هم من نقضوا معاهدة الصلح وسيتملّون بعد ذلك تبعات تصرف جستنيان الثاني غير المسؤول، وإذا كانت حملة 73هـ (693م) بقيادة محمد بن مروان دفاعية بحتة سنجد أنّ المسلمين بعدها استعادوا زمام المبادرة ضدّ الروم، خاصة بعد استرجاع الأمة وحدتها من جديد وعودة الاستقرار إلى الجبهة الداخلية بعد القضاء على حركة ابن الزبير، وثورة البربر في المغرب، وهكذا توالت حملاتهم على آسيا الصغرى واسترجعت زخمها مع تصاعد وتيرتها شيئا فشيئا، وبخلاف الفترة السابقة خلال حكم الفرع السفلي التي تميّزت بكثرة الشواتي، سنجد أنّ الحملات في العهد المرواني تكاد تقتصر على الصوائف ولا ذكر لحملات الشواتي فيها إلا نادرا، كما نسجل تصدّر قادة من البيت المرواني لجيوش الحملات واشتهروا بنشاطهم الكبير في غزو بلاد الروم من أمثال محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك، ومسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد، ومعاوية ابن هشام، وغيرهم.

واصل محمد بن مروان حملاته الصيفية على بلاد الروم في السنوات التي تلت موقعة سياستوبوليس خاصة بعد النجاح الذي حقّقه فيها، فأستهدف سنة 74هـ/693م أندولية<sup>4</sup>، وفي السنة الموالية (عام 75هـ/694م) قاد من جديد الصائفة مصطحبا معه السلاف الذين كانوا قد انضموا إليه من قبل، فغزا بلاد الروم وأوقع بهم ورجع مصحوبا بعدد كبير من الأسرى<sup>5</sup>، وكرّد فعل على تجدد الأعمال الحربية

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, pp 509-510-511 / A. N. Stratos: Byzantium in the seventh century, Adolf M. Hakkert, Amsterdam, 1980, Volume 5, p 35.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 270 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 194 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 55، ص 241. Elie Bar Sinaya: Op cit, p 94.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 511 / Michel le Syrien: Op cit, Partie 2, p 470.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 270 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 55، ص 241. Cheira: Op cit, p 161.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 513.



الهجومية للمسلمين ضدّ أقاليم آسيا الصغرى ونشاطهم المتزايد في أرمينية، أرسل الإمبراطور البيزنطي في أواخر فصل صيف سنة 694/75م (جمادى الأولى/سبتمبر) حملة بريّة ضدّ الدولة الأموية وصلت الأعماق (سهل أنطاكية) عبر مرعش، لكنّ هذه المحاولة ما لبثت أن صارت إلى كارثة على جيش الروم، ذلك أنّ قوّات المسلمين بقيادة أبان بن الوليد بن عقبة حاكم قيسرين استطاعت صدّ الهجوم وسحقت الجيش البيزنطي بعد قتال عنيف انتهى بالقضاء على قسم كبير منه<sup>1</sup>، وربما كان من أهداف هذه الحملة بالإضافة إلى الردّ على عمليات المسلمين، إعادة ربط الاتصال بجراجمة جبال لبنان مرّة أخرى ومحاولة الاستفادة من خدماتهم من جديد وتوظيفهم للضغط على منطقة الشام ومناوئة عبد الملك بن مروان.

ورغم القلاقل التي سببها الخوارج في الأقاليم الشرقية للخلافة طيلة سنتي 76-77هـ/695-696م والتي استنزفت مجهودا عسكريا ليس بالقليل، إلّا أنّ عبد الملك استمرّ في تجريد الحملات السنوية على بلاد الروم، فبعد المحاولة البيزنطية الفاشلة على الأطراف الشمالية للشام قاد محمد بن مروان من جديد صائفة سنة 76هـ/695م، فدخل إلى بلاد الروم عبر ملطية واستهدف هذه المرّة أرمينية الرابعة، وكانت حملة ناجحة فقد توغّل في بلادهم وسبي عددا كبيرا من الأسرى ثمّ قفل راجعا<sup>2</sup>.

وبعدها جاء الدور على الوليد بن عبد الملك لقيادة غزوة الصائفة لسنة 77هـ/696م، وكان له ثلاث وعشرون سنة من العمر تقريبا حينها، وتتضارب المعلومات بين المصادر حول وجهة هذه الحملة ومسرح عمليّاتها، فبعض الروايات تذكر أنّها استهدفت المنطقة ما بين ملطية والمصيصة، والبعض الآخر يذكر أنّها وصلت حتّى أنقرة، وفتح بتلك النواحي حصن يعرف باسم صملة Sémalouos<sup>3</sup>، والمراجع الحديثة ترجّح أنّ الوليد قاد حملته حتّى منطقة خرشنة فقط<sup>4</sup>، ويبدو أنّه قد حقّق نجاحا معتبرا في أولى حملاته على بلاد الروم فقد تمكّن من فتح بعض الحصون (منها صملة الذي سبق ذكره والذي يقع ضمن منطقة عمليات حملته) ثمّ رجع وقد ملء يده بالسبي والغنائم<sup>5</sup>، ويبدو أنّ حملة السنة التالية، عام 78هـ/697م، قد توغّلت في عمق الأناضول حتّى وصلت قرب عمورية (عند مرج الشحم) وقادها يحي ابن الحكم بن أبي العاص، بينما يذكر خليفة -عن ابن الكلبي- أنّ الذي كان على صائفة هذه السنة محرز

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 271 / اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 203 / البلاذري: المصدر السابق، ص 223 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 202 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 6، ص 161.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 470.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 275 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 55، ص 240.

Theophanes: Op cit, p 514.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 276 / اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 203 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 63، ص 170.

<sup>4</sup> - Cheira: Op cit, p 163.

<sup>5</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 63، ص 170.

Theophanes: Op cit, p 516 / A. N. Stratos: Op cit, V 5, p 77.

ابن أبي محرز، ويبدو أنّ هذه الحملة واجهت مصاعب جمّة في طريق العودة عند درب الحدث نتيجة سوء الأحوال الجوية حيث أذى التساقط الغزير للأمطار إلى تسجيل خسائر معتبرة في صفوف الجيش<sup>1</sup>. بعدها سنسجّل اضطراباً في حملات الصوائف وتضارباً كبيراً في المعلومات بين المصادر، بحيث لا يمكن معها الوصول إلى توافق مقبول، لكن يبدو أنّ العمليات العسكرية ضدّ الروم توقفت لسنتين متتاليتين، ففي سنة 698هـ/79م عرفت الشام انتشاراً واسعاً للطاعون فيها ما تسبّب في هلاك عدد كبير من السكان<sup>2</sup>، فلم يكن في ذلك العام غزو لانشغال الناس بما أصابهم، ويظهر أنّ إمبراطور الروم أپسيماروس Apsimaros (الذي تلقّب باسم تيبيريوس الثالث) كان على اطلاع بما حلّ بالمسلمين وبعجزهم عن الغزو فاستغلّ الفرصة ليحقّق إنجازاً عسكرياً أمام العرب يدعم به مركزه على رأس العرش البيزنطي، فأرسل في نفس السنة (عام 698هـ/79م) حملة ضدّ أرمينية لانتزاعها من المسلمين انتهت إلى الاستيلاء على قاليقلا (أرضروم) رغم مقاومة الأمير المحلي سمباط Sembat المتحالف مع العرب<sup>3</sup>، وفي نفس السنة تحركت البحرية البيزنطية لاستهداف أنطاكية، وقد استطاع البيزنطيون إلحاق خسائر معتبرة بسكان المدينة<sup>4</sup>. ويبدو أنّ الضعف الواضح الذي أبداه المسلمون في التعامل مع هجمات الروم قد شجّع هؤلاء الأخيرين على استهداف منطقة الحدود بشكل مباشر عن طريق حملة بريّة معتبرة قادها هرقل شقيق الإمبراطور، الذي اجتاح منطقة سميساط سنة 699هـ/80م بشكل مفاجئ فألحقت عملياته العسكرية دماراً كبيراً بالمنطقة، واستطاع الروم قتل وأسر آلاف المسلمين واستولوا على غنائم معتبرة<sup>5</sup>.

ومع استئناف الصوائف ستتوالى حملات عبد الله بن عبد الملك على بلاد الروم، ففي سنة 700هـ/81م<sup>6</sup> سار صوب قاليقلا، التي كانت قد سقطت قبل ذلك بسنتين في يد البيزنطيين، ففتحتها

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 277 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 321 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 57، ص 79.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 322.

Theophanes: Op cit, p 518 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 95

يذكر خليفة أنّ طاعون الشام وقعود الناس عن الغزو كان سنة 80هـ. راجع تاريخه، ص 279.

<sup>3</sup> - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 74.

J. Laurent: L'Arménie entre Byzance et L'Islam depuis la conquête Arabe jusqu'en 886, fontemoing et Cie éditeurs, 1919, p 204.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 322 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 285 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 191 Cheira: Op cit, p 164.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 518 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 474.

يذكر ثيوفانس أنّ الحملة قضت على أكثر من مائتي ألف من العرب! وهذا الأمر يستحيل أن يتقبله العقل، ولا يستقيم مع المنطق بل لا يمكن التفكير حتّى في صحة عُشر هذا الرقم، بينما يعطي ميخائيل رقماً أقرب للواقع حين يذكر أن خسائر المسلمين كانت خمسة آلاف قتيل.

<sup>6</sup> - تذكر المصادر أنّ قائد صائفة سنة 81هـ هو عبید الله، وهذا خطأ فلم يكن لعبد الملك ابن بهذا الاسم وإنما كان له عبد الله وهو لأم ولد، في حين يذكر ابن عساکر في رواية عن محمد بن عائذ أنّ الذي غزا تلك السنة كان عبید الله بن مروان فهزم الروم وفتح حصن سنان. تاريخ دمشق، ج 38، ص 117.

وأصاب فيها غنائم كثيرة<sup>1</sup>، وبعدها سيركز عملياته ضدّ منطقة قيليقية جنوب آسيا الصغرى على الحدود مع الثغور الشامية في حملات محدودة جدا -لانشغال عبد الملك بإخماد ثورة عبد الرحمن بن الأشعث-، فبين سنتي 82-83هـ/701-702م استطاع أن يفتح حصن سنان ناحية المصيصة في السنة الأولى<sup>2</sup>، قبل أن يغزو في السنة الموالية في قلّة من الناس ما وراء طرسوس (ربما لانشغال الجند الشامي بحاربة ابن الأشعث)، فلمّا أشرف على اجتياز درب البوابات القيليقية اعترضته قوّات للروم عند قلعة لؤلؤة المنيعة (التي تشرف على المعبر وتتحكّم فيه) فأشتبك معهم وأوقع بهم، ثمّ يبدو أنّه واصل توغّله داخل بلاد الروم إلى غاية إقليم إيسوريا أين واجه بعض المقاومة من القوّات المتمركزة محلياً لكنّه تغلّب عليها أخيراً رغم امكانياته المحدودة ورجع سالماً<sup>3</sup>، لكنّ الإنجاز الأهم الذي سيحقّقه كان بعد ذلك بسنة، ففي عام 84هـ/703م قاد حملة الصائفة على بلاد الروم فأدرب عبر أنطاكية وقصد المصيصة ففتحها وحلّف بها جماعة من الجند، ثمّ سار إلى طُرنده<sup>4</sup> بجيشه فحاصرها لكنّه لم يستطع أن ينال منها فاضطرّ إلى التراجع إلى المصيصة فأقام بها وشرع في إعادة ترميمها وتحصينها<sup>5</sup>، وبقي مقيماً فيها حتّى أتمّ بنائها عام 85هـ/704م، وشيّد بها سورا منيعاً وشحنها بالجند والسكان<sup>6</sup>، ليتّم استدعائه بعدها بقليل ليتقلّد ولاية مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان، وبهذا الإنجاز الكبير تمّ مد الثغور الشامية حتّى أصبحت ملاصقة لمنطقة قبادوقيا Cappadocia، وأضحت المصيصة بذلك خط الدفاع الأوّل عن أرض الإسلام ودرنا لأنطاكية من هجمات الروم.

ومع انقضاء فصل الشتاء قرّر عبد الله بن عبد الملك أن يقوم بتأمين المنطقة من خلال استهداف الحصون البيزنطية القريبة التي يمكن أن تشكّل تهديداً للوجود الإسلامي المستجد في المصيصة، فأرسل يزيد

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 331 / ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 6، ص 224 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 195 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 305.

A. N. Stratos: Op cit, V 5, p 92

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 288 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 29، ص 345.

3 - خليفة: المصدر نفسه، ص 288-289 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 29، ص 345-346.

4 - طُرنده: مدينة من بلاد الروم تقع على ثلاث مراحل من ملطية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 32.

5 - خليفة: المصدر السابق، ص 291 / البلاذري: المصدر السابق، ص 193-194 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 385 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 29، ص 345.

Theophanes: Op cit, p 519 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 97 / A. N. Stratos: Op cit, V 5, p 93.

6 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 194

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 478.

ابن حنين الطائي سنة 85هـ/704م على رأس حملة لحصار سوسنة<sup>1</sup> التي تقع شمالا، وكان الرهان كبيرا بين الطرفين حتى أن الإمبراطور لم يتردد في إرسال جيش لإنقاذ الحصن وفك الحصار عنه تحت قيادة أخيه هرقل الذي يتمتع بكفاءات عسكرية عالية وكان قد ألحق بالمسلمين هزيمة كبيرة قبل ذلك بسنوات قليلة عند سميساط، فالتقى يزيد بن حنين بالبيزنطيين وانتهت المعركة بين الطرفين بكارثة على المسلمين الذين انهزموا شر هزيمة أمام الروم وفقدوا آلاف الأرواح ووقع عدد كبير منهم في الأسر<sup>2</sup>، وقد شجع هذا الانتصار الروم على تكثيف نشاطهم قرب المصيصة لتضييق على المسلمين وربما اجبارهم على الانسحاب من قيليقية والتقهقر إلى مواقعهم السابقة، ويمكن استنتاج ذلك بسهولة من خلال المعارك التي جمعت بين الطرفين في ذلك الفضاء الجغرافي خلال السنوات التالية، وعليه تم سحب محمد بن مروان من جبهة أرمينية المستقرة نسبيا، مطلع سنة 86هـ/705م، لمواجهة الخطر البيزنطي المتفاقم في قيليقية، فقاد شاتية تلك السنة التي انتهت إلى الاشتباك مع الروم في معركة عنيفة قرب المصيصة أسفرت عن خسائر معتبرة في صفوف المسلمين<sup>3</sup>. لقد أدى رد الفعل البيزنطي القوي والهزيمة عند حصن سوسنة، والتي خلقت أثرا قويا في نفوس المسلمين، بعبد الملك بن مروان إلى تجهيز جيش مقتدر في آخر أيام حياته يضم ثلاثين ألف فارس على رأسهم ابنه مسلمة الشاب ذو الثانية والعشرين سنة من عمره -والذي سيشتهر لاحقا بحروبه الطويلة مع البيزنطيين- فأغزاه الصائفة سنة 86هـ/705م ناحية المصيصة ففتح بها حصنين دون أن تحددهما المصادر بالاسم<sup>4</sup>.

لقد استطاع عبد الملك خلال فترة حكمه التي امتدت لأكثر من عشرين سنة (65-86هـ/685-705م) أن يتجاوز الكثير من المضاعف ويواجه تحديات كثيرة، فعلى الصعيد الداخلي قمع حركات التمرد المناوئة وأعاد توحيد الأمة، وخارجيا استأنف الحملات العسكرية على كل الجبهات خاصة ضد البيزنطيين، وقد حقق في هذا الميدان نجاحا معتبرا إذ تمكن من إعادة تفعيل حملات الصوائف السنوية واسترجع ما فقدته المسلمون من مناطق خلال الفتنة الثانية، بل وأضاف إليها مكتسبات جديدة معتبرة، وسيسير

<sup>1</sup> - لا يذكر البلاذري، رغم معارفه الجغرافية الواسعة، حصن سوسنة مطلقا، وفي نفس الفترة يذكر حملة على حصن سنان! وعند ثيوفانس نجد أن الحملة استهدفت حصن تحت اسم Sision، ويبدو وضاحا الاشتقاق والتحريف العربي للاسم (سوسنة).

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 291 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 61، ص 369.

Theophanes: Op cit, p 520 / A. N. Stratos: Op cit, V 5, p 94.

يقدر ثيوفانس عدد خسائر المسلمين في هذه المعركة بين عشرة آلاف واثني عشر ألف قتيل، وهو رقم يبدو مبالغا فيه، بينما لا تشير المصادر العربية إلا إلى إصابة ألف شخص من أهل أنطاكية ممن كانوا مع ميمون الجرهمي، والأرجح أن خسائر المسلمين كانت أكبر من هذا العدد أيضا لكن أيضا أقل بكثير مما يورده ثيوفانس بالمقابل.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 55، ص 241.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 292 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 9، ص 168؛ ج 58، ص 30.

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 97.

خلفاؤه من بعده على هذا النهج وبتيرة العمليات العسكرية ضد الروم أين ستبلغ حملات المسلمين العمق البيزنطي أكثر فأكثر حتى تصل الجيوش الإسلامية إلى أسوار القسطنطينية مرة أخرى.

مع بداية عهد الوليد بن عبد الملك سترکز حملات الصوائف السنوية على استهداف القلاع والحصون المتاخمة لبند الأناضول من أجل تحييد خطرهما بشكل نهائي، ففي سنة 87هـ/706م قاد مسلمة الصائفة مرة أخرى ونجح في فتح عدّة حصون وقتل وسبي عددا كبيرا من الروم<sup>1</sup>، وبلغت قوّات الحملة منطقة تدعوها المصادر باسم "فلوذيما ثلس" قرب بحيرة الفرسان<sup>2</sup> (ربما هي Claudia Archelais قرب بحيرة تاتا Tatta وسط الأناضول)، لكنّ المصادر البيزنطية لا تذكر شيئا عن هذه الحملة مع بداية حكم الوليد، وعلى هذا الأساس ينفي بعض المؤرخين المحدثين أن يكون الخليفة قد التزم بإرسال حملات الغزو السنوية مباشرة بعد تقلده السلطة خاصة مع انشغاله بمشاريع البناء الداخلية وحاجته الملحة للدعم البيزنطي في هذا المجال<sup>3</sup>.

في سنة 88هـ/707م تجهّزت حملة كبيرة لغزو طوانة<sup>4</sup>، وهي مدينة مهمّة جدا من الناحية الاستراتيجية، فبالإضافة إلى كونها من المعاقل الرئيسية للروم في آسيا الصغرى، كانت المدينة تقع على الطريق الرابط بين الشام والبوسفور وتشرف على مضيق الأبواب القيليقية في جبال طوروس من الشمال<sup>5</sup>، وقد عرف المسلمون بالقرب منها عند سوستة انتكاسة كبيرة قبل ثلاث سنوات من هذا التاريخ، وهذه الحملة التي قادها كلٌّ من مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد تحفل بالكثير من التفاصيل المهمّة في المصادر، سواء العربية منها أو البيزنطية وحتى السريانية، على كلّ حال يبدو أنّ الوليد بن عبد الملك أراد أن يحقق إنجازا مهمّا من وراء هذه الحملة مع بداية خلافته ويثأر لهزيمة المسلمين السابقة سنة 85هـ/704م، فقام بتجهيز جيش معتبر تحت قيادة أخيه مسلمة وابنه العباس بن الوليد وقوّاهما بكل ما يحتاجانه،

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 429.

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 301.

3 - A. N. Stratos: Op cit, V 5. P 144.

إنّ هذا التحليل الذي يقدّمه أندرياس ستراتوس Stratos يتجاهل الأوضاع التي كانت تمرّ بها الإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، من عدم استقرار وفوضى وصراع مستمر على السلطة، والإمبراطور جستنيان نفسه لم يكن قد استلم الحكم للمرة الثانية إلا منذ فترة قصيرة (خريف سنة 705م) وهذا يتزامن مع تولّي الوليد الخلافة أيضا، وبالتالي لم يكن بين الرجلين أي أعمال عدائية يمكن أن تفسد العلاقات بينهما عندما تقدّم الخليفة بطلبه إلى الإمبراطور، كما أنّ استجابة هذا الأخير لطلب الوليد كانت خطوة دبلوماسية ذكية منه لتحسين العلاقات مع الدولة الأموية التي لم يكن قادرا على مقارعتها على كل حال، ثمّ إنّ المساعدة البيزنطية في بناء جامع دمشق وتزيين المسجد النبوي لم تكن كبيرة جدا (عشرات الحرفيين مع كميات من الفسيفساء ومبالغ مالية) مقارنة بعظمة الصرح الذي تمّ تشييده.

4 - طوانة: بلد من بلاد الروم من ثغور المصيصة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 45.

5- فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 81.

وانطلقت الحملة في حركة ذكية عبر الجزيرة كأثما تريد التوجّه لأرمينية ثمّ انعطفت يسارا إلى أرض الروم<sup>1</sup> حتى أتت طُوانة -وهي مدينة ذات تحصين جيّد- ففرضت عليها حصارا شديدا وطويلا، لكنّ المدينة بفضل تحصيناتها القويّة صمدت أمام كلّ محاولات المسلمين لاقتحامها، حيث لم ينجحوا إلّا في إحداث أضرار بسيطة في أسوارها، ومع حلول فصل الشتاء كانت أوضاع الجيش الإسلامي قد ساءت كثيرا نتيجة تفشّي الأمراض بين صفوف أفرادهِ ونقص المؤونة وفقدان عدد كبير من الخيل والدواب بسبب البرد والثلج حتى اضطرّ مسلمة إلى طلب المساعدة من الخليفة في دمشق، هذه المساعدة التي لن تصل إلّا بعد فتح المدينة نظرا لانغلاق الدروب بالثلوج وتعذّر عبورها. ولما رأى أهل طُوانة حال المسلمين وما هم فيه من اجهاد استبسّلوا في الدفاع عن مدينتهم وكتبوا إمبراطورهم طلبا للنّجدة، فأرسل إليهم جيشا كبيرا لفكّ الحصار عنهم<sup>2</sup>، فلمّا علم مسلمة بذلك أرسل العباس مع قسم من قوّة المسلمين لإيقاف زحف الروم على مقربة من طُوانة، بينما بقي هو محاصرا المدينة، ويبدو أنّ العباس وجد جمع الروم لم يكتمل بعد فأراد استغلال الفرصة فهاجمهم على غير استعداد منهم ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بانتصار ساحق للمسلمين الذين قضوا على معظم الجيش البيزنطي وأسروا عددا كبيرا منهم، ومع هذا النصر فقد سكان طُوانة الأمل في أيّ مساعدة خارجية فاضطرّ حاكمها لمفاوضة مسلمة على تسليم المدينة مقابل سلامته وسلامة من بها من سكان، فوافق مسلمة على شروطه، وهكذا سقطت المدينة في يد المسلمين منتصف سنة 88هـ/707م بعد عدّة أشهر من الحصار<sup>3</sup>، فحقّقوا بهذا الانتصار إنجازا عظيما أمام الروم، فقد استولوا على مدينة مهمّة في آسيا الصغرى، وألحقوا خسائر كبيرة في صفوف البيزنطيين تعدّ بالآلاف، حيث تقدّرها المصادر العربية بين أكثر من ثلاثين ألفا وخمسين ألف قتيل، في حين تذكر المصادر السريانية

1 - يبدو أنّ الوليد بن عبد الملك أراد أن يستفيد من عنصر المفاجأة في هذه الحملة حتى يغزو الروم على غير استعداد منهم، وما يدعم هذا الطرح ما ذكره ابن عسّكر من أنّ الخليفة عندما عزم على استهداف طُوانة قام بتضليل إمبراطور الروم فأوهمه بعزمه على غزو أرمينية بعد استنجد صاحبها به. تاريخ دمشق، ج 26، ص 443.

2 - يذكر المؤرخ ثيوفانس هنا أنّ الجيش الذي أرسله الإمبراطور كان يفتقد للخبرة والانسجام وكان يتكوّن في معظمه من مزارعين غير مسلّحين ما سهّل على المسلمين القضاء عليهم! Theophanes: Op cit, p 526

ماذا كان يتوقّع الإمبراطور من إرسال جيش "عشوائي غير مسلّح" لفكّ الحصار عن طُوانة؟ يبدو هذا غير منطقيّ بئانا، ثمّ إنّ المصادر العربية تذكر أنّ الجيش البيزنطي حارب بشكل جيّد في البداية وأظهر بسالة في القتال وكاد أن يهزم جيش المسلمين بقيادة العباس، من الواضح أنّ الرواية البيزنطية أرادت فقط من وراء هذه الإشارات أن تبرّر الهزيمة أمام المسلمين وتنتقص من إنجازهم الكبير الذي حقّقوه.

3 - خليفة: المصدر السابق، ص 302 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 434 / ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 26، ص 443-444.

Theophanes: Ibid, pp 525-526 / Nikephoros: Op cit, pp 105-107 / Agapius: Op cit, Partie 2, pp 238-239 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 478 / A. N. Stratos: Op cit, V 5, pp 145-146.

أما كانت في حدود أربعين ألف قتيل مع عدد معتبر من الأسرى منهم النبلاء وكبار القادة<sup>1</sup>. وهكذا انتقم المسلمون لهزيمتهم الكبيرة قبل ثلاث سنوات بالقرب من نفس المدينة (عند حصن سوسنة)، وسيكون هذا الانتصار دافعا قويا لمواصلة حملات الصوائف بأكثر جرأة وقوة.

وبعد استسلام المدينة واختلاؤها من سكانها قام المسلمون بتدميرها لحرمان العدو من مراكزه الحصينة، ما ساهم في اطلاق يد المسلمين لتخريب بلاد الروم دون أن يخشوا شيئا كما عبّر عن ذلك المؤرخ البيزنطي نقفور Nikephoros<sup>2</sup>.

في العام الموالي لهذا الإنجاز الكبير تتضارب المعلومات في المصادر حول صائفة تلك السنة (89هـ/708م) فبعضها يذكر أنّ مسلمة عبر درب بغراس وغزا حتى بلغ عمورية ففتح بها حصونا واستمرت حملته في بلاد الروم شهرين كاملين<sup>3</sup>، والبعض الآخر يذكر أنّ العباس هو الذي كان على الصائفة<sup>4</sup>، وفي أخرى أنّهما سارا معا حتى دخلا بلاد الروم ثم افترقا، وربما يكونان قد اجتازا معا درب البوابات القيليقية فاتّجه العباس يمينا عبر البدندون Podandos وقصد أذولية ففتحها، بينما اتّجه مسلمة يسارا ففتح عدة حصون مثل هرقله Heraclea وقمودية (غير معروفة)<sup>5</sup>، وتركيز المصادر على مسلمة وحرصها على تدوين تفاصيل حملته ربما يدلّ على أنّ الصائفة التي قادها كانت أكثر نجاحا وتوفيقا من حملة ابن أخيه العباس بن الوليد.

إنّ هذا التباين بين الروايات يجعل من الصعب الوصول إلى تصوّر واضح وقطعي عن هذه الحملة، وقد شهدت هذه السنة بالذات (89هـ/708م) تجدد نشاط الجراجمة في جبال اللكام بإيعاز من الروم الذين أحسنوا بتنامي الخطر العربي بعد سقوط طوانة فحاولوا تخفيف الضغط عن آسيا الصغرى بنقل الصراع إلى الشام والعمل على زعزعة استقرارها باستغلال الجراجمة كما في السابق، وهكذا قاموا بإرسال قوّات إلى المنطقة عن طريق حملة بحرية نزلت الإسكندرونة وروسييس لدعم تمرد العناصر الجبلية المحليّة، ويذكر البلاذري أنّ الوليد بن عبد الملك أرسل أخاه مسلمة لإخماد هذه الحركة، وفعلا نجح مسلمة في انهاء هذه المؤامرة مع بدايتها<sup>6</sup>. إنّ هذه الأحداث ربما يمكنها أن تفسّر لنا بعض الغموض والتضارب حول هويّة قائد صائفة

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 302 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 444-445.  
Agapius: Op cit, Partie 2, pp 238-239 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 478.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 526 / Nikephoros: Op cit, p 107 / Michel le Syrien: Ibid, p 478 / Cheira: Op cit, p 173.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 302 / البلاذري: المصدر السابق، ص 196 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 58، ص 31.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 526.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 439 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 6، ص 289.

<sup>6</sup> - فتوح البلدان، ص 188-189.

الإسكندرونة: مدينة على ثمانية فراسخ من أنطاكية على ساحل بحر الشام. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 1، ص 182.

سنة 89هـ/708م، حيث يمكن أن نتصوّر بأنّ مسلمة بن عبد الملك يكون قد التحق بالعباس بعد فراغه من أمر الجراجمة، أو أنّ العباس في طريقه للغزو عبّر درب بغراس قد مرّ به فدخلها معاً بلاد الروم. أو أنّ كل هذا الارتباك المسجّل في مختلف المصادر ربّما يرجع إلى إجراء الدولة الأموية لتعديل على نظام حملات الصوائف، يقضي بإرسال حملتين (صائفتين) بشكل متزامن، احدهما تدخل بلاد الروم من ملطية أو الحدث أو مرعش عبر الجزيرة الفراتية وهي الصائفة اليمنى، والأخرى تدخل بلاد الروم من درب البوابات القيليقية مروراً بأنطاكية وهي الصائفة اليسرى، وهذا التعديل على نظام الصوائف حدث في نفس الفترة التي تمّ فيها إجراء تعديل إداري على منطقة الحدود تمّ بموجبه فصل الجزيرة عن قنسرين وجعلها جنداً مستقلاً بذاته، وهكذا ستظهر جبهتين من العمليات مستقلة احدهما عن الأخرى، وستبدأ المصادر بذكر حملتين منفصلتين بشكل متزامن على بلاد الروم منذ سنة 90هـ/709م، لكنّها مع ذلك لا تذكرها تصريحاً بشكل واضح ومباشر لأول مرّة إلاّ في أحداث سنة 93هـ/712م عند ابن عساکر<sup>1</sup>.

في عام 90هـ/709م واصل كلّ من مسلمة والعباس حملتهما على آسيا الصغرى، فأتجه الأول غرباً نحو سورية (إقليم إيسوريا) ففتح عدة حصون بها لم تذكرها المصادر بالاسم، بينما اتّجه الثاني إلى الشمال الشرقي نحو أرمينية حتّى وصل إلى أرزن (أرضروم) ثمّ قفل راجعاً<sup>2</sup>، وغياب الأخبار عن أيّ إنجاز في حملته يوحي أنّه لم يحقّق نجاحاً كبيراً، وعلى الأرجح أنّه دخل بلاد الروم عبر درب الحدث أو ملطية. بعد الإنجازات الكبيرة التي تمّ تحقيقها في الفترة السابقة، ستشهد السنوات التالية حتّى نهاية حكم الوليد سنة 96هـ/715م ارتفاع وتيرة الحملات السنوية على أهم مدن وحصون الروم، والتي ستستهدف أكثر فأكثر العمق البيزنطي في آسيا الصغرى حيث ستسيح الجيوش الإسلامية في أرجاء الأناضول، فتمّ فتح ثلاث حصون هي طرندة Taranton، وجرجومه Gargaroum، وطنادة Tounada في إقليم قبادوقيا في حملة واحدة على يد مسلمة سنة 92هـ/711م<sup>3</sup>، ويبدو أنّ حملاته على المنطقة كانت مروّعة إلى درجة أنّ سكان مدينة سوسنة قد أخلوا ديارهم وفرّوا إلى داخل بلاد الروم<sup>4</sup>، فقام مسلمة بتدمير المدينة التي تشكّل مركزاً قوياً وحصيناً للبيزنطيين في منطقة الحدود، وكانت هدفاً لحملات المسلمين

رويسس: كورة من كور العواصم راکبة البحر بين أنطاكية وطرسوس. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج 3، ص 83.

<sup>1</sup> - تاريخ مدينة دمشق، ج 57، ص 361.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 303 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 442 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 26، ص 442؛ ج 58، ص 31.

أرزن: مدينة مشهورة من أعمار نواحي أرمينية بما قلعة ذات تحصين جيد. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 1، ص 150.

<sup>3</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

تكتفي المصادر العربية بالإشارة إلى عددها فقط (ثلاث حصون) دون تحديد أسمائها أو مواقعها.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 468.

J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 99.



سنوات عديدة<sup>1</sup>. أما الصائفة اليسرى ذلك العام فقد أسندت قيادتها لعثمان بن حيان المرّي<sup>2</sup>، الذي ركّز عملياته في منطقة قيليقية واستولى فيها على عدّة حصون ونقل قسما كبيرا من سكانها إلى الشام<sup>3</sup>. في العام الموالي (93هـ/712م) سقطت مدينة أماسية Amaseia (ماسة عند الطبري) المهمة في الشمال وعدّة حصون أخرى منيعة في حملة قادها مرّة أخرى مسلمة بن عبد الملك من ملطية<sup>4</sup>، مع ابن أخيه مروان بن الوليد الذي يظهر اسمه لأول مرّة في حملات الصوائف، وقد واصل هذا الأخير بشكل منفرد تقدّمه نحو الغرب على رأس قسم من الجيش حتّى بلغ خنجرة Gangra<sup>5</sup> وهي أكثر إغالا في بلاد الروم. في حين كان العباس بن الوليد على رأس الصائفة "اليسرى"<sup>6</sup> يحقّق إنجازات كبيرة بدوره حيث فتح عدّة حصون منها طرسوس، وسبسطية (سمسطية عند الطبري) وحصن آخر تطلق عليه المصادر اسم "المرزيانين"<sup>7</sup>، ويبدو أنّه أمضى الشتاء في الأناضول، حيث سنجدّه في السنة المقبلة يتوغّل أكثر غربا في الأقاليم الجنوبية لآسيا الصغرى حتّى يصل منطقة بيسيديا فيفتح بها مدنا أهمها أنطاكية (Antioch in Pisidia) التي سبى أهلها<sup>8</sup> ثمّ قام بتخريبها حتّى اشتهرت لاحقا باسم أنطاكية المحترقة، وكان ذلك سنة 94هـ/713م<sup>9</sup>، وقد تمّ تعزيز عملياته العسكرية هناك بجيش آخر يمثّل حملة الصائفة اليسرى لتلك السنة تحت قيادة يزيد بن أبي كبشة الذي تمركز في منطقة سورية (إيسوريا) حتّى يؤمّن مسرح عمليات العباس بن

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, p 175.

<sup>2</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 38، ص 348.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 527 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 239.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 469 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 33 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 278.

Theophanes: Ibid, p 532 / Agapius: Ibid, p 239 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 305.

<sup>6</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 26، ص 445.

<sup>7</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 469 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 278.

أرجح أنّ سبسطية التي تذكرها المصادر العربية من جملة فتوحات العباس سنة 93هـ هي في الحقيقة سياست Sebaste في منطقة قيليقية بين طرسوس وسلوقية، وليس سبسطية Sebasteia التي تقع إلى الشمال من ملطية، فالمدنية الأولى قريبة من طرسوس وتقع في مسار حملته العسكرية في المنطقة وبالتالي ستكون منطقيا ضمن مجال عملياته، بينما الثانية بعيدة جدًا من الناحية الجغرافية عن مسرح حملته العسكرية.

<sup>8</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 306 / الطبري: المصدر نفسه، ج 6، ص 483 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 282 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 460

Theophanes: Op cit, p 533 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 240 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 99 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479 / Timothy Venning: Op cit, p 193.

<sup>9</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 200.

الوليد ويحمي ظهره من أي هجوم بيزنطي محتمل، بينما قاد الصائفة اليمنى عبد العزيز بن الوليد الذي أدرب من ملطية وتوغّل في بلاد الروم ووصل بمحملته إلى حصن غزالة<sup>1</sup>.

وغاب مسلمة عن الغزو تلك السنة أين أقام موسم الحج، رغم أنّ خليفة بن خياط يورد رواية يذكر فيها أنّه غزا حتّى بلغ سندرّة وافتتحها<sup>2</sup>، لكنّ هذا الأمر يبدو مستحيلا عمليا، إذ أنّ موسم الحج تلك السنة تزامن مع فترة نشاط الصوائف (ذو الحجة/أوت).

يبدو أنّ السهولة النسبية التي صادفتها الحملات الإسلامية في اختراق أراضي العدو ترجع جزئيا لحالة الفوضى التي كانت تعيشها الإمبراطورية منذ سنة 711م (92هـ)، كما أنّ سياسة الإمبراطور فليبيكوس Philippicos الدينية المتشدّدة تجاه مواطنيه الأرمن قد خدمت كثيرا المسلمين، بالإضافة إلى أنّ تركيز الإمبراطورية في تلك الفترة كان منصبًا على حماية القسطنطينية من خطر البلغار الذين اجتاحتها أقاليمها الأوربية (تراقيا) سنة 712م (93هـ)<sup>3</sup>، لكن مع ذلك لا يمكن أبدا أن نقلل من الجهد العسكري الاستثنائي الذي كانت تقوم به الدولة الأموية أيضا، وقد أثبتت النجاحات الكبيرة للجيش الإسلامي، التي كانت تتوغّل وتستهدف أهم المعاقل البيزنطية في آسيا الصغرى دون عوائق جدية تواجهها، التفوق العسكري الواضح الذي أصبح عليه المسلمون في مواجهة الروم ما دفع الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس Anastasios إلى التفاوض من أجل السّلم، لكنّ الظروف أصبحت مواتية لتحضير مشروع أكثر جدية وأهمية بالنسبة للمسلمين، يستهدف العاصمة البيزنطية نفسها من جديد، فبدأ الوليد بن عبد الملك في آخر سنتين من حكمه التحضير بنشاط كبير لغزو القسطنطينية برّا وبحرا، وقد وقف مبعوث بيزنطي إلى الخليفة على حجم الاستعدادات الكبيرة التي كان يقوم بها المسلمون بشكل غير مسبوق، فنقل ذلك سريعا إلى الإمبراطور الذي باشر جهودا حثيثة بدوره لتعزيز الإمكانيات الدفاعية للعاصمة أمام خطر بات وشيكا مواجهته<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 306 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 483 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 282. Timothy Venning: Op cit, p 193.

<sup>2</sup> - تاريخ خليفة، ص 306.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit, p 177-178.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 534 / Nikephoros: Op cit, p 117 / Bury: Op cit, Vol 2, p 371.

تختلف المصادر في تقدير حجم القوّات التي تمّ تسخيرها لغزو القسطنطينية، ورغم المبالغة في أعدادها إلى درجة كبيرة، إلّا أنّها تتفق كلّها ضمنا على أنّها كانت قوّات ضخمة جدا واستثنائية، إذ يذكر كلّ من المسعودي في التنبيه والاشراف (ص 165)، والمقدسي في البدء والتاريخ (ج 3، ص 43) أنّ مسلمة كان على رأس جيش من مائة وعشرين ألف مقاتل، أما ابن كثير في البداية والنهاية (ج 12، ص 632) فيذكر أيضا أنّ عدد من سار مع مسلمة مائة وعشرون ألفا في البرّ ومثلهم في البحر بخلاف المتطوعين، بينما يذكر المؤرخ السرياني ميخائيل (ج 2، ص 484) أنّ مسلمة حشد مائتي ألف رجل من الجند وثلاثين ألف متطوع وخمسة آلاف مركب وآلاف الفعلة.

تواصلت حملات المسلمين على بلاد الروم، ففتح العباس سنة 95هـ/714م مدينة هرقله Heraclea وحصونها أخرى<sup>1</sup> ما وراء درب البوابات القيليقية، وهو إنجاز مهم آخر قام به العباس، فهذه المدينة تعتبر تقريبا بنفس الأهمية والمكانة التي تتمتع بها عمورية<sup>2</sup>. وكانت حملة بشر بن الوليد (على الأرجح نهاية سنة 95هـ/714م) آخر عمل عسكري ضدّ الروم في عهد الوليد بن عبد الملك، وهي ثاني شاتية تذكرها المصادر تصريحاً طيلة العهد المرواني، ويبدو أنّ بشرا سار بحملته أواخر فصل الصيف بعد أن أنهى الاشراف على موسم الحج وأمضى الشتاء داخل الأراضي البيزنطية ولم يعد إلّا بعد وفاة أبيه (جمادى الآخرة 96هـ/فيفري 715م)<sup>3</sup>.

وما يلاحظ على هذه الفترة منذ استئناف الحملات العسكرية ضدّ الروم في عهد عبد الملك حتّى التحضير لغزو القسطنطينية (مدة أكثر من عشرين سنة)، غياب أيّ إشارة في المصادر عن دور الأسطول البحري الإسلامي في دعم ومواكبة الحملات العسكرية البرية ضدّ البيزنطيين أو استهداف معاقلهم الساحلية كما كان الحال خلال الفترة السابقة في عهد معاوية بن أبي سفيان أين كان للبحرية حضورا بارزا في المواجهات ضدّ الروم، لكنّ الأستاذ عبد الهادي شعيرة يفترض أنّ غياب المعلومات عن دور الأسطول الإسلامي لا يعني غياب نشاطه، بل أنّه كان حاضرا سنويا وبصفة منتظمة كما تشهد بذلك أوراق البردي المصرية في عهد الوليد بن عبد الملك من خلال قائمة التقارير السنوية الخاصة بتحضير وتجهيز السفن، ويرى أيضا أنّه ليس هناك أيّ سبب يمنع من تعميم هذه الشهادة في الفترة السابقة<sup>4</sup>، وربما نجد في الحملات العديدة التي استهدفت إعادة فرض السيادة الإسلامية على جزر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ما يدعم هذا الطرح.

مع تويّ سليمان بن عبد الملك الخلافة عام 96هـ/715م كانت الاستعدادات لحملة القسطنطينية التي باشرها أخوه الوليد من قبل قد وصلت إلى مرحلتها الأخيرة، وستغطّي أخبار هذا العمل العسكري الضخم والاستثنائي على أخبار حملات الصوائف السنوية في المصادر التاريخية، وسنحاول هنا أن نستعرض أهم أحداثها دون الدخول في التفاصيل الدقيقة حتّى لا نخلّ بوحدة الموضوع، ذلك أنّ عمليات الصوائف ستصبح رديفا لها ومددا للعمليات الحربية عند أسوار القسطنطينية.

في ذلك العام (96هـ/715م) غزا مسلمة حتّى وصل منطقة غلاطية Galatia وسط الأناضول ففتح بها عدّة حصون وأسر عددا كبيرا من الناس، وقد تسببت حملته في إلحاق خسائر معتبرة ودمار كبير

<sup>1</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 492 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 288.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 179.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 313 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 495.

Cheira: Op cit, p 179.

<sup>4</sup> - Cheira: Ibid, p 196.

بالمنطقة<sup>1</sup>، وكما الحملات التي سبقتها في السنوات القليلة الأخيرة ساهمت هذه العمليات العسكرية في تخريب مناطق متفرقة من آسيا الصغرى ما أضعف كثيرا القدرات الدفاعية للروم، وفتح الطريق أمام حصار القسطنطينية من جديد دون أن يجد الجيش الرئيسي للحملة مقاومة حقيقية تحد من حركته. وهكذا اكتملت كل الاستعدادات وأصبحت الظروف مواتية لمباشرة العمليات ضد العاصمة الإمبراطورية فانقل الخليفة شمالا إلى دابق<sup>2</sup>، وهي مركز تجمع القوات الشامية المكلفة بغزو الصوائف، ومنها سير الجيوش لبلاد الروم فانطلق ابنه داود بن سليمان على رأس الصائفة اليمنى سنة 97هـ/716م عبر الجزيرة وغزا ما وراء ملطية ففتح بها حصنا تذكره المصادر العربية تحت اسم "حصن المرأة"<sup>3</sup>، بينما سار مسلمة على رأس الجيش الرئيسي عبر مرعش<sup>4</sup>، وتوغّل في منطقة فريجيا حتى أتى مدينة عمورية Amorion الاستراتيجية وسط الأناضول التي كانت تحت حصار قوات الطليعة التي تتقدم جيش مسلمة، وبعد مفاوضات صعبة توصل إلى توافق مع حاكمها ليو الايسوري Leo قائد المقاطعة وتحالف معه، ثم واصل تقدمه غربا باتجاه الساحل الإيحي مرورا بحصن أكروينون Akroinos<sup>5</sup> حيث استطاع أن يفتح عدّة حصون بالمنطقة، منها برجة Pergamon، وسردا (سردوسل عند خليفة) Sardis، وأمضى الشتاء هناك<sup>6</sup>، وقد رافق تحركات الجيش البري الذي يقوده مسلمة، أسطول بحري ضخّم يضمّ مئات السفن على رأسه عمر بن هبيرة كان قد انطلق من الشام إلى مصر ليجتمع بأسطولها هناك ومنها أبحروا إلى طرابلس الغرب قبل أن يتوجّهوا إلى بلاد الروم<sup>7</sup>.

مع انقضاء الشتاء تحرك مسلمة بقواته باتجاه القسطنطينية، فعبر مضيق الدردنيل نحو تراقيا على الجانب الأوربي من المضيق عند موضع أبيدوس Abydos (أبُدُس في المصادر العربية)<sup>8</sup>، ومع حلول شهر أوت من سنة 716م/98هـ كانت القوات الإسلامية قد أشرفت على العاصمة الإمبراطورية وفرضت

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 534 / Agapius: Op cit. Partie 2, p 240 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

<sup>2</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 8، ص 101 / مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مطبعة بريل، 1869، ج 3، ص 25. دابق: قرية تقع على مسافة أربعة فراسخ (حوالي اثنان وعشرون كيلومتر) عن حلب (شمالا) بها مرج فسيح معشّب اتخذه بنو مروان مركزا لتحضير حملات الصوائف. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 416.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 523 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 303 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 621.

<sup>4</sup> - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 25.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, pp 538-540 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 484.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 314 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 621.

<sup>7</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 50، ص 337-338.

يقدر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس عدد قطع الأسطول الإسلامي بألف وثمانمائة سفينة.

<sup>8</sup> - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 26.

عليها الحصار من الجهة الغربية عند البوابة الذهبية، بينما كانت السفن الإسلامية تنتشر في مياه القسطنطينية ومضائقها مع حلول شهر سبتمبر من نفس العام<sup>1</sup>، لكنّ الأسطول بقي عاجزا عن إتمام حلقة الحصار بشكل كامل نتيجة قوة التيارات البحرية المندفعة جنوبا عبر مضيق البوسفور واضطراب حركة الرياح فيه، إضافة إلى اغلاق ليو الإيسوري (الذي كان قد أصبح إمبراطورا حينها) لمدخل القرن الذهبي بسلسلة حديدية أمن بها الجانب الشمالي للمدينة<sup>2</sup>، وتعدّدت أوضاع الجيش الإسلامي أكثر مع نجاح الإمبراطور ليو في التحالف مع البلغار (البرجان في المصادر العربية) وتوظيفهم لضرب المسلمين وتشتيت جهودهم الحربية ما تسبّب في إلحاق خسائر كبيرة بهم حتّى اضطر مسلمة إلى طلب المدد من أخيه سليمان، فأمدّه بقوّات على رأسها مسعدة (وقيل عمرو بن قيس أو شراحيل بن عبيدة)<sup>3</sup>.

هكذا ومع الاستعداد الجيّد الذي كانت عليه المدينة<sup>4</sup>، لم يُفضّ الحصار مع بدايته إلى شيء يذكر، وزادت الأوضاع تعقيدا مع حلول فصل الشتاء الذي كان من سوء حظّ المسلمين شديد البرودة ذلك العام وعرف تساقطا كثيفا للثلوج، وفي ظلّ نقص المؤونة وانتشار الأوبئة فقد الجيش أعدادا كبيرة من الجنود بسبب الجوع والمرض وهلكت دوابهم، ولم يستطع سليمان بن عبد الملك، وهم في هذا الضيق أن يمدّهم بشيء بسبب الشتاء وانسداد الطرق والممرّات<sup>5</sup>.

مع حلول فصل الربيع كان أسطول المسلمين المحاصر للقسطنطينية قد تعزّز بمئات السفن القادمة من إفريقية ومصر<sup>6</sup>، لكن حتّى في ظلّ هذا التفوّق العددي لم يستطع الأسطول أن يلعب دورا حاسما في ترجيح مجرى الأحداث لصالح المسلمين، وكما حدث سابقا في حصار السبع سنوات استعان الروم بسلاحهم المدمّر "النار الاغريقية" في مواجهة السفن الإسلامية عندما فاجئوها وهي راسية في موانئها

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 545 / Nikephoros: Op cit, p 123 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 485.

<sup>2</sup> - إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ص 60.  
Theophanes: Ibid, p 545.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 532 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 22، ص 442-443؛ ج 57، ص 442.  
Theophanes: Ibid, p 546.

<sup>4</sup> - تذكر المصادر البيزنطية أنّ الإمبراطور أنسطاسيوس بعدما بلغته أخبار التحضيرات الإسلامية لحملة ضخمة ضدّ بلاده استعدّ لمواجهة الأمر، فقام بتخزين المؤن وترميم أسوار المدينة من جميع الجهات، وبناء مزيد من السفن وآلات الحرب للدفاع عن العاصمة، كما أمر بإجلاء كل من لا يستطيع توفير احتياجاته الغذائية الخاصة لمدة ثلاث سنوات حتّى لا يشكّلوا عبئا على المدينة التي كانت تتوقّع حصارا طويلا من العرب.

Nikephoros: Op cit, p 117.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 531 / مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 33.  
Theophanes: Op cit, p 546 / Nikephoros: Ibid, p 123.

<sup>6</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 33.  
Theophanes: Ibid, p 546 / Nikephoros: Ibid, p 123.

فألقوا بها خسائر كبيرة وأجبروا ما بقي من الأسطول على التقهقر<sup>1</sup>، وتوغّلت حملة برية (صائفة) في آخر عهد سليمان بن عبد الملك بقيادة الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي في بلاد الروم<sup>2</sup> باتجاه منطقة بيشنيا لدعم جيش مسلمة بن عبد الملك الذي أنهكه الجوع والمرض، لكنّ الفرق البيزنطية التي كانت منتشرة في الضفة الآسيوية بين نيقية Nicaea ونيقوميديا Nicomedia عملت على قطع خطوط الامداد العربية وألحقت خسائر معتبرة في صفوف التعزيزات التي أرسلها سليمان بن عبد الملك<sup>3</sup>.

لقد كانت محاولات الاستيلاء على القسطنطينية تسير بشكل سيء للغاية وكان الجيش يعاني عند أسوار المدينة، ومع استلام عمر بن عبد العزيز الخلافة، في صفر سنة 99هـ/سبتمبر 717م، خلفا لسليمان بن عبد الملك قرّر فوراً وقف الحصار وسحب القوّات الإسلامية، فبعث إلى مسلمة يأمره بالعودة وأمدّه بكلّ ما يحتاج من طعام ودواب وأموال ليتقوى به<sup>4</sup>، لكنّ مسلمة تردّد في تنفيذ قرار عمر بن عبد العزيز وأراد أن يماطله فراجعه في الأمر وحاججه في ذلك، لكنّ الخليفة كان قد حسم أمره فردّ إليه الرسول مرّة أخرى يشدّد على تنفيذ الأوامر بالانسحاب<sup>5</sup>، ولا بدّ أنّ تردّد الرسول بين الرجلين أكثر من مرّة قد استهلك وقتاً ليس بالقليل حتّى حلّ فصل الشتاء، فاضطرّ مسلمة إلى انتظار اعتدال المناخ لتنفيذ قرار الخليفة بسحب القوّات الإسلامية، هذا ما تؤكّد عليه رواية ميخائيل السرياني مع بعض التفاصيل الأخرى المهمة<sup>6</sup>، وهكذا لم تبدأ عملية الانسحاب إلا في أوت 718م/محرم سنة 100هـ، وفي طريق العودة واجه الأسطول الإسلامي عواصف شديدة في بحر إيجه - كما حدث خلال الحملة السابقة ضدّ القسطنطينية - حطّمت معظم السفن وزاد من متاعب المسلمين المطاردات التي كانت تقوم بها القوّات البيزنطية في البرّ والبحر ضدّهم، والتي فاقمت من خسائر القوّات المتبقية من الجيش الإسلامي<sup>7</sup>.

لقد كان هذا الفشل الذريع نكسة قويّة، فلن يحاول أيّ أحد من حكّام الدولة الأموية مرّة أخرى غزو القسطنطينية، وسوف تفتّر حملات المسلمين السنوية على بلاد الروم لمُدّة سبع سنوات كاملة، وتتجنّب بذلك بيزنطة الاندفاع الإسلامي الجارف والهجمات المدمّرة في آسيا الصغرى<sup>8</sup>، وهكذا ستنحصر

1 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 104.

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 319-320 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 63، ص 315.

3 - Theophanes: Op cit, p 546 / Timothy Venning: Op cit, p 196.

4 - خليفة: المصدر السابق، ص 320 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 553.

Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 486.

5 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 232.

6 - Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 486.

7 - Theophanes: Op cit, p 550 / Nikephoros: Op cit, p 125 / Michel le Syrien: Ibid, p 486 / Cheira: Op cit, pp 189-190.

8 - Bury: Op cit, Vol 2, p 405.

المواجهات بين القوتين في السنوات التي تلت هذا الفشل في نطاق محلي حول قيليقية وقبادوقيا وأرمينية<sup>1</sup>، وستنتقل بيزنطة تدريجياً إلى وضعية الهجوم ولو بصورة محتشمة، لكن سنلاحظ أنّ هزائم المسلمين التي كانت نادرة قبل حصار القسطنطينية سنة 99هـ/717م ستصبح أقلّ غرابة بعد ذلك<sup>2</sup>، حيث ستواجه حملات المسلمين على المعقل البيزنطية صعوبات حقيقية تحدّ من نشاطها وتوغّلها، كما سوف تستقطب جبهة أرمينية وأذربيجان قسماً كبيراً من الجهود الحربية الإسلامي بسبب تفاقم خطر الخزر الذين تحالف معهم الروم ووظفهم لمناوئة المسلمين لإشغالهم عن تركيز حملاتهم العسكرية المدمّرة على الأناضول.

في آخر فترة خلافته، أرسل عمر بن عبد العزيز، حملتين إلى بلاد الروم استغرقت أواخر سنة 100هـ وبداية سنة 101هـ/719م، وعلى غير العادة لم يُسند قيادتها لأفراد من البيت مرواني وإمّا لقادة الأجناد، حيث عين على رأس الحملة الأولى (الصائفة اليمنى) الوليد بن هشام المعيطي حاكم قنسرين، أمّا الثانية (الصائفة اليسرى) فكانت تحت قيادة عمرو بن قيس السكوني حاكم حمص<sup>3</sup> ولا ترد أيّ تفاصيل في المصادر حول وجهة الحملتين والمناطق التي استهدفتها، ولا ما حقّفته من نتائج ما عدا إشارة عابرة عند أبي زرعة وابن عساكر توشي بأنّ الوليد بن هشام قد غنم في حملته وأسر عدداً كبيراً من الروم فجعل لكلّ من كان معه في الجيش نصيباً من المغنم عربياً كان أم هجينا (ابن الأمة)<sup>4</sup>، ما يوحي أنّ الحملة كانت مُرضية على الأقل من الناحية المادية.

مع موت عمر بن عبد العزيز سنة 101هـ/720م، ظهرت حركة تمرد في الأقاليم الشرقية للخلافة قادها يزيد بن المهلب، فلم يتمّ إرسال صائفة ذلك العام حيث اضطرّ الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملك إلى صرف أهمّ قائدين مجربين لديه ولهما باع في قتال البيزنطيين، مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، مع الجند الشامي إلى العراق لإخماد الثورة التي قادها يزيد بن المهلب، وبعد القضاء على هذا الخطر الطارئ في الشرق مع بداية سنة 102هـ/720م سيجد يزيد بن عبد الملك نفسه متحرّراً من كلّ ضغط لإعادة إطلاق الحملات المعتادة إلى بلاد الروم<sup>5</sup> والتي ستصبح محدودة وتراجع حدّتها طيلة فترة حكمه وستتركز

<sup>1</sup> - Sophie Métivier: L'organisation de la frontière Arabo-byzantine en Cappadoce (8<sup>e</sup>-9<sup>e</sup> siècles), 2008, p 438.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 82.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 556 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 46، ص 320.

<sup>4</sup> - النصري: المصدر السابق، ص 153 / ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 63، ص 315.

<sup>5</sup> - استطاع مسلمة أن يقضي على حركة التمرد التي قادها يزيد بن المهلب في صفر (أوت) سنة 102هـ أي في الشهر الثاني من بداية السنة الهجرية، وعليه يمكن حساباً تنظيم حملة لغزو الروم في هذه السنة، إذ عادة ما تنطلق الصوائف في شهر ماي مع اعتدال المناخ وهو ما يتصادف مع الشهر الحادي عشر (ذو القعدة) في تلك السنة، وعليه أرجح أنّ سنة 102هـ شهدت إعادة إطلاق حملات الصوائف بعد انقطاع موسم واحد فقط عكس ما يذهب إليه فتحي عثمان الذي يجزم باستحالة إرسال حملة ضدّ الروم في هذه السنة ويؤرخها بالسنة الموالية، عام 103هـ، لكن يجب الإشارة إلى أنّ الحملة إذا انطلقت نهاية السنة ستمتدّ حتماً حتّى مطلع السنة التي تليها.

في معظمها في المناطق الحدودية ما وراء جبال طوروس دون التوغّل عميقا في آسيا الصغرى، وستحقّق نتائج متواضعة مقارنة بالفترة السابقة، ففي هذه الفترة بالذات بدأت جبهة أرمينية وأذربيجان تستقطب بشكل متزايد تركيز الخلفاء لمواجهة خطر الخزر المتفاقم هناك.

في مطلع سنة 102هـ/721م انطلق والي الجزيرة عمر بن هبيرة على رأس الصائفة في حملة على أرمينية الرابعة أين اشتبك مع قوّات الروم هناك فألحق بهم الهزيمة وأسر عددا معتبرا منهم في حدود سبعمائة فرد<sup>1</sup>، وفي نهاية السنة، على الأرجح في ذو القعدة (ماي)<sup>2</sup>، قاد العباس بن الوليد، الذي كان قبل أشهر قليلة فقط في العراق يتصدّى لثورة يزيد بن المهلب، صائفة أخرى ضدّ بلاد الروم واستمرت حملته حتّى بداية السنة الموالية وافتتح هناك حصن دبسة Thebassa<sup>3</sup>، الذي يقع غرب درب البوابات القيليقية ممّا يلي هرقله وتذكره المصادر تحت أسماء مختلفة مثل "رسلة" و"دلسة"، ويجعله الطبري من فتوح العباس سنة 103هـ/721م<sup>4</sup>، وبينما يعتقد الأستاذ عبد الهادي شعيرة أنّ الاسمين الأخيرين يشيران إلى مدينة لاريسا Larissa التي يعتبرها هدفا منطقيا للمسلمين بعد عملية اخلاء طُرندة قبل ذلك بسنوات قليلة<sup>5</sup>، يبدو أنّ رسالة أو دلسة، في الحقيقة هي تحريف لاسم حصن دبسة الذي ذكره خليفة، أمّا المؤرّخ السرياني أغاببوس فيشير إلى أنّ العباس قصد منطقة بافلاجونيا في الشمال، ففتح بها حصنا وسي عددا كبيرا من أهلها في حدود عشرين ألف شخص<sup>6</sup>، وهذه الرواية يصعب تصديقها وعنصر المبالغة فيها واضح ولا يعكس حجم الصعوبات التي واجهتها هذه الحملة بالذات حيث اعترضتها مقاومة عنيفة، وتذكر بعض الروايات أنّ المسلمين عانوا من خسائر في الأرواح<sup>7</sup>، وتذهب أخرى أبعد من ذلك عندما تورد أنّ المسلمين تكبّدوا الهزيمة أمام الروم<sup>8</sup>، وكانت تلك آخر غزوة يقودها العباس ضدّ بلاد الروم في مسيرته

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 243 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 616 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 354.

<sup>2</sup> - عند التطرّق لحملات الصوائف في عهد يزيد بن عبد الملك تصادفنا إشكالية تتمثّل في تزامن بداية موسم الغزو في شهر ماي مع نهاية السنة الهجرية (ذو القعدة - ذو الحجة) حيث كانت الحملات تنطلق في الأسابيع الأخيرة من كلّ سنة تقريبا ولا ترجع إلّا مع بداية السنة الموالية ممّا أوقع المصادر في اضطراب وتضارب وتكرار المعلومات والأحداث.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 327 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 442-443 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 354.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 619 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 356.

<sup>5</sup> - Cheira: Op cit, p 222.

<sup>6</sup> - Agapius: Op cit, Partie 2, p 245.

<sup>7</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 243.

<sup>8</sup> - Elie Bar Sinaya: Op cit, p 101.



العسكرية بعد أكثر من خمسة عشر سنة من قيادة الجيوش في ساحات المعارك حقق خلالها نجاحات وإنجازات كثيرة استحق بها لقب "فارس بني مروان" <sup>1</sup>.

وغزا في تلك السنة أيضا (103هـ/722م) عثمان بن حيان المرّي مع عبد الرحمن بن سليم الكلبي فافتتحا حصنا من بلاد الروم <sup>2</sup>، يُعرف باسم "سيرة (أو سميره)" <sup>3</sup> في المصادر العربية، وهو ربّما حصن kyzistra شمال طوروس على تخوم قبادوقيا.

في سنة 104هـ/723م، قاد الصائفة اليمني عبد الرحمن بن سليم الكلبي، والصائفة اليسرى عثمان بن حيان المرّي، هذا الأخير تمكّن من فتح حصن قيصرية <sup>4</sup> الذي ربّما يكون هو نفسه قيصرية، ويذكر ابن عساكر أنّ عثمان بن حيان، استهدف في هذه السنة أيضا مدينة عمورية، حيث يبدو أنّ الحملة قد واصلت على الأرجح توغلها غربا في بلاد الروم بعد الاستيلاء على قيصرية (قيصرية) حتّى بلغت عمورية التي تعرّضت لحصار شديد استعمل فيه ستة وثلاثين منجنيقا لدك أسوارها وتحصيناتها، لكنّ المدينة صمدت بشكل جيّد فتركها عثمان بن حيان وأغار على مناطق متفرّقة ثمّ انسحب <sup>5</sup>، وقد استغرقت هذه الحملة كسابقتها أواخر سنة 104هـ وبدايات سنة 105هـ (الفترة التي توافق سنة 723م) ما يفسر ظهور اسم عثمان بن حيان مرّة أخرى على رأس الصائفة سنة 105هـ في بعض المصادر <sup>6</sup>.

وعرفت بداية سنة 105هـ/723م، وهي آخر سنة في خلافة يزيد بن عبد الملك، إرسال حملة عسكرية وقائية على الحدود الأرمينية البيزنطية لإشغال الروم في المنطقة ومنعهم من الاستفادة من تحرك الخزر <sup>7</sup>، في القوقاز، فأبّحه مروان بن محمد بجند الجزيرة والشام عبر درب ملطية حتّى انتهى إلى حصن كميخ، ثمّ توغل في أرض الروم وفتح مدينة مهمّة هناك، هي على الأرجح قلونية Koloneia وليس

1 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 438.

2 - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 243.

3 - خليفة: المصدر السابق، ص 330 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 38، ص 348.

يذكر خليفة أنّ الحصن فتح سنة 104هـ مع أنّ المصادر تذكر بكلّ وضوح في هذه السنة أنّ عبد الرحمن بن سليم قاد الصائفة اليمني، وعثمان بن حيان قاد الصائفة اليسرى، ومعلوم أنّ الأولى تدخل بلاد الروم عبر الجزيرة والثانية عبر أنطاكية، ولكلّ منهما ميدان عمليات مستقلّ، فمن غير المنطقي أن يكونا قد سارا معا حتّى دخلا بلاد الروم، والحقيقة أنّ الحصن يكون قد فتح فعلا مطلع سنة 104هـ إذا أخذنا في الاعتبار أنّ الحملة قد انطلقت أواخر سنة 103هـ (ذو الحجة/ماي) وهو ما يفسر التضارب في تسجيل الحدث بين خليفة واليعقوبي.

4 - خليفة: المصدر نفسه، ص 330 / ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 38، ص 348.

5 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 66، ص 140.

6 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 38، ص 348.

7 - Cheira: Op cit, p 223.

قونية (كما ذكر ابن الأثير)<sup>1</sup> البعيدة عن مسرح عملياته، بينما يذكر صاحب كتاب العيون والحدائق أن مروان حاصر حصنا يسمى مواسا وقام بتوظيف المجانيق في ضرب تحصيناته حتى فتحه<sup>2</sup>.

بعدها وخلال فترة حكم هشام بن عبد الملك الطويلة والمستقرة نسبيا بين 105-125هـ/724-743م، والذي تصفه المصادر بالحزم وحسن التدبير في الحرب<sup>3</sup>، ستنتعش حملات الصوائف من جديد وستأخذ وتيرة تصاعدية، أين سنرى مرة أخرى الجيوش الإسلامية وهي تضرب العمق البيزنطي حتى تكاد تغطّي كل ربوع آسيا الصغرى، وسيشتهر ابنا الخليفة، معاوية بن هشام وسليمان بن هشام، بقيادة الحملات وتحقيق مكاسب كبيرة للدولة الأموية.

بعد أشهر قليلة من تولى هشام بن عبد الملك الخلافة، أسند أول صائفتين في عهده (سنة 106هـ/724م) لولده معاوية، وأخيه سعيد بن عبد الملك، هذا الأخير سار بقوات الصائفة اليسرى حتى أتى دابق شمال حلب فعسكر فيها ثم انطلق منها إلى بلاد الروم، ويبدو أن قلّة خبرته العسكرية لم تسعفه لتحقيق شيء يذكر في هذه الحملة، وكان قد وجّه سرية من ألف فارس للإغارة على المناطق المجاورة لمسرح عملياته فأوقعت بهم الروم وقتلت كل من كان فيها<sup>4</sup>، بينما قاد معاوية بن هشام الصائفة اليمنى مع الفارس المشهور الوضّاح الذي يرأس فرقة مختارة من الفرسان تنسب له وتعرف بالوضاحية، فقام بإحراق مراعي وقرى الروم وألحق بها خرابا كبيرا<sup>5</sup>.

ستشهد سنة 107هـ/725م، عودة الفتوحات المهمة من جديد حيث استطاع مسلمة بن عبد الملك أن يخضع مدينة قيسارية -قيصرية- Caesarea ذات المكانة المعتبرة في منطقة قبادوقيا، وتختلف المصادر العربية في تحديد تاريخ فتح المدينة، فخليفة وصاحب كتاب العيون والحدائق يجعلانها سنة 107هـ/726م، بينما يوردها الطبري وابن الجوزي وابن الأثير في أحداث سنة 108هـ/726م<sup>6</sup>، أما المصادر المسيحية (ثيوفانس وأغابوس وإيليا النصيبي) فتذكرها في السنة الثالثة لحكم هشام<sup>7</sup>، هذا الأخير الذي تولى الخلافة مباشرة بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك في شعبان سنة 105هـ/جانفي 724م<sup>8</sup>.

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 331 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 371.

2 - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 89.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 8، ص 78 / المسعودي، أبي الحسن بن علي (ت 346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2005، ج 3، ص 170.

4 - الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 21 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 216-217.

5 - خليفة: المصدر السابق، ص 337 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 259.

6 - خليفة: المصدر نفسه، ص 337 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 43 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 7، ص 121 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 380 / مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 89.

7 - Theophanes: Op cit, p 559 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 101 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 246.

8 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 244.

وهكذا تكون سنة 726م التي توافق سنة 107هـ هي السنة الثالثة من حكمه، ما يجعل رواية خليفة وصاحب كتاب العيون والحدائق حول تاريخ فتح المدينة تتطابق مع ما أورده ثيوفانس وأغابوس وإيليا، وبالتالي يمكن الجزم بصحتها. على كل حال يذكر خليفة وابن عساكر أنّ المدينة فتحت في رمضان سنة 107هـ/جانفي 726م، ما يجعل من الحملة التي قادها مسلمة شاتية، وهو ما تغفل المصادر عن ذكره تماما، وكان قد سار عبر الجزيرة ودخل إلى بلاد الروم من درب ملطية ثمّ انعطف يسارا حتى أتى المدينة فأقام عليها حتى فتحها عنوة<sup>1</sup>، بعد تواطؤ سكانها من اليهود الذين دلّوه على المكان المناسب لاقتحامها حسب رواية أحد المصادر السريانية<sup>2</sup>، وغزا في البحر تلك السنة معاوية بن هشام مع ميمون بن مهران حتى بلغا جزيرة قبرص<sup>3</sup>.

ومن المؤكّد أنّ مسلمة بن عبد الملك قد أمضى شتاء تلك السنة في بلاد الروم وباشر نشاطه العسكري بعد اعتدال المناخ مطلع سنة 108هـ/726م، وهو ما يفسّر ورود اسمه على الصائفة اليمنى تلك السنة حيث استطاع أن يفتح حصونا من ناحية مسونه كما تذكر المصادر<sup>4</sup>، في حين تولّى قيادة الصائفة اليسرى عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي<sup>5</sup>، أو ابراهيم بن هشام الذي استطاع أن يفتح حصنا دون أن تحدّد المصادر اسمه ولا موقعه<sup>6</sup>.

ستكون صائفة سنة 109هـ/727م أكثر توفيقا، أين سنرى من جديد جيوش المسلمين تتوغّل عميقا داخل بلاد الروم وتحقق إنجازا كبيرا آخر، ففي تلك السنة قاد معاوية بن هشام ومعه عبد الله البطل حملة تضمّ قوّات كبيرة جدا<sup>7</sup>، ويكون معاوية على الأرجح قد انطلق بجيشه من الشام عبر أنطاكية حتى أتى المصيصة في قيليقية فانضمّ إليه عاملها عبد الله البطل مع مقاتلتها من أهل أنطاكية ومنها اجتازوا درب البوابات القيليقية إلى غلاطية ففتحا بها حصن أتيوس (Ateous) (العطاسين أو طيبة في المصادر العربية)، وقد أدّت المواجهات مع الروم إلى استشهاد عدد من قوّات البطل التي تتكوّن من أهل أنطاكية ما يدلّ على أنّ الجيش الإسلامي واجه مقاومة عنيفة من طرف القوّات البيزنطية<sup>8</sup>، ثمّ فرّق معاوية بن

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 337 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 58، ص 37.

2 - The Chronicle of Zuqnin: Translated from Syriac by Amir Harrak, Pontifical Institute of Mediaeval Studies, Canada, 1999, p 161.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 40.

4 - ابن عساكر، المصدر السابق، ج 58، ص 39.

5 - خليفة: المصدر السابق، ص 338 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 259 / ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 25، ص 255.

6 - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 43.

7 - Theophanes: Op cit, p 560.

8 يبالغ ثيوفانس كثيرا في تقدير عدد قوات حملة الصائفة حين يحددها بمائة ألف مقاتل، 85 ألفا منها تمثّل الجيش الرئيسي بقيادة معاوية بن هشام، و15 ألف بقيادة عمرو بن الوضّاح تمثّل طالعة الحملة، وهذا العدد الكبير لا يتلاءم مع طبيعة الحملة (صائفة عادية) وأهدافها.

8 - خليفة: المصدر السابق، ص 339 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 46 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 383.

هشام السرايا في مختلف الجهات فبعث البطال على رأس مجموعة من الجند فتوجّه شمالا حتى وصل مدينة خنجرة Gangra في منطقة بافلاجونيا فوجد سكانها قد فرّوا بعد سماعهم بتقدّم الجيش الإسلامي، فاستولى عليها وقام بتدمير أسوارها وتخريب المدينة بالكامل<sup>1</sup>، وفي نفس الوقت كان عمرو بن الوضّاح على رأس قسم من الجيش يتقدّم باتجاه منطقة بيثينيا أين فرض الحصار على حاضرتها مدينة نيقية Nicaea<sup>2</sup> التي وجدها على غير استعداد، وبعد مدّة قصيرة التحق به معاوية مع الجيش الرئيسي للحملة، ورغم المحاولات المتكرّرة لإخضاع المدينة والتي تمّ فيها استخدام مختلف أنواع آلات الحصار، لم يستطع المسلمون إلّا أضراراً بسيطة فقط بأسوارها التي صمدت، تحت قيادة أرتباسدوس Artabados صهر الإمبراطور، بشكل جيّد أمام كل الهجمات ما اضطرّ معاوية في النهاية بعد أربعين يوماً من الحصار إلى الانسحاب والاكتفاء بما حقّقه من مكاسب مادية<sup>3</sup>.

وتذكر المصادر أحداث هذه الحملة بشكل متفرّق بين سنتي 108هـ و109هـ (726-727م) لكنني أرجح أنّها كانت كلها في نفس العام، سنة 109هـ.

بعد ذلك ستشهد عمليات الصوائف اضطراباً وركوداً، حيث سيتمّ التركيز على الدفاع عن أذربيجان وأرمينية لتأمينها من خطر الخزر ومحاولة دحرهم كأولوية عسكرية بالنسبة للدولة الأموية، أما على جبهة الروم فسيواصل الضغط العسكري لكن بصورة محتشمة وسيكتفي المسلمون في بعض الأحيان بإرسال حملة واحدة فقط في السنة، مع الحرص على عدم التوغّل كثيراً في آسيا الصغرى وتجنّب المغامرات التي قد تكلف كثيراً.

صملة، أو صمالة Sémalouos، التي تقع في بند الأرمنياق بين قيصرية وأنقرة، كانت هدف حملة معاوية بن هشام لصائفة سنة 110هـ/728م<sup>4</sup>، وتغيّب التفاصيل عن الحملة في المصادر لكن يبدو أنّها كلّت بنجاح معتبر، فقد فتح فيها معاوية حصنين مهمّين واستولى على غنائم كثيرة ورجع سالماً<sup>5</sup>.

---

Theophanes: Ibid, p 563.

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 338 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 259.

Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 501.

<sup>2</sup> - نيقية: من مدن الروم العظيمة على البر الشرقي من القسطنطينية، ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 5، ص 333.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 560 / Nikephoros: Op cit, p 131 / Michel le syrien: Ibid, p 501

نحاية الرواية عند ميخائيل السرياني تختلف عن المصادر البيزنطية، حيث يذكر أنّ المدينة سقطت في يد المسلمين بعد حصار دام أربعين يوماً، وقاموا بتدميرها بعد أن فرّ أهلها منها على متن القوارب.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 340 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 54.

Cheira: Op cit, p 225.

<sup>5</sup> - ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 41.

نسجل في سنة 111هـ/729م، استهداف بلاد الروم بحملتين (صائفتين)، بعد أن اكتفت الدولة الأموية بإرسال حملة واحدة فقط في السنة لعامين متتاليين قبلها، كان على رأس الصائفة اليمنى سعيد بن هشام الذي عبر الجزيرة ودخل بلاد الروم حتى بلغ قيسارية (قيصرية)<sup>1</sup>، التي كان قد فتحها وخربها عمه مسلمة قبل ذلك بأربع سنوات، واستهداف المدينة من جديد ربما يشير لمحاولة المسلمين عرقلة مجهودات الإمبراطورية البيزنطية لإعادة اعمارها مرة أخرى، حتى تبقى المنطقة مفتوحة أمام تحركات الجيوش الإسلامية دون مقاومة جدية، خاصة أن هذه المدينة المهمة تتمتع بقيمة استراتيجية كبيرة بفضل موقعها الذي يتحكم في الطريق الرئيسي الذي يربط مرعش بوسط الأناضول وأنقرة. أما الصائفة اليسرى فقادها معاوية بن هشام، ويبدو أنه لم يواجه صعوبات كبيرة في حملته فغزا وانصرف<sup>2</sup>.

في السنة التي تلتها، عام 112هـ/730م، غزا معاوية كالعادة بلاد الروم لكنه هذه المرة ركز عملياته على منطقة قبادوقيا فاجه عبر ملطية إلى خرشنة Charsianon وهو حصن منيع وذو أهمية بالغة، إذ أنه يقع في ملتقى الطرق التي تؤدي إلى عمق الأناضول، وقد وفق معاوية بن هشام في الاستيلاء على الحصن، وألحقت عملياته العسكرية ضررا كبيرا بالمنطقة<sup>3</sup>، ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أن الذي قاد الحملة هو مسلمة، وبأن المسلمين استولوا على الحصن بالخدعة<sup>4</sup> لكنه لا يروي كيف تم ذلك؟ ما يجعل روايته محل شك ربما بدافع التقليل من قيمة الإنجازات التي حققتها حملات المسلمين على بلاد الروم، مع ما يحمله هذا المؤرخ من نظرة سلبية اتجاههم.

يكتنف الغموض صائفة سنة 113هـ/731م، فبينما لا يذكر خليفة شيئا بهذا الخصوص، نجد الطبري يشير إلى أن معاوية بن هشام خرج على رأس حملة الغزو السنوية لكنه رابط ناحية مرعش ثم رجع، بينما يذكر اليعقوبي أن معاوية لم يستطع دخول بلاد الروم فربط بالعمق من ناحية مرعش<sup>5</sup> دون أن يذكر العائق الذي كان سببا في ذلك، ولا يمكن التخمين هنا إلا في أن صائفة تلك السنة كانت حملة دفاعية وقائية لضمان عدم استغلال الروم لتداعيات ما يحدث على جبهة القوقاز في مواجهة الخزر الذين كانوا قد ألحقوا بالمسلمين هزيمة مفرجة قبل ذلك بسنة واحدة فقط (عام 112هـ/730م) واستولوا على أذربيجان

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 341 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 67.

2 - خليفة: المصدر نفسه، ص 341 / الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 67 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 59، ص 282.

3 - خليفة: المصدر نفسه، ص 343 / الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 70 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 59، ص 282.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 501.

4 - Theophanes: Op cit, p 567.

5 - تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 260 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 88.

يعتقد الأستاذ عبد الهادي شعيرة أن معاوية بن هشام بعدما عسكر في مرعش أرسل سرية يقودها البطال داخل بلاد الروم، والتي انقت بفرقة من الروم أكثر عددا فانهزموا، وقتل في هذه المعركة الفارس المشهور عبد الوهاب بن بخت! وشعيرة هنا ينقل هذه الحادثة عن الطبري وابن الأثير وغيرهما، بينما في الحقيقة أن ابن بخت قد استشهد مع البطال ومالك بن شبيب في معركة أكرينون سنة 122هـ كما سنرى لاحقا.

وامتدّ تهديدهم ليصل إلى مشارف الموصل<sup>1</sup>، وهكذا يبدو أنّ التحضير لحملة جدّية للحزم كان أكثر إلحاحا من الاستمرار في إرسال الصوائف ضدّ الروم.

ثمّ سنلاحظ بعض الانتعاش في حركة الصوائف لتأخذ منحى تصاعديا من جديد وتبلغ ذروتها سنة 122هـ/740م مع حملة أكرونيون (أقرن في المصادر العربية)، وبين سنتي 114-119هـ/732-735م سنسجّل بعض الحملات الأكثر عنفا منذ مدّة طويلة، وستشمل مناطق عديدة من بفلاجونيا شمالا حتّى المناطق الغربية لآسيا الصغرى، مستهدفة أهمّ الحواضر والمراكز البيزنطية.

كانت قيصرية هدفا لحملات المسلمين من جديد، حيث هاجمها سليمان بن هشام الذي كان يقود الصائفة اليمنى سنة 114هـ/732م، ويعتبر هذا الهجوم هو الثاني الذي تعرّض له المدينة في ظرف ثلاث سنوات، وإن كانت الحملة لم تنجح في السيطرة على المدينة إلا أنّها من المؤكّد ألحقت أضرارا بها وخرّبت المناطق القريبة منها، وفي نفس الوقت كان أخوه معاوية بن هشام يقود الصائفة اليسرى، التي يبدو أنّها كانت حملة أكثر أهميّة حيث ضمت جيشا يتكوّن من حوالي عشرين ألف مقاتل، فتوغّل بهم في بلاد الروم وجعل على مقدّمته عبد الله البطال الذي سار في بلاد العدو حتّى اصطدم بجيش بيزنطي يقوده شخص يدعى قسطنطين، يبدو من خلال اهتمام المصادر بذكر اسمه -وهي حالة استثنائية- أنّه شخصية ذو مكانة معتبرة، فاشتبك معهم البطال وأسر قائدهم قسطنطين<sup>2</sup>، في حين كان عمرو بن الوضّاح أيضا على رأس قسم من الجيش يصادف نجاحا كبيرا بدوره، حيث نجح في فتح مناطق عديدة وأصاب الكثير من الغنائم والسبي، وفي طريق عودته تعرّض لكمين من طرف الروم وبعد قتال شديد استطاع المسلمون أن يتخلّصوا منهم مع ما كان في أيديهم من السبي والغنائم<sup>3</sup>، لكن مع ذلك نجح البيزنطيون في إلحاق خسائر معتبرة في صفوف القوّات التي كانت مع ابن الوضّاح<sup>4</sup>.

سيواصل بعدها معاوية بن هشام حملاته المظفّرة على بلاد الروم وسيستهدف سنة 115هـ/733م منطقة بافلاجونيا (أفلاجونية في المصادر العربية) أقصى شمال آسيا الصغرى، وهذه المرّة الثانية فقط التي تشير فيها المصادر إلى بلوغ الجيوش الاسلامية هذا الحدّ في الشمال، وقد تمكّن معاوية من تحقيق مكاسب كثيرة في المنطقة بما في ذلك الاستيلاء على عدد كبير من السبي والغنائم<sup>5</sup>، وقد غزا معاوية في هذه الحملة بأهل الشام والجزيرة، وكان معه عبد الله البطال الذي استطاع بدوره أن يلحق هزيمة كبيرة بقوّات بيزنطية

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 343 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 246-247-248.

2 - خليفة: المصدر نفسه، ص 345-346 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 90.

3 - خليفة: المصدر نفسه، ص 345-346 / الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 90 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 46، ص 445-446؛ ج 59، ص 281.

4 - Elie Bar Sinaya: Op cit, p 102 / Cheira: Op cit, p 227.

5 - خليفة المصدر السابق، ص 346 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 59، ص 282.

Theophanes: Op cit, p 568 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 247.

حاولت التصدي له كان ضمن صفوفها عبد انتسب لأم البنين من بني أمية يعرف بـ "البريدي" استطاع أن يقتل خمسة مسلمين خرجوا لمبارزته تباعا قبل أن يتصدي له البطال ويقتله<sup>1</sup>، ويذكر خليفة أن هذه الغزوة كانت في شهر رمضان<sup>2</sup> الذي يوافق شهري أكتوبر ونوفمبر<sup>3</sup>، وهذا التوقيت متأخر جدًا عن موعد انطلاق الصوائف ومتقدم عن موعد الشواتي، وأنا أرجح هنا أن هذه الحملة كانت صائفة، ربما تكون انطلقت في وقت متأخر نسبيًا أواخر جويلية حيث ما زال وقت الغزو ممكنًا<sup>4</sup>، فسارت في بلاد الروم حتى بلغت بافلاجونيا (أفلاجونية) في سبتمبر واستمرت هناك حتى شهر أكتوبر ثم رجعت، فتكون قد أمضت حوالي ثلاثة أشهر في بلاد الروم، وهي مدة تزيد قليلا عن الوقت الذي تستغرقه عادة حملات الصوائف.

بعد عملياته الموقفة في الشمال، ستعاني مناطق جنوب وغرب آسيا الصغرى من الحملات المدمرة لمعاوية بن هشام عاما تلو الآخر حتى وفاته سنة 119هـ/737م، أين كان يتولى قيادة الصوائف اليسرى عبر قيليقية حيث ستصبح هذه الحملات أكثر نجاحا وتوفيقا من نظيرتها (الصوائف اليمنى) على جبهة الجزيرة تحت قيادة أخيه سليمان بن هشام.

بعد حملة يظهر أنها لم تكن ذات أهمية كبيرة سنة 116هـ/736م، حيث لا نجد لها أي تفاصيل في المصادر<sup>5</sup>، سوف يستهدف معاوية في السنة الموالية (عام 117هـ/735م) غرب آسيا الصغرى ويتوغل بقواته حتى يبلغ سيرة Kibyra (أو Cibyra) أين قام بتفريق السرايا في المناطق المحيطة حتى بلغت سرده Sardis<sup>6</sup>، وقد خلفت عملياته في المنطقة، التي تطلق عليها المصادر البيزنطية اسم آسيا، خرابا ودمارا كبيرين، وأوقعت عددا معتبرا من الأسرى<sup>7</sup>، ثم غزا معاوية مرة أخرى سنة 118هـ/736م، وفي سنة 119هـ/737م أوغل في بلاد الروم حتى وصل بلونية (أو فلونية)<sup>8</sup> التي لا نستطيع تحديدها على الخريطة للأسف.

بشكل متزامن كان سليمان بن هشام يقود حملات الصوائف اليمنى بين سنتي 117-119هـ/735-737م سالكا طريق الجزيرة الفراتية ويبدو أنه كان ينشط ما وراء ملطية على تخوم بند

1 - مجهول: العيون والحدايق، ج 3، ص 91.

2 - تاريخ خليفة، ص 346.

3 - محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ المحرية بالسنين الافرنكية والقبطية، المطبعة الميرية ببولاق، مصر، ط 1، 1311هـ، ص 58.

4 - ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 259.

5 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 260 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 93.

Elie Bar Sinaya: Op cit, p 103.

6 - خليفة: المصدر السابق، ص 348 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 59، ص 282.

7 - Theophanes: Op cit, p 569 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 248.

8 - خليفة: المصدر السابق، ص 349 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 59، ص 282.

الأرمنيّاق وعلى الحدود الأرمينية دون التوغّل في الأراضي البيزنطية، ومن الواضح أنّه لم يُلاقِ نفس النجاح الذي كان يحقّقه أخوه معاوية في الغرب، ويمكن استنتاج ذلك بسهولة من خلال عدم اهتمام المصادر بتسجيل تفاصيل حملاته.

لقد كانت صائفة 119هـ/737م، آخر حملة يقودها معاوية بن هشام، ذلك أنّه عقب رجوعه من الغزو تعرّض لحادث مميت بعد أن عشر به حصانه<sup>1</sup>، وقد كان هذا الأمير آخر القادة الكبار لعمليات الصوائف فبفضل مهاراته العسكرية وكفاءته في تنظيم وقيادة الجيوش استطاع تحقيق العديد من الإنجازات في بلاد الروم، وسيخلفه في قيادة الصوائف أخوه سليمان بن هشام الذي لن يرقى مطلقاً لمستوى سابقه ولن يملأ الفراغ الذي تركه على جبهة الروم.

استطاع سليمان بن هشام في صائفة 120هـ/738م الاستيلاء على حصن سندرة Sideron<sup>2</sup> الذي يقع على الأرجح غرب آسيا الصغرى، وسي من فيه من السكّان، وكان من بين الأسرى شخص ذو مكانة مرموقة يدعى استاثيوس Eustathios ابن أحد كبار النبلاء البيزنطيين<sup>3</sup>، لكنّ أكبر تحرك عسكري اضطلع به سليمان كان بعد سنتين من ذلك، حين قاد حملة كبيرة على بلاد الروم سنة 122هـ/740م، ومباشرة بعد اجتيازه الدروب أرسل السرايا لتتقدّم جيشه في عمق الأناضول، فاندفع مالك بن شبيب وعبد الله البطل على رأس بضعة آلاف من الجند<sup>4</sup> نحو منطقة فريجيا حتّى وصلوا حصن أكروينون Akroinon (أقرن في المصادر العربية) بالقرب من عمورية، وكان الإمبراطور ليو الإيسوري رفقة ابنه قسطنطين قد تهيّأ لإيقاف زحف المسلمين على آسيا الصغرى، فلمّا علم بانفصال السريّة التي يقودها مالك بن شبيب عن القوّات الرئيسيّة للحملة ووصله إلى فريجيا، وقلّة من معه من الجند أراد استغلال الفرصة التي لاحت له فتقدّم بجيشه صوب أكروينون لمواجهته، وكان قائد الحصن صهرا للبطل حسب ما ترويّه المصادر العربية فأعلمه بخروج الإمبراطور لملاقاته وبكثرة من معه من الجنود وأشار عليه بالانسحاب إلى سنادة Synnada جنوباً والتحصّن بها حتّى يلحق به سليمان بجيش الصائفة، لكنّ مالك بن شبيب لم يأخذ بهذا الرأي وواصل التوغّل داخل بلاد الروم حتّى اصطدم بالجيش البيزنطي، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بانتصار ساحق للروم الذين تمكّنوا من إبادة القسم الأكبر من السريّة بمن في ذلك القائد مالك بن شبيب، وعبد الله البطل، والكثير من الفرسان المشهود لهم بالشجاعة

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 283.

Theophanes: Op cit, p 570.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 139 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 7، ص 199.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 571 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 248.

<sup>4</sup> - تختلف المصادر في تقدير حجم الطالعة التي قادها مالك بن شبيب، وأفضت به إلى أقرن، فابن عساکر يذكر أنّها كانت تتكون من ثمانية آلاف فرد (ج 56، ص 459)، بينما يورد المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أنّها ضمّت عشرين ألفاً (ص 571).



كعبد الوهاب بن بخت، وفرّ من نجا من المعركة حتّى أتوا سنادة فتحصّنوا بها، فلحق بهم الإمبراطور ليو الإيسوري وضرب عليهم الحصار، لكنّه اضطر إلى الانسحاب بعدما وصلته الأخبار بتقدّم سليمان بن هشام نحوه على رأس القوّات الرئيسية للحملة<sup>1</sup>.

لقد انتهت هذه الحملة، رغم ما حقّقته من مكاسب مادية<sup>2</sup>، إلى كارثة حقيقية فقد تمّ أسر وإبادة القسم الأكبر من قوّات المسلمين، الذين لم يتكبّدوا خسائر بمثل هذا الحجم الكبير منذ الهزيمة عند حصن سوسنة سنة 85هـ/704م، كما فقدوا فيها عددا من أبرز المقاتلين الذين اشتهروا في حروب الصوائف، وأحدت هنا بشكل خاص عن عبد الله البطّال<sup>3</sup>، الذي جعلت منه القصص بطلا أسطوريا في جهاد البيزنطيين، وتغنّت به الأشعار وبما أبداه من شجاعة في هذه المعركة بالذات في قصيدة تصوّر في مطلعها بوضوح النتيجة التي انكشفت عنها موقعة "أقرن" عندما تصف بحزن كيف انتهى جيشه بأكمله جثثا على أرض المعركة<sup>4</sup>. وفي ظلّ صمت المصادر العربية لا نجد تفاصيل عن حجم خسائر المسلمين إلّا في المصادر البيزنطية التي تقدّرها بأكثر من ثلاثة عشر ألفا بين قتيل وأسير، حيث لم ينجّ من القوّات التي واجهت الجيش البيزنطي إلّا حوالي ستة آلاف وثمانمائة رجل فقط<sup>5</sup>.

وترجع أسباب هذه النكسة كما هو واضح إلى عدم تكافؤ القوّة العسكرية بين طرفي المواجهة، حيث كان الجيش البيزنطي يفوق بأضعاف السريّة التي كان يقودها مالك بن شبيب، كما أنّ المعركة دارت في ظروف مواتية للبيزنطيين، وهذه المواجهة غير المتكافئة والنهائية التي وصلت إليها ساهم في حدوثها سلسلة الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها المسلمون خلال هذه الحملة، منها افتقاد قائد الصائفة سليمان بن هشام للحذر اللازم وافتقاره إلى الحنكة العسكرية عندما سمح، بشكل لا يمكن فهمه، لسريّة بعدد محدود من الجند التوغّل عميقا في بلاد العدو حتّى ينقطع بينهما الاتّصال، فقد كان هو بنواحي طوّانة بينما واصل مالك بن شبيب تقدّمه حتّى أكروينون على مسافة أكثر من أربعمئة كيلومتر بينهما، في حين كان من الأجدر أن يكون نشاط السرية في نطاق قدرة الجيش الرئيسي على دعمها سريعا عند الحاجة، كما أنّ عدم قدرة قائد السريّة على اتّخاذ القرارات الصائبة استنادا إلى معلومات توقّرت إليه عن حجم وقوّة الجيش

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 405-406؛ ج 56، ص 459-460.

Theophanes: Op cit, p 571 / Bury: Op cit, Vol 2, p 406.

<sup>2</sup> - Theophanes : Ibid, p 571.

<sup>3</sup> - تتضارب المعلومات في المصادر حول تاريخ وفاة عبد الله البطّال، ويظهر عليها الكثير من التشويش والارتباك، حيث يورد ابن عساکر روايات مختلفة تجعل وفاته بين سنوات 112هـ، 113هـ، و121هـ (تاريخ دمشق، ج 33، ص 407-408)، بينما يذكر كلّ من خليفة (تاريخه، ص 352) ومسكويه (تجارب الأمم، ج 2، ص 445) أنّه قتل في بلاد الروم سنة 121هـ، في حين يذكر الطبري (تاريخ الرسل، ج 7، ص 191) وابن الأثير (الكامل في التاريخ، مج 4، ص 456) أنّه استشهد سنة 122هـ وهو الأصح.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 406-407.

<sup>5</sup> - Theophanes, Op cit, p 571.

البيزنطي بقيادة الإمبراطور نفسه دفعت مباشرة باتجاه هذه النهاية المؤلمة، فقد تجاهل مالك بن شبيب رأي عبد الله البطال، الذي أشار به عليه صهره كما سبق ذكره، بضرورة الانسحاب والتحصن بسنادة حتى وصول الدعم، وهذا الأمر لو تمّ كان كفيلا بتحقيق سلامة السريّة وكان منح مالك بن شبيب القدرة على الدفاع والمقاومة لعدّة أيام، وأكثر من هذا كان سيتيح له الاستفادة من هذه المعلومة الخطيرة وتبليغها لقائد الجيش سليمان بن هشام حتى يأتي وهو على استعداد كامل مدركا لحجم التحدي الذي سيواجهه. كما تظهر هذه النكسة كذلك ضعف عمليات الاستطلاع وجمع الأخبار عند الجيش الإسلامي، فبينما كان الإمبراطور البيزنطي على اطلاع كامل بتحركات المسلمين في المنطقة وحتى عدد قوّاتهم كان سليمان بن هشام ومالك بن شبيب يجهلان تماما استعدادات الإمبراطور الكبيرة لمواجهة المسلمين.

لقد كانت موقعة أكرينون آخر المواجهات البرية الكبرى بين الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية، وقد تخلّصت آسيا الصغرى من خطر المسلمين بشكل كبير بعد انكسارهم في هذه المعركة<sup>1</sup>، واستعرف بعدها حملات الصوائف انحسارا رهيبا، نتيجة الصدمة الكبيرة التي لحقت بالمسلمين هناك، قبل أن تنكفي الدولة الأموية على نفسها وتنشغل بحروبها الداخلية التي تفجّرت في كل مكان بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد سنة 126هـ/744م، وهكذا لم يسعفها الوقت لاستدراك ما حلّ بقوّاتها في أكرينون، ومن جهة أخرى ستستغل الإمبراطورية البيزنطية الزخم المعنوي الذي حقّقه بعد هذه المعركة وأيضا اضطراب أحوال الدولة الإسلامية بعد ذلك بقليل للانتقال إلى موقع المبادرة.

بعد سنة واحدة فقط من هزيمة أكرينون أرسل الإمبراطور البيزنطي حملة من عشرين ألف رجل بقيادة ابنه قسطنطين لاستهداف ملطية<sup>2</sup>، وتعتبر هذه المرّة الأولى التي تنقذ فيها بيزنطة عملية عسكرية برية هجومية بهذا الحجم ضدّ الدولة الإسلامية منذ نصف قرن تقريبا عندما هاجمت سميساط سنة 80هـ/700م، وفي مقابل جيش بيزنطي كبير لم يكن أمام ملطية، التي ليس فيها من القوّات ما يكفي لردّ العدوان، إلا مباطلة البيزنطيين والاستماتة في الدفاع حتى وصول المدد الذي أرسلت في طلبه من الخليفة بشكل عاجل، وهكذا تمّ الاستعانة حتى بالنساء اللائي تمّ إلباسهنّ العمائم وتوزيعهنّ على سور المدينة لتمويه العدو الذي تمكّن مع ذلك من إلحاق خسائر فادحة بالمدينة قبل أن تصل التعزيزات<sup>3</sup>، وعليه توجّهت صائفة ذلك العام، أي سنة 123هـ/741م، لنجدة سكان ملطية في مواجهة الروم، وتورد

<sup>1</sup> - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 94.

<sup>2</sup> - ديونسيوس التلمحري (ت حوالي 230هـ): تاريخ الأزمان، ترجمة شادية توفيق حافظ، مراجعة السباعي محمد السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2008، ص 83 / البلاذري: فتوح البلدان، ص 220-221؛ أنساب الأشراف، ج 8، ص 408 / ابن تغري، جمال الدين أبي المحاسن (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992، ج 1، ص 370.

<sup>3</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 220-221.

المصادر العربية هذه الحملة (الصائفة) بين سنتي 121هـ و122هـ، ويشير خليفة وابن عساكر أنّ هشام ابن عبد الملك سار بنفسه حتى بلغ ملطية<sup>1</sup>، ويؤكد البلاذري هذه الوقائع مع تفاصيل أكثر، حيث يذكر أنّ هشاماً عندما بلغه الخبر وهو بالرصافة استنفر الناس للحاق بملطية ثمّ جاءه البريد بانسحاب القوّات البيزنطية فأرسل من الجند من يربط بها وواصل هو الاستعداد للحملة، وأقبل في جيوشه عبر الرقة متقلداً سيفاً حتى وصل ملطية فأقام بها وأعاد بناء ما حُرّته الروم، لكنّه يؤرّخها سنة 123هـ (741م)<sup>2</sup>، بينما يرويها أغايوس في أحداث السنة التي شهدت تمرّد أرتباسدوس على قسطنطين الخامس، أي في سنة 124هـ (742م)<sup>3</sup>. وترتيب الأحداث بشكل منطقي يفضي إلى اعتماد رواية البلاذري دون تحفظ. لكن ما يثير الانتباه بشدّة أنّ المصادر البيزنطية لا تأتي مطلقاً على ذكر هذه الحملة رغم أهمّيتها باعتبارها أوّل عمل عسكري برّي هجومي كبير للروم ضد الأراضي الإسلامية منذ فترة طويلة.

في سنة 124هـ/742م غزا سليمان بن هشام بلاد الروم مرّة أخرى، وكانت الفرصة مواتية لتحقيق إنجاز يستعيد به المسلمون توازنهم والثقة في أنفسهم، فقد كانت الإمبراطورية تمرّقها الخلافات والحروب الداخلية، بين الإمبراطور الجديد قسطنطين الخامس Constantine V الذي خلف أبوه ليو في الحكم من جهة، وصهره قائد بند الأوبسيكيون أرتباسدوس Artabasdos الذي تمرّد عليه من جهة أخرى<sup>4</sup>، ومع توغّل سليمان في بلاد الروم التقى بجيش قسطنطين الذي كان متمركزاً بمقاطعة الأناضول، ولكنّه بشكل غريب لا يمكن تفسيره تفادى الاصطدام به<sup>5</sup> واتّجه شمالاً إلى إقليم بافلاجونيا دون أن يلقي مقاومة جدّية حيث كان الروم منشغلين بصراعاتهم الداخلية، وهكذا استطاع أن يحقّق نصراً سهلاً وقتل عدداً كبيراً من البيزنطيين وحصل غنائم كثيرة وعدداً معتبراً من الأسرى<sup>6</sup>.

إنّ هذه الحادثة لو صحّت ترسم لنا صورة واضحة عن الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون بعد موقعة أكروينون، إذ يبدو أنّ صدمة الخسائر الفادحة التي تكبّدوها في تلك المعركة ما زالت حيّة في

1 - تاريخ خليفة، ص 352 / تاريخ دمشق، ج 58، ص 67.

2 - فتوح البلدان، ص 221.

الرفقة: مدينة مشهورة على الفرات تعد من بلاد الجزيرة، فتحها عياض بن غنم صلحاً سنة 17هـ. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 3، ص 59.

3 - Agapius: Op cit, Partie 2, p 250.

4 - Theophanes: Op cit, p 575 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 502.

5 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 260 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 199 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 7، ص 229 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 464 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 130.

6 - Theophanes: Op cit, p 576 / Agapius: Op cit, partie 2, p 250.

يبالغ محبوب بن قسطنطين (أغايوس) كثيراً في تقدير عدد قتلى البيزنطيين خلال حملة سليمان بن هشام على بافلاجونيا، حيث يذكر أنّ المسلمين استطاعوا خلال عمليّاتهم القضاء على خمسين ألف شخص، وهذا الأمر غير منطقي تماماً ولا يمكن الأخذ به.

وجداهم، وعليه فضّل سليمان أن يحقّق نصرا في المتناول على المغامرة ضدّ جيش قسطنطين الذي كان مشغولا أصلا بحروب مستمرّة ومرهقة مع قوّات منافسه أرتباسدوس.

توفي هشام بن عبد الملك بعد ذلك، سنة 125هـ/743م، عقب فترة حكم فاقت تسعة عشر سنة ليخلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد، وقد تلقّى هذا الأخير مع بداية خلافته طلب مساعدة من طرفي الصراع في بيزنطة، قسطنطين وأرتباسدوس، لكنّ الوليد فوّت الفرصة عندما رفض عرض الاثنين وارتأى أن يواصل سياسة الضغط العسكري على الإمبراطورية مستغلاّ تشتت الجهد الحربي بين الخصمين<sup>1</sup>، وهكذا أرسل أخاه الغمر بن يزيد على رأس الصائفة، التي تعتبر آخر حملة برّية في العهد الأموي، فدخل بلاد الروم دون أن يلقي مقاومة جدّية على الأرجح - وذلك لانشغال البيزنطيين بما كانوا فيه من صراعات داخلية - فغنم وأسر عددا كبيرا من الناس ورجع سالما<sup>2</sup>، كما انطلقت في نفس العام حملة بحرية تحت قيادة أمير الأسطول الأسود بن بلال المخاري إلى جزيرة قبرص فنقلت قسم من سكانها إلى بلاد الشام بأمر من الوليد بن يزيد<sup>3</sup>، وقد خلّف هذا الاجراء تدمرا كبيرا بين المسلمين واستعظموا ما قام به الخليفة، خاصة الفقهاء<sup>4</sup>.

بعدها ستنقطع الحملات العسكرية البرّية على بلاد الروم<sup>5</sup>، حيث أذى قتل الوليد بن يزيد سنة 126هـ/744م إلى تفجّر الصراع على الحكم بين أبناء البيت الأموي، وازدادت حدّة الحركات المناوئة للسلطة وانتشرت الفتن في كل مكان، وهكذا تمّ توظيف كل المقدرات العسكرية الإسلامية في الجبهة الداخلية مع اهمال تام للخطر الخارجي ما قوّض كل الجهود والمكاسب التي تمّ تحقيقها طيلة العقود السابقة.

في الأخير يجدر الإشارة إلى اهمال المصادر لدور الأسطول البحري في الفترة ما بعد حصار القسطنطينية أواخر القرن الأول هجري حيث لا تذكر كتب التاريخ العام إلا إشارات مقتضبة، بينما نجد

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 62، ص 382

Theophanes: Op cit, p 577 / Agapius: Op cit, p 250.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 362 / اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 260 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 227 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 48، ص 86 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 474.

Theophanes; Ibid, p 577.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 227 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 474.

Theophanes: Ibid, p 577 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 511.

<sup>4</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 184.

<sup>5</sup> - يذكر الطبري بجزر (استعمل لفظ "فيما ذكر" عند سرد الخبر) حملة أخرى سنة 130هـ (748م) بقيادة الوليد بن هشام ناحية العمق لإعادة بناء مرعش التي كان البيزنطيون قد خرّبوها قبل ذلك بسنتين، لكن الأحداث التي كانت تعيشها الدولة الأموية في تلك الفترة من انتشار الفتن والثورات في كل مكان تجعلنا نشكّ في قدرة مروان بن محمد أو استعداده لمواصلة الالتزام بجمالات الصوائف السنوية مع حاجته الملحة للجند من أجل تثبيت سلطانه والقضاء على المناوئين، وهذه الحملة ربّما كانت تضمّ مجموعة من الحرفيين والفنيين لإعادة اصلاح المدينة ترافقهم قوّة صغيرة فقط لتوفير الحماية لهم، وبالتالي لا يمكن اعتبارها حملة عسكرية بمهام قتالية كما كانت عليه حملات الصوائف.

بعض التفاصيل المتفرقة والمحدودة في كتب الطبقات، ويصعب التصديق هنا أنّ الجيوش الإسلامية التي كانت في بعض الحملات تندفع حتى غرب آسيا الصغرى وتصل سواحل بحر إيجه لم تحظ بدعم الأسطول البحري وحمائته في عملياتها العسكرية، وهو ما يذهب إليه أيضا الأستاذ عبد الهادي شعيرة الذي يعتقد حتى في ظلّ شح المعطيات أنّ البحرية الإسلامية استمرت في عملياتها ضدّ الروم سنويا بشكل منتظم مثلها مثل الحملات البرية<sup>1</sup>، لكن مع ذلك يمكن الجزم بنوع من الحذر أنّ نكسة حملة القسطنطينية التي فقد فيها الأسطول الإسلامي الغالبية العظمى من سفنه وأيضا نفوذه وهيبته، ستجعل من حضور البحرية في العمليات الحربية كما في السابق أمرا مستبعدا وستأخذ الحملات شكل المناوشات والغارات الانتقامية كما يذهب إليه أرشيبالد لويس<sup>2</sup>، وستكون قبرص وكريت بشكل خاص، بحكم موقعهما، محورهما الأساسي حيث هوجمت الأولى سنوات 107-125-130هـ / 725-743-748م<sup>3</sup>، بينما تعرّضت كريت لحملة مشتركة بين الأسطولين المصري والشامي سنة 122هـ/740م<sup>4</sup>.

ونجد أيضا اشارات عن حملات بحرية سنوية، في عام 102هـ/720-721م، وبين سنوات 109-111هـ/727-728م، وبين سنتي 120-121هـ/738-739م لكن دون تفاصيل تذكر<sup>5</sup>. في ختام هذا العرض التفصيلي لحملات الصوائف والشواتي وأهمّ مجريات أحداثها يمكن أن ندوّن الملاحظات الآتية:

- حيوية حملات الصوائف والشواتي وارتفاع وتيرتها في فترات الاستقرار والتماسك الداخلي، وتراجعها وانحسارها في فترات الاضطراب والفتن حتى تنقطع تماما في بعض الأحيان، خاصة في الفترة بين وفاة يزيد ابن معاوية سنة 64هـ/683م وإعادة توحيد الأمة الإسلامية على يد عبد الملك بن مروان سنة 73هـ/692م، وأيضا أواخر عهد الدولة الأموية بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة 126هـ/744م.

- تميّزت الفترة الأولى لبداية الدولة الأموية (الفرع السفلي) باتباع أسلوب الحملات الطويلة، من خلال إبقاء قوّات الصوائف داخل بلاد الروم بعد توقّف نشاطها حتى انقضاء فصل الشتاء، عكس الفترة الثانية (الفرع المراني) التي كانت فيها حملات الصوائف المحدودة زمنيا هو الإجراء الأكثر توظيفاً.

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, p 234.

<sup>2</sup> - القوى البحرية والتجارية، ص 109.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 40-227 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 67.

Theophanes: Op cit, pp 577-586 / Nikephoros: Op cit, p 141.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 9، ص 67.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 46-54-67 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 9، ص 67؛ ج 11، ص 143.

- كان قادة الحملات السنوية في الفترة السفيانية من جيل الفاتحين الأوائل ممن استقروا ببلاد الشام، بينما تصدر المشهد في الفترة المروانية قادة من البيت الأموي الحاكم ممثلاً في إخوة وأبناء الخلفاء مثل: محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك، ومسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد، ومعاوية وسليمان ابنا هشام.
- كثرة تضارب المعلومات في المصادر حول أسماء قادة الحملات السنوية خلال العهد السفياني، وتطابق المعلومات واتفاق المصادر على هوية قادة معظم الحملات تقريباً في العهد المرواني.
- بلغت الحملات العسكرية على بلاد الروم ذروتها في الفترة المروانية مع استحداث نظام الصائفتين، اليمنى واليسرى، وأواخر القرن الأول هجري، واللّتين كانتا تنطلقان بشكل متزامن عبر الثغور الجزرية والثغور الشامية لاستهداف مناطق متفرقة من الأقاليم البيزنطية في آسيا الصغرى.
- نلاحظ بشكل واضح النشاط الكبير وحيوية البحرية الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان، أين كان الأسطول الإسلامي يشنّ غارات سنوية على المواقع البيزنطية، بينما لا تذكر المصادر الحملات البحرية في العهد المرواني إلا نادراً.
- لا تهتمّ المصادر بذكر وتحديد حجم القوّات المشاركة في عمليات الصوائف والشواتي على بلاد الروم، أو المناطق المستهدفة، ولا حتّى النتائج التي حققتها الحملات، إلا نادراً ما عدا الحالات التي تتعلّق بالحملات الكبرى الاستثنائية.

## المبحث الثاني: نظام الثغور في العهد الأموي

تحدّد المصادر والمراجع العربية مفهوم الثغور بأنّها كلّ موضع قريب من أرض العدو، أو كلّ منطقة يمكن أن ينفذ منها العدو فيهاجم أرض الإسلام<sup>1</sup>، وقد أبدى الجغرافيون المسلمون اهتماما خاصا بمناطق الثغور في مصنّفاتهم، والتي يمكن اعتبارها المصادر الأساسية الأوّلية المتوقّرة لدراسة جغرافية هذه المناطق وأوضاعها، وقد قسّموها إلى صنفين: ثغور بريّة وثغور بحرية<sup>2</sup>، وخلال العهد الأموي وفي ظلّ المواجهات المستمرّة بين الخلافة والإمبراطورية البيزنطية كانت منطقة الثغور تحظى بأهميّة كبيرة باعتبارها منطقة التماس بين الطرفين وخط الدفاع الأوّل ضدّ الهجمات البيزنطية من جهة، وقاعدة لكلّ عمل هجومي أيضا ضدّ الروم من جهة أخرى، وسنستعرض في هذا العنصر استراتيجية الدولة الأموية في تنظيم منطقة الثغور بنوعيتها البريّة والبحريّة، وأهم الإجراءات التي اتّخذتها في سبيل ذلك من أجل تأسيس منظومة متكاملة تستجيب للأهداف الأمنية والعسكرية للخلافة مع إبراز أهم التطوّرات التي مرّت بها في العصر الأموي.

### أولا- الثغور البريّة:

كانت جبال طوروس Taurus وطوروس الداخلية Anti Taurus تمثّل الحدّ الفاصل بين الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية، وكان على امتداد هذه المنطقة من ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من البحر الأبيض المتوسط يتشكّل خط دفاعي من القلاع والحصون يحمي ما ورائها من البلدان، واشتهرت هذه المنطقة في المصادر العربية باسم الثغور<sup>3</sup>، وقد أسهب بعض المؤرّخين والجغرافيين العرب في ذكر الثغور البريّة مع بلاد الروم وأقسامها وأهمّ حصونها ومدنها، لكنّهم مع ذلك لم يتّفقوا على تقسيم واحد لها فابن خرداذبة من القرن الثالث هجري مثلا، وقدامة بن جعفر الذي جاء بعده وينقل عنه، يصنّفانها إلى ثلاث أقسام: منطقة الثغور الشامية، ومن أهم مدنها طرسوس وأذنة والمصيصة، وعن يمينها نجد منطقة الثغور الجزرية وأهم مراكزها مرعش والحدث وزبطرة وشمشاط وملطية، وأخيرا منطقة الثغور البكرية التي تضمّ سميساط وحاني وملكين وأيضا قاليقلا إلى الشمال منهم<sup>4</sup>، بينما يقسّمها البعض الآخر من مؤرّخين وجغرافيين مثل البلاذري وابن حوقل إلى قسمين: ثغور شامية، وثغور جزرية، لكنّ ابن حوقل يرجع و يجمعها كلّها (الشامية والجزرية) إلى الشام، ويذكر أنّ ما ينسب من ملطية إلى مرعش إلى ثغور

1 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 2، ص 79 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 131 / عليّة عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 15.

2 - ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 253.

3 - كى لستننج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1985، ص 160 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 132.

4 - ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 253-254 / قدامة بن جعفر (ت 329هـ): الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1981، ص 186-187-188.

الجزيرة ليس لاعتبارات جغرافية وإنما يرجع لأن أهلها كانوا يرابطون بها ويغزون، وليس لأتّها من مناطق الجزيرة<sup>1</sup>.

أمّا عن وظيفتها الدفاعية فقد كانت الثغور الجزرية تحمي المناطق الشمالية الشرقية عند الجزيرة وشمال العراق، في حين كانت الثغور الشامية تحمي المناطق الجنوبية الغربية عند الشام، والجغرافيون العرب يجعلون من جبل اللكام الحدّ الفاصل بين الثغرين<sup>2</sup>.

تعتبر هذه المنطقة متنوعة التضاريس، ففي قسم الثغور الشامية نجد سهل قيليقية الذي يشكّل وحدة جغرافية متميّزة، يتخلّله عدّة أنهار هي: جيحان Pyramos، وسيحان Sarus، اللذان ينبعان من مرتفعات شمال أرمينية الصغرى، والبردان Cydnus الذي يخرج من أصل جبل في شمال طرسوس وتصبّ هذه الأنهار كلّها في البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)، وتحيط بهذا السهل الجبال من ثلاث جهات، جبال الأمانوس Amanus (اللكام) من الشرق والتي تفصله عن الشام، وجبال طوروس الداخلية وطوروس القيليقية من الشمال والغرب، وتتخلّل هذه الجبال عدّة دروب يمكن من خلالها العبور إلى الأناضول، أشهرها درب البوابات القيليقية الذي يقع شمال طرسوس ويأخذ الطريق العام إلى القسطنطينية، وهو ممّر الاتّصال الرئيسي بين امبراطور الروم وخليفة المسلمين<sup>3</sup>.

أمّا قسم الثغور الجزرية فيغلب عليه الطابع الجبلي بفعل امتداد سلسلة جبال طوروس التي تفصل شمال الجزيرة الفراتية والشام عن آسيا الصغرى، وتوجد بها عشرات المجاري المائية والأنهار أهمّها الجرى الأعلى لنهر الفرات ونهر القباقيب والنهر الأزرق، وتتخلّل مرتفعات طوروس في هذا القسم العديد من الدروب أيضا، والتي تُفضي إلى بلاد الروم، أهمّها درب الحدث الذي يقع في الشمال الشرقي لمرعش، وهو أحد الممرّين الهامّين في منطقة الثغور مع ممّر البوابات القيليقية المذكور آنفاً، ويتمتّع درب مرعش بأهمية استراتيجية كبيرة وهو محمي بحصن منيع يحمل نفس الاسم (حصن الحدث)<sup>4</sup>، وفي العهد الأموي كانوا يفضّلون تسمية هذا الممرّ درب السلامة تطييراً من اسم الحدث، وربما دفعاً لسوء الطالع بعد أن أصيب به المسلمون في بعض حملاتهم حسب إحدى الروايات<sup>5</sup>، ويستعمل ابن خرداذبة هذا الاسم (درب السلامة) للإشارة إلى درب البوابات القيليقية شمال طرسوس المؤدي إلى طريق القسطنطينية<sup>6</sup>.

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 192-218 / ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي (ت بعد 367هـ): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992، ص 154.

2 - كى لسترنج: المرجع السابق، ص 160 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 132-162.

3 - كى لسترنج: المرجع نفسه، ص 164-165-166 / عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 21-22-24.

4 - كى لسترنج: المرجع نفسه، ص 165-166 / عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع نفسه، ص 19-21.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 224.

6 - المسالك والممالك، ص 100.



تتميّز منطقة الثغور عموماً بتضاريسها الوعرة، حيث يتوجّب لاجتيازها صعود مرتفعات صعبة وتخطّي أودية وعقبات وشعاب وعبور ممّرات ضيّقة لا يتجاوز عرضها في بعض الأحيان بضعة أمتار كما الحال مع درب البواباب القليلية، كما أنّ هذه المنطقة تتميّز بعوامل مناخية قاسية فبالإضافة إلى البرودة الشديدة، تغطّي جبالها الثلوج حتّى حلول فصل الصيف<sup>1</sup>، وفي الشتاء كثيراً ما كانت تنقطع الطرق بين الجهتين لانسداد الدروب بالثلوج كما حدث في شتاء سنة 88هـ/707م أثناء حصار المسلمين لمدينة طوانة ما أحرّ وصول المدد الذي أرسله الوليد بن عبد الملك إلى جيش المسلمين المحاصر للمدينة<sup>2</sup>، كلّ هذه الخصائص توفّر لهذه المنطقة ميزة دفاعية ممتازة بشكل طبيعي.

لقد أولت الدولة الأموية اهتماماً بالغاً بمنطقة الثغور باعتبارها خطّ الدفاع الأول ضدّ الهجمات البيزنطية التي يمكن أن تستهدف الأراضي الإسلامية، فهي تحمي ما خلفها من ديار الإسلام، لهذا حرصت الدولة الإسلامية على السيطرة على الثغور والدروب بصفة خاصة، وتحصينها، وشحنها بالسكان والجنود كاستراتيجية متكاملة تحقّق لها متطلبات الدفاع عن أراضيها من جهة، وتدعم عملياتها العسكرية الهجومية من جهة أخرى، تماشياً مع منظومة حملات الصوائف والشواتي، وقد قامت هذه الاستراتيجية على المحاور الآتية:

### 1- السيطرة على منطقة الثغور:

كانت الفتوحات الإسلامية على جبهة الروم منذ بداية عهد عمر بن الخطاب قد وصلت إلى تخوم جبال طوروس التي شكّلت حاجزاً طبيعياً فاصلاً بين القوتين، وقد اكتفى المسلمون بعدها بإرسال حملات محدودة تتنازل الدروب وتنقذ عمليات عسكرية داخل الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى ثمّ تعود دون أن يحاولوا ترسيخ وجودهم هناك أو الاستيلاء على مناطق جديدة ما وراء جبال طوروس، وذلك حتّى بداية النصف الثاني من القرن الأول هجري تقريباً، فقد فضّل المسلمون قبل ذلك انتهاج سياسة الدفاع المتحرّك عن طريق تجريد حملات فصلية تستهدف الأراضي البيزنطية وإجبار الروم على تبني وضع دفاعي يشغلهم عن التفكير في مهاجمة المراكز الإسلامية في الجانب الآخر من الثغور<sup>3</sup>، وقد اختلفت المصادر في تحديد أوّل من عبر الدروب إلى بلاد الروم سنة 17هـ/638م، بين ميسرة بن مسروق العبسي، أو عمير بن سعد الأنصاري، أو عبد الله بن قيس الكندي<sup>4</sup>. لكن يبدو أنّ المسلمين قد بدأوا استكشاف المناطق الحدودية والممرّات الجبلية التي تؤدّي إلى بلاد الروم والتعرّف على خصائصها مبكراً، ما ساهم في تراكم المعارف والخبرات الجغرافية والتكتيكية القتالية لديهم داخل الأراضي البيزنطية.

1 - الواقدي: فتوح الشام، ج 2، ص 7-8 / عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 25.

2 - ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 18، ص 258.

3 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 40.

4 - البلاذري: المصدر السابق، ص 192-193 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 112.

أمّا في العهد الأموي فقد توجّهت سياسة المسلمين نحو السيطرة على المدن والحصون المتواجدة في الثغور التي لم تخضع لسيطرتهم حتّى ذلك الوقت أو التي خرجت من دائرة نفوذهم خلال الفتنة الكبرى، لكي تجعل منها خطّ دفاع متقدّم يحمي الأراضي الإسلامية، وأيضاً تحويلها إلى قواعد تنطلق منها الحملات الإسلامية على المعقل البيزنطية في آسيا الصغرى<sup>1</sup>، وسنحاول في هذا العنصر إبراز أهم مراكز المسلمين في الثغور والمحطّات البارزة للسيادة الإسلامية عليها دون التعرّض كثيرا لعمليّات الترميم والتحصين التي خضعت لها مدن وحصون المنطقة حيث سنخصّص لها عنصراً مستقلاً بذاته.

## 1.1 - مراكز ثغور الجزيرة:

### ملطية:

كانت ملطية قد فُتحت على يد حبيب بن مسلمة في ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام، ولتأمين المدينة ضدّ أيّ ردّ فعل بيزنطي تمّ انزال حامية عسكرية ترابط بها للدفاع عنها<sup>2</sup>، ولم تكن تحصينات المدينة في تلك الفترة في حالة جيّدة منذ تمّ اختلائها واحراقها من طرف كسرى سنة 579 م<sup>3</sup>، لهذا تمّ لاحقاً توطين جماعة من أهل الشام والجزيرة بها ما عزّز السيادة الإسلامية عليها، وكانت المدينة قاعدة إسلامية مهمّة لوقوعها على طريق الصوائف والغزو، وفي العهد الأموي تعرّضت إلى التخريب على يد الروم بعد أن هجرها سكانها في فتنة ابن الزبير لكنّ الإمبراطورية البيزنطية مع ذلك لم تحاول استرجاع سيطرتها على المدينة، وهكذا بقيت تحت السيادة الإسلامية ولو اسمياً وظلّت شبه مهجورة وأقرب ما تكون إلى منطقة عازلة بين الدولتين حتّى نهاية القرن الأول هجري حين قرّر المسلمون استرجاع مواقعهم ومراكزهم فيها من جديد وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز الذي اهتمّ بإعادة إعمار المدينة وتحصينها وتوطين سكان طُرندة بها، وعيّن جعونة بن الحارث واليا عليها<sup>4</sup>.

### مرعش:

تقع مرعش غرب حصن الحدث، وقد كانت مدينة ذات أهميّة بالغة، فموقعها عند التقاء جبال طوروس وجبال الأمانوس في سهل ضيق<sup>5</sup>، جعل منها إحدى المحطّات الرئيسية لعبور الجيوش الإسلامية إلى الأراضي البيزنطية<sup>6</sup>، وقد فُتحت المدينة مبكّراً على يد خالد بن الوليد الذي خرّب حصنها بعد أن

<sup>1</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: The Arab-byzantine frontier in the eighth and ninth centuries, p 116.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit, p 66.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

<sup>5</sup> - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 244.

<sup>6</sup> - عليّة عبد السميع الخنزوري: المرجع السابق، ص 84 / عبد الرحمن محمد العبد الغني: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغورية (40-339/660-950م)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الحادية عشرة، 1990، ص 37.

أجلى سكانه، ومع قيام الدولة الأموية أدرك معاوية القيمة الاستراتيجية التي تقدّمها المدينة فأعاد بنائها وتأهيلها وأسكنها حامية من الجند، وهكذا تمّ ادماجها مع غيرها من مدن وحصون الثغور، لكن مع موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م خرجت مرعش عن سيطرة المسلمين بعد أن هجرها سكانها نتيجة تكرّر هجمات الروم عليهم، ولم يُتَّح للمسلمين استرجاع المدينة مرّة أخرى إلّا مع نهاية القرن الأول هجري على يد العباس بن الوليد<sup>1</sup>.

### كمخ:

يقع حصن كمخ على الفرات الغربي، ويتمتّع بأهميّة بالغة بسبب موقعه على الطريق بين أرمينية والمناطق الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، وقد كان بفضل مؤهلاته هدفا للجيوش الإسلامية مرّات عديدة لكنّ كلّ محاولاتهم للسيطرة عليه باءت بالفشل حتّى أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان عندما قاد صفوان ابن معطل السلمي وعمير بن الحباب سنة 59هـ/679م حملة على الحصن، وبعد قتال عنيف مع حامية الروم التي كانت تنزل به تمّ الاستيلاء عليه، لكنّ البيزنطيين استطاعوا استرجاعه بعد ذلك بفترة قصيرة<sup>2</sup>، والأرجح أنّ ذلك حدث أثناء الفوضى التي عمّت الدولة الإسلامية بعد وفاة يزيد بن معاوية، لكنّ مسلمة ابن عبد الملك فتحه مرّة أخرى بعد ذلك<sup>3</sup>، وتذكر المصادر أنّ الحصن جرى استهدافه من طرف المسلمين من جديد في حملة قادها مروان بن محمد سنة 105هـ/723م<sup>4</sup>، ما يوحي أنّهم فقدوا سيطرتهم عليه قبل ذلك، وبقيت الدولتين بعدها تتنازعان السيادة عليه فيفتحها المسلمون تارة ثمّ ينتزعه الروم تارة أخرى حتّى نهاية العصر الأموي<sup>5</sup>.

### قاليقلا:

قاليقلا التي تذكرها المصادر البيزنطية باسم ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis<sup>6</sup> أبعد الثغور الإسلامية إلى الشمال الشرقي حتّى أنّها تبدو كتغر منفرد لما بينها وبين الثغور الأخرى من مسافة<sup>7</sup>، وهي مدينة مهمّة جدا من الناحية الاستراتيجية بالنسبة للمسلمين إذ تتحكّم في الطريق الغربي المؤدّي إلى أرمينية وأذربيجان<sup>8</sup>، كما أنّها كانت تعتبر نقطة ارتكاز عسكرية حيويّة بالنسبة للروم لمراقبة أرمينية والعمل على

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 223.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 218-219.

3 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 219.

Theophanes: Op cit, p 527.

4 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج 4، ص 371.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 219.

6 - Theophanes: Op cit, p 590 / Nikephoros: Op cit, p 145.

7 - قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص 188.

8 - Laurent: L'Arménie entre Byzance et L'Islam, p 176.

إبقائها ضمن النفوذ البيزنطي وكان ينزل بها فيلق عسكري منذ عهد الامبراطور جستنيان، وقد فُتحت المدينة على يد حبيب بن مسلمة الفهري أيام خلافة عثمان، وتمّ إنزال حامية بها ضُمَّت بشكل مبدئي ألفي رجل<sup>1</sup>، ويذكر البلاذري أنّها بقيت ممتنعة عن غير المسلمين حتى سقوط الدولة الأموية<sup>2</sup>، لكننا نجد مع ذلك روايات تاريخية تتحدّث عن حملات اسلامية متقطعة استهدفت المنطقة والمدينة في العهد الأموي ما يثبت قطعاً أنّها خرجت من أيدي المسلمين قبل أن يتمّ استرجاعها من جديد، ففي سنة 81هـ/700م تمّ فرض السيادة الاسلامية على المدينة مرّة أخرى بعد حملة قادها ابن الخليفة، عبد الله بن عبد الملك<sup>3</sup>، وكان الروم قد سيطروا عليها قبل ذلك بستين خلال الحملة التي استهدفت أرمينية سنة 79هـ/698م<sup>4</sup>، وكانت المدينة هدفا لحملة عسكرية أخرى من طرف المسلمين سنة 90هـ/709م حين غزا العباس بن الوليد الصائفة اليمنى تلك السنة<sup>5</sup>، ثمّ تنقطع أخبار المدينة بعد ذلك ما يرجّح احتمال بقائها في أيدي المسلمين حتى سقوط دولة بني أمية.

### طُرُنْدَة:

كانت مدينة طُرُنْدَة، التي تقع على ثلاث مراحل من ملطية<sup>6</sup> غرباً، هدفا للحملات العسكرية للمسلمين عدّة مرّات، وتتضارب الروايات حول تاريخ فتحها، فالبلاذري يذكر أنّ المسلمين سيطروا عليها بعد الحملة التي قادها عبد الله بن عبد الملك سنة 83هـ/702م، بينما يشير ثيوفانس أن عبد الله حاصر المدينة تلك السنة لكنّه لم يستطع السيطرة عليها فاضطرّ إلى الانسحاب والتراجع نحو المصيصة، وتدعم رواية خليفة هذا الطرح حيث يقول أنّ عبد الله غزا بلاد الروم حتى بلغ أرض طُرُنْدَة، دون أيّ إشارة عن سقوط المدينة في يد المسلمين وكان ذلك سنة 84هـ/703م<sup>7</sup>، ومع ذلك يمكن الجزم أنّ المسلمين بدأوا اتخاذ إجراءات لتعزيز وجودهم في المنطقة منذ هذه الفترة على الأقل، بالتزامن مع الاضطرابات التي عمّت أرمينية بتحريض من الروم، حيث أقامت الدولة الأموية هناك مركزاً عسكرياً يربط به جند من الجزيرة يأتونها صيفاً فيقيمون بها حتى يحلّ فصل الشتاء فيرجعون إلى قواعدهم بعدما تكون الدروب قد انغلقت نتيجة

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, pp 72-80.

<sup>2</sup> - فتوح البلدان، ص 232-234.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 331 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 195.

<sup>4</sup> - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 74.

Laurent: Op cit, p 204.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 303.

<sup>6</sup> - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 32.

<sup>7</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 291 / البلاذري: المصدر السابق، ص 220

Theophanes: Op cit, p 519.

تساقط الثلوج فيأمنون من هجمات الروم<sup>1</sup>، وقد جرى استهداف طُرُندة من جديد في حملة ناجحة قادها مسلمة بن عبد الملك سنة 92هـ/711م حيث خضعت المدينة هذه المرّة مع حصون أخرى مجاورة للسيادة الإسلامية<sup>2</sup>، وبفضل هذا الإنجاز استطاع المسلمون تأمين درب ملطية، أحد الممرّات الرئيسية بين دولة الخلافة وامبراطورية الروم بشكل فعّال، كما أدّى التواجد العسكري الثابت في هذه المنطقة إلى الاقتراب أكثر من بند (ثيم) الأرمينيا البيزنطي المتاخم لأرمينية، ما ساهم في توفير حماية أكثر لهذه الأخيرة خاصة في ظلّ التنافس الكبير بين الدولتين في هذا الفضاء الجغرافي في الفترة بين 74-86هـ/693-705م<sup>3</sup>. لكنّ المسلمين ما لبثوا أن تخلّوا عن هذا المكسب الكبير بعد ذلك بسنوات قليلة فقط حين قرّر الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م)، تخريب المدينة وترحيل سكانها على كره منهم إلى ملطية المجاورة الأكثر تحصيناً وقرباً لبلاد الخلافة ومناطق الثغور الأخرى، حيث كان يرى أنّ طُرُندة موعلة في بلاد الروم ومعرّضة لمخاطر كبيرة بسبب بُعدها عن مراكز المسلمين الرئيسية في الثغور فكان يخشى على سكانها من بطش العدو بهم<sup>4</sup>.

## 1. 2- مراكز ثغور الشام:

كانت قيليقية Cilicia المتاخمة لأنطاكية تعتبر منطقة ذات طبيعة جغرافية سهلة خلافاً للثغور الجزرية، والمدن والحصون بها متقاربة، وتذكر المصادر أنّ الروم بعد فقدانهم بلاد الشام أدخلوا هذه المنطقة من سكانها حتّى تبقى أرضاً محايدة ومنطقة عازلة بينهم وبين العرب No man's land فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً من الناس عند الغزو<sup>5</sup>، ولم يكن المسلمون يطمحون إلى الاستيلاء على هذه المنطقة في البداية فعملوا على تخريب حصونها ودفاعاتها<sup>6</sup>، لكن يبدو أنّ هذه المنطقة سرعان ما تمّ إعادة تعميرها وتوطينها بالروم والجنود البيزنطيين في النصف الثاني من القرن السابع ميلادي<sup>7</sup> وعلى الأرجح أنّ هذه الخطوة البيزنطية تزامنت مع انشغال المسلمين بالانقسام والحروب الداخلية التي تلت مقتل عثمان بن عفان، وهذا ربّما ما يفسّر دوافع تغيير استراتيجية المسلمين من تقبّل بقاء هذه المنطقة فضاءً حيادياً بينهم

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 33.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

3 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 75.

Cheira: Op cit, p 166.

4 - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

5 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 192 / عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 32.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 424 / Sophie Métivier: Op cit, p 436 / J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 83.

6 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 193.

7 - Sophie Métivier: Op cit, p 436.

وبين الامبراطورية البيزنطية إلى الاندفاع نحو السيطرة عليها وتعميرها، وهكذا توجهت سنة 46هـ/666م حملة لاستهداف أذنة بقيادة بُسر بن أبي أرطأة<sup>1</sup>، ورغم أنّ المصادر لا تذكر شيئاً عن مصير المدينة بعد هذه الحملة، كما يبقى وضعها غامضاً مقارنة بالمدن الرئيسية الأخرى في منطقة قيليقية، حيث سيختفى ذكر المدينة تماماً في المصادر المتوفرة خلال الفترة اللاحقة، كما أنّها لن تكون هدفاً لأيّ حملة عسكرية بعد ذلك على الرغم من أهميتها إذ أنّها تقع في طريق حملات الجيوش الإسلامية إلى آسيا الصغرى عبر البوابات القيليقية، إلا أنّنا نستطيع الجزم مع ذلك حتّى في ظلّ كلّ هذا الغموض، بوقوعها في يد المسلمين منذ النصف الثاني من القرن الأول هجري على الأقل، فالسيادة الإسلامية شملت كل المدن الرئيسية في المنطقة ووصلت حتّى سلوقية Seleucia ما وراء نهر اللامس Lamos قبل نهاية القرن، وهكذا يبدو من غير المنطقي أن تظلّ هذه المدينة خارج السيطرة الإسلامية التي شملت كل المنطقة المحيطة بها، وعلى الرغم من أنّ المعطيات المتوفرة تجعل من عام 141هـ/758م، أو 142هـ/759م تاريخ بناء المدينة من طرف المسلمين<sup>2</sup>، لكن من المؤكّد أنّ الاستيلاء عليها كان قبل ذلك بفترة طويلة، أمّا ما تذكره المصادر عن هذا التاريخ فربّما يمثّل سنة إعادة بناء المدينة (التي تمّ انهاء الوجود الإسلامي بها مؤقّتا من طرف الروم بعد سقوط دولة الأمويين) عقب الزلزال الذي ضرب المنطقة<sup>3</sup> على الأرجح قبل ذلك بفترة وجيزة مع مطلع العهد العباسي، حيث نسجّل توثيق المصادر البيزنطية حدوث هزّات عنيفة بالشام بالتزامن مع ذلك سنة 756م (139هـ)<sup>4</sup>، فقد كانت المدينة على الطريق الرئيسي للحملات العسكرية ضدّ بلاد الروم من جهة طرسوس، وكان المسلمون قد اتخذوا جسراً بينها وبين المصيصة منذ عام 125هـ/743م<sup>5</sup>، ما يجعل احتمال بقاء المدينة خارج النفوذ الإسلامي حتّى العصر العباسي أمراً غير منطقي اطلاقاً، لكن ما هو مؤكّد أنّ أذنة كانت أقلّ شأناً من حيث الأهمية وعدد السكان مقارنة بالمدينتين الأخرين، المصيصة وطررسوس<sup>6</sup>. وخلال خلافة معاوية بن أبي سفيان خضعت طرسوس للسيادة الإسلامية بعد حملة قادها جنادة بن أبي أمية عام 53هـ/673م<sup>7</sup>، على الأرجح مطلع السنة (بين جانفي وفيفري) وعبر حملة بحرية حيث

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 10، ص 148.

ربّما كان ذلك مطلع السنة قبل أن يلتحق بُسر بن أبي أرطأة بعقبة بن نافع، الذي بدأ حملة على المغرب في هذه السنة حسب ما يرويه ابن عبد الحكم (فتوح مصر، ص 329).

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 198.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 195 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 5، ص 127.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 594.

<sup>5</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 197.

<sup>6</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 107.

<sup>7</sup> - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 153 / عليّة عبد السمیع الجنزوري: المرجع السابق، ص 39.

Timothy Venning: Op cit, p 177.

يذكر الطبري أنه فتح جريزة رودس في هذه السنة أيضا<sup>1</sup>، كما أنّ المصادر البيزنطية تؤكّد على تحركات للأسطول الإسلامي بالمنطقة في نفس الفترة أين أمضى قسم من البحرية الإسلامية الشتاء على سواحل قيليقية بالذات<sup>2</sup>، وقد جرى إعادة تعمير المدينة وتحصينها<sup>3</sup>، لكنّ الروم على ما يبدو تمكّنوا من استرجاع مواقعهم بها فالأخبار في بعض المصادر العربية تشير إلى أنّ المسلمين استهدفوها مرة أخرى بحملة كبيرة سنة 93هـ/712م بقيادة العباس بن الوليد والتي أدّت إلى فتحها مرة ثانية مع حصون أخرى مجاورة<sup>4</sup>. وتغيّب المعلومات في المصادر عن عمليات توطين السكان بالمدينة، بعكس وضعية المصيصة مثلا، لكن يمكن مع ذلك أن نستنتج أنّ إعادة اعمار المدينة واستيطانها كانت تسير بوتيرة بطيئة فهي حتّى أواخر العهد الأموي إبان خلافة هشام بن عبد الملك كانت لا تزال تستقطب المتطوعين للمرابطة بها والدفاع عنها ضدّ تهديدات الروم<sup>5</sup>، ما يوحي بعجزها عن توفير متطلّبات الدفاع الذاتي في مواجهة الأخطار الخارجية بسبب قلّة السكان بها، كما أنّ المصادر العربية لا تذكر أيّ شيء عن تعمير المدينة في الفترة التي تلت سيطرة المسلمين عليها إلى غاية العهد العباسي أين بدأ هارون الرشيد عملية تأهيل المدينة حوالي سنة 170هـ/786-787م<sup>6</sup>.

وفي سنة 84هـ/703م عبر جيش إسلامي بقيادة عبد الله بن عبد الملك درب أنطاكية وفرض سيطرته على المصيصة التي تقع على نهر جيحان وهي إحدى ثلاث مدن رئيسية في منطقة قيليقية والوحيدة من بينهم التي نملك عنها معلومات وافية خلال الحقبة الإسلامية الأولى، ويبدو أنّ المصيصة لم تكن عامرة في ذلك الوقت عندما فتحها عبد الله بن عبد الملك وقام بتحسينها، ومن أجل تأمين الوجود الإسلامي فيها أنزل بها حامية من الجند من ضمنهم ثلاثمائة رجل من نخبة الفرسان المسلمين، وقد عانى المسلمون كثيرا من أجل الاحتفاظ بالمدينة تحت سيطرتهم فقد أصبحت بعد ذلك هدفا لهجمات الروم المتكررة لإحلالها من المسلمين وردّهم إلى ما وراء جبل اللكام كما في السابق، حتّى همّ الخليفة عمر بن

---

تنقل مختلف المراجع العربية هذا الحدث مباشرة عن يعقوبي، المصدر الأوّل الوحيد المتوقّف عن فتح طرسوس في هذا التاريخ، لكن الإشكال أنّ يعقوبي يذكر أنّ جنادة بن أبي أمية فتح سنة 53هـ (673م) طرسوس (التي تعرف كذلك باسم أنظرطوس) المدينة الساحلية بين طرابلس واللاذقية وليس طرسوس في قيليقية، في المقابل يذكر البلاذري أنّ أنظرطوس من فتوح عبادة بن الصامت منذ سنة 17هـ (638م)، فالأمر إذا إمّا أن يكون قد اختلط على يعقوبي، وهذا مستبعد بحكم معلوماته الجغرافية الواسعة، أو أنّ الأمر مجرد خطأ في النسخ، وهذا هو الأرجح.

راجع: تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 153.

<sup>1</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 288.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 493.

<sup>3</sup> - عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 39.

<sup>4</sup> - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 278 / ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج 1، ص 298.

<sup>5</sup> - الدينوري، أحمد بن داود (ت 282هـ): الأخبار الطوال، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1330هـ، ص 328.

<sup>6</sup> - ابن العديم، كمال الدين (ت 660هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج 1، ص 177-178.

عبد العزيز أواخر القرن الأول هجري بهدمها ونقل سكانها كما فعل بطرندة وأهلها اشفاقا منه على من استوطنها من المسلمين وحرصا على سلامتهم، لكنّه أمسك عن ذلك بعدما أقنعه الناس بأهميّة دور المدينة في الدفاع عن أنطاكية وصدّ الروم عنها<sup>1</sup>، وقد جرى تعمير المدينة وشحنها بالسكان مرارا لترسيخ الوجود الإسلامي بها حتّى غدت مع نهاية العصر الأموي قاعدة مهمة من قواعد الإسلام في منطقة الثغور. وهكذا وضع استيلاء المسلمين على أهم حواضر قيليقية وتثبيت وجودهم بها منطقة قبادوقيا في اتصال مباشر مع أراضي الخلافة<sup>2</sup>.

لم تكن مسألة السيطرة على الدروب أقلّ شأنًا من اخضاع مدن الثغور أيضا، فالتحكّم في هذه الممرّات التي تتخلّل جبال طوروس وتصل الشام والجزيرة بآسيا الصغرى كان يوفّر عبورا آمنا للجيوش الإسلامية في عمليّاتها القتالية ضدّ الأهداف البيزنطية، وكانت هذه الدروب تحميها قلاع حصينة ويمكن من خلالها إيقاف جيش كامل من العبور عبر هذه الممرّات بواسطة عدد محدود من الرجال ذوي العزيمة<sup>3</sup>.

## 2- تحصين مدن الثغور:

مع عمليّات السيطرة على المدن والحصون الرئيسية في الثغور -أو استرجاع السيادة عليها- توجّهت جهود الدولة الأموية كذلك إلى تحصين المنطقة الحدودية والرفع من قدراتها الدفاعية، من خلال بناء الحصون وإعادة ترميم وتأهيل ما خربته الهجومات البيزنطية خلال فترة انشغال المسلمين بالفتن الداخلية. بعد اخلاء طرندة من سكانها على يد عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول هجري/القرن الثامن ميلادي تمّ اجلائهم إلى ملطية الأقرب إلى مدن الثغور الأخرى والأكثر أمنا باعتبارها أحد مراكز المسلمين العسكرية الرئيسية في الحدود، ونظرا لأنّ المدينة حتّى ذلك الوقت كانت تضمّ عددا قليلا من أهل الدّمة فقط (أرمن بشكل خاص) ولم يكن بها وجود للمسلمين منذ هجروها في فتنة ابن الزبير، لم تُعنى الدولة بإعادة اعمارها من جديد وبقيت على حالتها من الخراب، ومع قرار الخليفة عمر بن عبد العزيز إعادة توطينها بالسكان<sup>4</sup> جرى إعادة بناء المدينة وتجديد أسوارها وتقويتها، وقام الخليفة بكلّ ما هو ضروري لتحسينها بشكل جيّد ليجعل منها مركزا دائما وآمنا للمسلمين<sup>5</sup>، خاصة أنّ هذه المدينة بخلاف الحصون والمدن الثغرية الأخرى لا تتمتع بحماية طبيعية، حيث ليس بينها وبين بلاد الروم حواجز طبيعية تمنع العدو من استهدافها، فهي متّصلة بالأراضي البيزنطية في سهل واحد<sup>6</sup>، وفي ظلّ هذه المعطيات ونظرا لحجم

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 193-194-196.

<sup>2</sup> - Sophie Métivier: Op cit, p 437.

<sup>3</sup> - عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 24-25.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

<sup>5</sup> - Cheira: Op cit, p 210.

<sup>6</sup> - ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 254.



الخراب الذي كانت عليه المدينة لا بدّ أنّ أشغال إعادة تعميرها قد استغرقت عدّة أشهر حتى تمّ الانتهاء منها وإعادة تأهيلها من جديد، وعرفت ملطية عملية ترميم واسعة أخرى سنة 123هـ/741م في عهد هشام بن عبد الملك، أشرف عليها الخليفة بنفسه بعدما استهدفها حملة عسكرية بيزنطية في نفس السنة تسببت بأضرار معتبرة للمدينة وتحصيناتها، حيث تمّ إعادة بناء واصلاح ما خرّته الروم<sup>1</sup>.

أمّا مدينة مرعش فقد تمّ إعادة بنائها وتعميرها في عهد معاوية بن أبي سفيان، لكن ومع تفجّر الصراعات الداخلية عقب موت يزيد بن معاوية انسحب المسلمون منها بسبب كثرة الغارات البيزنطية عليهم فخرت المدينة، وهكذا أصبحت المنطقة مفتوحة أمام تحركات الجيوش البيزنطية كما حدث سنة 75هـ/694م<sup>2</sup>، وبعد أن استقرّت أحوال الدولة الأموية قام العباس بن الوليد بإعادة ترميمها وتحصينها<sup>3</sup>، وكان ذلك على الأرجح سنة 90هـ/709م، كما تمّ تخصيص قوّة عسكرية من أهل قنّسرين تأتيها كل عام لتربط بها، وهذا يدلّ ربّما على أنّ المدينة لم تبلغ حتى ذلك الوقت من قوّة التوطين والتحصين ما يسمح لها بالدفاع عن نفسها اعتمادا على قدراتها الذاتية، وفي أواخر العهد الأموي استهدف الروم مرعش بحملة عسكرية سنة 127هـ/745م أدّت إلى السيطرة عليها وتخريبها وتهجير سكانها مستغلّين الصراعات الداخلية للمسلمين وانشغال مروان بن محمد بإخماد تمرد أهل حمص<sup>4</sup>، لكنّ مروان أرسل مباشرة بعد انسحاب الروم جيشا إلى المدينة أشرف على إعادة بنائها وتعميرها في نفس العام<sup>5</sup>، ولزيادة فرص صمود المدينة أمام أيّ هجوم بيزنطي مستقبلا أمر ببناء حصن بها وأقام حوله سور لحمايته فنُسب إليه وأصبح يعرف بالمرواني<sup>6</sup>، لكنّ الروم مع ذلك قاموا بتخريبها من جديد بعد ذلك بقليل، وبقيت المدينة على تلك الحال حتى قيام الدولة العباسية<sup>7</sup>.

كانت مدينة الحدث من المواقع الثغرية المعدودة التي احتفظ بها المسلمون منذ فتحها حتى سقوط الدولة الأموية، وهي من فتوحات حبيب بن مسلمة في خلافة عمر بن الخطاب، وتقع بين مرعش وملطية ولها حصن يشرف على درب الحدث الحيوي للحملات الإسلامية، لهذا كان معاوية ومن جاء بعده من

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 221.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 271.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 223.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 223.

Theophanes: Op cit, p 584 / Nikephoros: Op cit, p 139.

<sup>5</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 224.

<sup>6</sup> - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 5، ص 117.

يذكر الطبري أنّ مروان بن محمد وجه الوليد بن هشام إلى مرعش فبنى حصنها، لكنه يؤرخ الحادثة في سنة 130هـ ولا يشير إلى أية عملية ترميم قبل هذا التاريخ. (تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 401)

<sup>7</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 224.

حكّام الدولة الأموية يتعهّدونه بالترميم والتعمير ويخصّونه باهتمام كبير، وقد بقيت مدينة الحدث من معازل الثغور الرئيسية للمسلمين حتّى خربت الروم وهجّرت أهلها أواخر عهد مروان بن محمد<sup>1</sup>. أمّا زبطرة، وهو حصن عظيم من بناء الروم يقع إلى الشمال من الحدث ويتحكّم في الطريق المؤدّية إلى درب ملطية، فقد شُيّد في سهل تحيط به الجبال، وهو من أدنى الثغور إلى بلاد الروم<sup>2</sup>، وكان هذا الحصن قد فتحه حبيب بن مسلمة كذلك مع حصن الحدث وبقي ممتنعاً في يد المسلمين حتّى خربته الروم في عهد الوليد بن يزيد سنة 126هـ/743م، وقد تمّ إعادة بناءه بشكل غير محكم، ربّما بسبب انشغال المسلمين بالصراعات الداخلية من جديد مع بداية انتشار الفوضى والفتن، فخربّه البيزنطيون مرّة أخرى بعد ذلك بسنوات قليلة أواخر العهد الأموي أيام مروان بن محمد<sup>3</sup>.

ومع عمليات احكام السيطرة الإسلامية على مدن وقلاع الثغور الرئيسية، قامت الدولة الأموية بتعزيز القدرات الدفاعية لهذه المنطقة الحدودية من خلال بناء العديد من الحصون المستجدة لردّ العدو أو عرقلة حركته حتّى وصول المدد، ومن أشهر هذه الحصون:

حصن منصور الذي ينسب إلى منصور بن جَعُونَة العامري<sup>4</sup>، وهو رجل على دراية واسعة بالثغور وأحوالها فقد نشأ بها، وكان أبوه من أهل الرها فاشتهر بها وعظم قدره فولّاه عمر بن عبد العزيز ملطية، وكان منصور يغزو مع أبيه بلاد الروم وتولّى هو نفسه بعد ذلك الاشراف على الرها في آخر عهد الدولة الأموية<sup>5</sup>، وقد تمّ بناء هذا الحصن في بداية القرن الثاني هجري شرق مدينة الحدث، والمكان الذي بُني عليه يحتلّ موقعا وسطا بين زبطرة، مرعش، ملطية، وسميساط وقد منح هذا الحصن لهذه المناطق المتفرقة قدرات دفاعية أكثر<sup>6</sup>، وسمح خاصة بالدفاع بشكل جيّد عن مدينة سميساط التي تقع إلى الجنوب الشرقي منه على نهر الفرات، وكذلك الرها وحرّان وغيرهم من مدن الجزيرة الفراتية، وكان هذا الحصن نقطة ارتكاز رئيسية في الدفاع عن الأراضي الإسلامية من هجمات الروم في عهد مروان بن محمد الذي أنزل فيه عددا كبيرا من جند الشام والجزيرة بقيادة منصور بن جَعُونَة لردّ العدو وصدّه عن محاولات التوغّل داخل الجزيرة والشام<sup>7</sup>. وهناك حصن آخر في الجزيرة يعرف بحصن مسلمة، الذي شيّده مسلمة بن عبد الملك ويقع بين الرقة وحرّان، ولا نعلم بالضبط تاريخ تشييد هذا الحصن للأسف، لكن من المرجّح أنّه كان عند نهاية القرن

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 224.

2 - كى لسترنج: المرجع السابق، ص 153 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 241.

3 - البلاذري: المصدر السابق، ص 226 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 473-474.

4 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 227 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 265.

5 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 11، ص 245؛ ج 60، ص 310.

6 - Cheira: Op cit, p 218.

7 - البلاذري: المصدر السابق، ص 227 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، م 2، ص 266.

الأول هجري بالتزامن مع المشاريع التي نفذها مسلمة في بالس المجاورة، وقد أصلح لأهله خزّانا ضخما لحفظ المياه كان يتم استعماله في الشرب وسقي البساتين المحيطة بالحصن<sup>1</sup>.

أمّا في قسم الثغور الشامية، فنملك عنها معلومات أفضل أين جرى تشييد عدّة حصون كذلك في مواقع مختلفة، ففي عهد الوليد بن عبد الملك تمّ بناء حصن سلوقية وشحنه بجند من أنطاكية وأقطعهم الأراضي بها مقابل خراج يؤدّونه<sup>2</sup>، وهذه المدينة على ساحل البحر المتوسط (بحر الروم) تقع غرب طرسوس وبعد نهر اللامس Lamos الذي سيصبح حتّى القرن التاسع ميلادي الحدّ الفاصل بين أراضي الدولتين الإسلامية والبيزنطية<sup>3</sup>.

وكان عهد هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) قد شهد توسّعا كبيرا في بناء الحصون خاصة في منطقة أنطاكية بالتحديد على الطريق إلى المصيصة وهذا له دلالاته، فقد أمر حسان بن ماهويه الأنطاكي ببناء حصن المثقب<sup>4</sup> على ساحل البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) ويبدو أنّ هذا الحصن قد تمّ تشييده سابقا في عهد عمر بن عبد العزيز قبل أن يتمّ تجديده وتحسينه في عهد هشام الذي أمر بالتخاذ خندق له فنسب إلى منجزاته<sup>5</sup>. وتمّ بناء حصن قطر غاش بين أنطاكية والمثقب وتولّى بناءه عبد العزيز بن حيان الأنطاكي بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك<sup>6</sup>. كما أمر أيضا ببناء حصن مورة في جبل اللكام عند الدرب الذي يُعرف بالعقبة البيضاء لحماية طريق البريد بسبب اعتراض بعض الروم في المنطقة رُسل الخليفة، ويبدو أنّ هذا الحصن كان صغيرا فقد ضمّ أربعين رجلا فقط مع بعض الجراجمة الذين كانت لديهم دراية واسعة بطبيعة المنطقة وخصائصها الجغرافية، وقد تكفّل ببناء هذا الحصن رجل من أهل أنطاكية أيضا. وغير بعيد عن هذا المكان تمّ تشييد حصن آخر في بغراس بين أنطاكية والإسكندرونة التي تقع على الساحل، وأنزل فيه مسلحة تضمّ خمسين رجلا. ودعّمت القدرات الدفاعية لهذه المنطقة - أنطاكية ومحيطها - بحصن آخر هو حصن بوقا الذي خضع لعملية تجديد لاحقا فأصبح حديثا<sup>7</sup>.

1 - ياقوت الحموي: المصدر السابق، م 2، ص 265.

2 - البلاذري: المصدر السابق، ص 174.

3- كى لسترنج: المرجع السابق، ص 165 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 255.

J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 86.

4 - البلاذري: المصدر السابق، ص 195-196.

5 - ابن العديم: المصدر السابق، ج 1، ص 224.

6 - البلاذري: المصدر السابق، ص 196 / ابن العديم: المصدر نفسه، ج 1، ص 227.

7 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 196 / ابن العديم: المصدر نفسه، ج 1، ص 228-229.

المسلحة: القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، من خلال المراقبة والتجسس وإنذار المسلمين حتى لا يطرقهم العدو على غفلة. ابن منظور: المصدر السابق، مج 2، ص 487.

وما يمكن ملاحظته أنّ هذه المنشآت قد تمّ إنجازها تحت إشراف عناصر محلية بحكم معرفتهم بالمنطقة ومسالكتها واحتياجاتها الأمنية، كما أنّ قدرات استيعاب هذه الحصون التي تقع في محيط أنطاكية وعلى الطريق المؤدّي إلى قيليقية، كانت قليلة لا تتجاوز عشرات الجنود في الحصن الواحد مقارنة بما كانت تضمّه الحصون الثغرية المتقدّمة عند مناطق التماس مع العدو<sup>1</sup>، وهذا يرجع لطبيعة المهمة التي كانوا يضطلعون بها والمتعلّقة أساساً بمراقبة الطرق والمسالك وترصد تحركات العدو والإنذار المبكر في حالة الخطر. وبفضل هذه المنجزات الدفاعية التي نفذها هشام بن عبد الملك يذكر المسعودي من جملة خصال هذا الخليفة ومآثره أنه «عُدَّ الحرب ولأمتها، واصطنع الرجال، وقوّى الثغور»<sup>2</sup>.

للأسف لا تتوفّر أيّ معطيات عن الشكل الهندسي لهذه الحصون والاستحكامات الدفاعية فيها، ولا عن حجمها والمرافق التي كانت تضمّها، ولا حتّى طبيعة المواد التي بنيت بها، ما يحرمنا من رسم صورة متكاملة عنها، لكن يمكن مع ذلك الاستنتاج أنّها كانت صغيرة ومخصّصة لاستقبال عدد محدود من الجنود لأنّها عبارة عن مراكز متقدّمة لحماية طرق الاتصال وتأمين خطوط سير جيوش الحملات والطوالع، وكذا لمراقبة تحركات العدو وجمع المعلومات وليس لمواجهة هجوم محتمل.

ولم تقتصر المنجزات المعمارية العسكرية في العهد الأموي على تشييد الحصون وبناء الأسوار وكلّ الاستحكامات الدفاعية فقط، بل أيضاً بناء الجسور على طرق الحملات لتسهيل عمليّة عبور الجيوش الإسلامية أو للربط بين مختلف مدن الثغور وحصونها، مثل جسر الوليد على نهر سيحان قرب المصيصة على الطريق المؤدّي إلى أذنة والذي بُني سنة 125هـ/743م في عهد الوليد بن يزيد فنُسب إليه<sup>3</sup>.

### 3- تعمير وتوطين منطقة الثغور:

من إجراءات تنظيم الثغور التي كانت معتمدة خلال العهد الأموي، العمل على تعمير المنطقة وشحنها بالسكان، وهذا الاجراء حيويّ لأنّه سيوفّر الموارد البشرية اللازمة للدّفاع عن هذه المناطق، وسيمكّن من استغلال الإمكانيات الاقتصادية المتوفّرة فيها وبعث مختلف النشاطات بها، وبدأ هذا الاجراء مبكراً في العهد الأموي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان الذي نقل جماعة من الفرس ومن أهل العراق والشام سنة 42هـ/662م وقام بتوطينهم في أنطاكية، التي كانت عرضة لهجمات الروم المتكرّرة، وبعد ذلك بسنوات قليلة بين عامي 49-50هـ/669-670م نقل مرّة أخرى عناصر من الهنود يعرفون بالزط والسيابجة من البصرة إلى المدن الساحلية بالشام وأنطاكية، فاستقروا بها وتكاثروا حتّى كان لهم حيّ بالمدينة يُنسب إليهم يعرف بمحلّة الزط، ثمّ انتشروا بعد ذلك في مختلف قرى وأطراف أنطاكية خاصة بوقا،

1 - أحمد بدر: التنظيم العسكري عند العرب المسلمين، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، عدد 1، سنة 1980، ص 158.

2 - مروج الذهب، ج 3، ص 217.

3 - البلاذري: المصدر السابق، ص 197.

واستقبلت المدينة وضواحيها مرّة أخرى دفعة جديدة من هذه العناصر في أواخر عهد الوليد بن عبد الملك، كان قد سباهم محمد بن القاسم خلال فتوحاته بالسند فأرسلهم إلى الحجاج في العراق، فبعث بهم بدوره إلى الوليد في الشام، وكان ذلك بين سنتي 94-95هـ/713-714م على الأرجح<sup>1</sup>. كما تمّ لاحقاً نقل قسم من سكان أنطاكية إلى مدينة قورس المهمة شمال حلب فسكنوها وعمروها<sup>2</sup>.

كانت المصيصة، بفضل موقعها الجغرافي المميّز وقربها من أنطاكية، أوّل مدينة من بين مدن قيليقية الثلاث الرئيسية التي بدأ ترميمها من طرف المسلمين<sup>3</sup>، وهي المدينة الأساسية التي تملك معلومات كافية عن تطورها في ظلّ الحكم الإسلامي أواخر العهد الأموي. بدأت عملية إعادة بناء المدينة وتحسينها مباشرة بعد فتحها على يد عبد الله بن عبد الملك بين عامي 84-85هـ/703-704م حيث اقتضت سياسة ترسيخ الوجود الإسلامي بها ضرورة توطينها وشحنها بالسكان، ولم يكن المسلمون قد سكنوها قبل ذلك، ويبدو أنّ عملية الاستقرار بها كانت بطيئة في السنوات التي تلت الفتح حتّى أنّ عمر بن عبد العزيز فكّر في نقل سكانها إلى أنطاكية ربّما لما لاحظته من قلة المسلمين بها في مواجهة الروم، لكنّ السكان أحتوا عليه بتركهم فيها واقنعوه أخيراً بحيوية هذه المدينة كمركز متقدّم للدّفاع عن معقل المسلمين الثغرية خاصة أنطاكية، فتخلّى الخليفة عن فكرته وبنى لأهلها مسجداً جامعاً بإزاء المدينة في ضاحية على نهر جيحان تعرف بكفربيا<sup>4</sup>، وهو المسجد الثاني الذي تمّ تشييده بالمدينة بعد ذلك الذي بناه عبد الله بن عبد الملك من قبل داخل الحصن<sup>5</sup>، وقيام عمر بن عبد العزيز بتشديد مسجد آخر يعدّ في حدّ ذاته دليلاً على ازدياد أعداد المسلمين بها مقارنة بالسنوات القليلة التي أعقبت فتحها، سنجد بعد ذلك إشارات مهمّة في المصادر الإسلامية عن زيادة وتيرة الاستقرار والتوطين بالمدينة، ففي عهد يزيد بن عبد الملك تمّ جلب عدد كبير من الزط الذين كانوا مستقرّين بقرى دجلة وكسكر في العراق مع آلاف الجواميس إلى المصيصة، ولا شك أنّ هذا الاجراء قد ساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية بها وزاد عدد السكان فيها إلى حدّ دفع هشام ابن عبد الملك لاحقاً إلى القيام بتوسعتها، فبنى لها رضاً (ضاحية) لاستيعاب الزيادة السكانية المتنامية في المدينة، وفي عهد مروان بن محمد تمّ توسعة المدينة مرّة أخرى فبنى قسماً جديداً في الجهة الشرقية من نهر جيحان عرف باسم الخصوص، ثمّ نقل إليه مجموعات من الفرس والأنباط النصارى والصقالبة وقام بتوطينهم فيها<sup>6</sup>، وهذه إشارة مهمّة تبين لنا التركيبة البشرية المتنوّعة التي كانت عليها المصيصة، فعمليات

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 173-174-190-422.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 176.

3 - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 107.

4 - البلاذري: المصدر السابق، ص 194.

5 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 4، ص 225 / ابن العديم: المصدر السابق، ج 1، ص 156.

6 - البلاذري: المصدر السابق، ص 194-195.

نقل وتوطين الفرس والزنط وغيرهم كانت شائعة في العهد الأموي، لكن فيما يخص الصقالبة فهذا الأمر نادر ومثير للانتباه، وهم من المؤكّد من العناصر التي انضمت إلى محمد بن مروان بعد موقعة سياستوبوليس سنة 692م/73هـ وجرى توطينهم في بلاد الشام حينها<sup>1</sup>. وقد أحاط مروان هذا القسم المستحدث (الخصوص) من المدينة بسور جعل فيه بابا من خشب، وحفر حوله خندقا زيادة في تأمين الجانب الشرقي من المدينة وتحصينه<sup>2</sup>، وهكذا أصبحت هذه الحاضرة بعد أقلّ من نصف قرن من خضوعها للحكم الإسلامي أكبر حجما وأكثر سكانا وتمتدّ على ضفتي نهر جيحان.

وعلى الرغم من أنّ المدينتين الأخيرتين الرئيسيتين في قيليقية، ونعني هنا طرسوس وأذنة، كانتا قد خضعتا للسيادة الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن الأول هجري إلاّ أنّه لم تحدث عملية توطينهما بالسكان على الأرجح، واكتفت الدولة الأموية بإنزال حاميات عسكرية بهما، حيث نملك معلومات عن هذا الإجراء على الأقلّ فيما يتعلّق بطرسوس<sup>3</sup>.

أمّا في قسم الثغور الجزرية فتبقى المعلومات المتعلّقة بتوطين السكان فيها خلال العهد الأموي شحيحة جدا، ما عدا بعض الإشارات القليلة خاصة فيما يتعلّق بإعادة توزيع السكان بين مدن هذا الثغر، ففي أواخر القرن الأول هجري كان المسلمون قد بدأوا الاستقرار في مدينة طرندة وزاد عددهم بها، لكن مع تولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة تمّ اجلاءهم منها وإعادة توطينهم في مدينة ملطية التي تقع في الجنوب الشرقي منها وتعدّ أكثر قربا من ديار الإسلام، وكان سكان ملطية من أهل الشام والجزيرة قد هجروها خلال فتنة ابن الزبير، ولا تغفل المصادر العربية الدوافع الكامنة وراء اجراء عمر بن عبد العزيز والتي تحصرها في حرص الخليفة على سلامة رعاياه وخوفه عليهم من اعتداءات الروم<sup>4</sup>، لكن هذا القرار ربّما كان يهدف لأكثر من ذلك، فمدينة ملطية كانت قد استقبلت دفعة كبيرة من الأرمن النصارى سنة 94هـ/713م قدموا من بلاد الروم بعد طردهم من طرف الامبراطور فيليبسيكوس<sup>5</sup>، وهذا الأمر يمكن أن يجعل من المدينة ذات الموقع الاستراتيجي والتي لم يكن يسكنها عدد كبير من المسلمين حتّى ذلك الوقت تصبح حاجزا بين مختلف المدن التي تسيطر عليها الدولة الأموية في منطقة الثغور، وبقاء العناصر المسلمة فيها قليل مع تفوّق أهل الذمة يمكن أن يكون عامل عدم استقرار، فعملية إعادة توطين المسلمين من طرندة إلى ملطية ستساهم في ادماج هذه الأخيرة مع غيرها من مدن خط الثغور وتأكيد السيادة الإسلامية عليها.

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 511.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 194-195-197.

<sup>3</sup> - الدينوري: المصدر السابق، ص 328.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 220.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 532 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, P 482.

وتذكر المؤرخة صوفي متيفيي Sophie Métivier أنّ بداية عمليّات توطين المسلمين جنوب جبال طوروس ربما ترتبط أساسا بعودة النشاط البيزنطي في منطقة الثغور مع بداية القرن الثامن ميلادي (أواخر القرن الأول هجري)، وإذا ما أخذنا في الاعتبار رأي المؤرخ الألماني رالف ليلي R. Lilie الذي يذهب إلى أنّ منطقة الثغور بعد اخلائها من أهلها على يد البيزنطيين سرعان ما شهدت معاودة استرجاع السكان والفرق البيزنطية لمواقعهم السابقة بها بداية من النصف الثاني من القرن السابع ميلادي<sup>1</sup>، يصبح هذا الطرح منطقي جدا وربما يُلقى الضوء على التنافس الذي كان سائدا بين الدولتين على توطين منطقة الثغور لاتخاذها كمركز دفاعي متقدّم في مواجهة الخصم.

بالإضافة إلى عمليّات التوطين الجماعية التي كانت تقوم بها الدولة، والتي أخذت طابعا قسريا في بعض الحالات خاصة عندما يتعلّق الأمر بالعناصر غير العربية، فمن المؤكّد أنّ منطقة الثغور قد جذبت قسما معتبرا من الناس الذين يبحثون عن فرص جديدة للكسب، حيث كان يرافق عملية التوطين توفير سبل الاكتفاء الاقتصادي من طرف الدولة من خلال الاقطاع بشكل خاص أو الزيادة في العطاء، من ذلك أنّ الوليد بن عبد الملك عندما نقل جندا من أنطاكية إلى سلوقية أقطعهم أرضها لتشجيعهم على الاستقرار بها فعمروها وجرى ذلك لهم<sup>2</sup>، ومن المعروف أنّ عطاء جنود الثغور كان أعلى من عطاء الجنود في المناطق الأخرى من الدولة الإسلامية بما يعادل الضعف أو يزيد وهذا لأن من يُرسل من الجنود إلى الثغور يُدفع لهم زيادة في المرتبات إضافة إلى اسكانهم وتزويدهم بالمواد الغذائية من أجل تحفيزهم على البقاء في الثغور ليردّوا العدو إذا ما هاجم مراكز المسلمين<sup>3</sup>. وكان هناك أيضا المجاهدون المتطوّعون والمرابطين الذين كرسوا حياتهم للجهاد في سبيل الله الذي يعدّ من أعظم الأعمال أجرا في الإسلام، وهذا ما يذهب إليه هالدن Haldon أيضا الذي يعترف مع ذلك بقلّة المعلومات عن هذه الفئة من سكان الثغور ما لا يساعد على رسم صورة كاملة عن أعدادهم وتنظيماتهم<sup>4</sup>.

بجانب المرابطين المتطوّعين كانت الدولة، من أجل تأمين التجمّعات السكانية في منطقة الثغور، تقوم بإرسال مجموعات من الجنود، تطلق عليهم المصادر اسم الطوالع، لترابط بالمدن والحصون في الثغور مدّة من الوقت كلّ سنة، حيث يضطّلعون بمهمّة حماية مراكز المسلمين هناك بالتزامن مع فترة الغزو سواء في الشتاء أو الصيف وينسحبون مع عودة الجنود المحليين إلى مراكزهم في الثغور بعد انتهاء نشاط الحملات الموسمية، وكانت المصيصة مثلا تأتيها طوالع من أنطاكية كلّ عام تضمّ بين ألفا وخمسمائة إلى ألفي رجل تشتمو بها ثمّ

<sup>1</sup> - Sophie Métivier: Op cit, p 436.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 174.

<sup>3</sup> - عبد العزيز عبد الله السلومي: ديوان الجنود نشأته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، ط 1، 1986، ص 334.

<sup>4</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 110.

تنصرف<sup>1</sup>، وكانت ملطية هي الأخرى تأتيها الطوالع من جند الجزيرة كل سنة فتمضي بها الصيف حتى يحلّ الشتاء وتسقط الثلوج فتتوقّف الحركة عبد الدروب فيرجعون إلى مواقعهم<sup>2</sup>. وفي مرعش، التي كانت هدفا لحمالات الروم مرّات عديدة، تمّ تخصيص بعث من أهل قنّسرين يأتيها كل عام فيقيم بها مرابطا حتى يحلّ الشتاء<sup>3</sup>، وكانت قورس تخرج إليها كل عام طالعة من جند أنطاكية فيرابطون بها لدفع خطر الروم عنها إذا ما استهدفوا المسلمين، حتى تمّ توطين المدينة لاحقا بقسم من سكان أنطاكية فانقطعت عنها الطوالع<sup>4</sup> لكثرة أهلها وقدرتهم على حماية أنفسهم.

وفي الأخير يمكن الجزم حتى في غياب المعطيات أنّ كل مدن الثغور الرئيسية كانت تتلقّى موجات هجرة وتوطين على فترات متقطّعة مثل ملطية والحدث ومرعش وقاليقلا، وأنها أيضا احتفظت بعدد من سكانها الأصليين قبل فتحها خاصة في حالة المصيصة<sup>5</sup>، كما أنّ محاولات المسلمين إبان العهد الأموي ترسيخ وجودهم في مدن الثغور من خلال عمليّات التوطين المتكرّرة لم تكن دائما ناجحة حيث لم يستطيعوا الاحتفاظ بوجود ثابت لهم في هذه المنطقة (باستثناء المصيصة) فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية تسعى جاهدة لإحباط كل هذه المحاولات من خلال إعادة الاستيلاء على المدن وتخريبها وتهجير سكانها خاصة في فترات الفتن والإضرابات الداخلية التي كانت تعترى الدولة الأموية، كما حدث لمرعش في ثلاث مناسبات على الأقل، بعد موت يزيد بن معاوية، وفي سنة 127هـ/744م، وبعد ذلك بقليل أيضا خلال حكم مروان بن محمد، وهو نفس المصير الذي لاقته كل من ملطية والحدث وزبطرة أواخر العهد الأموي.

ويسجّل هالدين وكينيدي بعض الملاحظات حول المراكز السكانية للمسلمين في منطقة الثغور، منها أنّها كانت كلّها تتركّز في السهول وبالتحديد في المواقع الحصينة قرب الأنهار خاصة في قيليقية، ولم يُبد المسلمون إلا قدرا قليلا من الجهد للسيطرة على المرتفعات والجبال في المنطقة، كما أنّ المدن "المحصّنة" هي من كانت تضطلع بالمهام الرئيسية للدفاع وليس القلاع والحصون المعزولة، تلك المدن التي تمّ انشائها أساسا بغرض تحقيق الأهداف العسكرية والدفاعية للخلافة لكنّها مع ذلك سرعان ما بدأت تلعب دورا اقتصاديا مع مرور الوقت وتبرز لاحقا كمراكز تجارية مهمّة على المستوى المحلي، ومع البيزنطيين خاصة في العصر العباسي<sup>6</sup>.

#### 4- تعديل التنظيم الإداري للمناطق الحدودية:

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 194.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 220.

3 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 223.

4 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 176.

5 - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 110.

6 - J. F. Haldon and H. Kennedy: Ibid, p 109.



كانت منطقة الشام قبل قيام الدولة الأموية مقسّمة إلى أربعة أقاليم تعرف بالأجناد، حيث ومع استكمال فتح الشام جرى العمل على تنظيم المنطقة إداريا وعسكريا من طرف الخليفة عمر بن الخطاب الذي قام في اجتماع الجابية سنة 17هـ/638م بتقسيمها إلى مقاطعات تحت سلطة قاداته العسكريين<sup>1</sup>، وهذه الأجناد الأربعة هي: حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وكانت الضرورات العسكرية والأمنية هي التي أوجبت هذا التقسيم من أجل الدفاع عن الشام أمام الخطر البيزنطي الذي ما زال قائما خاصة على الجبهة البحرية<sup>2</sup>، ويبدو أنّ جند حمص كان يحظى بأهمية كبيرة لأنّه يعتبر المقاطعة المتاخمة بشكل مباشر لبلاد الروم، وأيضا لاتساع مساحته إذ كان يضمّ أيضا قنّسرين وأنطاكية والمناطق المحيطة بها، ولاحقا في العهد الأموي اقتضت الضرورة إعادة التنظيم الإداري والعسكري لمنطقة الحدود، وكان أول تعديل على هذا الوضع قد حدث في عهد يزيد بن معاوية الذي قام بفصل قنّسرين وأحوازها عن حمص وجعلها جندا مستقلا وأضاف إليها أنطاكية ومنبج وما يتبعهما من قرى<sup>3</sup>، إنّ هذا التعديل يوحي بأنّه كان إجراء بأهداف دفاعية بالدرجة الأولى ويتمشى ذلك مع الوضع الجديد للعلاقات الأموية البيزنطية في عهد يزيد ابن معاوية الذي قرّر وقف ارسال حملات الصوائف السنوية على بلاد الروم، والتي كانت تساهم في لجم البيزنطيين واشغال قوّاتهم عن أيّ حركة هجومية تستهدف منطقة الثغور، وعلى ضوء هذا التعديل في المناطق الحدودية أصبح جند قنّسرين المستحدث شمال الشام نقطة الاتصال المباشرة والثغر الملاصق لأرض الروم بدل حمص. كما كانت الجزيرة الفراتية وفق هذا التعديل إلى غاية عهد عبد الملك بن مروان ملحقة بقنّسرين ما جعل هذا الجند يشغل عمليا كل المنطقة الحدودية مع بلاد الروم من الجزيرة شرقا حتّى حلب وأنطاكية غربا، وقد أتاح هذا الإجراء الذي قام به يزيد بن معاوية مرونة أكبر في مواجهة التهديدات البيزنطية المحتملة من خلال الإنذار المبكر عن تحركات العدو وسرعة اتخاذ القرار، كما حدث سنة 75هـ/694م عندما استطاع أبان بن الوليد والي قنّسرين التصدي لحملة بيزنطية ضدّ الأراضي الإسلامية ودحرها مباشرة بعد تجاوزها مرعش دون أن يتيح لها فرصة التوغل داخل الشام<sup>4</sup>، وهكذا استطاع هذا التعديل على الحدود الرفع من القدرات الدفاعية للدولة الأموية في مواجهة أيّ تهديد بيزنطي محتمل<sup>5</sup>.

ولاحقا في عهد عبد الملك تمّ إجراء تعديل آخر على الوضع في الحدود، حيث عمد إلى فصل الجزيرة عن قنّسرين لتصبح جندا مستقلا بذاته، وتذكر المصادر أنّ هذا الإجراء جاء بتوصية واقترح من

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 64-65.

2 - نجدت خمّاش: الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1987، ص 214-215.

3 - البلاذري: المصدر السابق، ص 154 / قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص 299.

4 - خليفة: المصدر السابق، ص 271 / اليعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 203 / البلاذري: المصدر نفسه، ص 223.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 470.

5 - Cheira: Op cit, p 156.

محمد بن مروان أخ الخليفة عبد الملك<sup>1</sup>، وربما يكون هذا التعديل حدث في سياق تفاقم المشكلة الأرمينية وضرورة انشاء جند مستقل قريب من بند الأرمينيا الذي يشترك في الحدود مع أرمينية، وبعد قاعدة لأي حركة بيزنطية نحو الشرق ضدّ العرب<sup>2</sup>، وهو ما تؤكدته الأستاذة نجدة خمّاش أيضا التي ترى أنّ الاعتبارات العسكرية هي التي أوجبت فصل الجزيرة عن قنّسرين وجعلها جندا مستقلا كما تمّ فصل قنّسرين عن حمص قبل ذلك<sup>3</sup>، وهكذا سيختصّ هذا الجند المستحدث (الجزيرة) في العمليات العسكرية ضدّ الأقاليم الشرقية البيزنطية وعلى الساحة الأرمينية كذلك، وقد حظي هذا الجند باهتمام كبير من طرف الخلفاء نظرا للدور الاستراتيجي الذي يقوم به، فكان يتمّ اسناد قيادته عادة إلى أفراد من البيت المرواني، مثل محمد بن مروان حتى سنة 90هـ/709م، وبعده مسلمة بن عبد الملك سنة 91هـ/710م<sup>4</sup>، ومروان بن محمد سنة 114هـ/732م أو بعد ذلك بسنتين، عام 116هـ/734م حسب رواية البلاذري<sup>5</sup>، كما كان يتمّ في بعض الأحيان، خاصة في ظلّ تهديد الخزر، جمع كلّ من أذربيجان وأرمينية والجزيرة تحت سلطة وال واحد لتحقيق انسجام أكبر في القيادة بين هذه الأقاليم الثلاث.

#### ثانيا- الثغور البحرية:

يذكر قدامة بن جعفر أنّ الثغور البحرية هي كلّ ما يواجه بلاد العدو من جهة البحر، وهي كلّ سواحل الشام ومصر، ومن أهمّ مدن الثغور الشامية أنطرسوس، واللاذقية، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا التي كانت بها دار الصناعة، وقيسارية، وعسقلان، وغيرها، أمّا الثغور المصرية فأهم مراكزها رفح، والفرما، والعريش<sup>6</sup>، وهذه الجبهة عكس الثغور البرية، تمثّل مجالا جغرافيا واسعا عرف مواجهات بين الطرفين لا تقلّ شأنًا عن الصراع البري.

لا تختلف معالم الاستراتيجية الأموية لحماية الثغور البحرية عن نظيرتها البرية بشكل عام، لكنّ هذه الجبهة شكّلت تحدّي للمسلمين لما كان للروم من تقاليد راسخة في المجال البحري والأفضلية التي كانوا يتمتعون بها في بعض الفترات، وقدرتهم على احداث أضرار بالسواحل والتحصينات بها. أستكمل فتح المدن الساحلية في الشام ومصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، لكنّها مع ذلك بقيت هدفا لحملات الروم البحرية بشكل متكرّر ما استلزم الاهتمام بتحصينها وإعادة ترميمها لصد خطر

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 154.

2 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 99.

3 - نجدة خمّاش: المرجع السابق، ص 217 / نجدة خمّاش: الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1980، ص 43.

4 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 84.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 242 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 57، ص 324-325 / ابن الأثير: المصدر السابق، ص 4، ص 406.

6 - الخراج وصناعة الكتابة، ص 185-188.

الروم، وكان معاوية وهو بعدُ وال على الشام على اطلاع واسع بخصائص المنطقة الساحلية واحتياجاتها الدفاعية فكان يوليها عناية خاصة، وقامت الاستراتيجية الأموية للثغور البحرية على العناصر الآتية:

### 1- ترميم الجبهة البحرية وتحسينها:

في ظلّ التفوّق البرّي للجيش الإسلامي على نظيرتها البيزنطية بقيت الجبهة البحرية هي الميدان الذي استطاعت فيه الإمبراطورية أحداث نوع من التوازن مع الدولة الأموية، وكانت مدن الساحل الشامي والمصري عرضة لحمالات الروم على فترات متقطّعة، وقد خلّفت هذه الحملات في الكثير من الأحيان خسائر مادية وبشرية معتبرة، لهذا اهتمّت الدولة الأموية بشكل ملفت بتحسين الثغور البحرية من خلال إعادة البناء والتحسين بشكل مستمر.

خلال فتنة ابن الزبير، كما تُطلق عليها المصادر، عانت المدن الساحلية السورية من هجمات عنيفة للبحرية البيزنطية أدّت إلى إلحاق خسائر معتبرة بها، فمباشرة بعد وفاة يزيد بن معاوية تعرّضت مدينة عسقلان سنة 65هـ/683م لحملة بيزنطية انتهت بتخريبها وتهجير سكانها<sup>1</sup>، وبقيت المدينة على هذه الحالة حتّى استقام الأمر لعبد الملك بن مروان فبادر إلى إعادة بنائها وتحسينها وقام بتوطين مجموعات من السكان العرب بها، ولتشجيع الاستقرار بالمدينة من جديد قرّر اقطاع كل من يربط بها أرضاً يستغلّها ويتنفع بها<sup>2</sup>.

وكانت قيسارية لاقت نفس المصير كذلك، إذ قام الروم بإنزال حملة بها أدّت إلى تخريبها وتهدم مسجدها بشكل متزامن مع حملتهم على عسقلان، وقد قام عبد الملك بترميمها أيضاً وشحنها بالجند والسكان<sup>3</sup>، على الأرجح في نفس الفترة التي باشر فيها مشروعاته في مدينة عسقلان المجاورة.

عكا وصور شمالاً تعرّضتا للتخريب أيضاً، وإن كانت المصادر لا تذكر تفاصيل ذلك إلا أنّ الاحتمال الأكبر يذهب إلى أنّ الروم هم من خرّبوها في فترة الفتن الداخلية بعد موت يزيد بن معاوية، وقد قام عبد الملك بإعادة بنائهما وتحديثهما، وبنى عكا الخارجية وهي ربّما توسعة للمدينة القديمة، وكانت هذه المرّة الثانية التي ترمّم فيها المدينتين بعد تلك التي قام بها معاوية سنة 28هـ/641م قبل انطلاقه لغزو جزيرة قبرص<sup>4</sup>، وتمّ إعادة ترميم عكا مرّة ثالثة في عهد هشام بن عبد الملك بعد أن خرّبت<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 167.

Timothy Venning: Op cit, p 181.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 167-169 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 359.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 168.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 137-167-168.

<sup>5</sup> - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 144.

طرابلس شمالاً هي الأخرى كان لها نصيب من عمليّات الترميم الواسعة التي أطلقها عبد الملك، فأعاد بناء الحصن الذي يشرف على الميناء، وكان معاوية بصفته والي الشام قد شحنه باليهود بعد فتح المدينة، ولاحقاً سمح عبد الملك بن مروان لأحد نبلاء الروم مع عدد معتبر من أنصاره الاستقرار في المدينة مقابل خراج يؤدّيه<sup>1</sup>، وقد كان هذا الأمر سوء تقدير خطير من الخليفة حين سمح له بالاستقرار في المدينة التي كانت حتّى ذلك الوقت غير مأهولة بشكل كاف بالمسلمين وموقعها على الساحل يتيح لها الاتصال بسهولة مع بلاد الروم، وبالفعل بعد حوالي سنتين من الإقامة بالمدينة قام القائد البيزنطي بالانقلاب على المسلمين وسيطر على طرابلس، مستغلاً انسحاب القوات التي كانت مرابطة هناك بعد نهاية فترة خدمتها، فقتل عاملها وأسر سكانها ثمّ رجع إلى بلاد الروم، لكنّ المسلمين استطاعوا بعد ذلك أن يأسروه في إحدى المواجهات البحرية مع البيزنطيين وأتوا به عبد الملك فأمر بقتله<sup>2</sup>.

مدينة أنطاكية بدورها تعرّضت لحملة بحرية بيزنطية عنيفة سنة 698/79هـ أدّت إلى إلحاق خسائر معتبرة في صفوف السكان<sup>3</sup>، ويمكن أن نستنتج دون مبالغة حتّى في ظلّ صمت المصادر أنّ تحصينات المدينة قد تعرّضت لأضرار معتبرة، ولهذا من المؤكّد أنّ هذه القاعدة المهمّة على مشارف بلاد الروم قد خضعت للترميم والصيانة لاحقاً لتعزيز قدراتها الدفاعية، وتعرّضت المدينة لدمار كبير من جديد لكن هذه المرّة بفعل العوامل الطبيعية، حيث ضرب زلزال عنيف منطقة الشام سنة 713/94هـ ألحق أضراراً كبيرة بالمدينة<sup>4</sup>، ولضمان عدم استغلال الروم لهذا الوضع لا بدّ أنّه تمّ إعادة بنائها سريعاً وترميم تحصيناتها. في خلافة عمر بن عبد العزيز أغار الروم على مدينة اللاذقية سنة 718-719هـ فهدموها وأحرقوها وأسروا عدداً كبيراً من أهلها<sup>5</sup>، لكنّ عمر سارع لإعادة بناء المدينة وترميم تحصيناتها، ويبدو أنّ الحملة البيزنطية قد ألحقت خسائر كبيرة بها حيث لم يتمّ الفراغ من اصلاحها وإعادة شحنها بالسكان في عهده حتّى أتمّ ذلك من بعده يزيد بن عبد الملك<sup>6</sup>.

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 148-149.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 149 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 356-357.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 322.

Cheira: Op cit, p 164.

4 - الطبري: المصدر نفسه، ج 6، ص 483 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 282.

Theophanes: Op cit, p 533 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 99 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 481.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 155.

Elie Bar Sinaya: Ibid, p 100 / Timothy Venning: Op cit, p 197.

6 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 155.

يذكر اليعقوبي (ج 2، ص 224) أنّ غارة الروم على اللاذقية كانت في عهد سليمان بن عبد الملك وهذا يبدو مستبعداً جداً، فكيف يمكن لأسطول بيزنطي التحرك من قواعده لمهاجمة سواحل الشام في الوقت الذي كان فيه الأسطول الإسلامي مطبقاً الحصار على القسطنطينية.

أمّا في مصر فقد أعيد بناء أسوار مدينة الإسكندرية من جديد بعد أن كان قد هدمها عمرو بن العاص من قبل في الفتح الثاني لها سنة 25هـ/646م<sup>1</sup>، وهذا ما يشهد به أحد الرحالة الغربيين الذي زار المدينة سنة 670م/50هـ حيث يذكر أنّ الحصون كانت تحيط بها احاطة تامة<sup>2</sup>، وهكذا تمّ تحصين المدينة وتأمينها من هجمات الروم، لكننا مع ذلك نجد رواية في المصادر الإسلامية عن قيام عبد العزيز بن مروان والي مصر بإعادة بناء حصن الإسكندرية سنة 77هـ/696م مع إشارة بأنّ الحصن كان مهدوما منذ فتّحها من طرف عمرو بن العاص<sup>3</sup>.

وعموما كان الترميم والتحصين وإعادة البناء ودعم الثغور والاستحكامات الحربية عملية جارية مستمرة لسد مواطن الضعف وتقوية الإمكانيات الدفاعية للثغور البحرية بشكل خاص ولم يتم أبدا إهمالها<sup>4</sup>، نظرا لتعرضها المستمر لغارات الروم والأضرار التي كانت تتسبب فيها.

كما اهتمّت الدولة الأموية بتطوير نظام الرباط<sup>5</sup> في السواحل فكان يتمّ تجميع الجند في حاميات لتأمين المناطق المعرضة لخطر هجومات الروم وللدفاع عنها وردّ العدو إلى غاية وصول التعزيزات، وانذار السكان في حالة الخطر<sup>6</sup> حتى نهاية موسم الإبحار فترجع الحاميات إلى مراكزها ولا يبقى إلا عدد قليل من الجند، وكان معاوية يوجّه كل عام إلى طرابلس جماعة كثيفة من الجند عليهم قائد يرابطون بها<sup>7</sup>، وهناك إشارات كثيرة في المصادر العربية على أنّ هذا النظام بقي معمولا به حتى فترة متأخرة من تاريخ الدولة الأموية، فقد ألزم هشام بن عبد الملك في زيارته للحجاز سنة 106هـ/724م أهل المدينة بتجنيد أربعة آلاف منهم لما رأى من كثرتهم، فكانوا يأتون سواحل الشام فيغزوا نصفهم ويقيم النصف الآخر مرابطا

1 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 302.

2 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 95.

الرحالة هو الأسف أركلف Arculf من بلاد الغال، والرحلة التي قام بها إلى الأراضي المقدسة ومّر فيها بالإسكندرية ربّما حدثت سنة 700م/81هـ وليس قبل ذلك بثلاثين سنة.

3 - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1990، ج 5، ص 335.

إذا كانت زيارة أركولف إلى مصر حدثت سنة 81هـ/700م وليس قبل ذلك، فإن إشارته حول أسوار وتحصينات الإسكندرية ترجع للعمل الذي قام به عبد العزيز بن مروان، وبالتالي سيكون هذا الإنجاز الذي قام به والي مصر هو عملية الترميم الرئيسية منذ فتح المدينة للمرة الثانية سنة 25هـ/646م.

4 - عبد الله كامل موسى عبده: الأمويون وآثارهم المعمارية، في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2003، ص 36.

Cheira: Op cit, p 200.

5 - الرباط: ملازمة الثغر، والإقامة على جهاد العدو بالحرب، وأصله ارتباط الخيل واعدادها بإزاء العدو في بعض الثغور.

ابن منظور: المصدر السابق، مج 7، ص 302-303.

6 - وفيق بركات: فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1995، ص 118.

7 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 358-359.

بالثغور لتعويض من التحق في الصائفة من الناس حتى إذا رجعوا من الغزو انصرف أهل المدينة إلى ديارهم<sup>1</sup>، وكان الوليد بن عبد الملك قبل ذلك قد ضرب البعث على أهل المدينة أيضا فخرج منهم ألفي رجل<sup>2</sup>. وفي الإسكندرية كان يربط بها في بداية العهد الأموي اثنا عشر ألف رجل من أهل الديوان، ويبدو أنّ هذا العدد من المقاتلة لم يكن يفي بالحاجيات الدفاعية للمدينة فكتب عاملها علقمة بن يزيد العُطيفي إلى معاوية بن أبي سفيان سنة 44هـ/664م يشكو قلّة من معه من المقاتلة ويعلمه تخوّفه من العدو، فأمدّه معاوية بجند من المدينة يكونون معه، وجعل بالرملة في فلسطين مسلحة من أربعة آلاف جندي على استعداد وأهبة ينطلقون إليه إذا داهمه خطر<sup>3</sup>.

وقد شاع بين الناس فضل الرباط في الإسكندرية وقيل فيه الكثير من الأقوال وألفت فيه رسائل عديدة كذلك لا يتّسع المجال لذكرها هنا<sup>4</sup>، ويكفي أن نذكر أنّ ابن هرمز الأعرج القارئ من أهل المدينة كان يعدّ الإسكندرية خير السواحل رباطا وما زال على ذلك حتى قصدها مرابطا فتوفي بها سنة 117هـ/735م<sup>5</sup>.

## 2- تأسيس صناعة بحرية:

قام معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام، وبالتحديد في عكا سنة 49هـ/669م، وكان السبب وراء اتخاذه هذا القرار التحرّشات البيزنطية التي تعرّضت لها سواحل الشام في نفس السنة، والتي ألحقت بها أضرارا بالغة على ما يبدو، فكان انشاء قاعدة صناعية لإنتاج السفن إجراء كفيلا بإيجاد أساطيل دائمة بمختلف موانئ الشام مرتكزة على صناعة محلية مستقلة بذاتها عن مصر تساهم في الدفاع عن سواحلها وردّ العدو، ولم تكن صناعة السفن موجودة في الشام قبل ذلك وإنما كانت في مصر فقط، وهكذا أمر معاوية بجمع الصناع والنجارين من ذوي الخبرة لمباشرة صناعة السفن في عكا التي أصبحت بذلك مركز أسطول الشام ومجمع مراكبها<sup>6</sup>، وقد ساعد على اختيار هذه المدينة لتكون مقرّ دار الصناعة بالشام قربها من جبال لبنان التي توفر الأخشاب الضرورية لصناعة السفن، وأيضا لكون هذه

1 - الزهري، محمد بن سعد (ت 230 هـ): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ط 1، 2001، ج 7، ص 199 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 40.

2 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 205.

3 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 324-325 / الكندي، محمد بن يوسف (ت 350 هـ): الولاة وكتاب القضاة، تحذيب وتصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص 36 / المقرئ، تقي الدين (ت 845 هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 2، 1987، ج 1، ص 168.

4 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1982، ص 92 وما بعدها.

5 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 260.

6 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 137 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 144 / إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 79-80 / السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 109-110.

المدينة تتوفر على البنية اللازمة لهذه الصناعة حيث كانت بها أحواض بيزنطية لصناعة السفن قبل الفتح الإسلامي<sup>1</sup>. وقد بقيت المدينة مركز الصناعة البحرية الإسلامية في الشام إلى غاية عهد هشام بن عبد الملك الذي قام بنقل دار الصناعة إلى مدينة صور<sup>2</sup> التي تقع إلى الشمال منها، وتتمتع هذه الأخيرة بمميزات جغرافية جيدة حيث أُسست على جزء من البر ناتئ في البحر ما هيأ لها حماية طبيعية وإمكانية إنشاء مرفأين أحدهما شمالي والآخر جنوبي<sup>3</sup>، وكان عمر بن عبد العزيز قد جمع كل سفن أسطول الشام قبل ذلك في هذه المدينة (صور) وجعل قيادتها تحت سلطة وال واحد<sup>4</sup>، وهذا الإجراء الذي قام به كل من عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ساهم في تقريب مركز القوة البحرية الشامية أكثر من بلاد الروم حتى تتعامل بشكل أسرع مع كل تهديد محتمل خاصة مع تزايد الغارات البيزنطية على مدن السواحل الشمالية للشام كما حدث مع اللاذقية سنة 100هـ/719م، وهناك سبب آخر قوي جعل هشام يتخذ قرار نقل دار الصناعة من عكا، وهو تعرّض المدينة لحمالات الروم بشكل متكرّر حيث يذكر الحموي أنّها خربت في عهد هشام فجدها<sup>5</sup>، وربما تكون أحواض بناء السفن قد تضررت بشكل كبير فكان لزاما إيجاد مدينة بديلة لها، وقد بقيت صور محتفظة بمكانتها كقاعدة رئيسية للبحرية الشامية إلى غاية سقوط الدولة الأموية.

أما في مصر فقد تمّ استحداث دار للصناعة بها سنة 54هـ/674م في عهد واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي اتخذ من جزيرة الروضة مركزا لبناء السفن<sup>6</sup>، وقد مرّ علينا سابقا إشارة البلاذري أنّ صناعة السفن كانت موجودة في مصر قبل حتى بعث هذا النشاط في عكا سنة 49هـ/669م من طرف معاوية ابن أبي سفيان<sup>7</sup>، ومن المؤكّد أنّ الصناعة البحرية كانت موجودة في مصر قبل التاريخ الذي أورده المقرئزي نقلا عن الكندي، حيث كانت لبيزنطة أحواض لبناء السفن في الإسكندرية والقلم (السويس) استفاد منها المسلمون بعد فتح مصر في تزويد أساطيلهم بالسفن بفضل توظيف الحرفيين المهرة من اليونانيين والأقباط<sup>8</sup>، وما يدعم هذا الطرح بقوة هو مشاركة الأسطول المصري الفعّالة في أهم المعارك البحرية ضدّ البيزنطيين منذ العصر الراشدي خاصة في فتح قبرص سنة 28هـ/641م، ومعركة ذات الصواري الشهيرة سنة

1 - إبراهيم العدوي: المرجع السابق، ص 80 / حنان فرقوني: الزراعة والصناعة والتجارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2006، ص 49.

2 - البلاذري: المصدر السابق، ص 138 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 144.

3 - ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ومراجعة طه حسين، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، ص 29.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 57، ص 131.

5 - معجم البلدان، مج 4، ص 144.

6 - المقرئزي: المصدر السابق، ج 2، ص 178.

7 - فتوح البلدان، ص 137.

8 - وفيق بركات: المرجع السابق، ص 149.

نظام الثغور في العهد الأموي .....

34هـ/655م تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح<sup>1</sup>، وما تذكره المصادر عن انشاء دار للصناعة هي على الأرجح منشأة عربية مستحدثة تماما.

وكما الحال في الشام كان دافع انشاء دار الصناعة في مصر سنة 54هـ/674م، التحرّشات البيزنطية بسواحلها خاصة بعد عملية الإنزال التي قاموا بها في منطقة البرلس سنة 53هـ/673م أين تمكّن البيزنطيون من إلحاق ضرر معتبر بالمنطقة وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين، من بينهم شخصيات معتبرة من وجوه مصر مثل وردان مولى عمرو بن العاص، وعمرو بن قيس اللخمي<sup>2</sup>، فأصبحت قضية تسريع وتيرة انشاء أسطول مصري قوي ضرورة ملحة من أجل الدّفاع عن شواطئها والمساهمة بفعالية أكبر في الجهد الحربي البحري ضدّ الإمبراطورية البيزنطية بجانب الأسطول الشامي.

كانت القوّة البحرية في العهد الأموي تنقسم إلى ثلاثة أساطيل مستقلة عن بعضها البعض، لكل واحد منها إقليمه البحري الخاص به، وتمثّل هذه الأساطيل في أسطول سورية، وأسطول مصر، وأسطول افريقية<sup>3</sup>، وكان أسطول سورية (الشام) يتمتّع بتنظيم خاص حيث كان مقسّما بدوره إلى عدة أساطيل محلية صغيرة موزعة على الأجناد، فالأسطول الخاص بدمشق كانت قاعدته طرابلس، والخاص بمحمص قاعدته اللاذقية، والخاص بالأردن قاعدته عكا، وكان على رأس كل أسطول من هذه الأساطيل وال مستقل بذاته<sup>4</sup>، وبقي هذا التنظيم معمولا به حتّى نهاية القرن الأول هجري حين قام عمر بن عبد العزيز بإحداث تغيير على الوضع فجمع كل المراكب التي كانت موزعة على مدن ساحل الشام وجعلها في مدينة صور وأسند قيادتها لوال واحد هو المخارق بن ميسرة الطائي<sup>5</sup>، ويبدو أنّ هذا الإجراء قد استمرّ إلى غاية أواخر العهد الأموي.

كان الخلفاء، بجانب جهودهم الكبيرة في بناء الأسطول البحري، يعنون باختيار ذوي الكفاءة والشجاعة من الرجال لإمارة البحر والغزو، بنفس الدرجة من الأهميّة التي كان يقتضيها تعيين ولاة الثغور البريّة وقادة حملات الصوائف والشواتي، ولا تسعفنا المصادر بشيء كثير في هذا المجال خاصة مع بداية العهد المرواني، لكن مع ذلك يمكن استغلال الإشارات المتفرقة لبناء تصوّر عام مع بداية الدولة الأموية، ففي عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أعطى البحرية اهتماما بالغا اشتهر عدد معتبر من القادة الذين تولّوا إمارة الأساطيل مثل فضالة بن عبيد الله الأنصاري، ويزيد بن شجرة الرهاوي الذي استشهد في حملة بحرية

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 168 / ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 321 / النصري: المصدر السابق، ص 41 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 262.

<sup>2</sup> - الكندي: المصدر السابق، ص 38.

<sup>3</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 115.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 66، ص 159.

<sup>5</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 57، ص 131.



على الروم سنة 58هـ/687م<sup>1</sup>، وئسر بن أبي أرطأة، ومالك بن هبيرة السكوني، وجنادة بن أبي أمية الذي فتح رودس سنة 53هـ/673م وأرواد بعدها بسنة<sup>2</sup>، وفي عهد عبد الملك بن مروان برز في قيادة الأسطول بشكل خاص خالد بن كيسان الذي يبدو أنه استمر على رأس البحرية الشامية حتى تاريخ أسرته من طرف الروم سنة 90هـ/709م في عهد الوليد بن عبد الملك<sup>3</sup>، والذي عرفت فترة حكمه أيضا بروز مجموعة من الموالي الذين تركوا بصمتهم في تاريخ البحرية الإسلامية، تولّوا فيها قيادة الأساطيل والحملات البحرية مثل سحيم بن المهاجر الذي كان واليا على طرابلس، وأبو خراسان الذي كان مسؤولا عن أسطول بيروت، وسفيان الفارسي قائد أسطول اللاذقية، ثم أسندت قيادة أسطول الشام ومصر لعمر بن هبيرة سنة 97هـ/716م بالتزامن مع قيادته الحملة البحرية المشاركة في حصار القسطنطينية<sup>4</sup>، ليتمّ تعويضه بالمخارق ابن ميسرة حتى نهاية خلافة عمر بن عبد العزيز<sup>5</sup>، ومع تولّي يزيد بن عبد الملك الخلافة قام بتعيين المغيرة ابن عمير على امارّة البحر واستمرّ في هذا المنصب حتى بداية عهد هشام بن عبد الملك الذي استبدله بيزيد بن أبي مرثم بين سنوات 107-119هـ/725-737م وقد عرفت البحرية في عهده تراجعاً كبيراً وأدركها الوهن وخسرت العديد من المواجهات مع البيزنطيين، والظاهر أنّ هذا القائد لم يكن على قدر من الكفاءة حيث تذكر المصادر أنه كان مفلولاً عند اللقاء حتى غزته الروم في قواعده فقاتلته في صور سنة 119هـ/737م، وأغارت على سفن للتجّار في بيروت في السنة الموالية، عام 120هـ/738م، وقد تزامن هذا التراجع مع استعادة البحرية البيزنطية حيويّتها تحت حكم الأسرة الإيسورية، وهكذا تمّ عزله من امارّة البحر واستخلافه بالأسود بن بلال من قبيلة محارب التي تعاقب عدد لا بأس به من أفرادها على قيادة الأسطول خاصة الأخوين ثابت وعطيّة ابنا معبد الحاربان الذين تولّوا الساحل لأربعين سنة، وتصف المصادر الأسود بن بلال بالحزم وقوّة العزيمة، وقد ترك أثراً جميلاً في مواجهاته ضدّ الروم<sup>6</sup>.

أمّا في مصر فكان من بين الذين تولّوا قيادة أسطولها البحري في العهد الأموي ممّن حفظت لنا المصادر أسمائهم، عقبة بن عامر الجهني سنة 48هـ/668م، وعقبة بن نافع سنة 49هـ/669م<sup>7</sup>، وعابس

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 209-223-225.

2 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 212-231-288-293.

3 - الطبري: المصدر نفسه، ج 6، ص 442 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 16، ص 181.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 66، ص 159.

5 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 57، ص 131.

6 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 9، ص 67؛ ج 11، ص 143؛ ج 56، ص 347؛ ج 65، ص 387.

7 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 231-232.

ابن سعيد الذي غزا اسطادنة، وعبد الرحمن بن عمارة سنة 90هـ/709م<sup>1</sup>، ونافع بن أبي عبيدة الفهري سنة 118هـ/736م<sup>2</sup>، والمهاجر بن بشير بن الضحاك سنة 132هـ/749م<sup>3</sup>.

### 3- السيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم):

أدركت الدولة الإسلامية مبكراً الأهمية الاستراتيجية لجزر البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) في صراعها مع الإمبراطورية البيزنطية، ودورها في تأمين وحماية الثغور البحرية من غارات الروم التي كانت تتخذ من هذه الجزر محطات حيوية في طريق استهدافها السواحل الإسلامية، وهكذا اتجه المسلمون للسيطرة على هذه الجزر بهدف اتخاذها قاعدة للأساطيل الإسلامية للانطلاق في أعمال حربية ضد الأهداف البيزنطية من جهة، وجعلها مراكز دفاع متقدمة لقطع الطريق أمام السفن البيزنطية من جهة أخرى<sup>4</sup>، وعلى هذا الأساس عمل خلفاء الدولة الأموية على استكمال فتح الجزر التي تقع بين دولة الخلافة وبلاد الروم وتعميرها وتوطينها بالجند والناس، وسنقتصر في هذا العنصر على جزر القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) نظراً لموقعها المهم الذي يتوسط الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية، وقربها من الثغور الشامية والمصرية، وبالتالي تأثيرها المباشر على وضع السواحل والمدن فيها.

لقد ظلت قبرص، التي فتحت خلال العهد الراشدي، محلّ تنافس كبير بين الطرفين ومسرّحاً للعديد من المواجهات بين البحريتين الإسلامية والبيزنطية، وتمّ إلزام الجزيرة بدفع جزية سنوية للمسلمين تقدّر بسبعة آلاف دينار وأنزلت بها حامية إسلامية تضمّ اثنا عشرة ألف جندي، واستقرّ بها عدد من أهل بعلبك منذ سنة 32هـ/652م<sup>5</sup>، واتخذ المسلمون فيها منذ وقت مبكر مدينة وحصونا عديدة منها حصن الماغوصة، وحصن يانس الذين تولّى بنائهما موسى بن نصي في خلافة معاوية<sup>6</sup>، لكنّ يزيد بن معاوية قام مباشرة بعد توليه الخلافة بإخلاء الجزيرة من المسلمين<sup>7</sup>، هذا الإجراء ربّما كان بدافع حاجة يزيد إلى الجند لتثبيت مركزه في الخلافة ضدّ أي معارضة محتملة، وأيضا من أجل تأمين سلامة المسلمين الذين استوطنوا الجزيرة، فبعد الهزيمة الساحقة التي حلت بالأسطول الإسلامي في حصار السبع سنوات للقسطنطينية بفعل النار الاغريقية أصبحت قبرص مكشوفة تماما أمام البحرية البيزنطية ولم تكن الدولة الأموية وقد فقدت أسطولها حديثا تستطيع أن تدفع أيّ خطر يمكن أن يتعرّض له سكان الجزيرة من المسلمين، لكن يبدو مع ذلك أنّ المسلمين قد احتفظوا ببعض النفوذ في الجزيرة إذ يمكن تلمّس ذلك من خلال احدي شروط معاهدة

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 229.

2 - الكندي: المصدر السابق، ص 39-79.

3 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 11، ص 143.

4 - وفيق بركات: المرجع السابق، ص 190-191.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 181.

6 - ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 625.

7 - البلاذري: المصدر السابق، ص 181.

الصلح بين عبد الملك بن مروان والامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني سنة 70هـ/689م، حيث تمّ الاتفاق بينهما على اقتسام جزيرة قبرص بالتساوي بين الطرفين<sup>1</sup>، ما يوحي بوجود سيادة مزدوجة على الجزيرة بين الخلافة والإمبراطورية، لكن محاولات الامبراطور بعد ذلك التنصّل من التزاماته فيما يخص هذا البند المتعلّق بقبرص ومطالبته بحق الإمبراطورية في السيادة على كامل الجزيرة حصرياً، وقيامه بتحريض القبارصة على الامتناع عن دفع الجزية للمسلمين، ثمّ محاولته نقل سكان الجزيرة إلى بلاد الروم دون الأخذ في الاعتبار موقف الدولة الإسلامية ولا حقوقها<sup>2</sup>، دفع بعبد الملك إلى التحرك لاسترجاع الوجود الإسلامي في قبرص وذلك سنة 73هـ/693م، فأعاد سلطان الدولة الأموية عليها مدّة قصيرة لأنّ الروم سرعان ما استعادوا مراكزهم في قبرص سنة بعد ذلك فقط، في عام 74هـ/694م، وسط ترحيب من السكان المحليين، وقد حلّف هذا التصرف من سكان الجزيرة تدمراً كبيراً في صفوف المسلمين لهذا ومع إعادة النفوذ الإسلامي على قبرص من جديد سنة 75هـ/695م زادوا على أهلها ألف دينار في الجزيرة التي كانت مقرّرة عليهم سابقاً وقاموا بترحيل قسم من سكانها تديباً لهم على موالاتهم الروم ونقضهم لعهودهم مع المسلمين<sup>3</sup>، فبلغ ما يدفعونه سنوياً ثمانية آلاف دينار واستمرّ ذلك حتّى زوال الدولة الأموية ما عدا فترة خلافة عمر بن عبد العزيز الذي ردّهم إلى صلحهم الأول على سبعة آلاف دينار<sup>4</sup>، وكانت الجزيرة هدفاً لحملة بحرية أخرى سنة 94هـ/713م، ربّما استهدفت إعادة الاستقرار لها بعد اضطراب أحوالها على خلفية الجزية الباهظة المفروضة على سكانها<sup>5</sup>، بينما يورد اليعقوبي في أخبار الصوائف الخاصة بعهد الوليد بن عبد الملك أن العباس بن الوليد فتح قبرص سنة 95هـ/714م<sup>6</sup>، لكنّ المصادر تتفق أنّ العباس خلال هذه السنة كان يقود حملة في آسيا الصغرى وفتح بها عدة حصون وعليه فالأمر غير منطقي وعلى الأرجح أنه تحريف لاسم حصن طولس أحد الحصون التي ذكرها الطبري ضمن فتوح العباس تلك السنة<sup>7</sup>، وستذكر المصادر حملة أخرى على الجزيرة سنة 107هـ/725م قادها معاوية بن هشام ومعه ميمون بن مهران وشارك فيها بعث من المدينة بأمر من الخليفة، وانتهت هذه الحملة إلى استيلاء المسلمين على الجزيرة وبسط سيادتهم عليها<sup>8</sup>، ويبدو أنّ هذا التحرك العسكري ضدّ قبرص جاء كردّ فعل على تمرد سكانها في السنة التي

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 503 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 237 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 469.

<sup>2</sup> - Theophanes: Ibid, p 510 / Michel le Syrien: Ibid, p 470.

<sup>3</sup> - Cheira: Op cit. pp 196-197.

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 182.

<sup>5</sup> - Cheira: Op cit, p 199.

<sup>6</sup> - تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 216.

<sup>7</sup> - تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 492.

<sup>8</sup> - الطبري: المصدر نفسه، ج 7، ص 40.

سبقتها، وقد حظيت بعدها الجزيرة باستقرار لعدة سنوات تحت حكم المسلمين الذين استفادوا من حالة الفوضى التي كانت تعيشها الإمبراطورية البيزنطية على خلفية سياسة الامبراطور الدينية والتي أشغلتها عن كل تحرك جديد ضد قبرص<sup>1</sup>، وهكذا استطاعت الدولة الأموية أن تثبت سيادتها على الجزيرة حيث لا ترد أي أخبار عن حملات حربية أخرى عليها حتى سنة 125هـ/743م حين قام الوليد بن يزيد بإرسال حملة بقيادة الأسود بن بلال المحاربي لإجلاء سكانها لأمر أنهمم به فاختار قسم منهم الاستقرار في الشام وفضل قسم آخر الانتقال إلى بلاد الروم، وهذا الاجراء الذي قام به الوليد بن يزيد من دون حجة تدعّمه خلف تدمرا كبيرا بين المسلمين خاصة الفقهاء، لهذا ومع توالي يزيد بن الوليد الخلافة قام بإعادتهم إلى موطنهم من جديد<sup>2</sup>، وستكون سنة 130هـ/748م آخر فصول المواجهات بين القوتين في قبرص، ففي هذه السنة أبحر أسطول إسلامي ضخم يتكوّن من ألف سفينة، وما أن استقرّ به الأمر في الجزيرة حتى فاجئه أسطول كبيرهايوت Kibyrrhaeots البيزنطي في الميناء وانتهت المواجهة بين الطرفين بالقضاء التام على الأسطول الإسلامي الذي لم ينج منه إلا ثلاث سفن فقط لاذت بالفرار<sup>3</sup>، وقد أنهت هذه الهزيمة السيادة الإسلامية على قبرص وساهمت في انتقال هذه الأخيرة إلى الهيمنة البيزنطية، وشكّلت ضربة قاضية للبحرية الإسلامية التي ستفقد تأثيرها لعشرات السنين ما سمح لبيزنطة أن تفرض سيادتها المطلقة على البحر الأبيض المتوسط من جديد<sup>4</sup>.

في سنة 52هـ/672م أو 53هـ/673م تمكّن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة رودس بعد الحملة الناجحة التي قادها أحد أشهر أمراء البحر في العهد الأموي، جنادة بن أبي أمية الأزدي، وسرعان ما بدأ المسلمون اتّخاذ اجراءات لتعزيز سلطتهم في الجزيرة فأقاموا بها حصنا وتمّ توطينها عددا من الناس وأقطعوا بها أراض فزرعوها واتخذوا بها مواشي<sup>5</sup>، وما تذكره المصادر من حملات على الجزيرة بعد ذلك مثل حملة سعيد بن يزيد سنة 58هـ/678م، وحملة جنادة بن أبي أمية مرّة أخرى سنة 59هـ/679م<sup>6</sup> إنّما هي عمليات تغيير الحاميات التي كانت تتمركز في رودس، فقد كان يأتيها الجند يرابطون بها بالتناوب في

---

John H. Pryor and Elizabeth M. Jeffreys: The Age of the Dromon, The Byzantine Navy ca 500-1204, Brill, Leiden-Boston 2006, p 33.

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, p 236.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 182-184 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 227 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 68-67.

Theophanes: Op cit, p 577 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 511.

<sup>3</sup> - Theophanes: Ibid, p 586 / Nikephoros: Op cit, p 141.

<sup>4</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 108 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 128.

<sup>5</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 274-275 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 288.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 225-227.

عهد معاوية بن أبي سفيان<sup>1</sup>، وكانت سياسته تقضي بإبقاء البعث في الثغور بين ستة أشهر وسنة لا أكثر<sup>2</sup>، ويفضل موقع الجزيرة القريب من بلاد الروم تتمتع الدولة الأموية بأفضلية كبيرة في مواجهة الأسطول البيزنطي حيث كان المسلمون يعترضون سفنهم ويلحقون بهم خسائر كبيرة حتى خافهم الروم<sup>3</sup>، واستمرت السيادة الإسلامية على الجزيرة سبع سنوات كاملة، فلما تولى يزيد بن معاوية الخلافة سنة 60هـ/680م أمر بسحب الحامية الإسلامية منها وتهدم الحصن الذي تم انشاءه بها<sup>4</sup> أسوة بما قام به في قبرص.

كانت كريت (أقريطش أو أقريطية في المصادر العربية) إحدى الجزر الأربع الكبرى في البحر الأبيض المتوسط، تتمتع بموقع استراتيجي معتبر إذ تشرف على بحر إيجه من الجنوب وتتحكم في مدخله، وكان الاستيلاء على هذه الجزيرة كفيلاً بتأمين الدولة الأموية من مضايقات الأسطول البيزنطي وحمولاته التخريبية على سواحلها، خاصة تأمين الساحل المصري من خلال سد منافذ بحر إيجه أمام حركة السفن البيزنطية، كما أن السيطرة عليها يعتبر أمراً حيوياً لتنفيذ مشروع الدولة الأموية الأهم للاستيلاء على القسطنطينية<sup>5</sup>، لكل هذا كان السيطرة على الجزيرة رهاناً كبيراً بالنسبة للمسلمين، فكانت هدفاً للعديد من الحملات بشكل متكرر، وأول محاولة لفتح الجزيرة تذكرها المصادر جرت في عهد معاوية بن أبي سفيان حين غزاها عبد الله بن قيس سنة 56هـ/676م لكن يبدو أن كريت قاومت بشكل عنيف واستعصت على المسلمين وانتهت هذه المحاولة بالفشل الذريع وأدت إلى استشهاد قائد الأسطول نفسه عبد الله بن قيس<sup>6</sup>، ويذكر المؤرخ الروسي ألكسندر فازيليف أن الروم تمكنوا من توجيه ضربة قاسية لأسطول المسلمين في هذه الموقعة فأغرقوا قسماً منه مع طواقمه، واستولوا على قسم آخر ولم ينبج منهم إلا من هرب<sup>7</sup>، وحلّ أسطول إسلامي بعد ذلك بالجزيرة مرة أخرى بين 57-58هـ/677-678م بقيادة جنادة بن أبي أمية، ولو أن هذه المرة لم يتم فيها استهداف كريت بأيّ عمل حربي باعتبار أن الأسطول الإسلامي قد توقّف لإمضاء الشتاء هناك فقط في طريق عودته من حملة ناحية المغرب<sup>8</sup>، ولم يُنح للمسلمين تحقيق شيء يذكر إلا في عهد الوليد بن عبد الملك حين تمكنوا من فتح قسم من كريت، لكنهم سرعان ما فقدوا مواقعهم بها مرة

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 275.

2 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 3، ص 289-290.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 288.

4 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 275 / الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 288 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 11، ص 33.

5 - إسْمَت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، مصر 1983، ص 34-35-44.

6 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 472.

7 - فازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، راجعه فؤاد حسنين علي، دار الفكر العربي، ص 54 / إسْمَت غنيم: المرجع

السابق، ص 45.

8 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 472.

أخرى<sup>1</sup> على الأرجح بعد فشل حصار القسطنطينية، وعلى الرغم من أنّ المصادر لا تعطي تاريخاً محدّداً لهذا الإنجاز غير المسبوق الذي تحقّق في الجزيرة المستعصية على المسلمين إلّا أنّه ربّما يكون قد حدث سنة 94هـ/714م بالتزامن مع الحملة التي شنّها الأسطول الإسلامي على قبرص<sup>2</sup>. وفي أواخر عهد الدولة الأموية تمّ غزو الجزيرة من جديد سنة 122هـ/740م بحملة مشتركة بين أسطولي مصر والشام تحت قيادة أمير البحر الأسود بن بلال انطلاقاً من الإسكندرية أين اشتبكوا مع أسطول بيزنطي هناك فألحقوا به الهزيمة وعلى الأرجح أنّهم نزلوا الجزيرة وأسروا عدداً من سكانها، ولم تنجح هذه الحملة أيضاً رغم الانتصار الذي حقّقته في تثبيت الوجود الإسلامي بكريت واكتفى المسلمون بما أصابوه من غنائم وسي<sup>3</sup>، وهكذا نجد أنّ المسلمين لم يحقّقوا نجاحاً دائماً في جزيرة كريت بعكس الوضع في قبرص مثلاً، وبقيت هذه الجزيرة خارج النفوذ الإسلامي طيلة عهد الدولة الأموية.

في نهاية هذا المبحث نؤكد على أنّ الدولة الأموية أولت اهتماماً كبيراً بمناطق الثغور سواء البرية أو البحرية، واعتمدت استراتيجية متكاملة لتأهيل هذه المناطق الحدودية الحيوية بالنسبة لأمن وسلامة الأراضي الإسلامية والمسلمين، وبذلت في سبيل ذلك مجهودات معتبرة، وقد تضمّنت هذه الاستراتيجية، السيطرة على المناطق الرئيسية في الثغور، مع العمل على تحصينها وتأمينها، وتعميرها بالسكان والمقاتلين حتّى تستطيع أن تؤدّي مهامها الأساسية المتمثلة في الدفاع عن الأراضي الإسلامية والمساهمة في دعم المجهود العسكري ضدّ الإمبراطورية البيزنطية في إطار منظومة الصوائف والشواتي بصورة أكثر فعالية.

<sup>1</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 275.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 199.

<sup>3</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 9، ص 67.

### المبحث الثالث: استراتيجية الدفاع البيزنطية

إنّ دراسة الاستراتيجية الدفاعية التي تبنتها الدولة البيزنطية في مواجهة الدولة الأموية بين القرنين الأول والثاني هجريين/السابع والثامن ميلاديين لا يمكن تتبّع تطوّرها بمعزل عن الأحداث والإصلاحات الأولى العميقة التي حدثت في النصف الأول من القرن السابع ميلادي عند ظهور المسلمين كقوّة عسكرية وسياسية تهدّد وجود الإمبراطورية بشكل جدّي بعد استيلائهم على ممتلكات الروم في الشام والجزيرة ومصر واندفاعهم حتّى جبال طوروس في الفترة السابقة لتأسيس الدولة الأموية. وسنحاول في هذا العنصر استعراض أهم معالم السياسة البيزنطية في مواجهة التهديد الإسلامي المتمثّل في حملات الصوائف والشواتي السنوية، وأدواتها بما يحقّق لها متطلبات الصمود وتجنّب الانهيار الكامل أمام الضغط العسكري الأموي الذي استمرّ متواتراً وقويّاً ما عدا بعض الفترات من الفتور.

#### أولاً- نظام الثيمات لمواجهة الحملات الإسلامية:

إنّ تزامن ظهور نظام الثيمات<sup>1</sup> (خلال القرن السابع ميلادي/الأول هجري على الأرجح) مع فترة كانت هي الأسوأ من أيّ فترة أخرى في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية يمكن أن يفسّر صمت المصادر عن تفصيل تغيير هام كهذا إن كان حدث فعلاً في تلك الفترة<sup>2</sup>، ما يضيفي بعض الغموض حول الموضوع ويجعله قابلاً للاجتهاد على كلّ حال، لهذا سنعتمد في دراسة نشأة وتطوّر هذا النظام على مسارين، الأول يخصّ التغيّرات التي طرأت على التنظيمات التي يقوم عليها، والثاني على تطوّر مدلول الكلمة في حدّ ذاته. لقد حطّم الاندفاع الإسلامي في منطقة الشام والجزيرة كلّ ما حقّقه الإمبراطور هرقل قبل ذلك من انتصارات على الفرس، وبدا أنّ المسلمين لن يتوقّفوا عن الزحف إلى ما وراء سلسلة جبال طوروس، فقد بدأوا اجتياز الدروب مبكراً منذ سنة 17هـ/638م كما سبق ذكره في المبحث السابق، وكان هذا الخطر الداهم الذي يمثّله المسلمون حافزاً قوياً لتطوير نظام دفاع دائم يحدّ من هجماتهم على مناطق آسيا الصغرى ويستجيب للتحديات القائمة.

إنّ هذا النظام الذي عرف باسم "الأقاليم العسكرية" أو "الثيمات Themata" يقوم أساساً على مبدأ إعطاء قادة الأقاليم في آسيا الصغرى صلاحيات عسكرية ومدنية في نفس الوقت، والذين أصبحوا يعرفون باسم ستراتييجوس Strategos باستثناء حاكم تيم الأوبسيكيون (الأبسيق في المصادر العربية) الذي كان يحمل لقب قومس Comes، كما تمّ أيضاً ضمن هذه الإصلاحات توزيع مساحات من الأراضي على الجند لاستغلالها لفائدتهم الخاصة مقابل أداء الخدمة العسكرية في الجيش البيزنطي عند

<sup>1</sup> - تطلق عليها المصادر الجغرافية العربية اسم البنود (المسعودي، علي بن الحسين (ت 346هـ): التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن، 1893، ص 176)، أو الأعمال (ابن خردادبة: المسالك والممالك، ص 257 / قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص 190).

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, Stanford University Press, California, 1997, p 317.

الحاجة<sup>1</sup>، وقد اختلف المؤرخون كثيرا في تحديد أصل هذا التنظيم وتاريخ ظهوره وبداية تطبيقه والإمبراطور الذي أرسى دعائمه، وقد قامت الباحثة عائشة سعيد شحاتة بعمل يستحق التقدير في هذا المجال، حيث عرضت في كتاب لها عن الإمبراطورية البيزنطية مختلف آراء المؤرخين واجتهاداتهم وحججهم حول هذا الموضوع بشيء من التفصيل، وليس هناك حاجة لإعادة استعراضها كلها في هذا المقام، ومهما يكن الأمر فهناك اتجاه عام يذهب إلى أنّ هذه الإصلاحات وبداية تطبيقها ترجع إلى القرن السابع ميلادي، ويعتبر عدد من المؤرخين مثل ديل Diehl، ورامبو Ramboud، وشتاين Stein، وداركو Darko، وغيرهم أنّها بشكل أكثر تحديدا ترجع إلى فترة حكم الإمبراطور هرقل<sup>2</sup>، وهذه الآراء تتركز أساسا على وثيقة ترجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ميلادي عبارة عن كتاب للإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع Constantin VII حول نظام الثيمات الذي كان سائدا حينها في الإمبراطورية يذكر فيه أنّ بداية وضع أسس هذا النظام ترجع إلى القرن السابع ميلادي في أواخر عهد الإمبراطور هرقل، لكنّ المؤرخ بيوري Bury يشكك في صحة ما جاء به قسطنطين السابع في كتابه إذ يعتبر الإمبراطور جاهلا بالتاريخ وفاقد للمهارات النقد، إضافة إلى أنّه لم يستطع أن يرسم صورة واضحة عن خصائص هذا النظام في بدايته<sup>3</sup>، كما يلاحظ عليه بعض المؤرخين أيضا ارتباكا حين يشير إلى أنّ الأباطرة الذين جاءوا بعد هرقل، الذي خسرت الإمبراطورية في عهده قسما من أراضيها لصالح العرب، كانوا على صواب حين عمدوا إلى تقسيم الجيش إلى فرق وابتكار منصب القائد العسكري (ستراتيجوس) ونظام الثيمات، وهذا التصريح يقود إلى الاستنتاج بأنّ التغيير لم يحدث في عهد هرقل ولكن في عهد من جاء بعده. وعلى هذا الأساس ينفي بعض المؤرخين بشكل مطلق فكرة أن يكون نظام الثيمات من ابتكار هرقل وإنّما يرجع لفترة لاحقة، أي في عهد خلفائه في القرن السابع ميلادي دائما، ومن أهمّ من يقول بهذا الرأي بينز Baynes، وبرتوزي Pertusi، وهالدون Haldon<sup>4</sup>.

الحقيقة أنّ هرقل تعرّض لضغط إسلامي كاسح وكان يجب عليه أن يكون خلاقا بما فيه الكفاية لكي يواجهه، فقد أجبر الهجوم الإسلامي على بلاد الشام هرقل على سحب قوّاته وسكان المنطقة ما بين أنطاكية وقيليقية إلى ما وراء جبال طوروس، وانتقلت معها الإمبراطورية بشكل تدريجي من سياسة الهجوم إلى وضعية الدفاع، وجوهر هذا النظام الدفاعي يجعل ظهوره مرتبط بالأوضاع التي واكبت ظهور المسلمين

1 - عائشة سعيد شحاتة: الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) دراسة في التطورات والتغيرات، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1995، ص 304 / طارق منصور: المسلمون ودولة الروم، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008، ص 48-51 / حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983، ص 75-77.

2 - الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، ص 276-277.

3 - حسنين محمد ربيع: المرجع السابق، ص 74.

Bury: Op cit, Vol 2, p 339.

4 - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 278-279-281-282.



كخطر حقيقي على الأقاليم البيزنطية في الشرق أواخر عهد هرقل، وليس مرتبط بفترة حروبه مع الفرس لأنها حروب هجومية، ومن دون شك أنّ خلفائه قد عملوا على تطوير هذا النظام الذي وضع أسسه تدريجياً<sup>1</sup>، ثمّ إنّ بداية تشكّل هذا النظام كان في آسيا الصغرى قبل أن يعمّم لاحقاً على المناطق الخاضعة للسيادة البيزنطية في أوروبا (البلقان)، وبداية تطبيقه في آسيا الصغرى بالتحديد يؤكّد ارتباط استحداثه بالخطر الذي بات يشكّله المسلمون على ممتلكات بيزنطة في الأناضول.

ويبدو أنّ التغييرات الإدارية والعسكرية عملياً لم تكن متزامنة مع المفاهيم الاصطلاحية الدالة عليها، إنّ كلمة "Thema" تعني في الأصل فرقة عسكرية، والإشارات الأولى إلى الثيمات في المصادر ترجع إلى القرن السابع ميلادي لكنّها على الأغلب تعني الفرق العسكرية أكثر منها الأرض أو المجال الجغرافي الذي يتمركزون فيه<sup>2</sup>، وفي هذا السياق يشير زوكرمان Zuckerman إلى أنّ كلمة "Thema" لم تكن متداولة في الإدارة البيزنطية بالمعنى الذي يفيد المنطقة أو الإقليم العسكري إلى غاية إصلاحات نقفور الأول Nikephoros I مطلع القرن التاسع ميلادي (802-811م) وأنّ الأدلة المعاصرة لتلك الفترة من خلال الأختام التي تمّ العثور عليها تظهر أنّ المقاطعات العسكرية البيزنطية في القرن الثامن ميلادي كان يطلق عليها مناطق الـ "ستراتيجوس" (Strategiai أو Strategides) بدلاً من الثيمات<sup>3</sup>، ويعتقد كذلك الباحث عبد الرحمن العبد الغني أنّ استعمال مصطلح الثيمات وتطوّر مدلولها عبر الزمن حتّى وصل إلى المعنى الذي استقرّت عليه نهائياً كما تمّ الإشارة إليه سابقاً جاء لاحقاً للتغييرات التي أحدثتها بيزنطة على إدارة أقاليمها في الواقع، ويستشهد على ذلك بأنّ الكلمة لم تظهر في المصادر البيزنطية وبالضبط عند ثيوفانس، الذي كان أوّل من أورد هذا المصطلح في كتاباته، إلّا في أحداث سنة 669-670م/49هـ ولكن بمعنى «فرق الجند» للإشارة إلى الفرق العسكرية الخاصة بجيش الشرق (أي الأناضول)<sup>4</sup>، لكنني عندما رجعت إلى كتاب ثيوفانس وجدت أنّ كلمة الثيمات وردت قبل هذا التاريخ بوقت طويل نسبياً وبالضبط في أحداث سنة 620-621م حين يذكر أن هرقل عندما «وصل إلى أرض الثيمات The country of the Themata قام بتجميع جيوشه وأضاف إليها قوّات جديدة»<sup>5</sup>، وفي تفسير معنى الكلمة في هذا الموضع يشير ليمرل Lemerle، كما نقلت عائشة سعيد شحاتة، إلى وجود تفسيران، أحدهما يوافق ما ذهب إليه عبد الرحمن العبد الغني من أنّ المقصود هو فرقة من الجند، أمّا

<sup>1</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 287-288-289.

<sup>2</sup> - Jonathan Shepard: The Cambridge History of the Byzantine Empire c. 500-1492, Cambridge University Press, UK 2008, p 240.

<sup>3</sup> - Leif Inge Ree Petersen: Siege Warfare and Military Organization in the Successor States (400-800 AD) Byzantium, the West and Islam, Brill, Leiden-Boston, 2013, p 105.

<sup>4</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 25-26.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 435.

التفسير الثاني فهو أنّ ثيوفانس قد استعمل الكلمة وفي ذهنه الصورة التي كان عليها مدلولها في عصره (القرن التاسع ميلادي)<sup>1</sup>، وبتعبير آخر أنّه أسقط مفهوم الكلمة الذي كانت عليه في القرن التاسع ميلادي على فترة سابقة لم يكن فيها المصطلح قد تبلور ووصل إلى مدلوله الذي أشار إليه بعد، ويظهر أنّ التفسير الأول هو الأقرب إلى الواقع حيث نجد أنّ ثيوفانس يستعمل في موضع لاحق في أحداث سنة 678-679م/59هـ مصطلح الثيمات بهذا المعنى (فرق الجند) في معرض حديثه عن حملة الإمبراطور قسطنطين الرابع ضدّ البلغار في أوربا، حيث يذكر أنّ الإمبراطور عندما علم باجتياح البلغار لمناطق واسعة وراء نهر الدانوب اغتمّ لذلك و «أمر كل الفرق العسكرية Themata بالعبور إلى تراقيا»<sup>2</sup>. ويبقى متعدّدا معرفة متى بالتحديد تحوّل معنى مصطلح "ثيما" من فرقة عسكرية متمركزة في منطقة محدّدة إلى معنى المقاطعة التي تحت إشراف ستراتيغوس (الحاكم العسكري)<sup>3</sup>، لكنّ هذا ربّما يكون قد حدث على الأرجح مع بدايات القرن الثامن ميلادي عندما استقرّت معالم نظام الثيمات وارتبطت الفرق العسكرية البيزنطية نهائيا بالأرض التي مُنحت لها وبدأت بمنح اسمائها للمقاطعات التي تمركزت بها<sup>4</sup>.

وهكذا يبدو أنّه مع نهاية عهد هرقل وبعده بدأت تتشكّل بالتدريج ملامح نظام الثيمات (البنود)، وعموما من خلال الإشارات التي حملتها المصادر في طياتها يبدو أنّه كان يوجد في القرن السابع ميلادي ثلاث ثيمات كبرى على الأقل في آسيا الصغرى، هي ثيم الأناضول Anatolikoi الذي شمل القسم الأوسط من آسيا الصغرى، وثيم الأرمينيا Armeniakoi في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى حتّى الحدود مع أرمينية، وثيم الأوبسيكيون Opsikion الذي شغل القسم الشمالي الغربي لآسيا الصغرى عند بحر مرمرة، ومن المحتمل جدا أنّه كانت هناك أيضا مقاطعة رابعة هي الثيم البحري الذي سيعرف لاحقا في القرن الثامن ميلادي باسم كبرهايونوت Cibyraiot، وكانت المناطق الساحلية جنوب آسيا الصغرى والجزر الإيجية القريبة منه تمثّل قاعدته، ومع ذلك يتساءل المؤرخ بيوري عن احتمال إمكانية وجود مقاطعات أخرى غيرها لم يرد ذكرها في المصادر ربّما لأنّها لم تلعب دورا رئيسيا في أحداث القرن السابع ميلادي؟<sup>5</sup> وهذا محتمل في ضوء الضبابية التي تُلّف نشأة هذا النظام في ذلك الوقت.

<sup>1</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 282.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, pp 498-499.

<sup>3</sup> - Bury: Op cit, Vol 2, p 340.

<sup>4</sup> - Leif Inge Ree Petersen: Op cit, p 104.

<sup>5</sup> - محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة (330-1453م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، ط 1، 2007، ص 200-201 / حسنين محمد ربيع: المرجع السابق، ص 75 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 96-97.

Bury: Op cit, Vol 2, p 343 / Warren Treadgold: Op cit, p 314.

أما عن دور هذه الثيمات الأولى التي تمّ استحداثها، فقد اضطلع كل من ثيم الأناضول و ثيم الأرمينياق بحماية مناطق آسيا الصغرى من الهجمات التي كان يشنّها العرب، بينما كان دور ثيم الأوبسيسكيون حماية العاصمة الإمبراطورية، في حين أنّ الثيم البحري القريب من السواحل الشامية قد تكفّل بصد هجمات أساطيل العرب ضد المعازل البيزنطية<sup>1</sup>.

استمرّ نظام الثيمات (الأقاليم العسكرية) بالتطور تدريجياً في عهد خلفاء هرقل وبدأت ملامحه تستقرّ وتترسّخ أكثر خاصة في عهد الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian II الذي اتخذ عدّة إجراءات لتعزيز قدرات الثيمات بشريا مع تجنيد مزيد من المقاتلين للرفع من كفاءة هذا النظام قيد التطوير، وفي هذا الإطار عمد جستنيان الثاني إلى إعطاء دفع قوي للثيم البحري من خلال انزال اثنا عشر ألف عنصر من المردة الذين سحبهم من جبال لبنان على طول المنطقة بين الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى والجزر الإيحية، وقام ببناء السفن لهم وادماجهم في الأسطول البيزنطي<sup>2</sup>، كما قام أيضا بتوطين عدد معتبر من السلاف وغيرهم في آسيا الصغرى ما وقرّ مزيدا من الجند واليد العاملة، وبالتالي قدرات عسكرية واقتصادية أكبر، لقيادة الثيمات الذين أضحووا من الشخصيات المحورية في البناء العسكري والإداري للإمبراطورية حيث صاروا يحضرون اجتماعات المجلس الإمبراطوري ويشاركون في أشغاله، ويبدو أنّ تعاضل نفوذهم وامكانياتهم بلغ درجة مكنتهم من الإطاحة بالأباطرة والاستيلاء على الحكم في أكثر من مرّة، مثل حركات التمرد التي قادها ليونتيسوس Leontios قائد الأناضول سنة 695م/76هـ، وأبسيماروس Apsimaros قائد الكبيرهايون سنة 698م/79هـ، وليو الايسوري Leo قائد الأناضول أيضا سنة 717م/98هـ<sup>3</sup>.

وفي عهد الإمبراطور ليو الثالث الايسوري Leo III تمّ إجراء تغيير جديد على التقسيم الإداري العسكري في آسيا الصغرى، حيث جرى إضفاء بعض التعديلات على الثيمات الأربعة التي تأسست في بادئ الأمر من خلال إعادة تقسيمها إلى ست وحدات، وبالتالي ظهر ثيم تراقيسيان Thracesian (ترقسيس في المصادر الجغرافية العربية) كمقاطعة مستقلة عن قائد الأناضول بعد أن تمّ اقتطاع جزء من غرب ثيم الأناضول وأنزل فيه جندا من تراقيا تحت قيادة ستراتيجوس وليس تورماخ Turmach كما في السابق، والثيم الثاني المستحدث كان البوكلاري Bucellari (البقلار في المصادر الجغرافية العربية) الذي تأسس على القسم الشرقي من الأوبسيسكيون وقد تخصّص في التموين، والإجراء الآخر الذي قام به ليو الثالث أيضا هو منح قائد ثيم كبيرهايون Kibyrhaiots لقب ستراتيجوس عوض لقب درونجاريوس

<sup>1</sup> - حسنين محمد ربيع: المرجع السابق، ص 76 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 96-97.

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: Byzantium and its Army 284-1081, Stanford University Press, California, 1995, p 72-74.

<sup>3</sup> - عمر يحي محمد: البيزنطيون والعرب (641-711م/30-93هـ)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2009، ص 246-247-269.

Drungarius (أدميرال - أمير البحر-) كما جرت عليه العادة من قبل، حيث لا نسمع بلقب ستراتيجوس الكبرهايون إلا سنة 731م/113هـ، وعلى الرغم من أنه كان يتمتع باستقلالية تامة حتى قبل هذا الإجراء إلا أن هذه الخطوة رفعت من مكانة قائد الكبرهايون ليتساوى في المرتبة مع قائدي الأناضول والأرمينيا<sup>1</sup>، كما يبدو أنه قام أيضا بتحويل قاعدة أسطول هذا الثيم البحري من الجزر الإيجية إلى مدينة كيبيرا Cybira في جنوب الأناضول، وهي التي أعطت اسمها في النهاية لهذا الإقليم البحري<sup>2</sup>، وهكذا أصبحت قيادة الأسطول البحري أقرب إلى الساحل الشامي.

بجانب التعديلات السابقة، ربما يكون ليو الثالث قد قام أيضا بإجراء آخر مهم يقضي بنزع الصلاحيات المالية من قادة المقاطعات العسكرية، إذ نجد في وقت لاحق أن المسائل المالية كانت تحت إشراف موظفين مختصين<sup>3</sup>. وقد أدت تعديلات ليو الثالث إلى تحجيم ثيم الأناضول بصفة خاصة بحيث لم يعد مهيمنا على آسيا الصغرى كما في السابق حتى وإن بقي على قدر كبير من الأهمية، وتفسر بعض المراجع هذا الإجراء الذي قام به ليو الثالث برغبته في الحد من نفوذ وموارد قادة الثيمات حتى يأمن خطرهم ويدعم مركزه في العرش في مواجهة كل تمرد محتمل<sup>4</sup>.

وقد جرى تقسيم الثيمات لاحقا، بعد القرن السابع ميلادي "قرن التأسيس"، لأسباب تكتيكية إلى أقسام يحمل كل واحد منها اسم تورما Turmai، وهي عبارة عن كتيبة عسكرية تحت إشراف قائد يحمل لقب تورماخ Turmach (الطرماخ في المصادر الجغرافية العربية)، والتي كانت بدورها تتشكّل من وحدات أصغر تعرف الواحدة منها بالدرونجي Drounggoi، وهذه الأخيرة تتكون من عدد متباين من الفصائل الأصغر تعرف بالبندون Bandon التي يمكن اعتبارها الوحدة الأساسية القاعدية في التنظيم العسكري في كل إقليم (ثيم) وتكون تحت إشراف قائد يحمل لقب قومس Komes. وقد كان لكل قسم (تورما) قاعدة عبارة عن حصن أو مدينة منيعة، ولم تكن الأقسام (التورمات) تتألف من وحدات أصغر متساوية بين جميعها، كما لم يكن حجم التورمات بالضرورة متساويا بين جميع الثيمات بل كانت تخضع للاحتياجات التكتيكية وتُركت لتقدير القادة الميدانيين<sup>5</sup>، وتختلف المصادر في تقدير عدد الجند في

<sup>1</sup> - أسد رستم: المرجع السابق، ج 1، ص 301-302.

Bury: Op cit, Vol 2, pp 342-349-350.

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 352.

<sup>3</sup> - Bury: Op cit, Vol 2, p 349.

<sup>4</sup> - أسد رستم: المرجع السابق، ج 1، ص 301-302 / فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 99.

Bury: Ibid, p 350.

<sup>5</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 305 / عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 27-28 / فتحي عثمان: المرجع نفسه، ج 1، ص 97.

الفصيلة الواحدة Bandon التي تعدّ الوحدة القاعدية في هيكل الجيش البيزنطي بين خمسين إلى أربعمئة جندي<sup>1</sup>.

أما التورماخ (الطوماخ) الذي كان يحتلّ ثاني أرفع مركز في هيكل القيادة الخاص بنظام الثيمات، فقد كان يتمتع هو أيضا كما القائد العسكري للإقليم (ستراتيجوس) بصلاحيات عسكرية ومدنية في الاشراف على المنطقة التي تحت سلطته في المقاطعة العسكرية (تورما)، وكان مسؤولا عن توفير الأمن للسكان في منطقتهم وحماية أملاكهم، كما يضطلع بمراقبة تحركات القوّات المعادية والعمل على اشغالها وعرقلة تحركاتها حتى يمنح الوقت الكافي لقائد الثيم لكي يتمكن من تجميع قوّاته للتصدّي لها<sup>2</sup>.

وفيما يخصّ عدد جنود الثيمات والجيش البيزنطي بصفة عامة، فهذا ممّا لا يمكن تحديده بدقة على كل حال في تلك الفترة بالذات نظرا لغياب المعطيات التي يمكن أن تساعدنا على ذلك عكس الفترة اللاحقة ابتداء من القرن التاسع ميلادي أين تتوفر لنا معلومات على قدر كبير من الأهميّة حول البنية العسكرية والإدارية للإمبراطورية وعدد الجنود فيها من خلال المؤلّفات الجغرافية العربية خاصة قائمة الجرمي الذي توفي مطلع النصف الثاني من القرن التاسع ميلادي (القرن الثالث هجري)، لكن مع ذلك سنحاول أن نصل إلى صورة تقريبية باستغلال مختلف الإشارات التي وردت في المصادر.

تنزع المصادر العربية إلى تضخيم أعداد الجيش البيزنطي بشكل مفرط، وسنستغلّ هنا أهمّ اشارتين متوفّرتين في المؤلّفات العربية، الأولى ترجع لسنة 88هـ/707 م وتذكر أنّ الإمبراطور أرسل جيشا من مائة ألف رجل لنجدة مدينة طُوانة التي كانت تحت الحصار من طرف قوّات المسلمين<sup>3</sup>، والإشارة الثانية ترجع لأواخر العصر الأموي وتذكر فيها المصادر العربية أنّ سرية من جيش الصائفة تحت قيادة مالك بن شبيب تواجّهت مع جيش بيزنطي يقوده الإمبراطور ليو الثالث عند قلعة أكروينون سنة 122هـ/740م، يتكوّن أيضا من حوالي مائة ألف مقاتل<sup>4</sup>. إنّ هذه الأرقام التي توردها المصادر العربية عالية جدا ولا يمكن التسليم بصحّتها إذا أخذنا في الاعتبار العديد من العوامل، ففي الرواية الأولى حتّى وإن كانت المصادر البيزنطية تركز على أن أفراد الجيش لم يكونوا من الجند النظامي بل كانوا فلاحين تمّ تجميعهم للمشاركة في الحملة وكان تجهيزهم سيئا للغاية، وعلى الرغم من أنّ الخسائر التي أوقعها المسلمون بهم كانت تقدر

John Haldon: Warfare, State and Society in the Byzantin world 565-1204, UCL Press, London, 1999, p 113 / Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 316.

<sup>1</sup> - John Haldon: Ibid, p 114.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 28.

John Haldon: Ibid, p 114.

<sup>3</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 444.

<sup>4</sup> - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 33، ص 405.

بالآلاف<sup>1</sup>، إلا أنّ عدد مائة ألف يبقى مبالغا فيه إلى حدّ كبير، فقبل هذه الحادثة بـ 15 سنة فقط كان كلّ ما جمعه الإمبراطور جستنيان الثاني من قوّات في حملته التي قادها نحو سياستوبوليس سنة 693/73م بالكاد يصل إلى نصف هذا العدد (ثلاثين ألف من السلاف وجميع خيالة الثيمات)<sup>2</sup>، ولا يبدو منطقيا أنّ عدد أفراد الجيش قد تضاعفوا في هذه المدّة الوجيزة من الزمن خاصة أنّ هذه الفترة بالذات تتصادف مع اضطراب أحوال الإمبراطورية التي عرفت عشرين سنة من الفوضى تراجمت فيها مواردها الاقتصادية والبشرية بشكل رهيب ما حدّد من قدرتها على تجنيد المزيد من المقاتلين، أين كانت تضطرّ إلى جلب عناصر أجنبية لتوطينهم في آسيا الصغرى مثل السلاف والقبازصة. وفي الرواية الثانية يبدو من المستحيل نظريا أن يكون ليو الثالث قد قام بتجميع كلّ قوّاته من أجل معركة واحدة ضد المسلمين، فالضرورة تقتضي أن يترك قسما من جيشه لحماية الحدود وحفظ النظام، كما أنّ المصادر البيزنطية تذكر لاحقا أنّ مجموع الجيش البيزنطي الذي قاده الإمبراطور قسطنطين ابن ليو الثالث وخليفته في الحكم خلال حملته ضدّ البلغار سنة 773م/157هـ بلغ ثمانين ألف رجل<sup>3</sup>، وحتىّ هذا الرقم تعتبره المراجع الحديثة كبيرا أيضا قياسا إلى جيش ميداني في ذلك الوقت<sup>4</sup>، ويبدو من غير المعقول أن يفقد الجيش البيزنطي ثلث عدد أفراد في ظرف أكثر من ثلاثة عقود فقط بين معركة أكرينون والحملة على البلغار دون أن يكون قد تعرّض لحسائر كبيرة في معارك فاصلة في تلك الفترة، وهناك عامل آخر عسكري بحت يجب أن يؤخذ في عين الاعتبار عند الحديث عن تعداد الجيش البيزنطي، وهو التحوّل في العقيدة العسكرية للإمبراطورية البيزنطية في مواجهة المسلمين القائمة على تجنّب الصدام المباشر إلا للضرورة والتركيز على أسلوب حرب العصابات، وهذا التغيّر الذي طرأ على العقيدة العسكرية البيزنطية قد أعفاها إلى حدّ ما من ضرورة امتلاك جيش ضخم كما تريد المصادر العربية أن تصوّره لنا لتفخيم انتصارات المسلمين على الروم، وهكذا نستطيع في الأخير أن نقول بشيء من التحفّظ أنّ عدد أفراد الجيش البيزنطي المعاصر للدولة الأموية كان في الغالب يقدر بنصف عدد الرقم الذي تورده المصادر العربية أو أكثر قليلا، وهو ما يذهب إليه أيضا المتخصّص في الدراسات البيزنطية والتر كايجي Walter Kaegi الذي يؤكّد أنّ حجم الجيش البيزنطي في منتصف وأواخر القرن السابع ميلادي كان أقلّ من ستين ألف رجل<sup>5</sup>.

أمّا على مستوى الثيمات نستنتج من خلال المصادر العربية أنّ مقاطعة الأناضول التي تعتبر أحد أهم وأكبر الثيمات البيزنطية، وأكثرها عرضة لهجمات المسلمين أيضا، كانت تضمّ حوالي عشرة آلاف

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 526 / Nikephoros: Op cit, p 107.

<sup>2</sup> - Theophanes: Ibid, p 511.

<sup>3</sup> - Theophanes: Ibid. P 617.

<sup>4</sup> - Warren Treadgold: Byzantium and its Army, p 64.

<sup>5</sup> - Walter Emil Kaegi: Byzantine Military Unrest, p 178.

مقاتل أو أكثر قليلا، ففي طريق حملته على القسطنطينية فرض مسلمة بن عبد الملك الحصار على قاعدة الثيم (مدينة عمورية) سنة 97هـ/716م، وبعدهما توصل إلى توافق مع حاكمها وقائد ثيم الأناضول الـ "ستراتيجوس" ليو خرج إليه في اثنا عشر ألف من رجاله<sup>1</sup>، وهم من دون شك مجموع قواته من مختلف المناطق الخاضعة لسلطته، وفي حملة أخرى لاحقا بقيادة سليمان بن هشام على المدينة نفسها خرج لملاقاته جيش من عشرة آلاف رجل<sup>2</sup>، وهاتين الاشارتين تعطينا دليلا مهمًا على استقرار عدد جنود ثيم الأناضول في حدود عشرة آلاف مقاتل أو أكثر قليلا كما تم الإشارة إليه سابقا.

وفيما يتعلّق بثيم الأرمينيا فيبدو أنّه كان يضمّ حوالي أربعة عشر ألف رجل خلال القرنين السابع والثامن ميلاديين (الأول والثاني هجريين)، بينما يقدر حجم الجيوش المتمركزة في المناطق التي كانت تشكّل كل من الأوبسيكيون وتراقيا Thrace، وأبثيماتى Optimates والبوكلاري Bucellarian بثمانية عشر ألف رجل مع بداية الربع الأخير من القرن الثامن ميلادي (حوالي سنة 773م)<sup>3</sup>.

بالاعتماد على هذه المعطيات يبدو أنّ جند الثيمات الآسيوية فقط كان يبلغ أكثر من أربعين ألف رجل، وإذا ما أخذنا عدد جنود ثيمات القسم الأوربي في الاعتبار سنصل إلى رقم قريب أو يوافق تقديرات كايجي الأنفة، ما يدعم الاستنتاج الذي تمّ التوصل إليه سابقا حول عدد جنود الجيش البيزنطي.

بعد استعراض أهم المراحل التي مرّ بها تطور نظام الثيمات وخصائصه والدوافع وراء تأسيسه، والتي تتمثّل بشكل خاص في الاحتياجات الدفاعية للإمبراطورية البيزنطية في مواجهة خصومها، نصل إلى طرح سؤال جوهرى حول مدى نجاح هذا النظام في تحقيق الأهداف التي أنشئ من أجلها؟ إنّ هذا النظام من دون شك أثبت مع الوقت فعالية كبيرة وحقّق نتائج معتبرة على الصعيدين العسكري والاقتصادي، فمن الناحية العسكرية كانت الإجراءات التي تمّ اتخاذها بتوزيع الأرض على الجند كفيلة بتكوين جيش من سكان البلد دون الحاجة إلى تجنيد المرتزقة كما في السابق، حيث خلق حافز يشجّع الجند على الاستقرار في المناطق التي يتمّ انزالهم فيها، كما أوجد دافعا قويًا للجندي من أجل الإستماتة في القتال دفاعا عن أرضه وممتلكاته<sup>4</sup>، والأفضل من هذا أنّ النظام وبفضل انتشار الجنود على كل مناطق الإمبراطورية أتاح لمعظم الجهات إمكانيات دفاع ذاتية ضد هجمات العدو<sup>5</sup>.

من الناحية الاقتصادية فقد سمح هذا النظام بتوفير الموارد الكافية للجند محليا من خلال الإنتاج الذي كانت تزوّدهم به الأرض التي أقطعت لهم، وقد ساهم هذا الأمر في حدّ ذاته في تخفيف العبء المالي

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 21.

2 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 71، ص 322.

3 - Warren Treadgold: Byzantium and its Army, p 70.

4 - عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 26-29.

5 - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 318.

والتمويني عن القسطنطينية، التي كانت تعاني أصلاً من وضع اقتصادي صعب للغاية في تلك المرحلة من تاريخها، وأكثر من هذا فقد ساهم ربّما في تحسين الوضع الاقتصادي للدولة من خلال زيادة الإنتاج والضرائب التي كانت تجنيها السلطة المركزية من الجنود المزارعين<sup>1</sup>، وهكذا تمكّن نظام الثيمات على المدى البعيد ليس فقط من تأمين قدرة الإمبراطورية على الوفاء بالتزاماتها المالية فحسب بل وسمح للبيزنطيين بتجنب الأناضول مستقبلاً مجهولاً<sup>2</sup>، حيث استطاعت الإمبراطورية بفضل هذا النظام الحفاظ على وجودها في مواجهة الدولة الأموية التي كانت تتمتع بمقدرات عسكرية وبشرية ومالية أكبر مما كانت تتوفر عليه بيزنطة.

### ثانياً- تنظيم الحدود:

لقد كانت المناطق الحدودية في آسيا الصغرى عند جبال طوروس تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة لبيزنطة في جهدها للدفاع عن أراضي الإمبراطورية في الأناضول، إذ تعتبر منطقة الاحتكاك المباشر ببلاد الإسلام والمنفذ الذي تعبر منه حملات المسلمين السنوية إلى الأراضي البيزنطية، وقد كان أول إجراء دفاعي قام به البيزنطيون بعد ظهور خطر المسلمين في الشام والجزيرة هو إخلاء منطقة قيليقية الحدودية من سكانها وسحبهم إلى ما وراء سلسلة جبال طوروس من أجل الحدّ من اندفاع المسلمين وذلك بتحويل المنطقة إلى خراب ليس فيها أي نوع من أنواع الامدادات والموارد التي يمكن أن يستفيد منها المسلمون لدعم مجهودهم العسكري<sup>3</sup>، كما أنّ تهجير السكان من المناطق الحدودية إلى المناطق الداخلية في العمق البيزنطي الذي بدأ منذ عهد هرقل واستمرّ حتى عهد قسطنطين الخامس ساهم في خلق منطقة حياد بين الروم والمسلمين بهدف توفير الأمان لبقية مناطق آسيا الصغرى<sup>4</sup>، ولمراقبة المنطقة التي كانت تعتبر طريق عبور الحملات الإسلامية إلى أراضي الإمبراطورية في آسيا الصغرى والعاصمة القسطنطينية تذكر بعض المراجع أنّ منطقة الحدود كانت تتمتع بوضع عسكري خاص يدعى Kleisourarchia، وهي عبارة عن وحدات عسكرية إدارية تنتشر في الحدود، خاصة عند الممرّات، تكون تحت إشراف Kleisourarch (المشرف على الدروب) الذي يتمتع بنفس صلاحيات التورماخ (قائد الكتيبة) سالف الذكر عسكرياً ومدنياً، ويشغل بصفة مستقلة عن قائد الثيم (ستراتيجوس)<sup>5</sup>، وبالتالي يمكن أن نستنتج بسهولة المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها المسؤول عن الدروب في سلّم التنظيم العسكري البيزنطي.

<sup>1</sup> - عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 29-30.

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 322.

<sup>3</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 288. / أحمد بدر: المرجع السابق، ص 157-158.

<sup>4</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 30.

<sup>5</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع نفسه، ص 29.



إنّ الإشارات الأولية المهمة عن هذا الموضوع نجدها عند المؤرّخ البيزنطي ثيوفانس، الذي يورد معلومات قيّمة حول وضعية الحدود عند استعراض أحداث التمرد الذي قام به أحد القادة العسكريين (يدعى سابور) ضدّ الإمبراطور قنسطانز بين 47-48هـ/667-668م، حيث يعطي الانطباع أنّ منطقة الحدود شرق قبادوقيا كانت تتمتع بتنظيم عسكري خاص حين يذكر وظيفة المشرف على الدروب في منطقة عربسوس Arabissos عند ذكر أحد القادة المحليين الذي حافظ على ولائه للإمبراطور وساهم في إلقاء القبض على مبعوث قائد التمرد لمعاوية بن أبي سفيان<sup>1</sup>، وتلاحظ صوفي متيفي Sophie Métivier أنّ الرواية التي أوردها ثيوفانس مستمدة من مصادر سريانية، ونجدها تتكرّر عند ميخائيل وغيره من المؤرّخين السريان الذين يذكرون "حراس المعابر" وهي وظيفة عسكرية لم تأت النصوص البيزنطية الأولية على ذكرها مطلقاً، وتستنتج في النهاية أنّ ما ذكره ثيوفانس يشير في سياق توظيفه ربّما لمهمة دائمة أو مؤقتة يضطلع بها الجيش في الحدود وليس تنظيم عسكري خاص كما يوحي ظاهر النص<sup>2</sup>. لكن مع ذلك يمكن أن نؤكّد أنّ الإمبراطورية البيزنطية قد أولت اهتماماً كبيراً بمنطقة الحدود والمناطق التي تنفذ منها الحملات الإسلامية السنوية على أراضيها في آسيا الصغرى ما يجعلنا نعتقد أنّ بداية التفكير أو أصول هذا التنظيم الخاص بالحدود ربّما تكون قد ظهرت في هذه الفترة المبكرة بالذات بالتزامن مع استحداث نظام الثيمات وتمّ اعتمادها وتطبيقها لاحقاً تماشياً مع التعديلات والتطوّرات العسكرية التي شهدتها الإمبراطورية. لقد كان الهدف من إيجاد هذا النوع من التنظيم في المنطقة الفاصلة بين أراضي الإمبراطورية والخلافة هو الرفع من القدرات الدفاعية لأقاليم الحدود البيزنطية وتأمين مناطق العبور بين طريقي جبال طوروس عن طريق انزال فرق عسكرية تضطلع بالدفاع عن المسالك الجبلية التي تعبر منها الجيوش المعادية، بالإضافة إلى توفير معلومات مسبقة عن استعدادات وتحركات المسلمين من خلال العمل الاستطلاعي ونقل الأخبار بسرعة، وقد استعانوا في ذلك بنظام اتّصال محكم عن طريق الإشارات، حيث يتمّ اشعال النار على المرتفعات والقمم الجبلية التي تكون بها مراكز مراقبة من أجل إيصال أخبار تحركات الجيوش الإسلامية إلى المناطق الداخلية بسرعة لاتخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة<sup>3</sup>، ونجد في المصادر العربية إشارة إلى استخدام هذا النظام من طرف البيزنطيين مع نهاية القرن الأول هجري عند حصار مسلمة بن عبد الملك للقسطنطينية سنة 99هـ/717م إذ تذكر الرواية أنّ جماعة من الروم أوقدوا نارا على رأس جبل ممتنع فعرف بذلك البيزنطيون أنّ جيشاً للمسلمين قد دخل بلادهم من الشام فكانوا يتربّون ما سيكون من أمرهم،

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 489.

<sup>2</sup> - Sophie Métivier: Op cit, pp 438-439.

<sup>3</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 306.

حتى جاء بعد ذلك بأيام مبعوث من دمشق في أربعة آلاف من الجند يخبر مسلمة بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك واستخلاف عمر بن عبد العزيز الذي أرسل أوامره برفع الحصار والانسحاب<sup>1</sup>.

ولا شك أنّ إخلاء الروم لمنطقة الحدود من سكانها قد ساهم في خلق فضاء حيادي بينهم وبين المسلمين، واهتمامهم بمراقبة المنطقة بشكل دائم واستعمالهم نظام الإشارات لنقل الأخبار قد ساعدهم على تجنب مفاجئات المسلمين في الكثير من الأحيان، وأتاح للمناطق الداخلية في آسيا الصغرى الوقت الكافي لتأمين السكان وممتلكاتهم والأخذ بتدابير الحيطة في المدن والقلاع لمواجهة الحملات العسكرية السنوية، وبالتالي التقليل من الخسائر البشرية والمادية على حدّ سواء.

### ثالثاً- تكييف العقيدة العسكرية:

إنّ الدراسات والمؤلفات العسكرية التي دوّنت بين القرنين السادس والثامن ميلاديين أكّدت على عدم التوازن في الموارد بين بيزنطة وخصومها في تلك الفترة، وركّزت على ضرورة تجنب المواجهة والحرب المباشرة التي يمكن أن تكلف الكثير من الموارد والأرواح في ظلّ ظروف غير مواتية، بالمقابل أكّدت على ضرورة الاعتماد على المناورة والكمائن وتوظيف تكتيكات معرّقة مثل تدمير مصادر التموين وخطوط الامداد واستنزاف مجهود العدو وقدراته<sup>2</sup>، إنّ هذه الخلاصة تمثل أهم معالم الاستراتيجية العسكرية التي تبنتها الإمبراطورية البيزنطية في مواجهة التحدي العسكري الذي مثّله الدولة الأموية طيلة فترات الاستقرار من وجودها، وسنحاول في هذا العنصر استعراضها وتحليلها وتقييم النتائج المترتبة عنها.

### 1- الانتقال إلى وضعية الدفاع:

إنّ الوضع الدفاعي الذي تبنته الإمبراطورية في الشرق أملتته الظروف التي كانت تعيشها بيزنطة في تلك الفترة من تاريخها، فقد كانت تحت ضغط وتهديد دائمين من كل الجهات، ففي البلقان كان البلغار بفعل تزايد نشاطهم المستمرّ خاصة منذ 680م/60هـ يشكّلون خطراً دائماً على الأراضي الإمبراطورية، وفي إيطاليا كانت بيزنطة في صراع مستمرّ مع اللومبارد من أجل الحفاظ على ما بقي من ممتلكاتها بعد أن فقدت معظم أراضيها هناك لصالح خصومها<sup>3</sup>، وفي الشرق كان التهديد الأكثر جدية متمثلاً في المسلمين الذين استمروا في إرسال الحملات العسكرية سنوياً تقريباً عبر جبال طوروس لاستهداف آسيا الصغرى، بل وحتى العاصمة الإمبراطورية نفسها في أكثر من مرّة.

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 232.

2 - جون هالدون: بيزنطة في حرب 600-1453، ترجمة وتعليق فتحي عبد العزيز محمد، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ط 1، 2011، ص 35.

3 - جون هالدون: المرجع نفسه، ص 30-31 / نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 1، 1950، ص 56.

وهكذا كانت بيزنطة غير قادرة على مواجهة المد الإسلامي، وقد أثبتت جيوشها عجزها عن مواجهة الحملات المتعددة التي واجهتها في معارك مفتوحة، ما أجبرها على انتهاج وضع دفاعي مع تحنّب الصدام المباشر حتى لا تتعرض لهزيمة مصيرية وحاسمة مثل ما حدث في معركة اليرموك، وتبنّت الإمبراطورية ترتيبات جديدة تركز على محاولة استنزاف قوّات المسلمين، والعمل على تحصين والاحتفاظ بالأماكن الاستراتيجية على الحدود والمناطق الداخلية، والانتقال من مبدأ المواجهة ودحر قوات العدو إلى نظام الإنذار المبكر من خلال نشر الفرق العسكرية على نطاق واسع بين الحصون والقرى والمدن والمناطق الحدودية أين اضطلعت أساساً بتحذير السكان من كلّ هجوم وشيك لا تتّخذ الإجراءات المناسبة لتأمين أنفسهم وماشيتهم وممتلكاتهم ونقلهم بعيداً عن ميدان عمليات الجيوش الإسلامية إلى التلال أو داخل الحصون والقلاع، بالإضافة إلى جمع المعلومات عن استعدادات المسلمين وتتبع تحركاتهم ومناطق نشاطهم، وقد أظهرت هذه الاستراتيجية أنّه يمكنها تحقيق النجاح خاصة عندما كانت تتوفر لها قيادة متميّزة ومعلومات مناسبة<sup>1</sup>، وهذه السياسة فرضتها الظروف العامة التي كانت تعيشها الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت فرقها العسكرية ضعيفة ومشتتة في مواجهة قوّة فتيّة ونشيطة سريعة الحركة مدفوعة بحماسة عالية جداً حيث دأب المسلمون على استهداف المعازل البيزنطية بشكل متكرّر سنوياً تقريباً فلم يكن في مقدور الإمبراطورية البيزنطية مواجهة هذا المد أو احتوائه إلاّ عن طريق اتخاذ وضع دفاعي يسمح لها بامتصاص الصدمات بأقل جهد وخسائر ممكنة<sup>2</sup>، وما يجب التأكيد عليه هنا أنّ الانتقال إلى هذا الوضع العسكري الجديد كان تدريجياً، فالفرق العسكرية البيزنطية لم تفقد طابعها كجيش نظامي ميداني إلاّ نتيجة المعطيات التي فرضها التفوّق الإسلامي في الميدان عملياً على جبهة أرمينية وآسيا الصغرى، فبعد انهزامها أمام العرب انسحبت الفرق البيزنطية من المقاطعات الشرقية (الشام) واستقرت في النهاية في الأناضول طيلة الفترة بين أربعينيات وثمانينيات القرن السابع ميلادي<sup>3</sup>، ولا توجد أيّ مؤشّرات على تحوّلها إلى مهمّات دفاعية ثابتة في تلك الفترة، بل إنّ الدلائل المتوفرة تشير أنّه إلى غاية عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني Constans II 642-668م/21-48هـ كانت الفرق العسكرية البيزنطية ضمن الجيش المرابط بالشرق (الأناضول) قد احتفظت بدورها التقليدي كقوّات ميدانية هجومية ولم يتم بعد تثبيتها في مجال محدّد وتقسيمها إلى وحدات أصغر وتوزيعها على مختلف مناطق آسيا الصغرى للاضطلاع بمهمّات دفاعية خالصة، بل وأكثر من هذا

<sup>1</sup> - جون هالدون: المرجع السابق، ص 40.

<sup>2</sup> - وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من 324-1025 م، 1982، ص 166-167 / عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 194-195 / جون هالدون: المرجع نفسه، ص 38-39-40.

J. F. Haldon and H. Kennedy: The Arab-byzantine frontier in the eighth and ninth centuries, pp 84-85.

<sup>3</sup> - Leif Inge Ree Petersen: Op cit, p 104.

ربّما كانت قد شاركت أكثر من مرّة في عمليّات هجومية استهدفت المسلمين بالشام إلى غاية الفترة التي سبقت قيام الدولة الأموية بقليل<sup>1</sup>.

لكن يمكننا بكلّ سهولة تبينّ هذا التغيّر في الاستراتيجية العسكرية البيزنطية طيلة الفترة التي تلت تأسيس الدولة الأموية، حيث نكاد لا نجد أيّ عمل هجومي اضطلعت به القوات البيزنطية ضدّ المسلمين إلى غاية نهاية القرن السابع ميلادي/الثلث الأخير من القرن الأول هجري، عندما تمّ توجيه حملة عسكرية لاستهداف منطقة المصيصة على مشارف الثغور الشامية سنة 690هـ/690م، والحملة التي قادها الإمبراطور جستنيان الثاني بنفسه بعد ذلك بثلاث سنوات، عام 693هـ/693م، نحو سياستوبوليس بالقرب من ملطية، وكذا حملة سنة 694هـ/694م التي وصلت إلى أطراف الشام الشمالية عند سهل أنطاكية، وبعدها حملة سميساط سنة 700هـ/700م، لتتوقّف العمليّات الهجومية تماما بعد ذلك لمدة نصف قرن تقريبا حتى سنة 742هـ/742م عندما أرسل الإمبراطور ليو الثالث حملة هجومية ضدّ ملطية، وهذه الحملات كانت تتزامن غالبا مع فترات الفتن والاضطراب التي تحدث في الدولة الأموية مستغلة الأوضاع الحرجة التي تمرّ بها، وما عدا ذلك كانت القوّة البيزنطية دائما في وضع دفاعي في مواجهة الحملات العسكرية المتكرّرة للمسلمين.

ويرى كل من هالدن وكينيدي أنّ الاستراتيجية العسكرية التي تبنتها بيزنطة في مواجهة المسلمين قد ساهمت في حماية المعازل الرئيسية لآسيا الصغرى، حيث لاحظنا أنّ حملات المسلمين رغم تواترها وحجمها والأضرار التي تسببت فيها، كما تشير إلى ذلك الروايات العربية والبيزنطية على حدّ سواء، لم تنجح إلّا نادرا في السيطرة على المدن البيزنطية<sup>2</sup>، إنّ هذا الطرح صحيح جزئيا لكن مع ذلك يجب أن نشير إلى أنّ عدم سيطرة المسلمين على مدن آسيا الصغرى لم يكن نتيجة عجزهم عن ذلك أو نتيجة نجاح التدابير البيزنطية بشكل عام، بل لأنّ استراتيجيتهم لم تقم على مبدأ الاحتفاظ بالمعازل البيزنطية ما وراء جبال طوروس والدليل على ذلك أن المسلمين قد تمكنوا في مرّات عديدة من الاستيلاء على مدن رئيسية داخل الأراضي البيزنطية لكنهم مع ذلك لم يفكروا في الاحتفاظ بها، بل عمدوا إلى تخریبها والانسحاب منها مثلما حدث مع طوانة سنة 88هـ/707م، وأنطاكية (في بيسيديا) سنة 94هـ/713م، وقيصرية سنة 107هـ/726م وغيرها من المدن والمعازل البيزنطية.

## 2- تجنّب المواجهة المباشرة:

إنّ انتقال القوّة البيزنطية من أسلوب الحرب المفتوحة والمواجهات المباشرة إلى أسلوب حرب العصابات في مواجهة حملات المسلمين حدث مع التحوّل الذي عرفته عقيدتها العسكرية بالانتقال من

<sup>1</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: المرجع السابق، ص 21.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, pp 84-85.

المهجوم إلى الدفاع كما ذكرنا في العنصر السابق، وفي ظلّ المعطيات الجديدة كانت جيوش الثيمات منذ الفترة بين ستينيات القرن السابع ميلادي حتى مطلع القرن العاشر بحاجة إلى الردّ بسرعة على هجمات وتحرّشات العدو<sup>1</sup>، وهذا الغرض لن يتحقّق من خلال الاحتفاظ بجيوش ميدانية ثابتة كما في السابق، وهكذا تمّ تقسيم هذه الجيوش إلى فرق عسكرية صغيرة خفيفة الحركة تخصّصت أساساً في أسلوب حرب العصابات، فكانت تترصّب بالقوّات الإسلامية عند الممرّات الجبلية الضيّقة والمناطق الوعرة خاصة عند عودتهم محمّلين بالغنائم حيث تكون حركتهم ثقيلة وردّ فعلهم بطيء في استجابتهم لهجمات الروم<sup>2</sup>، كما كانوا يتجنّبون غالباً مواجهة جيوش الحملات ويترصّدون السرايا قليلة العدد التي تنفصل عنه، حيث نجد في المصادر العربية صدى لهذه الأساليب التي كان يطبقها الروم في مواجهة المسلمين، إذ تقدّم لنا معلومات ذات قيمة معتبرة، ففي الصائفة اليسرى التي قادها سعيد بن عبد الملك سنة 106هـ/724م ترصد الروم سرية من ألف رجل انفصلت عن جيش الحملة الرئيسي فأوقعوا بهم وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين<sup>3</sup>، وفي صائفة سنة 114هـ/732م أيضاً التي قادها معاوية بن هشام انفصل عمرو بن الوضّاح، وهو فارس شجاع اشتهر بغزو الروم، عن جيش الحملة وتوغّل في بلاد الروم على رأس سرية ففتح القرى والحصون وغنم وسبي عدداً كبيراً من الناس فلمّا رجع ليلتحق بالقوّات الرئيسية للحملة بقيادة معاوية بن هشام تفتّن لوجود جاسوس للروم اندس بين جنده، وعند استجوابه عرف منه بوجود كمين قد نصب للمسلمين عند منطقة تسمّى "عقبة الركاب" فسار على حذر واستعداد حتى وافاهم فاشتبك معهم في معركة عنيفة انتهت بهزيمة منكرة للروم<sup>4</sup>، ومن دون شكّ كان هذا الكمين سيلحق خسائر معتبرة في صفوف المسلمين لو احتفظ الروم بعنصر المفاجئة ولم يتمّ اكتشاف مخطّطهم، وقد أفاد هذا الأسلوب البيزنطيين في التعامل مع الهجمات الإسلامية وحقّق لهم بعض النجاحات، بل وقد أتاح لهم في بعض الأحيان إلحاق هزائم وخسائر معتبرة في صفوف المسلمين مثلما حدث في معركة أكروينون سنة 122هـ/740م عندما فضّل الروم عدم التعرّض إلى طليعة جيش الصائفة التي انفصلت عن القوّات الرئيسية قرب طوانة وتركوها تتوغّل داخل الأراضي البيزنطية بقيادة مالك بن شبيب حتى وصلت إلى قلعة أكروينون، وبعد انقطاع خطوط الاتصال بينها وبين الجيش الرئيسي تمّ إبادة القسم الأكبر من هذه السرية من طرف الجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور ليو الإيسوري وابنه قسطنطين<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - John Haldon: Op cit, p 117.

<sup>2</sup> - عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 195.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 21 / ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 21، ص 217.

<sup>4</sup> - ابن عسّكر: المصدر نفسه، ج 46، ص 445-446.

<sup>5</sup> - ابن عسّكر: المصدر نفسه، ج 33، ص 405-406؛ ج 56، ص 459-460.

Theophanes: Op cit, p 571 / Bury: Op cit, Vol 2, p 406.

ومن تكتيكات حرب العصابات التي تبناها الروم أيضا في مواجهة المسلمين استهداف ساقه جيش الصائفة وترصد المتخلفين من الجند عبر نصب الكمائن لهم، وكان المسلمون يواجهون صعوبة كبيرة في التعامل مع هذا الأسلوب الذي كان يطبّقه البيزنطيون، ولمواجهتهم كان قادة الحملات يرسلون السرايا ومجموعات من الفرسان خفيفي الحركة للإيقاع بمن يحاول استهداف ساقه الجيش من الروم، لكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تأمين جيش الصوائف تماما من هجمات البيزنطيين المفاجئة<sup>1</sup>، كما درج قادة الحملات كذلك على اختيار وتعيين أشجع الفرسان وأكثرهم جرأة على المقدمات أو في الساقه للتصدّي لمفاجئات القوّات البيزنطية، وكان أبو مسلم الخولاني ممن اشتهر بذلك، فكان أمراء الصوائف يتيّمون به<sup>2</sup>، وكانوا أيضا يسيرون مجموعات من الجند يعرفون بالطلائع يتقدّمون الجيش الرئيسي للحملة لاستطلاع الطريق من أجل تجنّب مباغثات وكمائن البيزنطيين<sup>3</sup>.

كما كان البيزنطيون كذلك يركّزون على ضرب خطوط امداد الجيوش الإسلامية والعمل على محاولة حرمانهم من الموارد الضرورية داخل بلاد الروم التي يمكن أن تساعد في عمليّاتهم الحربية، فكانوا إذا حان موعد قيام المسلمين بحملات الصوائف يعمدون إلى احراق المراعي حتّى لا يجد المسلمون مرعى لخيولهم ودوابهم كما حدث سنة 106هـ/724م عندما غزا الصائفة اليمنى معاوية بن هشام<sup>4</sup>، وإن كانت كتب التاريخ قد احتفظت بمثال وحيد على ذلك، فمن المرجّح أنّ هذا الاجراء كان معمولا به في الكثير من الحالات للتضييق على قوّات المسلمين وتقليص فترة عمليّاتهم داخل الأراضي البيزنطية تحت ضغط نقص التموين.

وهكذا من خلال هذا الأسلوب الجديد في المواجهة نجد أنّ حملات المسلمين كانت نادرا ما تواجه جيوشا بيزنطية منظمّة كثيرة العدد في مواجهات مفتوحة، بل غالبا ما كانت تشتبك مع قوّات محدودة، نتيجة تصغير الوحدات العسكرية منذ تأسيس نظام الثيمات، كما أنّ هذا الأسلوب قد ضمن للبيزنطيين كذلك سرعة الاستجابة في التعامل مع تهديد الحملات الإسلامية المتكرّرة، والأهم من ذلك أنّه قد ساهم في تحجيم الخسائر إلى أدنى حدّ ممكن.

#### رابعا- انشاء تحالفات إقليمية:

عملت الإمبراطورية البيزنطية في إطار صراعها مع الدولة الأموية، وفي ظلّ محدودية امكانياتها الذاتية، على استغلال وتوظيف القوى الإقليمية في المنطقة والاستفادة من قدراتها العسكرية وطموحاتها السياسية، للتأثير في مجريات الصراع مع خصومها المسلمين، حيث نشطت في تحريض الجراجمه لزعزعة استقرار بلاد

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 10، ص 149.

2 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 27، ص 229-230.

3 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 33، ص 402.

4 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 259.

الخلافة، وقامت بإثارة القوى الأرمنية المعارضة من أجل الثورة ضدّ الحكم الإسلامي، وتحالفت مع الخزر لدفعهم إلى مهاجمة المراكز العربية في أذربيجان وأرمينية لإشغال الجيوش الإسلامية واستقطاب جهودها العسكري بعيدا عن الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، ما سيمنح الإمبراطورية وقتا ثميناً لاستعادة الأنفاس وتجميع الموارد الكافية استعداداً لمواجهة جديدة مع المسلمين.

### 1- الجراجمة:

كان الجراجمة في العهد البيزنطي يتبعون حاكم أنطاكية، وبعد فتح المسلمين لهذه المدينة للمرة الثانية سنة 16هـ/637م عقدوا صلحاً مع الجراجمة على أن يكونوا أعواناً للمسلمين مقابل إسقاط الجزية عنهم<sup>1</sup>، وقد حافظ الروم على صلاتهم بالجراجمة في جبال لبنان حتى بعد انسحابهم من المنطقة، وترد أولى الإشارات عن التعاون بين الطرفين سنة 56هـ/676م حين يشير ثيوفانس إلى دخول المردة Mardaites إلى جبال لبنان وسيطرتهم على كل المنطقة الجبلية في المنطقة، وقد انضم إليهم عدد كبير من السكان المحليين والعبيد والأسرى فزاد عددهم في فترة وجيزة حتى بلغوا عدّة آلاف<sup>2</sup>، وهؤلاء المردة يشكلون عناصر محاربة غير النظامية<sup>3</sup>، أرسلهم الإمبراطور قسطنطين من أجل اشغال المسلمين عن الغزو<sup>4</sup> بمواجهات جانبية داخل حدود الدولة الإسلامية (في الشام بالتحديد)، وفي تلك الظروف بالتحديد كان الهدف من نشاطهم الحدّ من قدرة الدولة الأموية على إرسال المزيد من القوّات لدعم الجيش الإسلامي المحاصر للقسطنطينية، ويبدو من المؤكّد أنّ السكان المحليين الذين قصدهم ثيوفانس في قوله، هم الجراجمة الذين كانوا يستوطنون جبال لبنان، حيث تمّ توظيفهم في هذه الفترة بالذات عندما كانت القسطنطينية تحت حصار الجيوش الإسلامية، لإشاعة الفوضى في الشام وقطع طرق الامدادات أمام القوّات الإسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية وتشتيت الجهد الحربي للخلافة، وفعلاً كان الضّغط الذي مارسه المردة وحلفائهم الجراجمة، من أسباب رفع الحصار عن القسطنطينية وطلب معاوية بن أبي سفيان الصلح من الإمبراطور البيزنطي<sup>5</sup>، وهكذا أدرك البيزنطيون أنّهم اكتسبوا أداة قويّة وفعّالة يمكن لها أن تؤثّر على مجريات الأحداث في صراعهم المستمرّ مع دولة الخلافة.

ومع تفجّر الصراعات الداخلية بين المسلمين من جديد بعد موت يزيد بن معاوية استغلّ البيزنطيون هذه الفرصة وقاموا بتحريك الجراجمة مرّة أخرى لزعزعة استقرار الشام والضغط على عبد الملك بن مروان،

<sup>1</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 187.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 496.

يؤرخ إيليا النصبي هذا الاتصال سنة 57هـ/677م.

<sup>3</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 95.

<sup>4</sup> - Agapius: Op cit, partie 2, p 233.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 496.

ففي سنة 70هـ/689م أرسل الإمبراطور (جستينيان الثاني) قوّة عسكرية التحقت بجبل اللكام لقيادة تمرّد الجراجمة ضدّ المسلمين، حيث استطاعوا أن يسيطروا على المنطقة الجبلية كلّها من أنطاكية ونواحيها وجبال لبنان حتّى الجولان بل ووصلوا قريبا من دمشق، وأشاعوا الخوف بغاراتهم على قرى تلك النواحي وتعرّضهم للمسلمين، ففقدت بذلك المنطقة أمنها حتّى لم يكن أحد يخرج إلّا في سلاح<sup>1</sup>، وقد كان توقيت هذا الاضطراب سيّئا للغاية بالنسبة لعبد الملك بن مروان، حيث تزامن مع استعداده لقتال مصعب بن الزبير في العراق، وعصيان عمرو بن سعيد في دمشق، ما اضطرّ عبد الملك إلى مهادنة المردة (وربّما الجراجمة أيضا) على أن يدفع لهم ألف دينار أسبوعيا<sup>2</sup>.

إنّ توظيف الجراجمة بشكل مباشر من طرف الروم ربّما كان يهدف إلى أكثر من مضايقة عبد الملك بل يتعدّاه إلى تهيئة المنطقة لحملة عسكرية شاملة تستهدف الاستيلاء عليها، والمصادر الإسلامية لا تقصي هذا الطرح حيث يذكر البلاذري أنّ عبد الملك بن مروان كان متخوّفا بعد تحرك الجراجمة من حملة بيزنطية على الشام فبادر إلى طلب الصلح من إمبراطور الروم (جستينيان الثاني) مقابل مال يؤدّيه إليه حتّى ينصرف عن حربه ويتخلّص من تطلّعاته وأطماعه في الشام<sup>3</sup>، وقد تمكّن عبد الملك بعد تحييد الروم من القضاء على حركة المردة (ومعهم الجراجمة) هذه بواسطة عامله على طرابلس سُحيم بن المهاجر الذي استطاع من خلال عملية عسكرية محكمة أن يترصد قائد الروم في المنطقة ويقضي عليه مع عدد معتبر من كبار أتباعه ففتقرّ جمعهم وانكسرت شوكتهم<sup>4</sup>، وانتهت هذه المرّة محاولة البيزنطيين إلى الفشل وتمّ الاتفاق بين الإمبراطور والخليفة على توقيع معاهدة سلام بين الطرفين تقضي أحد بنودها بسحب اثنا عشر ألفا من المردة من جبال لبنان إلى آسيا الصغرى<sup>5</sup>، وهكذا انتهى وجودهم في الشام نهائيا، وقد أثبتت الأحداث لاحقا أنّ هذا الإجراء كان سوء تقدير استراتيجي وقع فيه الإمبراطور البيزنطي، وهو ما تشير إليه أيضا المصادر البيزنطية التي تعترف بأنّ بلاد الروم عانت الويلات على أيدي العرب منذ انسحاب المردة من جبال لبنان<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 20، ص 145.

<sup>2</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 187-188.

<sup>3</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 188.

ما يمكن أن يدعم رواية البلاذري عن نوايا وتحركات البيزنطيين لاستهداف الشام خبر عند يعقوبي يشير فيه إلى قيام الامبراطور بحملة وصلت حتّى مدينة المصيصة (تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 188).

<sup>4</sup> - البلاذري: المصدر نفسه، ص 188 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 20، ص 145-146.

<sup>5</sup> - إبراهيم بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص 196.

Theophanes: Op cit, p 506 / Agapius: Op cit, partie 2, p 237 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 469.

<sup>6</sup> - Theophanes: Ibid, p 506.



وقد تكرّرت محاولات الروم لربط الاتصال بالجراجمة بعد ذلك من أجل إعادة توظيفهم في صراعها مع الدولة الأموية، فأرسل الإمبراطور البيزنطي (جستينيان الثاني) سنة 89هـ/708م حملة نزلت الإسكندرونة ثمّ التحقت بمعاقل الجراجمة في جبال لبنان فاجتمعوا إليها وباشروا الاستعداد للتمرد على السلطة الأموية، لكنّ الوليد بن عبد الملك ما لبث أن سحق هذا التحرك قبل أن يتوسّع ويمتدّ لكل المنطقة، حيث بعث بأخيه مسلمة بن عبد الملك على رأس حملة دخلت مدينتهم "الجرجومة" فخرّبتهما، وفرض عليهم مسلمة الانتقال عنها مقابل منحهم امتيازات مغرية فانتشروا بين مختلف مناطق الشام، وربما كان استقبال الجراجمة للروم والتفافهم بهم دليل على وجود اتصال وتنسيق مسبق بين الطرفين لاستهداف المسلمين وليس أدلّ على ذلك التحاق قائد الجراجمة بالأراضي البيزنطية بعد فترة من انتقاله إلى أنطاكية عقب ابعادهم من مدينتهم<sup>1</sup>. إنّ محاولة إعادة توظيف الجراجمة في هذا التوقيت بالذات من قبل الروم جاء كرد فعل من الإمبراطورية البيزنطية على هزيمتها المذلّة في طوّانة قبل ذلك بأقل من سنة فقط (عام 88هـ/707م)، وهكذا أثبت الجراجمة مرّة أخرى أنّهم أداة للروم وأعوان لهم في المنطقة متى ما أمكنهم التحرك وإجراء مسلمة القاضي بتفريقهم لعدم كل فرصة لإعادة توظيف هذه الفئة من طرف البيزنطيين مستقبلا إذ أنّها فقدت قوّتها بفقدانها وحدتها، كما أنّ التسهيلات الاقتصادية والدينية التي منحها لهم الدولة الأموية بعد ترحيلهم من مراكزهم ساهم في ادماجهم في المجتمع الأموي سياسيا واجتماعيا وهكذا تلاشى الجراجمة وزال خطرهم على الدولة<sup>2</sup>.

لقد أرادت بيزنطة من وراء إرسال المردة إلى جبال الأمانوس (اللكام) وتوظيف الجراجمة المستقرّين بها إلى اشغال المسلمين عن الغزو<sup>3</sup>، وإيجاد حاجز بينها وبين المسلمين وإنشاء خط دفاع متقدّم في مواجهة حملاتهم على آسيا الصغرى عبر قيليقية التي تعتبر إحدى أهم محاور عبور الجيوش الإسلامية إلى الأناضول، وقد كانت المصادر البيزنطية تطلق على هؤلاء المردة وصف الجدار النحاسي<sup>4</sup>، للدلالة على دورهم الحاجز بين الإمبراطورية والخلافة، كما أنّهم كانوا يعيقون أداء حملات الصوائف من خلال استهداف الجيوش الإسلامية التي تمرّ بالمنطقة والمتخلّفين من الجند<sup>5</sup>، ورغم أنّ الجراجمة المسيحيين، حلفاء الإمبراطورية البيزنطية، كانوا على خلاف مذهبي معها باعتبارها ذات توجه ملكاني إلا أنّهم مع ذلك كانوا على وفاق سياسي معها على ما يبدو فقد كانوا يستجيبون تقريبا لكل مبادرة تأتيهم من طرف الروم<sup>6</sup>، وقد كان

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 188-189.

<sup>2</sup> - إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص 196-197.

<sup>3</sup> - Agapius: Op cit, Partie 2, p 233.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 507.

<sup>5</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 189.

<sup>6</sup> - إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص 190.

لمواقعهم على امتداد جبال الأمانوس التي تعتبر حاجزا طبيعيا بين أقاليم الشام الداخلية ومدنه الساحلية في الشمال، ميزة خاصة يمكن للروم توظيفها لإعاقة تحركات المسلمين عبر هذه السلسلة الجبلية أو أكثر من هذا السيطرة عليها والحيلولة دون استمرار الاتصال بين المدن الساحلية والمناطق الداخلية، ما سيجعل السواحل الشامية مكشوفة تماما في مواجهة الأساطيل البيزنطية دون سند أو مدد من المناطق الداخلية<sup>1</sup>، هذا ما يفسر أهمية المنطقة وخاصة سكانها بالنسبة للبيزنطيين في مخططاتهم تجاه الدولة الأموية وإصرار الروم على الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الجراجمة لتوظيفهم كجماعة ضغط في عمق أراضي الدولة الإسلامية بالذات، وقد نجحت الإمبراطورية في تحقيق نتائج مرضية على مرتين في مواجهة خصومها المسلمين، كانت الأولى حين أفلح ضغط الجراجمة ومعهم المردة في المساهمة في رفع الحصار عن القسطنطينية سنة 59هـ/679م، والثانية عندما أجبر ضغط الجراجمة مرة أخرى عبد الملك على دفع اتاوة أسبوعية لهم وعقد معاهدة سلام مع بيزنطة سنة 70هـ/689م مقابل تنازلات كبيرة، لكن إصرار الخلافة على تحييد هذا التهديد من جهة، وعدم حنكة الإمبراطور جستنيان الثاني من جهة أخرى، كانا كفيلا بالقضاء على قوة الجراجمة وانتزاع أداة ضغط قوية وفعالة من يد الإمبراطورية البيزنطية في مواجهة الدولة الأموية.

## 2- الأرمن:

كانت أرمنية حلبة صراع مستمر تقريبا بين المسلمين والبيزنطيين، وقد حاول الروم اضعاف النفوذ العربي فيها واستنزاف جهود خصومهم واشغالهم هناك باستمرار من خلال اثاره الفتن والاضطرابات وتشجيع حركات التمرد وتحريض العناصر الأرمنية المناوئة للحكم العربي على الثورة، بالإضافة إلى تحرك البيزنطيين عسكريا للسيطرة على المنطقة كلما سنحت الفرصة.

بعد الفتوحات الأولى في عهد عثمان بن عفان التي أدت إلى بسط نفوذ العرب في المنطقة، جاءت الفتنة الكبرى ليفقد المسلمون معها كل مكتسباتهم السابقة هناك، حيث استطاع الإمبراطور قنسطانز الثاني Constans II إعادة بسط السيادة البيزنطية على أرمنية وبلاد الكرج والران ومنطقة القوقاز سنة 37هـ/657م بدعم من الأمير المحلي الأرمني هامازاب Hamazasp الذي ينتمي لعائلة ماميكونيان Mamikonian، رغم أن هذا الأخير كان معينا من طرف العرب، وقد عمد الإمبراطور إلى الاحتفاظ بعد ذلك بهامازاب أميرا على أرمنية تحت السيادة البيزنطية نظير جهوده في خدمة الإمبراطورية، واستمر كذلك حتى وفاته سنة 41هـ/661م<sup>2</sup>، وهي السنة التي شهدت نهاية الصراعات الداخلية بين المسلمين مع قيام الدولة الأموية، وشهدت أيضا عودة أرمنية من جديد إلى السيادة الإسلامية بشكل طوعي بعد

<sup>1</sup> - إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 111 / الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص 57.

<sup>2</sup> - فايز نجيب إسكندر: بلاد الكرج بين المسلمين والبيزنطيين حتى أواخر القرن الثاني الهجري/أواخر القرن الثامن الميلادي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ص 65-66.

أن كاتب معاوية أمرائها يدعوهم إلى الطاعة، وقام بتعيين غريغوار ماميكونيان Grégoire Mamikonian شقيق هامازاب، الحاكم السابق للبلاد، أميراً على أرمينية وبلاد الكرج والران سنة 42هـ/662م<sup>1</sup>، وكان غريغوار هذا مقيماً في دمشق منذ سنة 35هـ/655م تحت الوصاية الإسلامية، وكان على توافق تام مع العرب ومتحرراً تماماً من ضغط الروم ولم يكن لديه ما يخشاه منهم، وهكذا عرفت أرمينية في عهده تحت السيادة الإسلامية عشرين سنة من السلم والازدهار<sup>2</sup>، ويبدو أنّ التسليم بالسيادة الإسلامية طوعاً من طرف الأرمن كان نتيجة منطقية للتعصّب الديني الذي ميّز السياسة البيزنطية في فترة هيمنتها الأخيرة القصيرة نسبياً على أرمينية، والذي سبّب معاناة كبيرة لسكان المنطقة<sup>3</sup>.

ومع تفجّر الصراع حول الخلافة من جديد بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م استغلّ جستنيان الثاني Justinian II انسحاب القوّات العربية من أرمينية وانشغالها بحرب أهلية طويلة من أجل الحكم، فأرسل حملة لاسترجاع المنطقة مستفيداً من تقدّم حلفائه الخزر على حساب الحاميات الإسلامية المتواجدة هناك، وبالفعل تمكّن قائد الحملة الجنرال البيزنطي ليونتئوس Leontios في ظرف عدّة أشهر فقط من احتلال أرمينية والقضاء على الحامية العربية بها، وسيطر أيضاً على المنطقة الجبلية المحيطة بها (أذربيجان)، وهكذا تمكّنت بيزنطة من استرجاع أرمينية من جديد والاحتفاظ بها بشكل كامل أو جزئياً في الفترة بين 66-73هـ/686-693م<sup>4</sup>، واستقرّ جيش من ثلاثين ألف رجل بشكل خاص منذ سنة 70هـ/690م للدفاع عن الاقليم والحيلولة دون عودة العرب، الذين لم يتمكّنوا من إعادة فرض سيادتهم على أرمينية إلاّ مع نهاية القرن السابع ميلادي بعد أن تخلّص عبد الملك بن مروان من جميع منافسيه سنة 73هـ/693م<sup>5</sup>، وهي السنة التي عرفت تجددّ المواجهات بين المسلمين والبيزنطيين عند سياستوبوليس أين حقّق العرب في هذه الموقعة انتصاراً كبيراً على الجيش البيزنطي الذي قاده الإمبراطور جستنيان الثاني شخصياً<sup>6</sup>، ومثلت هذه المعركة تحوّلاً كبيراً في مجرى الأحداث بين الدولتين العظميين، وقد أدرك زعماء الأرمن حقيقة انقلاب الأوضاع لصالح المسلمين في المنطقة من جديد، لهذا بادروا بسياسة باجراتوني

<sup>1</sup> - فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص 67.

<sup>2</sup> - Laurent: L'Arménie entre Byzance et l'Islam, p 202.

<sup>3</sup> - Laurent: Ibid, p 200.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 507 / Laurent: Ibid, pp 191-202-203.

<sup>5</sup> - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 73.

Laurent: Ibid, p 203.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 270 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 194 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 55، ص 241.  
Theophanes: Op cit, p 511 / Elie Bar Sinaya: Op cit, p 94.

Sambat Bagratouni إلى العمل على ارجاع السيادة الإسلامية على أرمنية منقلبا على البيزنطيين حلفائه السابقين، ومقابل خدماته الكبيرة للمسلمين تم الاعتراف به أميراً على البلاد<sup>1</sup>.

وفي سنة 83هـ/702م انتفض الأرمن على الحكم العربي في بلادهم مرة أخرى فأرسل إليهم عبد الملك بن مروان أخيه محمد بن مروان فأوقع بهم هزائم كبيرة وقمع حركة التمرد ثم عقد معهم الصلح، ولتأكيد خضوعهم للسيادة الإسلامية واحكام السيطرة على أرمنية قام محمد بن مروان بتعيين أحد معاونيه واليا على البلاد، لكنّ الأرمن ما لبثوا أن غدروا به بعد ذلك بقليل فقتلوه<sup>2</sup>، وأبادوا الحامية الإسلامية هناك سنة 84هـ/703م وكتبوا الإمبراطور البيزنطي أبسيماروس Apsimaros لدعمهم من أجل استعادة أرمنية للسيادة البيزنطية<sup>3</sup>، فتصدى لهم محمد بن مروان من جديد وأخضع البلد واصطدم بجيش بيزنطي جاء لدعم تمرد الأرمن فأوقع به الهزيمة بمساعدة الأمير الأرمني سمباط ثم أمعن محمد بن مروان في الانتقام من المتمردين فأغرى الزعماء المخالفين واستدرجهم إلى منطقة خلط، فلما اجتمعوا في كنائسهم أغلقها عليهم وأحرقهم فيها، وهذه الحادثة الفظيعة اتفقت على حدوثها المصادر العربية المبكرة وأيضاً البيزنطية، فالبلادري مثلاً، وهو من المؤرخين الذين يتحرّون الحقيقة في نقل الأخبار والمادة التي يوردها على قدر كبير من المصداقية، يؤكّد على حقيقة هذه الحادثة لكنّه لا يعطي تاريخاً محدّداً لها وإنما يربطها بولاية محمد بن مروان على أرمنية<sup>4</sup>، بينما تجعل المصادر الأخرى هذه الحادثة سنة 84هـ/703م وتطلق عليها استناداً إلى هذه الواقعة "سنة الحريق"<sup>5</sup>، وهذا الأمر غير المسبوق الذي أقدم عليه محمد بن مروان يعكس حجم الغضب العربي من عدم استقامة زعماء الأرمن وتمردهم على السيادة الإسلامية كلّما سنحت لهم الفرصة، خاصة أنّ المصادر العربية تؤكّد على أنّ محمد بن مروان كان قد صالحهم وهو في موضع قوّة بعدما أخضع بلادهم، لكنّهم مباشرة بعد انسحابه عاودوا تمردهم وقتلوا عامله وخرجوا عن طاعة المسلمين. ويبدو أنّ الأوضاع لم تستقرّ تماماً في أرمنية بعد اخماد حركة التمرد ودحر الجيش البيزنطي، حيث نجد أنّ محمد بن مروان استمرّ في حملاته وعملياته العسكرية بالمنطقة هناك حتى سنة 87هـ/706م<sup>6</sup> لفرض السيادة الإسلامية ومواجهة ردود الفعل المحتملة من السكان المحليين.

<sup>1</sup> - عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 258.

Laurent: Op cit, p 204.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 289.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, pp 519-520.

<sup>4</sup> - البلادري: المصدر السابق، ص 240.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 289-290 / ابن أعثم، أبي محمد أحمد (ت 314هـ): كتاب الفتح تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط 1، 1991، ج 6، ص 352 / الذهبي: المصدر السابق، ج 6، ص 21.

Theophanes: Op cit, p 520.

<sup>6</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 55، ص 241.

لقد سببت حركة التمرد التي عرفتها أرمينية سنة 84هـ/703م ومكاتبهم الروم، تراجع ثقة المسلمين في الزعماء المحليين، خاصة أمير البلاد سمباط باجراتوني الذي رغم كل الخدمات التي قدمها لصالح العرب بات يُعتبر عنصرا خطيرا في نظرهم، وهكذا تم استدعائه مع عدد من الزعماء الأرمن إلى دمشق، وبعد عودته إلى أرمينية قرر سمباط تغيير ولائه، فتمرد على الحكم الأموي وأوقع بالحامية الإسلامية في أرمينية هزيمة منكرة بالقرب من نهر الرس سنة 84هـ/703م، وقُتل في المعركة أكثر من سبعة آلاف مسلم، ثم لجأ بعدها سمباط إلى البيزنطيين، خصومه السابقين، أين استقبله الإمبراطور بشكل ودّي وأنزله في توخارك Thoukhark من بلاد الكرج، وهي منطقة جيّدة لمراقبة الأوضاع في أرمينية من أجل التدخل في الوقت المناسب، وقد حانت هذه الفرصة أخيرا سنة 86هـ/705م عندما تمكن سمباط من التسلّل إلى أرمينية مع قوّات بيزنطية معتبرة لكنّ الحامية الإسلامية تصدّت له بحزم وألحقت به هزيمة كبيرة فاضطرّ إلى الانسحاب داخل بلاد الروم من جديد، فأنزله الإمبراطور هذه المرّة في مدينة بوتّي Poti على ضفاف البحر الأسود (بحر الخزر)<sup>1</sup>، لكنّه قام بنهب المدينة والالتجاء إلى العرب بعد ذلك بست سنوات، ومن العوامل التي دفعته إلى القيام بفعلته، سياسة الإمبراطور فيليببيكوس (711-713م) Philippikos الدينية، حيث حاول إجبار الأرمن على اعترافهم بالعقيدة الرسمية للإمبراطورية<sup>2</sup>، وهو ما استفزّ سمباط ودفعه للانقلاب على البيزنطيين من جديد والاحتماء بالمسلمين.

بعد هذه الاضطرابات استقرّت الأوضاع في أرمينية مؤقتا، حيث لا نجد أيّ تحرّك للروم من جديد حتّى سنة 102هـ/720-721م، أين يورد الطبري رواية عن حملة قادها والي الجزيرة عمر بن هبيرة على الروم بأرمينية في هذه السنة، بينما يشير ابن الأثير إلى غزو عمر بن هبيرة الروم ناحية أرمينية، وقد حققت حملته نجاحا معتبرا حيث أوقع الهزيمة بالقوّات البيزنطية التي واجهته وأسر حوالي سبعمائة فرد منهم<sup>3</sup>، من خلال كلا الروايتين على اختلافهما في تحديد مكان المواجهة، في أرمينية أو بالقرب منها، يمكن أن نستنتج أنّ الروم قد تحرّكوا في ذلك العام لاستهداف المنطقة، وهذا غير مستبعد تماما إذا تمّ وضع هذا الحدث في سياق الظروف التي كانت تعيشها الدولة الأموية في تلك الفترة بالذات، حيث شهدت انتكاسة كبيرة عند أسوار القسطنطينية قبل ذلك بقليل وكانت لا تزال في مرحلة استيعاب ذلك الفشل، وشهدت أيضا حركة تمرد قادها يزيد بن المهلب في العراق على الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملك بين 101-102هـ/720م ما تسبّب في تعطّل حملات الصوائف، بالإضافة إلى تصاعد تهديد الخزر الذي خيّم على أرمينية وأذربيجان لسنوات عديدة، ولو أنّ هذا الأخير في الحقيقة يظهر أنّه قد ساهم بشكل ما في تقبّل الحكم الإسلامي في

<sup>1</sup> - فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص 74.

Laurent: Op cit, p 205

<sup>2</sup> - Laurent: Ibid, p 205.

<sup>3</sup> - تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 616 / الكامل في التاريخ، مج 4، ص 354.

أرمينية مؤقتًا حيث تزايدت أهمية العرب بالنسبة للأرمن من أجل الدفاع المشترك عن البلاد بعد أن أدركوا استحالة مواجهة وصد الخزر بمفردهم بالاعتماد على امكانياتهم الذاتية فقط دون دعم عسكري فعال من طرف المسلمين، وهكذا ساهم تقاطع المصالح بين الطرفين في تأكيد السيادة الإسلامية على أرمينية. من خلال هذا السرد لأبرز تطورات الحكم الإسلامي في أرمينية يمكن ملاحظة أنّ هذه الجبهة قد استنزفت جهودًا عسكريًا مضمينًا من المسلمين، والمسؤولية الجزئية عن ذلك ترجع للاستراتيجية البيزنطية في المنطقة التي حاولت استغلال طموحات الأرمن السياسية من أجل زعزعة الحكم العربي في البلاد واشغال المسلمين بهذه المنطقة ومحاولة استقطاب مجهودهم العسكري إليها من أجل تخفيف الضغط عن مناطق آسيا الصغرى التي كانت تتعرض لحملات متكررة بشكل دوري ما أثر على الوضع العسكري والاقتصادي للإمبراطورية، وقد حققت هذه الاستراتيجية نجاحًا جزئيًا، ففي الفترة بين 73-86هـ/693-705م مثلاً كانت المسألة الأرمينية تحتلّ الصدارة في السياسة الخارجية للدولة الأموية، وعليه كانت كلّ الجهود العسكرية تقريبًا في تلك الفترة مقصورة حصراً على تأمين أرمينية<sup>1</sup>، والملاحظة البسيطة تظهر أنّ كلّ الحملات السنوية تقريباً على بلاد الروم منذ استئنافها سنة 73هـ/693م حتى سنة 81هـ/700م كانت تستهدف مناطق متفرقة على أطراف بند الأرمينياق مثل سبسطية، وأرمينية الرابعة، وخرشنة، وقليقلا، وطيلة عهد عبد الملك لم تصادف تقريباً حملة تطرق العمق البيزنطي باستثناء حملة سنة 78هـ/697م بقيادة يحيى بن الحكم بن أبي العاص التي ربّما تكون قد بلغت عمورية. وتزامن تركّز حملات الصوائف على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى خلال هذه الفترة مع القلاقل التي كانت تشهدها أرمينية له دلالاته.

ومن أجل إنجاح هذه الاستراتيجية نجد أنّ الروم قد حافظوا على علاقاتهم بالأرمن حتى بعد الفتح الإسلامي للبلاد، واستمرّ الأباطرة بمنح زعماء العائلات النافذة، خاصة عائلتي باجراتوني وماميكونيان، الألقاب التي كان يحملها من خدم بيزنطة من آباءهم بهدف استمالتهم والحفاظ على ولائهم، وقاموا كذلك باستقبال الأرمن المعارضين الفارين من الحكم العربي، خاصة منهم الزعماء المؤثرين، حيث كان الإمبراطور يمنحهم الاقطاعات ويقربهم ويقوم بتشريفهم، وهذا من أجل استغلالهم لاحقاً لتنفيذ السياسات البيزنطية في أرمينية وتوظيفهم لمناوئة العرب وكذا الزعماء الأرمن المواليين لهم، بهدف زعزعة الاستقرار في البلاد وإضعاف الحكم العربي بها، فبعد مقتل غريغور ماميكونيان الذي كان حليفاً وقيّاً للمسلمين سنة 66هـ/685م نجد أنّ بيزنطة لم تتوانَ في استثمار الخلافات الأرمينية لتقوية نفوذها بالمنطقة، فعمدت إلى

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, p 167.

دعم أمير من عائلة كمسراكان Kamsarakan في مواجهة أشوط باجراتوني Achot Bargratouni الموالي للعرب<sup>1</sup> لزيادة حظوظها في الهيمنة على البلاد عن طريق التيار الموالي لها هناك. وفي مواجهة الدسائس البيزنطية في أرمينية قامت سياسة المسلمين على إنزال حامية عسكرية تعمل على فرض النظام والدفاع عن الإقليم ضد أيّ تهديد داخلي أو خارجي، مع العمل على مضايقة بند الأرمنياق الذي يمثل قاعدة لكل تحرك بيزنطي نحو الشرق لاستهداف العرب<sup>2</sup>، وإسناد شؤون إدارة البلاد إلى شخصيات محلية موالية من الأسر النافذة تحت إشراف وال مسلم يسهر على استمرار السيادة الإسلامية على البلاد وهذا لتجنب إثارة المشاعر القومية عند الأرمن التي يمكن لبيزنطة استغلالها للتحرير على التمرّد ضدّ الحكم الإسلامي، كما أنّ الدولة الأموية عرفت كيف تستفيد بشكل جيد من الأخطاء البيزنطية في سياستها تجاه الأرمن خاصة في الجانب الديني، حيث كان يظهر الحكم الإسلامي أكثر تسامحاً في نظر السكان المحليين من السياسة الدينية البيزنطية<sup>3</sup> التي كانت تحاول إجبارهم على اعتناق المذهب الرسمي للإمبراطورية، كما عمدت الدولة الأموية أيضاً من أجل قطع الطريق أمام الإمبراطورية البيزنطية في أرمينية إلى إضعاف زعماء العائلات الاقطاعية المعارضة أو نفيهم من البلاد لتحقيق الاستقرار ودعم حكم الأمراء الأرمن الموالين للمسلمين<sup>4</sup>.

### 3- الخزر:

طبع الاحتكاك الأوّل بين المسلمين والخزر العلاقات بين الطرفين بالتوجّس والعداء، حيث كانت بلاد الخزر عرضة لهجمات المسلمين المبكّرة منذ عهد الخلفاء الراشدين عندما غزا عبد الرحمن بن ربيعة مدينة بلنجر سنة 22هـ/642م، وقد توالى بعدها حملات المسلمين دون أن تلقى مقاومة جدّية من طرف الخزر في البداية حتّى كانت هزيمة عبد الرحمن بن ربيعة الكبيرة أمامهم سنة 32هـ/52م عند بلنجر<sup>5</sup>، أين تكبّد المسلمون في هذه المعركة أربعة آلاف قتيل، بعدها ومع انشغال المسلمين بالاضطرابات الداخلية التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان استفاد الخزر من الوضع الطارئ في بلاد الإسلام وتمتّعوا بفترة سلام طويلة قاموا فيها بنقل عاصمتهم شمالاً إلى موقع أكثر أمناً وتحصيناً على ضفاف نهر الفولغا<sup>6</sup>. ومع بداية حكم عبد الملك بن مروان المضطربة كانت السيادة العربية على أرمينية والقوقاز قد ضعفت فاستغلّ الخزر هذا الوضع واجتاحوا المنطقة وقتلوا أميرها غريغوار ماميكونيان سنة 66هـ/685م،

<sup>1</sup> - Laurent: Op cit, pp 194-203-204-209.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 221.

<sup>3</sup> - Laurent: Op cit, p 33.

<sup>4</sup> - Laurent: Ibid, p 207.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 305-304-158.

<sup>6</sup> - د. م. دنلوب: تاريخ يهود الخزر، ترجمة وتقدم سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط 2، 1990، ص 84-92-93.

لكنهم رغم تفوقهم لم يحاولوا الاحتفاظ بمكتسباتهم الجديدة جنوب سلسلة جبال القوقاز وانسحبوا إلى مواقعهم السابقة<sup>1</sup>، وقد أشاعت حملة الخزر هذه الفوضى في المنطقة فتمرد الأمراء المحليون في أرمينية وأذربيجان، ولم يُنح للحكم العربي أن يستقر مرة أخرى في هذه المنطقة إلا بعد حملات عنيفة قادها محمد ابن مروان على أرمينية بين سنوات 82-88هـ/701-707م<sup>2</sup>، ثم مسلمة بن عبد الملك من بعده على أذربيجان بين سنوات 89-91هـ/708-710م<sup>3</sup>.

لكن الخزر ما لبثوا أن بدأوا تحركاً جديداً ضد أرمينية وأذربيجان سنة 99هـ/718م، فتصدى لهم واليها عبد العزيز بن حاتم الباهلي وألحق بهم خسائر كبيرة<sup>4</sup>، ويبدو أنّ الخزر قد تناهى إليهم خبر انتكاسة المسلمين عند أسوار القسطنطينية فأرادوا استغلال الفرصة لتحقيق مكاسب إقليمية في أرمينية وأذربيجان، ومن غير المستبعد أيضاً أن يكون هذا الهجوم قد تمّ بتحريض من الإمبراطورية البيزنطية لوضع الدولة الأموية تحت الضغط وتوجيه اهتمامها نحو الخطر الخزري، وبالتالي عدم إرسال مزيد من الدعم إلى الجيش المحاصر للقسطنطينية، وما يمكن أن يدعم هذا الاستنتاج أكثر هو قيام الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري بخطوة مماثلة في تلك الفترة بالذات من صراعه مع الدولة الأموية عندما تحالف مع البلغار (البرجان في المصادر العربية) وقام بتحريضهم لشن هجمات ضد الجيش الإسلامي المحاصر للقسطنطينية سنة 98هـ/717م<sup>5</sup>، لكن ما هو مؤكّد أنّ المسلمين باتوا يشكّلون عدوّاً مشتركاً للطرفين، وأنّ أهمية الخزر بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أضحت كبيرة بل وضرورة استراتيجية، وهكذا سيصبح التقارب بين الطرفين جلياً أكثر مستقبلاً.

سنجد بعد ذلك أنّ خطر الخزر سيتفاقم بشكل خطير جداً، فبدأوا ربّما بتحريض من الإمبراطور البيزنطي حرباً ضدّ العرب في أرمينية، حيث تمكّن جيش من ثلاثين ألف مقاتل من إلحاق هزيمة قاسية بالمسلمين تحت قيادة معلق بن صفار البهراني (أو ثبيت النهراي عند ابن الأثير الذي يؤرّخ الواقعة بسنة 104هـ/723م) وذلك في رمضان سنة 103هـ/مارس 722م<sup>6</sup>، وقد تسببت هذه الخسارة في عزل قائد الحملة وتعويضه بالجراح بن عبد الله الحكمي الذي أسندت إليه ولاية أرمينية وأذربيجان وتمّ امداده بقوّات كبيرة لإيقاف خطر الخزر، فسار إليهم في أكثر من ثلاثين ألفاً وأوقع بهم هزائم في مواضع متفرقة ودخل بلادهم وفتح بلنجر في ربيع الأول سنة 104هـ/أوت 722م بعد دفاع مستعيت من طرف الخزر<sup>7</sup>. ثمّ

1 - دنلوب: المرجع السابق، ص 97.

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 288 وما بعدها / البلاذري: المصدر السابق، ص 240.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 441-454.

4 - خليفة: المصدر السابق، ص 316 / الذهبي: المصدر السابق، ج 6، ص 272.

5 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 532 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 22، ص 442-443.

6 - خليفة: المصدر السابق، ص 328 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 360-361 / دنلوب: المرجع السابق، ص 100.

Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 350.

7 - خليفة: المصدر نفسه، ص 329 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 362 / دنلوب: المرجع نفسه، ص 103-104.



توالت حملات الجراح ضدّ الخزر ومنطقة القوقاز بعد هذا الإنجاز الكبير في الفترة بين 105-106 هـ/723-724م فأخضع فيها شعب اللان على مشارف بلاد الخزر وثبتت السيادة الإسلامية هناك<sup>1</sup>، لكن يبدو أنّ انتصارات المسلمين بقيادة الجراح لم تستطع تحييد خطر الخزر تماماً ولا تحطيم قوّتهم، حيث نجدهم يستهدفون أذربيجان من جديد سنة 108 هـ/726م، فأتاها مسلمة بن عبد الملك وأقام شتاء سنة 109 هـ/727م بها، ومنها زحف على الخزر في السنة الموالية فالتقى بجيش لهم قرب مدينة الباب فهزمه في جمادى الآخرة سنة 110 هـ/سبتمبر 728م في ظروف مناخية صعبة<sup>2</sup>، وفي السنة الموالية (عام 111 هـ/729م) دخلت أعداد كبيرة من جيوش الخزر أرمينية وحاصروا مدينة أربيل في أذربيجان، فخرج إليهم والي أرمينية الجراح بن عبد الله بمن معه من جند الشام وأذربيجان فانهمز المسلمون وقُتل قائدهم الجراح في رمضان سنة 112 هـ/نوفمبر 730م، وكانت هذه الهزيمة أكبر انتكاسة واجهها المسلمون في حروبهم مع الخزر على الإطلاق حيث بلغت خسائرهم فيها بالآلاف، وهو أمر غير مسبوق، وقد قدّر المنبجي قتلى المسلمين في هذه المواجهة بعشرين ألف رجل وضعف هذا العدد من الأسرى<sup>3</sup>، وإن كانت الأرقام التي توردها هذه الرواية مبالغ فيها إلا أنّ خسائر المسلمين كانت بكل تأكيد مرتفعة فحتى المصادر العربية تعترف بأن الخزر أسروا آلاف المسلمين في هذه المواجهة<sup>4</sup>، وعليه يقرّر المؤرّخ الإنجليزي دوغلاس دنلوب D. Dunlop أنّ هذه المواجهة كانت أكبر هزيمة تلقاها العرب على يد الخزر، ويُرجع أسبابها إلى التفوّق العددي للخزر من جهة، والخطأ الذي وقع فيه قائد الجيش الإسلامي الجراح بن عبد الله الحكمي من جهة أخرى، حين قرّر مواجهة قوّات الخزر الأكبر عدداً في سهل مفتوح<sup>5</sup>. وبعد هذا الانتصار الساحق استولى الخزر على أربيل ثمّ واصلوا تقدّمهم فغلبوا على أذربيجان وانتشرت سراياهم حتى كادت تُشرف على الموصل<sup>6</sup>، وأمام هذا التهديد غير المسبوق من طرف الخزر اتخذ هشام بن عبد الملك قراراً بتعيين أخيه مسلمة والياً على أرمينية من جديد، وعجّل بإرسال قائد من أشهر فرسان العرب، هو سعيد بن عمرو الحرشي، مع ما تمّ تجميعه من قوّات بشكل سريع لإيقاف تقدّم الخزر في انتظار أن يُتمّ مسلمة الاستعداد الجيّد والالتحاق بجهة القتال في ظروف مواتية، وقد تمكّن سعيد بن عمرو من تحقيق مكاسب جيّدة في مواجهة الخزر في مناطق متفرّقة من أذربيجان أين كانوا ما زالوا يشنون الغارات ويُشيعون

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 490.

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 331-336 / الذهبي: المصدر السابق، ج 7، ص 15.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 338-339-340 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 58، ص 39.

<sup>3</sup> - Agapius: Op cit, Partie 2, p 246.

<sup>4</sup> - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 393-394.

<sup>5</sup> - دنلوب: المرجع السابق، ص 109-110.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 341-342 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 393 / الذهبي: المصدر السابق، ج 7، ص

القتل والنهب<sup>1</sup>، وبعد وصول مسلمة كان ضغط الخزر على أذربيجان قد تلاشى تقريبا فبادر إلى مدينة الباب، التي كانت تحت سيطرة الخزر الذين أبقوا فيها حامية من ألف رجل، ففتحها ودخل قلعتها بعد حصار قصير<sup>2</sup>، ثم خلف عليها الحارث بن عمرو الطائي على رأس قوة معتبرة من الجند لإعادة ترميم المدينة وتحصينها<sup>3</sup>، وبدأ الزحف على معقل الخزر سنة 113هـ/731م فتوغّل في بلادهم حتى بلغ ما وراء بلنجر لكنّه اصطدم بمقاومة عنيفة اضطرتّه إلى الانسحاب والتراجع إلى مدينة الباب (دريند)<sup>4</sup>، ولتأمين هذه المدينة والمنطقة بشكل عام نهائيا في مواجهة هجمات الخزر المتكررة عمد مسلمة بن عبد الملك إلى تحويل المدينة إلى مركز عسكري رئيسي للقوات الإسلامية في المنطقة وذلك من خلال توطين أربعة وعشرين ألف من أهل الشام فيها وتسجيلهم في ديوان العطاء<sup>5</sup>.

وفي هذه الفترة الحرجة من الصراع الإسلامي الخزري، قام الإمبراطور ليو الثالث بخطوة كبيرة لتعزيز تحالفه مع الخزر ضد عدوّهم المشترك، وهذا من خلال تزويج ابنه ووريثه في العرش قسطنطين من ابنة خاقان الخزر التي تمّ تسميتها تحت اسم إيرين Irene<sup>6</sup>، وقد توجت هذه الخطوة التقارب المتزايد بين الطرفين منذ حصار القسطنطينية الأخير وربما يعتبر هذا في حدّ ذاته تأكيدا على الدور الحقي لبيزنطة في تحريض الخزر ضدّ المسلمين، لكن ما هو ثابت أنّ الإمبراطور استطاع من خلال هذا الزواج السياسي أن يوثق العلاقات مع خاقان الخزر بشكل متين ويؤمن بذلك حليفا قويا إلى صفّ الروم في مواجهة الدولة الأموية.

ورغم كلّ ما أنجزه مسلمة يبدو أنّه لم يقدّم بما يكفي لردع الخزر، إذ نجد رواية في بعض المصادر العربية تشير إلى أنّ مروان بن محمد الذي شهد مع مسلمة القتال ضدّ هذا الخصم العنيد في القوقاز وأبلى بلاء حسنا، كان مستاء من النتائج التي حققتها الحملة وانتقد سياسة مسلمة الذي لم يتوغّل في بلاد العدو بما يكفي، حيث لم يُصب منها إلا أطرافها ولم تكن له في العدو نكاية حسب رأيه<sup>7</sup>، ومن المؤكّد أنّ المسلمين لم يخفّ عنهم الوضع المستجّد الخطير الذي نتج عن التقارب الحاصل بين الروم والخزر من

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 343 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 246-247-248 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 111-112 / دنلوب: المرجع السابق، ص 112-115.

2 - البلاذري: المصدر السابق، ص 242.

3 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 38.

4 - خليفة: المصدر السابق، ص 344 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 88 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 403 / دنلوب: المرجع السابق، ص 119-120.

Theophanes: Op cit, p 563.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 242.

6 - Theophanes: Op cit, p 567 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 247 / Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 354.

7 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 57، ص 324 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 406.

خلال علاقة المصاهرة التي جمعت الإمبراطور ليو الثالث بالخاقان، وعليه تقرّر التحضير لحملة جديدة أكثر جدية وقوة ضدّ الخزر لتحديد خطرهم على المسلمين نهائياً ومنع الروم من الاستفادة من هذا الحليف الإقليمي الخطير للتحرش بالمسلمين، وتمّ تكليف مروان بن محمد بقيادة هذه الحملة المصرية وأسندت إليه إمارة الجزيرة وأرمينية وأذربيجان مستهلّ سنة 114هـ/732م، أو بعد ذلك بسنتين، عام 116هـ/734م، حسب رواية البلاذري<sup>1</sup>.

ويبدو أنّ مروان بن محمد لم يُتّح له إتمام استعداداته الكاملة لغزو الخزر قبل عام 119هـ/737م، السنة التي قاد فيها حملة ضخمة اكتسحت بلاد اللان وبلنجر وسمندر، وبلغت جيوشه عاصمة الخزر التي تعرف بالبيضاء في المصادر العربية، وانتهت الحملة بانتصار مظفر لمروان بن محمد وقبول خاقان الخزر الدخول في الإسلام<sup>2</sup>، وبعد عودته من حرب الخزر تفرّغ مروان بن محمد لإحضار شعوب القوقاز، حيث قاد في سنة 121هـ/739م حملة كبرى ضدّ ممالك وامارت المنطقة<sup>3</sup>، وتذكر الحولية الكرجية أنّ مروان قام في حملته هذه بتدمير أغلب مدن وقلاع بلدان القوقاز<sup>4</sup>.

ومن خلال العرض السابق يمكن أن نرى بشكل جلي أنّ مصلحة الروم كانت قائمة في إذكاء الصراع الإسلامي الخزري، وكان هدف البيزنطيين من وراء تحريض الخزر ضدّ المراكز الإسلامية في أرمينية وأذربيجان هو استقطاب النشاط العسكري الأموي من آسيا الصغرى إلى مناطق أخرى<sup>5</sup>.

فعلا لقد ساهم الخزر في تشتيت جهود المسلمين بشكل متزايد، فقد استحوذت هذه الجبهة على اهتمام الخلفاء واستنزفت جهدا عسكريا كبيرا خاصة في الفترة بين فشل حصار القسطنطينية وتاريخ اجتياح المسلمين لبلاد الخزر سنة 119هـ/737م أين تمّ تحييد خطرهم بشكل نهائي، ففي هذه الفترة كانت الأخبار متواترة عن إرسال جيوش بأعداد كبيرة لمواجهة تحركات الخزر يقودها أكفأ القادة العسكريين في الدولة الأموية مثل الجراح بن عبد الله، ومسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد، لكن هل أثار الوضع في جبهة القوقاز على سيرورة الحملات السنوية ضدّ بلاد الروم؟ نستطيع أن نلاحظ بوضوح أنّ ظهور تهديد الخزر بشكل فعلي على ممتلكات الخلافة في أرمينية وأذربيجان كان في عهد يزيد بن عبد الملك 101-105هـ/719-724م أين نجد في نفس الفترة أنّ وتيرة الصوائف قد تراجعت وانحسرت لتصبح ذات

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 242 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 57، ص 324-325 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 406.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 349 / البلاذري: المصدر نفسه، ص 243 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 57، ص 323 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 433 / الذهبي: المصدر السابق، ج 7، ص 316.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 351-352 / البلاذري: المصدر نفسه، ص 243-244 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 57، ص 324-323.

<sup>4</sup> - فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص 78.

<sup>5</sup> - عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 11.

طابع جهوي وتشمل المناطق القريبة من الثغور في قبادوقيا ونتائجها كانت متواضعة عموما مقارنة بالفترة السابقة، والحقيقة أنه حتى وإن كان فشل حصار القسطنطينية سنة 99هـ/718م، وتمرد يزيد بن المهلب سنة 101هـ/720م قد لعبا دورا في تراجع فعالية حملات الصوائف إلا أن تأثير الخزر يبدو واضحا أيضا، ولن تسترجع حملات الصوائف حيويّتها إلا مع حلول سنة 107هـ/726م أين تمكّن مسلمة من فتح قيصرية، وقد تزامن ذلك مع تراجع خطر الخزر تحت ضربات الجراح بن عبد الله بين 104-106هـ/722-724م، وعندما شنّ الخزر هجومهم الكبير الذي أدّى إلى استيلائهم على أذربيجان سنة 112هـ/730م نجد أنّ السنة الموالية لم تشهد أي نشاط عسكري إسلامي في بلاد الروم واكتفى معاوية ابن هشام الذي قاد حملة الصائفة تلك السنة بالتمركز ناحية مرعش دون أن يتوغّل داخل الأراضي البيزنطية<sup>1</sup>، وهذا ربّما يرجع لانشغال الدولة الأموية بالاستعداد للردّ على الخزر وطردهم أكثر من اهتمامها بالاستمرار في إرسال الحملات على آسيا الصغرى، وبعد التخلّص من خطر الخزر نهائيا سنة 119هـ/737م إثر العمل العسكري الكبير الذي أنجزه مروان بن محمد لم يكن من المستغرب أن نرى بعد ذلك حملة إسلامية هي الأكبر التي تستهدف بلاد الروم منذ الانتكاسة عند أسوار القسطنطينية، وذلك عندما قاد سليمان حملة "أكروينون" (أقرن) سنة 122هـ/739م بجيش قوامه تسعين ألف رجل حسب المصادر البيزنطية<sup>2</sup>، ومع أنّ الرقم يبدو مبالغاً فيه كثيرا لكن إرسال الدولة الأموية لحملة تضمّ عشرات الآلاف يثبت أنّها قد وجدت نفسها أخيرا في وضع مريح بما فيه الكفاية لتركّز قوّاتها ومجهودها العسكري على آسيا الصغرى من جديد، وهكذا يمكن أن نصل إلى نتيجة منطقية حول تأثير الخطر الخزري على سيرورة وفعالية حملات الصوائف على جبهة الروم الذي كان قائما، وأنّ الإمبراطورية البيزنطية كانت المستفيد الأكبر من هذا الوضع دون شك.

في نهاية هذا المبحث نلاحظ أنّ الإمبراطورية البيزنطية قامت في حدود امكانيّاتها بتوظيف استراتيجيات متنوّعة من أجل التصدّي لحملات المسلمين الموسمية التي كانت تستهدفها سنويّا تقريبا، حيث شرعت في إصلاحات عسكرية وإدارية في إطار نظام الثيمات الذي سمح لها باستغلال أفضل لمقدّراتها العسكرية والبشرية من خلال توزيع قوّاتها على المناطق المهذّدة من طرف المسلمين في آسيا الصغرى ما حقّق لها أكبر تغطية أمنية ممكنة، كما عمدت إلى تغيير عقيدتها العسكرية من خلال تبني سياسة الدفاع وتجنّب المواجهة المباشرة إلا عند الضرورة مع التركيز على أسلوب حرب العصابات لتفادي تسجيل خسائر كبيرة في صفوف قوّاتها محدودة العدد والامكانيّات، بالإضافة إلى هذا، وادراكا منها باختلال موازين القوة بينها وبين الدولة الأموية، حاولت بيزنطة تكوين شبكة واسعة من التحالفات الإقليمية لإشغال المسلمين

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 260 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 88.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 571.

بصراعات جانبية واستقطاب مجهودهم الحربي بعيدا عن أراضيها في آسيا الصغرى ما أتاح لها في بعض الفترات تخفيف الضغط عليها، ومنحها الوقت الكافي لتعزيز احتياجاتها الأمنية والحفاظ على مواردها، ويمكن أن نؤكد أنّ هذه الاستراتيجية قد أعطت نتائج مقبولة عموما في ظلّ الظروف التي كانت تمرّ بها بيزنطة التي استطاعت في النهاية، رغم فارق الإمكانيات بينها وبين الدولة الأموية، أن تستوعب ضغط المسلمين المستمرّ عليها وتحافظ على وجودها واستمرارها.

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الثاني: الإجراءات المرتبطة بالصوائف والشواتي

المبحث الأول: دوافعها وأهدافها

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة فيها

المبحث الثالث: اعداد وسيورة الحملات

## المبحث الأول: دوافعها وأهدافها

يحتلّ هذا العنصر من البحث جانباً على قدر كبير من الأهمية في موضوعنا، ذلك أنّ الإصرار على قتال الروم أكثر من الأمم الأخرى الذي داوم عليه المسلمون لعقود طويلة يبعث على الاستفهام، رغم أنّ مكاسبهم الإقليمية والاقتصادية على هذه الجبهة لم ترقى أبداً إلى ما كانوا يحقّقونه في غيرها من الجبهات، وتسليط الضوء على دوافع وأهداف هذا الجهد العسكري وتحليلها سيساهم من دون شكّ في فهم أعمق لهذه الظاهرة.

يمتدّ تاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيين على مساحة زمنية أكبر ممّا يغطيه موضوعنا قيد الدراسة، ومنذ ظهور نظام الحملات العسكرية الموسمية التي تعرف بالصوائف والشواتي في العهد الراشدي حتّى نهاية الدولة الأموية كانت دوافع هذا النشاط العسكري وأهدافه متعدّدة، كما أنّ ترتيب أوليّات هذه الدوافع والأهداف كان يختلف حسب ظروف المرحلة التاريخية وخصوصياتها، وتخضع لتأثير الأوضاع المحليّة داخل الدولتين والأوضاع المحيطة بهما كذلك، وكثيراً ما تتداخل وتتماهى الدوافع والأهداف مع بعضها حتّى يصعب على الباحث التفريق أو الفصل بينهما، لهذا يجب أن نكون أكثر دقّة عند التعرّض لهذه النقطة المحورية ونحرص على أن نميّز بين الدوافع والأهداف المحليّة التي تخضع لحسابات ظرفية، وتلك العامة التي تعكس الاستراتيجية بعيدة المدى للدولة الإسلامية.

### أولاً- دوافع حملات الصوائف والشواتي:

كانت دوافع هذا العمل العسكري الموسمي، الذي تمّ التأسيس له وإطلاقه في العهد الراشدي واستمرّ نشيطاً بعد ذلك في عهد الدولة الأموية، متعدّدة وتتأثر بالظروف التي كانت تميّز كل مرحلة فتختلف الأولويّة تبعاً لذلك، ويمكن حصر هذه الدوافع عموماً في الجوانب الأمنية، والأيدولوجية، والاقتصادية، والتي سنعمل على تحليل كل جانب منها على حدى في العنصر الموالي.

### 1- الدوافع العسكرية الأمنية:

كان الدافع الأمني يبدو دائماً هو العامل الأقوى والحفّز المباشر لحملات الصوائف والشواتي، ففي بداياتها عند إطلاقها كانت الدوافع الأمنية لهذه الحملات تفسّر بكل سهولة العوامل الكامنة وراء إطلاق هذا النشاط الذي تمّ استحداثه واعتماده أساساً من طرف الخليفة عمر بن الخطاب بالتشاور مع قادته العسكريين في الشام خلال اجتماع الجايبة لمواجهة التهديد البيزنطي في المنطقة، إذ حتّى مع النصر الحاسم الذي حقّقه المسلمون ضدّ الروم في الشام إلاّ أنّهم بقوا مع ذلك يتخوّفون منهم ومن ردّة فعلهم، فهم قوم ذو عزم حديد وبأس شديد كما كان يقول عمر بن الخطاب<sup>1</sup>، الذي كان يردّد أيضاً: «والله لو ددت أنّ

<sup>1</sup> - عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا، ص 29.

الدرب جمره بيننا وبينهم، لنا ما دونه وللروم ما وراءه»<sup>1</sup>، وهذا القول يعبر بصورة واضحة عن هذه المخاوف الكامنة، ونجد لهذا التحوّف من عودة الروم للشام من جديد صدق في المصادر الإسلامية التي تنسب هنا قولاً للإمبراطور هرقل بعد انسحابه إلى آسيا الصغرى تحت وطأة هزائم جيوشه أمام المسلمين، يتوعّد فيه بالرجوع مجدّداً إلى سورية لاسترجاع ما ضيّع من ممتلكات إمبراطوريته في المنطقة<sup>2</sup>، ما كان ينذر بجولة جديدة من الصراع بين الطرفين، ولا يبدو أنّه كان يخفى على العرب قدرة البيزنطيين على ذلك، وأنهم كانوا يؤمنون بقدرة الروم على ردّ الفعل وتغيير مجرى الأحداث من جديد، فقد برهنوا على ذلك سابقاً عندما قاموا باسترجاع كل الأقاليم التي فقدوها في الشرق في مواجهة الفرس قبل موجة الفتوحات الإسلامية بسنوات قليلة فقط، وقد تأكّدت عند عمر بن الخطاب مطامع الروم في الشام وعزمهم على استرجاع مراكزهم التي كانوا فيها<sup>3</sup> وهو يشاهد حملتهم على شمال بلاد الشام سنة 17هـ/638م تستعيد أنطاكية مرّة أخرى لفترة وجيزة بل وهدّدوا حتى مراكز المسلمين في حمص<sup>4</sup>، وهكذا يظهر أنّ الخطر البيزنطي استمر قائماً فعلاً يهدّد المسلمين حتّى بعد استكمال فتح الشام ما دفع بهم إلى تبني استراتيجية فعّالة للحدّ من هذا الخطر لتحقيق الاحتياجات الأمنية الملحة لمراكزهم الجديدة المتاخمة لبلاد الروم، وقد كان المسلمون في تلك الفترة المبكّرة من إنشاء دولتهم، وفي ظلّ انشغالهم بالفتوحات في مناطق عديدة مع استمرار ضغط الروم عليهم ونقص خبرتهم في أساليب الدفاع الثابت، كانوا يفضّلون في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية استراتيجية الدفاع المتحرّك من خلال إرسال قوّات صغيرة العدد خفيفة الحركة تقوم بعمليات محدودة على الجانب الآخر من الحدود بين الدولتين لاستهداف وتدمير مواقع البيزنطيين ومراكز تجمّعاتهم خاصة العسكرية منها القريبة من الثغور لإفشال العدو واحباط معنوياته كما كان يرى القائد الأسطوري للفتوحات خالد بن الوليد<sup>5</sup>، وأيضاً اجبارهم على التراجع عن منطقة التماس في الحدود بغرض إنشاء منطقة عازلة بين الطرفين، وهكذا يتبيّن أن الدوافع الأولى الأكثر إلحاحاً التي أدّت إلى تبني العمل بنظام حملات الصوائف منذ البداية كانت أمنية دفاعية أساساً، ورغم أنّ حملات الصوائف والشواقي أخذت في الحقيقة طابعاً هجومياً إلا أنّها كانت في جوهرها اجراء وقائياً يهدف لإشغال وارهاق الفرق العسكرية البيزنطية بالدفاع المستمرّ، واستنزاف جهودها ومواردها حتّى لا تفكّر أو تُقدّم على تنفيذ عمليات عسكرية هجومية تستهدف بلاد المسلمين.

1 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 48.

2 - الطبري: المصدر السابق، ج 3، ص 603.

3 - الأزدي: فتوح الشام، ص 250.

4 - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 50 / أسد رستم: المرجع السابق، ج 1، ص 246.

5 - الواقدي: فتوح الشام، ج 2، ص 3.



وفي بداية عهد الدولة الأموية ظلّت الهواجس الأمنية دائما عاملا مؤثرا في قرار مؤسسها معاوية بن أبي سفيان استئناف الحملات الموسمية ضدّ العدو بعد ركود دام سنوات طويلة، ويمكن أن نتبيّن ذلك من خطاب لهذا الأخير قرب الكوفة (في موضع يُعرف بالنخيلة) بعد صلحه مع الحسن بن علي ومبايعته بالخلافة سنة 41هـ/661م يتحدّد فيه استراتيجية دولته في مواجهة منافسيها الإقليميين، حيث أعلن أنّ المسلمين لا يصلح بهم إلا أن يأتوا العدو في بلاده وإلا أتاهم هو<sup>1</sup>، إنّ هذا التفكير الاستراتيجي القائم على الهجوم لتحقيق أهداف دفاعية كان معروفا وموظّفا من قبل حتى من طرف البيزنطيين أنفسهم، خصوم المسلمين، إذ يُنسب إلى الإمبراطور البيزنطي جستين الثاني Justin II سنة 569م قولاً يؤكّد هذه السياسة حين عمد إلى صياغة هذا المبدأ على شكل قانون ينصّ على أنّه حتى لا تقوم أمة أجنبية بغزو أقاليم الإمبراطورية والاضرار بها، يجب علينا أن نسبّب لهم المشاكل بمهاجمتهم باستمرار<sup>2</sup>.

إنّ هذا التصريح من معاوية يحمل بين طياته تصورا استراتيجيا متقدّما وإدراكا عميقا للتحديات الأمنية التي يمكن للمسلمين أن يتعرّضوا لها في حال الانكفاء على أنفسهم والتخلّي عن روح المبادرة في مواجهة خصومهم، ويمكن أن نتصوّر هنا أنّ معاوية، وهو يعلن عن هذه الاستراتيجية، كان يضع الروم على رأس أولوياته لعدّة اعتبارات سياسية وعسكرية وخاصة جغرافية، حيث كان الروم يمثّلون الخصم الرئيسي للمسلمين حينها، ويتشاركون معهم حدودا طويلة، كما أنّ الشام التي تضمّ حاضرة الدولة الأموية (دمشق) كانت في اتصال مباشر مع أراضي الإمبراطورية، وبالتالي ضمن نطاق التهديد البيزنطي وعمليّاتهم العسكرية بزا وبجرا، ثمّ إنّ هذه الرؤية التي كان يحملها معاوية تجاه الصراع مع الروم والقناعة المترسّخة لديه في ذلك نابعة أساسا من تجربته الطويلة في التعامل مع البيزنطيين خلال ولايته الشام والجزيرة، وأيضا من الأحداث التي واكبت الفتنة الكبرى حين رأى معاوية كيف استغلّ الروم فترة ركود حملات الصوائف، بسبب الضعف والانقسام الذي مرّت به الدولة الإسلامية نتيجة الاقتتال الداخلي، لعكس الضّغط على المسلمين وتهديد بلاد الشام حتى اضطرّ معها إلى أن يصلحهم على مال يدفعه لهم مقابل السلام، وكان ذلك سابقة في تاريخ العلاقات بين الطرفين، حيث لم يسبق أن دفع المسلمون أو أيّ خليفة من قبل الاتاوة إلى الروم.

ولاحقا عندما انتقلت الخلافة إلى الفرع المرواني في الدولة الأموية، كان عبد الملك بن مروان يتشاطر نفس القناعة السابقة أيضا مع معاوية، حيث كان يرى أنّ عودة الروم للتحرشّ بالمسلمين من جديد وتجرؤهم عليهم وطمعهم في بلادهم لم يكن إلا نتيجة تراجع المسلمين عن السياسة الهجومية بعد انقطاع

<sup>1</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 3، ص 289.

<sup>2</sup> - وسام عبد العزيز فوج: بيزنطة، قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط 1، 2003، ص 14.

حملات الصوائف والشواتي وتركهم الغزو وتشاغلهم عن الجهاد<sup>1</sup>، وهذا يوضح أنّ العمليات العسكرية المستمرة ضدّ الروم كانت أساسا في تصور الخلفاء وسيلة لحماية أراضي الخلافة ضدّ تحرّشات البيزنطيين، وإجراء أمله الضرورة الأمنية بالدرجة الأولى، وتناسب بهذا حملات الصوائف والشواتي مع المبدأ القائل أنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

إنّ هذه القناعة التي كان يمتلكها عبد الملك لم تتشكّل تحت تأثير الإرث الذي خلّفه معاوية في الصراع مع بيزنطة فحسب، وإنّما تبلورت أيضا نتيجة تجربة خاصة وواقع عملي مرّ به المسلمون وعبد الملك شخصيا مع الروم، حيث عاشت الدولة الأموية في النصف الأول من خلافته تجربة مشابهة لتلك التي مرّت بها قبيل تأسيسها على يد معاوية بن أبي سفيان، حيث استغلّ الروم انشغال المسلمين بالصراع الداخلي وانقطاع حملاتهم ضدّ دولتهم لتهديد بلاد الشام من جديد، ما أجبر عبد الملك على طلب الصلح من الإمبراطور البيزنطي مقابل جزية سنوية معتبرة مقترديا بما فعله معاوية من قبل. وهكذا تأكّد للمسلمين أنّ التوقّف عن إرسال الحملات ضدّ الأراضي البيزنطية سيؤدّي حتما إلى فقدانهم للأمن في المناطق الحدودية وتعرّضهم لضغط قوّة خطيرة تتحقّن الفرص للتربّص بهم، لهذا كان الالتزام بحملات الصوائف والشواتي سمة مشتركة بين كل الخلفاء الذين جاءوا من بعد عبد الملك إلى غاية تفكّك الدولة في السنوات الأخيرة من وجودها نتيجة الصراع الداخلي على السلطة.

## 2- الدوافع الأيديولوجية والسياسية:

إنّ الاعتبارات العملية العسكرية البحتة لهذا الجهد الحربي السنوي الذي كانت تقوم به الخلافة ضدّ الروم، على أهميّتها وحيويّتها، بالكاد يمكنها أن تفسّر بشكل كليّ دوافع هذه الحملات، فرغم أنّ بعضها كان محدودا جدا في حالات كثيرة ولم تكن حاسمة أو ذات قيمة كبيرة من الناحية العسكرية، إلا أنّ المؤرخين المسلمين لا يغفلونها على كل حال وكانوا دائما حريصين على تدوينها في كتبهم بشكل سنوي، فمؤرخون كالطبري على سبيل المثال، غالبا ما يذكرون قائمة بأسماء قادة الحملات الصيفية كلّ عام جنبا إلى جنب مع اسم قائد موسم الحج وهذا له دلالته<sup>2</sup>، باعتباره عملا يفوق في بُعده وجوهره الجانب العسكري كما يظهر عليه، فلقد كانت حروب المسلمين ضدّ غيرهم من الشعوب والأمم دائما ما تفسّر بأنها جهاد في سبيل الله، وهذا المفهوم ارتبط ارتباطا عضويا بنشأة الإسلام دينا ودولة منذ ابتداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم حركة الجهاد ضدّ الكفّار في سبيل نشر الإسلام<sup>3</sup>، وقد تمسّك من جاء بعده بهذا الإرث لكن مع تصوّر أكثر شمولية، حيث توسّعت فكرة الجهاد إلى حدود لا متناهية مع حركة الفتوح

<sup>1</sup> - ابن أعثم: المصدر السابق، ج 7، ص 110 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 167.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 115.

<sup>3</sup> - بثينة بنت حسين: الدولة الأموية ومقوماتها الأيديولوجية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ط 1، ص 324.

الكبرى كما يقول هشام جعيط، والتي أطلقها وطوّرها أبا بكر وعمر بن الخطاب<sup>1</sup>، ثمّ جاء الدور على خلفاء الدولة الأموية بعد ذلك لكي يواصلوا هذا التقليد هم أيضا باعتبارهم قادة الأمة الإسلامية وحاملي لوائها، رغم أنّ الكثير من المؤرخين يشكّكون في الدوافع الدينية لحمالات الغزو في العهد الأموي حيث يعتقد البعض أنّ عمليّات الفتوح في هذه الفترة قد خضعت للتسييس وفقدت الكثير من وهجها وأفرغت من مضمونها الإنساني مقارنة بالعصر الأول من الإسلام<sup>2</sup>، وهذا الأمر يحتمل النقاش جزئيا ففيما يتعلّق بالعمليّات ضدّ بيزنطة مثلا نلاحظ أنّ الدولة الأموية بالكاد كانت تسعى إلى فرض سيادتها أو الاحتفاظ بالمناطق التي فتحتها داخل بلاد الروم، كما أنّها لم تبذل أيّ جهد يذكر لنشر الدعوة الإسلامية بين سكان الإمبراطورية في آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أنّ بعض الجوانب من استراتيجية منظومة الصوائف والشواطي، القائمة على التخريب والتدمير، وكذا التجاوزات التي كانت ترتكبها الحملات خلال عمليّاتها في آسيا الصغرى تتنافى مع قيم الإسلام وآداب الجهاد، وتعكس لنا المواقف التي اتخذها عمر بن عبد العزيز من الصراع مع مختلف الأمم، وبيزنطة بشكل خاص، بعد تولّيه الخلافة مدى التجاوزات وحجم الانحرافات التي كانت عليها غزوات المسلمين ضدّ الشعوب المجاورة، حيث كان يرى أنّها أضحت في معظمها غارات للسلب والنهب وليست جهادا لنشر الدعوة، والإجراءات التي اتخذها في هذا الشأن يمكن اعتبارها حركة تقويمية لمفهوم الجهاد الحقيقي من خلال الرجوع إلى الأصول الأولى لسياسة الفتح التي تركز على تخيير الخصم بين ثلاث خصال: الإسلام أو الجزية أو القتال<sup>3</sup> قبل اللّجوء إلى الحرب، وقد طبّق عمر بن عبد العزيز هذا المبدأ عمليّا في الصراع مع البيزنطيين، حيث كاتب عمّاله في الثغور يأمرهم بعدم قتال الروم حتّى يخيروهم بين الخصال الثلاث<sup>4</sup>، كما أنّه هو شخصيا قام بإرسال عبد الأعلى بن أبي عمرة مبعوثا إلى الإمبراطور ليو الثالث يدعوه إلى الإسلام<sup>5</sup>.

مع ذلك لا يصل بنا الأمر إلى التشكيك أو نفي الدوافع الدينية لعمليّات الغزو خاصة ضدّ البيزنطيين بالتحديد، سواء بالنسبة للقيادة السياسية (الخلفاء) أو حتّى بالنسبة للمقاتلين، فعلى الرغم من بعض الانحرافات التي شابّت عمليّات المسلمين ضدّ الروم، إلّا أنّها كانت تلقى مع ذلك صدى إيجابيا في

1 - هشام جعيط: الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 4، 2000، ص 43-46.

2 - إبراهيم بيضون: من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دراسة في تكوّن الاتجاهات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، ط 3، 1991، ص 148.

3 - غلا عبد العزيز أبو زيد: الدولة الأموية دولة الفتوحات 41-132هـ/661-750م، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، ط 1، 1996، ص 55.

4 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 348.

5 - المبرّد، أبي العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ): الكامل، حققه وعلّق عليه محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 3، 1997، ج 2، ص 637 / ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج (ت 597هـ): سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ضبط وشرح وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1984، ص 263.

أوساط المسلمين والفقهاء<sup>1</sup>، وحتى في كتابات المؤرخين الأوائل، باعتبارها جهادا في سبيل الله، وفي هذا الشأن يقول المؤرخ والفقير ابن كثير مثلا: «فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرّها وبحرها، وقد أذلّوا الكفر وأهله، وامتألت قلوب المشركين من المسلمين رعبا... ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية، وبني بها مسلمة جامعا يعبد الله فيه، وامتألت قلوب الفرنج منهم رعبا»<sup>2</sup>.

ويمكن التأكيد على تشبّع الخلفاء الأمويين بالدوافع الدينية في مواجهة الروم من خلال ممارساتهم العملية، حيث كانوا يحرصون كثيرا على إضفاء الصبغة الجهادية على المواجهات مع بيزنطة ويعملون على ترسيخ وتعميق روح الجهاد عند المقاتلين أيضا، ويحفّزون المشاركين في حملات الصوائف والشواتي بما وعد الله المجاهدين في سبيله، وأنّ قتال العدو حقّ من حقوق الله على عباده ونصرة لنبيه صلّى الله عليه وسلّم<sup>3</sup>، فعمر بن عبد العزيز مثلا الذي كان شديد الورع ويحرص على أن تكون قراراته متوافقة تماما مع أصول الاسلام لم يغيب عنه عندما وجّه جيشا لقتال الروم تذكيرهم بهذا المبدأ، وتحريضهم على قتال أعداء الله والتحلّي بالصبر، وأن يقدّموا ثواب الآخرة ولا يبتغوا من وراء جهادهم إلا ذلك<sup>4</sup>، وحتى لا تدنس رمزية العمل الجهادي الذي كانت تمثله الصوائف كان لا يقبل في صفوف الحملات من كانت سمعته سيئة مثل يزيد بن أبي مسلم، أحد أعوان الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث أمر الخليفة عندما علم بالتحاقه بالحملة برده من جيش الصائفة المتمركز بدابق مستنكفا أن يستعين المسلمون بمثله في قتال عدوهم<sup>5</sup>.

لم يكن قادة الحملات بدورهم أقلّ تشبعا وقناعة بإيديولوجية الجهاد، حيث كانوا يحضّون جندهم على الثبات في القتال من خلال توظيف الخطاب الديني وتبشيرهم بالجنة، وتذكيرهم بأنّ النصر من عند الله<sup>6</sup>، أو تحميسهم على القتال بإثارة غيرتهم على الاسلام وتحفيز مشاعرهم الدينية من أجل الثبات في المعركة وعدم التراجع في مواجهة العدو<sup>7</sup>، ولم يكن المقاتلون أيضا أقلّ حماسة وتشبعا بروح الجهاد حيث كانوا يتذكرون الأحاديث النبوية التي تُعدّد فضل الجهاد في سبيل الله، وما ينتظر المجاهدين من أجر وثواب

1 - من الفقهاء حتى من كان يشارك في حملات الصوائف بانتظام مثل فقيه أهل الشام مكحول الدمشقي (الشامي)، وفقه أهل الجزيرة ميمون بن مهران.

2 - ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء (ت 774هـ): البداية والنهاية، حقّقه محمد حسان عبيد، راجعه عبد القادر الأرنؤوط وبشار عواد معروف، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2، 2010، ج 9، ص 254.

3 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

4 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 8، ص 156.

5 - ابن الحوزي: المصدر السابق، ص 108.

6 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 445.

7 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 434 / ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 26، ص 444.

<sup>1</sup>، وكانوا يشجعون بعضهم بعضا على الثبات عند القتال في سبيل نيل الشهادة لبلوغ الثواب العظيم الذي ينشده كل مجاهد في سبيل الله <sup>2</sup>.

وبجانب الدوافع الدينية، كانت العوامل السياسية أيضا محفّزا قويا للاستمرار في قتال الروم خلال العهد الأموي، فمن بين كلّ الحروب المقدّسة التي أطلقها المسلمون ضدّ مختلف الأمم، كان القتال ضدّ البيزنطيين بشكل خاص له مكانة معتبرة، فهم بالإضافة إلى كونهم أصبحوا يمثلون العدو التقليدي للدولة الإسلامية، كانوا يُعتبرون أيضا القوة الوحيدة المجاورة للعالم الإسلامي التي تعتبر مكافئة، حيث كانت إمبراطورية الروم تمثل منافسا أيديولوجيا وسياسيا للخلافة، وهذا يعني أنّ الحملات ضدّ البيزنطيين كان لها أهمية خاصة بعكس العمليّات الحربية ضدّ الشعوب غير المتحضّرة أو الوثنية مثل الترك والبربر مثلا <sup>3</sup>، لهذا لم يكن من المستغرب أن يعتبر معاوية بن أبي سفيان دائما أن الحرب ضدّ البيزنطيين من أهم واجباته وأخطرها شأنًا <sup>4</sup>، ويفسّر باجوت جلوب Bagot Glubb إصرار معاوية على حرب الروم طيلة مدّة خلافته التي امتدّت لحوالي عشرين سنة برغبته في تنفيذ ما كان يحيط بسمعته الدينية من شكوك <sup>5</sup>، وحتى إن كان هذا التفسير لا يُعتدّ به أبدا إلا أنّه يعكس مع ذلك القيمة السياسية للجهاد ضدّ الروم بالنسبة لخليفة المسلمين لإضفاء الشرعية على حكمه، حيث كانت الحملات تقليدا مهمّا ووسيلة فعّالة للدعاية على المستوى الداخلي، فالبيزنطيون كانوا الأعداء التقليديين للإسلام وكلّ من يريد أن ينصّب نفسه قائدا على الأمة الإسلامية يجب عليه أن يقود حربا ضدّهم، سواء بنفسه شخصا أو عن طريق قائد ينوب عنه <sup>6</sup>، فمعاوية بن أبي سفيان مثلا قاد بنفسه العديد من الحملات ضدّ البيزنطيين في فترة ولايته على الشام والجزيرة خلال العهد الراشدي، وربما كان في ذلك مدفوعا جزئيا بطموحه السياسي والسلطوي، حيث كانت تُتيح له قيادة الحملات بنفسه تثبيت مركزه كقائد عسكري كفاء قادر على النهوض بأعباء الحكم وحماية الدولة، بالإضافة إلى تمكينه من بناء علاقة شخصية متينة مع قادة ومقاتلي القبائل الشامية الذين ساعدوه لاحقا في صراعه مع علي بن أبي طالب من أجل الخلافة، وفي فترة خلافته أرسل معاوية بدوره ابنه يزيد مع أحد كبار الصحابة -أبو أيوب الأنصاري- في حملة استهدفت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين بالذات في إطار ترتيبات تحضيره لتوليّ مسؤولية الخلافة من بعده، وهذا التقليد استمرّ لاحقا بصورة أكبر وأكثر شمولًا في العهد مرواني، عندما احتكر تقريبا إخوة وأبناء الخلفاء قيادة الحملات السنوية ضدّ الروم،

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 467.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 88 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 37، ص 309.

<sup>3</sup> - J. F. Haldon, H. Kennedy: Op cit, p 106.

<sup>4</sup> - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1968، ص 125.

<sup>5</sup> - جون باجوت جلوب: الفتوحات العربية الكبرى، تعريب وتعليق خيرى حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، ص 527.

<sup>6</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 115.

وسار سليمان بن عبد الملك وهو خليفة بالجيوش الإسلامية حتى دابق ومنها أطلق أكبر محاولة لفتح القسطنطينية في العهد الأموي، ورافقه عمر بن عبد العزيز الذي كان يعدّ ذلك رباطا<sup>1</sup>، وقاد هشام بن عبد الملك بنفسه أيضا حملة لصدّ الروم عند ملطية متقلدا سيفا، وكان هذا هو العمل العسكري الوحيد الذي اضطلع به هذا الخليفة في حياته حيث لم يتقلّد قبلها سيفا أبدا<sup>2</sup>، وهكذا يتّضح أنّ الجهاد ضدّ الروم إذاً كان واجبا رسميا وضروريا لا بدّ أن يضطلع به الخلفاء وينهضوا بأعبائه دون تقصير، هؤلاء الخلفاء الذين كانت تُوجب عليهم طبيعة مهام ومسؤوليات الخلافة على كل حال ألاّ يكفّوا عن جهاد الكفّار، وعليهم أن يسوّغوا لدى رعاياهم أحقيّتهم بأن يكونوا خلفاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما يقدمون من بلاء في سبيل نشر الدين<sup>3</sup>، حتى أنّ الفقهاء ومن دَوّن في النظم الإسلامية لاحقا، جعلوا الدفاع عن بلاد الإسلام وجهاد العدو من شروط القيام بأعباء الخلافة، ومن الواجبات الملزمة للخليفة في ولايته<sup>4</sup>، وقد حفظت لنا المصادر خطبة الوليد بعد فراغه من دفن أبيه عبد الملك بن مروان ينعيه فيها، ومن جملة ما عدّد من أعماله الصالحة أنّه كان حريصا على النهوض بأعباء ما تقتضيه الخلافة من إقامة الحج وغزو الثغور ومحاربة أعداء الله<sup>5</sup>، وهذا في حدّ ذاته يمكن أن يفسّر القيمة السياسية والايديولوجية للحملات ضدّ البيزنطيين عند الخلفاء والتي كانت تعتبر عملا عسكريا ذو قيمة سياسية وتُعدّ ديني، يمكن أن يمثّل في فضله وشرفه حتى قيادة الموسم لأداء طقوس الحج، والتي بدورها كثيرا ما كانت تُسند لأفراد من البيت الأموي أيضا.

وليس من المستبعد أنّ الخلفاء الأمويين كانوا مدفوعين أيضا من خلال توظيف ايديولوجيا الجهاد في مواجهة الروم بالتغطية على ضعف شرعيتهم السياسية والتحقّظات المرتبطة بظروف وطريقة وصولهم إلى السلطة وكيفية ممارستهم لها، من أجل تعويضها بالشرعية الدينية باعتبارهم حاملّي لواء الجهاد ضدّ مختلف أمم الكفر وتسويق أنفسهم في صورة المدافعين عن الإسلام، لهذا نجد أنّ الحرب ضدّ الروم كانت أولويّة الخلفاء ومقدّمة على غيرهم من الأمم، فقد كان معاوية يعتبرها دائما من أهم واجباته وأخطرها شأنها كما سبق وذكرنا، حتى أنّ المصادر تذكر عن هذا الخليفة وهو في آخر أيام حياته تأكيده واصراره على من يأتي بعده على ضرورة مواصلة الضغط على بيزنطة حين أوصى قبل وفاته: «أن شدّوا خناق الروم، فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم»<sup>6</sup>، ولاحقا يذكر اليعقوبي أنّ أول ما قام به الوليد بن عبد الملك بعد

1 - ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج 1، ص 46.

2 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 221.

3 - هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة احسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1979، ص 64.

4 - الماوردي، أبي الحسن علي (ت 450هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ط 1، 1989، ص 5-22.

5 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 423.

6 - خليفة: المصدر السابق، ص 230 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 59، ص 159.

دوافعها وأهدافها .....

استلامه السلطة عقب وفاة أبيه، هو تعيين أخيه مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش لغزو الروم وذلك مباشرة بعدما فرغ من أول خطبة له كخليفة<sup>1</sup>، وهذا الاجراء الاستفاحي الذي اتّخذة الوليد عند مباشرة أعباء الخلافة يعكس بشكل واضح حجم ومكانة وأولوية الجهاد ضدّ البيزنطيين بالنسبة للخلفاء الأمويين.

### 3- الدوافع الاقتصادية:

لقد اهتمّ عدد من المؤرخين، وبشكل خاص المستشرقون منهم، كثيرا بالدوافع الاقتصادية لحركة الفتوح الإسلامية وتناولوها بالدراسة وكتبوا فيها العديد من الأعمال في محاولة لتفسير عمليات التوسع والانسيح العربي خارج شبه الجزيرة العربية، مثل كارل بيكر Carl Becker، وليون كايثاني Leon Caetani، وبرنار لويس Bernard lewis، ولانمس Lamens، وسبرنجر Sprenger، وغيرهم<sup>2</sup>، وهذا التفسير حتّى إن كان منطقيا إلى حدّ ما ويمكن له أن يفسّر بشكل جزئي دوافع الفتوحات في بعض الحالات إلّا أنّه لا يعكس كلّ الحقيقة فيما يخص مسرح العمليّات على الجبهة البيزنطية بالذات أين يجب أن نفرّق هنا بين الدوافع المادية للدولة في حروبها ضدّ البيزنطيين وحاجة السلطة فيها لمراعاة المصالح الاقتصادية للقبائل الشامية التي تعتمد عليها في فرض سلطانها، حيث سنعمل في هذا العنصر على تقييم الدوافع الاقتصادية لعمليّات الصوائف والشوائب بالنسبة للطرفين.

يبدو من خلال النظرة الفاحصة أنّ الدوافع الاقتصادية للحروب ضدّ الروم كعامل محمّز بالنسبة للدولة الأموية وسياستها تجاه هذا الخصم كانت ضعيفة وغير كافية لتبرير هذا النشاط العسكري، وذلك لعدة اعتبارات:

أولها أنّ حملات الصوائف والشوائب كانت استراتيجية دفاعية في جوهرها وأهدافها حتّى وإن أخذت الطابع الهجومي في شكلها، بينما يقتضي المحمّز الاقتصادي للغزو أن تكون طبيعة الحملات عكس ذلك أي هجومية وليست دفاعية، شكلا ومضمونا من أجل السيطرة على موارد الخصم والتحكّم فيها واستغلالها.

والاعتبار الثاني الأكثر أهميّة الذي يجب أن نشير إليه هنا هو وضعيّة الدولة الإسلامية اقتصاديا وماليا، سواء في العهد الراشدي عندما تمّ استحداث واطلاق هذا النشاط العسكري الموسمي أو لاحقا في العهد الأموي، والذي تميّز بتوسّع حدود الدولة مع امتلاكها موارد مالية واقتصادية ضخمة أكثر حتّى ممّا تتوفّر عليه نظيرتها البيزنطية، ما كان يغنيها عن الدخول في مواجهات مكلفة مع الروم بحثا عن موارد إضافية، وحتّى الأقاليم البيزنطية الفقيرة في هضبة الأناضول لم تكن لتشكّل إغراء يجذب الدولة الأموية للسيطرة عليها (باستثناء منطقة قيليقية الخصبة المحاذية للثغور الشامية)، وعليه يظهر أنّ الدوافع الاقتصادية

<sup>1</sup> - تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 205.

<sup>2</sup> - صالح أحمد العلي: الفتوحات الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط 1، 2004، ص 46-47 / عبد العظيم رمضان: المرجع السابق، ص 22.

والمنافع المادية التي يمكن أن تترتب عنها لم تكن قوية بالنسبة للدولة الإسلامية، الجهة التي تشرف وتُعدّ وتُوجّه الحملات، خاصة في العهد الراشدي وبدرجة أقل في العهد الأموي، حتى تُخصّص كل تلك الموارد وذلك الجهد العسكري المعتبر وبشكل مستمر من أجلها، في حين كان في متناول المسلمين الحصول على منافع أكبر وغنائم أكثر بجهد وتكاليف أقل في مناطق أخرى من ميادين الفتوح خاصة في الشرق، وهنا نستطيع أن نورد مثالين عن ذلك لتسليط الضوء أكثر على هذه الفكرة مع بعض التحفظ، الأول يتعلق بحملة محمد بن القاسم على السند بين سنوات 92-95هـ/711-714م والتي جمع فيها ما بين مائة، ومائة وعشرون مليون درهم حسب ما تدّعيه المصادر العربية<sup>1</sup>، والمثال الثاني يتعلّق بحملة يزيد بن المهلب على جرجان وطبرستان سنة 98هـ/716م التي أحرز فيها غنائم قدرت قيمتها بخمسة وعشرون مليون درهم<sup>2</sup>، وهذه الأرقام حتى إن كانت مرتفعة قليلا ومبالغا فيها بصورة كبيرة كما هو واضح إلا أنّها تعكس مع ذلك قيمة وكثرة الغنائم التي كان يتمّ تحصيلها في الجهة الشرقية، والتي لم تكن جبهة الروم لتوفّر مثل هذا المقدر ولا حتى عُشره أبدا على كل حال، ولو كانت الدولة الأموية تسعى حقًا لمزيد من الموارد والمكاسب المادية من وراء الغزو المستمر لبلاد الروم لكان معاوية بن أبي سفيان وافق دون تردد على عرض الإمبراطور البيزنطي بدفع جزية باهظة بلغت مائتي ألف دينار سنويا مقابل وقف عمليات الصوائف ضدّ بلاده<sup>3</sup>، رغم أنّ هذا العرض كان سيحقّق منفعة اقتصادية مزدوجة للدولة الأموية، حيث كان سيغنيها عن عناء وتكاليف تحضير عمليّات الغزو من جهة، ويحقّق لها عائدات مالية محترمة من جهة أخرى. وقد تكرّر العرض مرّة أخرى من طرف الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري لمسلمة بن عبد الملك عندما كان محاصرا للقسطنطينية سنة 98هـ/716م حيث اقترح عليه أن يدفع له دينارا عن كل فرد من أهل العاصمة مقابل الانسحاب وفكّ الحصار عنها لكن مسلمة رفض هذا العرض المغربي أيضا<sup>4</sup>، رغم أنّه كان سيوفر عائدات مالية معتبرة لخزينة الدولة الأموية، وفضّل بذلك المسلمون الأهداف الاستراتيجية على المكاسب المادية.

هذا ويمكن أن نضيف أنّ الحملات الإسلامية السنوية على بلاد الروم بالكاد كانت تهدف إلى الاستيلاء على الأرض بما أنّها تقريبا لم تحاول الاحتفاظ بالمناطق التي تمّ الاستيلاء عليها، كما لا يبدو كذلك أنّ الرغبة في الحصول على الغنائم كانت دافعا قويا<sup>5</sup>، ففي مواجهة الروم بالذات لم يكن ما تحصل عليه الدولة الأموية مجزيا إلا في حالات نادرة جدا، وفوق ذلك فإنّ الغنائم العينية كان يتمّ في الكثير من الأحيان استعمال واستهلاك قسم معتبر منها خلال العمليّات عند الحاجة، وهكذا لم يكن يصل لبيت

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 483 / ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 5، ص 228.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 385.

3 - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 125.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 230.

5 - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 114.



دوافعها وأهدافها .....

المال منها إلا القليل في هذه الحالة، خاصة الأطعمة والأعلاف والمواشي والدواب التي كان يستخدمها الجند عند الضرورة<sup>1</sup>.

صحيح أنّ الحملات من جهة أخرى كانت تنتهي في أغلب الأحيان بتحصيل عدد معتبر من الأسرى الذين كان يتمّ في بعض الحالات فدائهم مقابل مبالغ من المال أو بيعهم كعبيد، لكنّ المسلمين أيضا بدورهم كثيرا ما وقعوا في الأسر، وفي النهاية كان قسم معتبر من الأسرى ببساطة يتمّ تبادلهم بين الطرفين<sup>2</sup>، أو يتمّ اعدامهم في بعض الحالات الأخرى سواء داخل بلاد الروم أو بعد العودة إلى ديار الإسلام<sup>3</sup>، ما يجعل من أهميتهم الاقتصادية أو المالية غير ذي جدوى.

ومع كل هذا يمكن أيضا ملاحظة أنّ إعداد الحملات وتجهيزها كان مكلفا للغاية بالنسبة للدولة الأموية، ولم تكن أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، البعيدة والحدودية، المخترّبة بفعل النشاط العسكري لتقدّم تعويضا كبيرا<sup>4</sup>، بل بالعكس يمكن أن نسجّل هنا بكل ثقة أنّ في كثير من الحالات كان إعداد وتحضير عمليات الغزو الموسمي يسبّب خسائر لخزينة الدولة خاصة عندما لا يمكن للعائدات المالية (الغنائم) الشحيحة للحملات أن تغطّي التكاليف التي تمّ انفاقها.

بقي في الأخير أن نشير إلى الأهمية الاقتصادية للحملات بالنسبة للجند الشامي، فحتّى إذا سلّمنا بأنّ الدوافع الاقتصادية كانت ضعيفة بالنسبة للقيادة كما أوضحنا، يجب مع ذلك أن نأخذ في الاعتبار المنافع المادية التي كان يحقّقها الجند من خلال الغزو السنوي، فبالنسبة للمقاتلين كانت عوائد الحملات في الكثير من الأحيان ذات قيمة معتبرة ومغرية ودافعا قويا للمشاركة في جيش الصائفة، بل إنّ الجند الشامي أبدى استعدادا كبيرا للخروج حتّى إلى مناطق بعيدة جدّا عن أجنادهم مثل بلاد المغرب من أجل الحصول على الغنائم الكثيرة التي توفرها هذه المنطقة بعد سماعهم بالنجاحات التي حققتها الجيوش الإسلامية هناك بقيادة موسى بن نصير<sup>5</sup>، وعليه فكما كان لجند العراق وخراسان مجال للغزو والغنيمّة في أقاليم ما وراء النهر والهند، ولجند مصر منطقة المغرب، كان على الدولة الأموية أن توفر نفس الامتياز لجند الشام، وهو ما كان يحقّقه الفضاء البيزنطي في آسيا الصغرى.

ثانيا- أهداف حملات الصوائف والشواتي:

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 229 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 46، ص 363 / عدي عبد الله حمد سالم الجبوري: أساليب المجاهدة بين العرب والبيزنطيين، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2004، ص 160.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, p 115.

<sup>3</sup> - ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 6، ص 271.

<sup>4</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Ibid, p 115.

<sup>5</sup> - ابن قتيبة الدينوري، عبد الله (ت 276هـ): الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1990، ج 2، ص 70.

كانت الدولة الإسلامية منذ اطلاق حملات الصوائف والشواتي واعتماد هذه المنظومة كاستراتيجية محورية في صراعها مع الروم، تسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف على عدّة مستويات ومراحل، منها الأهداف الجزئية الآنية التي تختصّ بالحملات العادية وترتبط أكثر بتلبية مصالح ومنافع القوّات المشاركة في الغزو، ومنها المرهلية التي ترتبط بتحقيق غايات ملحة في فترة معينة، ومنها العامة أو الكبرى وهي الأهداف الأكثر حيوية وتتعلّق باستراتيجية الدولة بعيدة المدى كما سبق الإشارة إليه في مطلع هذا المبحث، وكما كانت الدوافع متعدّدة، فالأهداف التي كانت الدولة الأموية تسعى لتحقيقها أيضا كانت متعدّدة وشملت عدّة مجالات منها العسكرية، والاقتصادية، والاستراتيجية، والتي سنحاول استعراضها بكل تفاصيلها فيما يلي من ورقات.

### 1- الأهداف العسكرية-الأمينية:

كما سبق واستعرضنا في بداية هذا المبحث، كانت الدوافع والهواجس الأمينية هي المحرك الأول والمباشر لحملات الصوائف عند اطلاقها في العهد الراشدي، وعليه تعتبر الأهداف في هذا المجال هي الغاية الأكثر أهميّة والحاحا أيضا، أين كانت الدولة الأموية سواء في عهد المؤسس معاوية بن أبي سفيان أو من جاء بعده من الخلفاء تسعى لتحقيق مكاسب على عدّة مستويات، فعلى الصعيد العسكري كانت تسعى من وراء الاستمرار في إرسال الحملات ضدّ البيزنطيين إلى توطين المواجهات معهم داخل حدود دولتهم عن طريق اشغالهم بحروب دائمة في عقر دارهم داخل آسيا الصغرى<sup>1</sup>، وكذا أيضا استنزاف قوّتهم واجهادهم، مع العمل على تدمير قدراتهم العسكرية<sup>2</sup>، من خلال الضغط المستمر بواسطة عمليّات حربية سنوية تستهدف مناطق متفرّقة من آسيا الصغرى لإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر المادية والبشرية والمعنوية بهم، ووضعهم في حالة لا تسمح لهم بمواصلة مجهودهم العسكري في مواجهة المسلمين، واجبارهم بالتالي على تبني موقف دفاعي مقابل السياسة الهجومية الإسلامية، لخلق وضع لا تجد فيه بيزنطة فرصة لتجميع وتجنيد مواردها وإطلاق قدراتها العسكرية في عمليّات تستهدف الحدود والأراضي الإسلامية، وقد أثبت الواقع صحّة هذه الرؤية حيث كان الروم كلّما أحسّوا بانفلات زمام المبادرة من المسلمين، أو بتراجع حدّة وطأهم على بلادهم يبادرون إلى نقل المواجهة خارج مناطقهم إلى فضاء الثغور أين تتواجد مراكز المسلمين المتقدّمة، أو حتّى إلى داخل الأراضي الإسلامية أحيانا عندما تكون الظروف مواتية وفي صالحهم، من أجل تخفيف الضغط عن أقاليم آسيا الصغرى وقلب المعادلة ضدّ المسلمين.

وفي بعض الفترات كانت تتغيّر أهداف المنظومة لخدمة غايات مرحلية، خاصة عند حدوث طارئ في أرمينية أين تتحوّل حملات الصوائف للتركيز أكثر على المناطق الشرقية لبيزنطة حيث يصبح هدف

<sup>1</sup> - فتحى عثمان: المرجع السابق، ج 1، ص 367 / غلا عبد العزيز أبو زيد: المرجع السابق، ص 19.

<sup>2</sup> - بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، دار الفكر، بيروت، 1988، مج 1، ص 233.

الحمالات السنوية يتمثل في اشغال قوات بند الأرمينيا في معقلها بعمليات عسكرية هجومية في الغرب أكثر ايغالا من ذي قبل وأكثر قوّة لإبعاد الصراع في آسيا الصغرى عن الحدود الأرمينية، وبالتالي تفادي التهديد البيزنطي للجانب الأيمن من الثغور<sup>1</sup>، وظهر ذلك في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان ولاحقا في بداية النصف الثاني من عهد عبد الملك بن مروان بعد عودة النشاط البيزنطي من جديد على جبهة أرمينية مستغلين انشغال المسلمين بالفتنة الثانية، ومن أجل صدّ وتحجيد هذه التهديدات في الشرق، وأيضا لضمان عدم تأثر حملات الصوائف بفعل تركيز عمليّاتها في نطاق جغرافي ضيق، قام عبد الملك بن مروان بفصل الجزيرة عن قنّسرين وجعلها جندا قائما بذاته اضطلع بالمهمّات الحربية في الأطراف الشرقية لآسيا الصغرى مستهدفا بشكل خاص بند الأرمينيا.

وبجانب شلّ القدرات العسكرية الهجومية للروم وتأمين مراكز المسلمين التي كانت منظومة حملات الصوائف والشواطي تسعى لتحقيقها، كان هذا النشاط العسكري الموسمي يهدف أيضا إلى الحفاظ على النسق القتالي والحماسة بالنسبة للوحدات العسكرية الشامية والقادة الميدانيين على حدّ سواء، حيث كانت تمثّل بلاد الروم مدرسة وميدانا حقيقيّا للتدريبات والمناورات الجماعية للاحتفاظ بالروح القتالية للجنود المسلمين والحفاظ على مستوى عال من الاستعدادية الحربية والجاهزية العسكرية والتكتيكية، والأكثر من هذا إكسابها خبرة ميدانية واسعة وكفاءة عالية في القتال والمناورات العسكرية<sup>2</sup>، من خلال المواجهات والعمليات الحربية المستمرة ضدّ القوّات البيزنطية، ونتيجة لذلك كان للجند الشامي، بفعل تمرّسهم وخبرتهم الواسعة في القتال، سمعة جيّدة ليس فقط عند البيزنطيين بل وحتى داخل أقاليم الدولة الإسلامية على حدّ سواء، فالإمبراطور البيزنطي ليو الثالث مثلا وهو قائد عسكري على قدر كبير من الحنكة والخبرة الميدانية يشهد بكفاءة وانضباط المسلمين في حروبهم مع البيزنطيين<sup>3</sup>، وفي العراق مركز المعارضة للسلطة الأموية كان يُنظر إلى الجند الشامي برهبة كبيرة لما اختبروا من بأسهم وصلابتهم في القتال خلال كل تمرّد قاموا به ضدّ الحكم الأموي حتى كانوا يصفونهم بأنهم "جبال حديد"<sup>4</sup>، وعندما ثار يزيد بن المهلب على الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة 101هـ/720م وجاءته جيوش الشام بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, pp 109-110.

<sup>2</sup> - محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 185 / نجدت خمّاش: الشام في صدر الإسلام، ص 351 / هاملتون جب: المرجع السابق، ص 64 / يوليوس فلهوزن: المرجع السابق، ص 209.

Cheira: Ibid, p 112.

<sup>3</sup> - نجدت خمّاش: المرجع نفسه، ص 364.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 596.

الوليد راع أصحابه ذلك وهابوهم واضطرب أمرهم<sup>1</sup>، فحدّره عدي بن أرطأة عامل البصرة من معبّة التعرّض لجند الشام "جنود الله" الذين أظهروا بلائهم في الحرب ضدّ كلّ خارج عن سلطان الدولة الأموية<sup>2</sup>، وقد استغلّت السلطة في دمشق فعلا هذه المقدرة الحربية الكبيرة للجند الشامي لإخماد الثورات التي قامت ضدّ الحكم الأموي، ووظفتها في ضرب كل مناوئبيها والخارجين عن سلطانها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد أوصى هذا الأخير بدوره ابنه يزيد بتقريب أهل الشام والاستعانة بهم لقمع أعداءه عند الضرورة<sup>3</sup>، وبالفعل فقد أثبت الجند الشامي كفاءته القتالية في مواضع عديدة ومواجهات كثيرة مثل القضاء على حركة الخارجي شبيب بن يزيد الشيباني سنة 77هـ/696م، والقضاء على قطري بن الفجاءة ومن بقي معه من أصحابه في نفس السنة، وإخماد تمرّد ابن الأشعث سنة 83هـ/702م، وثورة يزيد بن المهلب بين 101-102هـ/720م، وثورة البربر في إفريقية سنة 123هـ/741م، وغيرها من المواقف التي كانت الدولة الأموية تجتهد فيها نفسها مهذّدة من قوّة داخلية معادية.

وهنا نسجّل ملاحظة على قدر كبير من الأهمية يجب الوقوف عندها على كل حال، تتمثّل في إسناد قيادة حملات الصوائف والشواتي إلى أفراد من البيت الأموي مثل محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك وأخيه مسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد، و معاوية بن هشام وأخيه سليمان بن هشام، وغيرهم، وقد بدأ هذا التقليد منذ عهد معاوية بن أبي سفيان عندما أرسل ابنه يزيد في حملة على القسطنطينية، لكنّ هذه الظاهرة توسّعت بشكل كبير لاحقا في العهد المرواني حتّى كادت قيادة الحملات تكون حصرا بين أفراد الأسرة الأموية من إخوة وأبناء الخلفاء دون غيرهم، إلّا في بعض الحالات الاستثنائية النادرة، وليس من المستبعد أنّ الهدف من وراء هذا الأمر ترسيخ شرعية حكم الأمويين وإثبات حقّهم في قيادة الأُمَّة من خلال الجهاد ضدّ الكفار، ولتحقيق أكبر المكاسب في هذا الشأن لم يكن هناك أفضل من أمراء البيت الحاكم ليقودوا هذه الحرب المقدّسة لإبراز فضلهم في قتال العدو، وأيضا لتحقيق الأجداد للأسرة الحاكمة وتشريفهم بقيادة الجهاد ضدّ أعداء الأُمَّة والدين، وقد أشار بذلك ربيعة بن الغاز على عبد الملك ابن مروان عندما عزم هذا الأخير على تولية ابنه الوليد بعض أعمال الدولة، بأن يقلّده الصوائف فتكون له شرفا وذكرًا<sup>4</sup>، فعزا سنة 77هـ/696م وكانت الحملة التي قادها موقّفة جدّا إذ تذكر المصادر أنه فتح حصنا في بلاد الروم يعرف باسم صملة Sémalouos (في ناحية خرشنة)، وغنم وسبي<sup>5</sup>، وكان الخلفاء

<sup>1</sup> - المسعودي: المصدر السابق، ج 3، ص 164 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 336 / مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 70.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 582 / ابن أعثم: المصدر السابق، ج 8، ص 220.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر نفسه، ج 5، ص 323.

<sup>4</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 7، ص 250.

<sup>5</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 63، ص 170.

أنفسهم يتشاطرون هذه الرؤية مع ربيعة بن الغاز، فيزيد بن عبد الملك كان يعتبر هو أيضا قيادة حملات الصوائف شرفا كبيرا يفوق في فضله ومكانته حتى ولاية الأمصار<sup>1</sup>، التي تعتبر ثاني أكبر منصب اداري في الدولة بعد الخلافة، ما يفسر بشكل واضح تمسك الفرع المرواني بإسناد قيادة الصوائف حصرا لأفراد من البيت الأموي، ولا شك أن هذا التقليد كان يهدف أيضا لتهيئة بعضهم لمنصب الخلافة، فكل من يزيد بن معاوية، والوليد بن عبد الملك قادا للمسلمين لقتال الروم قبل تقلدهم الخلافة وهذا الأمر قد أكسبهم شعبية وعزز مكانتهم السياسية حتى أن يزيد بن معاوية مثلا كان يلقب بفتى العرب بعد مشاركته في غزو القسطنطينية<sup>2</sup>، كما اكتسب أمراء بني أمية أيضا من وراء قيادتهم الحملات ضد بلاد الروم فوق ذلك خبرة جيدة في القيادة والإدارة والفنون الحربية من دون شك، وساهمت مشاركتهم وقيادتهم الجهاد ضد العدو في تدعيم مركزهم كقادة للأمة الإسلامية، ويمكن أيضا الإشارة إلى أن احتكار أمراء بني أمية لقيادة الجيوش في الحروب ضد الروم كان يساهم في تقوية الروابط بين مقاتلة الأجناد وقادتهم من البيت الأموي ويرسخ الولاء لهذه الأسرة بشكل كبير، كما أن هذه الحملات التي كانت تعتبر ميدانا حقيقيا للتكوين يحاكي الواقع كانت تهدف إلى إيجاد قادة عسكريين أكفاء من البيت الحاكم يدافعون عن ملكهم ودولتهم عند الضرورة، وفعلا فقد أبرزت حروب الصوائف والشواتي قادة عسكريين من البيت الأموي على قدر كبير من الكفاءة والنشاط في صورة محمد بن مروان، ومسلمة بن عبد الملك الذي كان محل تقدير كبير من أبيه عبد الملك بن مروان وكان يُعَدُّه "ناب بني مروان"<sup>3</sup>، والعباس بن الوليد الذي كان يلقب بـ "فارس بني مروان"<sup>4</sup>، وأيضا مروان بن محمد، ومعاوية بن هشام وغيرهم، وقد تم تكليف البعض منهم بقيادة الجيوش لإخماد الثورات ضد الحكم الأموي عند الضرورة خاصة في العراق، وفي النهاية نجد أن حوالي اثنان وعشرون أميرا من بني أمية<sup>5</sup> تقلدوا إمارة جيوش الصوائف وتداولوا على قيادة الحملات، وهذا في حد ذاته مؤشر قوي يعكس مدى اهتمام البيت الأموي بهذا النشاط العسكري.

وبجانب ما سبق ذكره من الأهداف العسكرية، كانت منظومة الصوائف والشواتي تهدف أيضا إلى تأمين سلامة المسلمين خاصة أولئك الذين يعيشون في الحدود وفي المناطق القريبة منها، فقد كان هذا الهاجس بكل تأكيد يمثل الشغل الشاغل للخلافة بما أن الحملات البيزنطية يمكنها إلحاق الضرر بممتلكات

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 34، ص 404.

2 - عبد العظيم رمضان: المرجع السابق، ص 99.

3 - البلاذري: المصدر السابق، ج 8، ص 359.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 26، ص 438.

5 - ممن أثبتت المصادر أمماتهم في قيادة الحملات: يزيد بن معاوية، ومحمد بن مروان، ويحيى بن الحكم، ومسلمة بن عبد الملك، والوليد بن عبد الملك، وعبد الله بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، والعباس بن الوليد، ومروان بن الوليد، وعبد العزيز بن الوليد، وبشر بن الوليد، وداود بن سليمان، وأيوب بن سليمان، وداود بن هشام، ومعاوية بن هشام، وسليمان بن هشام، وإبراهيم بن هشام، وسعيد بن هشام، ومسلمة بن هشام، ويحيى بن هشام، ومروان بن محمد، والغمر بن يزيد.

المسلمين وهيبتهم على حدّ سواء<sup>1</sup>، وهكذا نجد أنّه مع نهاية القرن السابع ميلادي/النصف الثاني من القرن الأول هجري كان قسم من الحملات السنوية تضطلع أساسا بحماية وتأمين منطقة الحدود بين الدولتين<sup>2</sup>، وأيضاً استهداف وتدمير المراكز البيزنطية المتواجدة بها، وإخلائها من سكانها وإنشاء منطقة عازلة لتحقيق المتطلبات الأمنية للخلافة كما يؤكّد على ذلك المؤرخ المقتدر هالدين Haldon<sup>3</sup>.

## 2- الأهداف الاستراتيجية:

كانت الأهداف الاستراتيجية المبكّرة لحملات الصوائف في العهد الراشدي تتمثّل بشكل خاص في تحجيم وإنهاء خطر الروم على منطقة الحدود، من خلال تخريب مراكز القوة البيزنطية القريبة من منطقة الثغور لتأمين الفتوحات الإسلامية دون جبال طوروس التي أصبحت تمثّل حدّاً فاصلاً بين الدولتين بعدما اكتفى المسلمون بما حقّقوه من مكاسب إقليمية في المنطقة حينها، كما هدفت هذه المنظومة أيضاً في بداياتها منع البيزنطيين من أيّ عمل عسكري هجومي ضدّ المسلمين في الشام وشمال الجزيرة الفراتية مع زيادة الجهود لتطويق الإمبراطورية من الشرق، من خلال توجيه وتوظيف بعض الصوائف لإشغال الفرق البيزنطية في قلب آسيا الصغرى من أجل التغطية على الجيوش العربية التي كانت تعمل بشكل متزامن على فرض السيطرة الإسلامية على أرمينية وأذربيجان.

كما أنّ العمليّات الموسمية في بدايتها كانت تهدف أيضاً لاستطلاع أرض العدو والتعرّف على طرقها وممرّاتها، وأيضاً طبيعتها الجغرافية والمناخية، ومراكز القوّة فيها ونقاط تمركز القوّة البيزنطية<sup>4</sup>، لهذا كانت العمليّات الأولى لا تستغني عن أدلاء من أهل المنطقة، ممّن اعتادوا عبور الدروب وارتياح أرض الروم، لتوجيه المسلمين في تلك البلاد التي كانت حتّى ذلك الوقت مجهولة تماماً بالنسبة إليهم<sup>5</sup>، وفعلاً نجد أنّ الحملات الأولى كانت لا تخرج عن النطاق المحليّ ولا تتوغّل كثيراً في آسيا الصغرى، كما نلاحظ أنّ حتّى المصادر الإسلامية التي تناولت أخبار الحملات الأولى، نقلاً عن اخباريين اعتمدوا في تدوين الأحداث على روايات شفوية لأفراد شاركوا في تلك العمليّات، كانت معلوماتها الجغرافية سطحية ومشوّشة بل وتهمّل تماماً في بعض الأحيان ذكر مناطق نشاط الجيوش الإسلامية، وفي أحيان أخرى تعطي أسماءً مختلفة (مبتدعة) للمناطق والحصون داخل بلاد الروم مثل "الحمار" و"مرج القبائل" و"مرج الشحم" و"حصن

<sup>1</sup> - J. F. Holdon and H. Kennedy: Op cit, p 115.

<sup>2</sup> - Sophie Métivier: Op cit, p 435 / Cheira: Op cit, p 66.

<sup>3</sup> - J. F. Holdon and H. Kennedy: Op cit, p 99.

<sup>4</sup> - عدي سالم الجبوري: المرجع السابق، ص 169.

<sup>5</sup> - الواقدي: المصدر السابق، ج 2، ص 7.

المرأة" و"حصن الحديد" والتي أُطلقت عليها هذه الأسماء غالباً نسبة لأحداث جرت بها عند استهدافها<sup>1</sup>، قبل أن تصبح معلومتها أكثر دقة لاحقاً عندما تحسّنت المعارف الجغرافية للمسلمين عن الأناضول. ومع تواصل ازدياد المسلمين لآسيا الصغرى سنويّاً أصبحنا نرى بعض الحملات تستهدف العمق البيزنطي، وهكذا اكتسب المسلمون مع الوقت معارف جغرافية وميدانية واسعة ساعدتهم على تنظيم الحملات بشكل أفضل وتحديد الأهداف بدقة أكبر.

ومن الأهداف الاستراتيجية المرحلية للعمليات الأولى عبر الدروب كذلك، تثبيت وضع الحدود وإرساء معالم واضحة لها بين المسلمين والروم<sup>2</sup> بعد أن بلغت الفتوحات الإسلامية مداها عند تخوم جبال طوروس وعدم تحمّس الخلافة لدفع الفتوحات إلى ما بعد ذلك الحد والاكتفاء بما تمّ تحقيقه في الشام والجزيرة حتّى ذلك الوقت على الأقل، ولاحقاً في العهد المرواني بدأ الاتجاه نحو مد النفوذ الإسلامي إلى آسيا الصغرى تدريجياً من خلال محاولة الاستيلاء على المنطقة الفاصلة وتعميرها لتثبيت السيادة الإسلامية فيها وإنشاء مراكز متقدّمة في مواجهة البيزنطيين، ومع امتداد السيطرة الإسلامية لمنطقة قيليقية، بعد الاستيلاء على المصيصة سنة 84هـ/703م والمراكز الأخرى المحيطة، أصبحت الحملات السنوية ذات قيمة استراتيجية كبيرة وكانت تستهدف بشكل متكرّر تخوم قبادوقيا الجنوبية على وجه الخصوص وذلك لتسهيل عملية توطين المسلمين في قيليقية من جهة، وإنشاء منطقة عازلة جديدة في شمال جبال طوروس، كما كانت عليه قيليقية من قبل<sup>3</sup>، كفضاء محايّد بين الخلافة والإمبراطورية من جهة أخرى، أي زحزحة المنطقة الفاصلة المخزّبة والخالية من السكان من قيليقية إلى داخل الأراضي البيزنطية، وبدلّ على ذلك تركيز عمليات المسلمين لاحقاً في الفترة التي أعقبت سيطرتهم على المصيصة على استهداف والاستيلاء على المعقل البيزنطي الرئيسي في قبادوقيا وتدميرها وتهجير سكانها، مثل طوانة سنة 88هـ/707م، وطرنده سنة 92هـ/711م، وهرقلة سنة 95هـ/714م، وحصن دبسة سنة 102هـ/720م، ومدينة قيصرية سنة 107هـ/726م، من خلال العمليات التي نفّذتها حملات الصوائف، ومحاولة ادماج تلك المناطق المخزّبة في دولة الخلافة لاحقاً بشكل نهائي كما فعلت مع قيليقية من قبل، وقد أدّت هذه الاستراتيجية إلى إخلاء هذه المنطقة (قبادوقيا الصغرى) من سكانها نتيجة الدمار الذي حلّ بهمّ حواضرها والتجمّعات السكانية فيها، حيث تمّ على الأرجح نقل بقية سكان طوانة بصفة نهائية إلى ماجدة الأكثر تحصيناً<sup>4</sup>، وبالقرب منها

<sup>1</sup> - نملك دليلاً واحداً عن ذلك على الأقل فيما يتعلّق بالموضع الذي تقدّمه المصادر تحت اسم (الحمار)، حيث يطلق على واد في بلاد الروم استهدفه عمير بن سعد الأنصاري سنة 21هـ/642م فهزم أهله وخزّبه فليل أحرّب من جوف حمار، فاقبست هذا المثل (المعنى) لتجعل منه اسماً لهذا الموضع. البلاذري: فتوح، ص 160.

<sup>2</sup> - Cheira: Op cit, p 66.

<sup>3</sup> - Sophie Métivier: Op cit, p 437.

<sup>4</sup> - J. F. Haldon and H. Kennedy: Op cit, pp 82-96.

قرّر سكان سوسنة سنة 92هـ/711م هجرة مدينتهم لمنطقة أكثر أمنا داخل أراضي الروم رغم أنّه لم يتمّ استهدافهم ولا ملاحظتهم من طرف المسلمين في تلك السنة<sup>1</sup>، ما يوضّح بصورة جليّة الحالة النفسية التي كانوا عليها نتيجة توالي حملات المسلمين على تلك الجهة، وهكذا يظهر أنّ الاستراتيجية الإسلامية كانت تتركز على الزحف التدريجي على أراضي الروم في آسيا الصغرى بالاعتماد على تخريب المناطق الحدودية كمرحلة أولى ثمّ العمل على ضمّها وتعميرها وتحصينها في المرحلة الثانية.

لقد أعطى قيام الدولة الأموية دفعا جديدا لعمليات الصوائف والشواتي، حيث أصبحت تتميّز بحيوية ونشاط أكبر، صحيح أنّ سياسة مؤسس هذه الدولة، معاوية بن أبي سفيان، تجاه الروم بعد توليه الخلافة لم تختلف كثيرا عن فترة ولايته على الشام والجزيرة بشكل عام، لكن نستطيع الجزم أنّها أصبحت أكثر قوّة وشمولية حيث امتلك القدرة والحريّة بشكل أكبر لتطبيق أهدافه الاستراتيجية الكبرى<sup>2</sup>، أين أصبحت الحملات السنوية أكثر اندفاعا من قبل، وتمثّل هذه الأهداف الاستراتيجية بعيدة المدى والأكثر حيويّة بالنسبة للمسلمين في القضاء على المنافس الأخطر المتبقي أمامهم، وهي الإمبراطورية البيزنطية، وهذا يمرّ عبر ضرب المركز، أي الاستيلاء على عاصمتها بالذات من أجل اسقاطها وإنهاء وجودها<sup>3</sup>، وكانت حملات الصوائف والشواتي تعمل على تهيئة الظروف الملائمة لتحقيق هذا الهدف كما سنوضّح في الأسطر القليلة القادمة.

إنّ المتبّع للنسق العام لحملات الصوائف والشواتي يلاحظ بكلّ وضوح أنّه كلّما ارتفعت وتيرة هذه الحملات يتمّ في النهاية استهداف القسطنطينية مباشرة بعمل عسكري ضخم، ما يثبت أنّ الحملات السنوية المعتادة لم تكن حملات تخريبية بشكل عشوائي، وإنّما تعتبر مقدّمة لمشروع أكثر قيمة في مواجهة الروم، أمّا دورها فيتمثّل أساسا في اختبار دفاعات الروم في مناطق متفرّقة من آسيا الصغرى والعمل على تحطيمها من أجل اضعاف وشل قدرتها على المقاومة تمهيدا لتقدّم الجيش الرئيسي لفتح العاصمة لاحقا، وهذا النسق يظهر بوضوح قبل الحملتين الكبيرتين اللتين استهدفتا المدينة بين سنوات 54-60هـ/674-680م في المرّة الأولى، وبين سنتي 98-99هـ/716-717م في المرّة الثانية، ففي الفترة التي سبقت هاتين الحملتين نلاحظ نشاطا كبيرا وتصاعدا غير مسبوق في وتيرة حملات الصوائف والشواتي، فقبيل حصار السبع سنوات استهدفت الحملات المتتالية بين أعوام 47-53هـ/667-673م مناطق متفرّقة من الأناضول مثل أنطاكية (في إقليم بيسيديا)، وخرشنة، وعمورية، بل ووصلت القوّة العربية في اندفاعها

<sup>1</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 468.

J. F. Holdon and H. Kennedy: Op cit, p 99

<sup>2</sup> - غُلا عبد العزيز أبو زيد: المرجع السابق، ص 22.

Cheira: Op cit, p 107.

<sup>3</sup> - غُلا عبد العزيز أبو زيد: المرجع نفسه، ص 22.



حتى مدينة خلكدونية على البر الآسيوي المقابل تماما للقسطنطينية، ولم تصادف الجيوش العربية التي كانت تتوغّل في عمق بلاد الروم كما هو واضح أيّ مقاومة تذكر من طرف القوّات البيزنطية، ومع تدهور الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية، تحمّس معاوية بن أبي سفيان بعد أن رأى الفرصة مواتية لإسقاط العاصمة البيزنطية، ففرض عليها الحصار سبع سنوات كاملة دون أن ينال منها شيئا ما اضطرّه إلى سحب القوّات الإسلامية في نهاية المطاف.

وقبيل الحملة الأكبر على الاطلاق التي استهدفت القسطنطينية في العهد الأموي نلاحظ نفس النسق السابق من تصاعد وتيرة الحملات السنوية ضدّ بلاد الروم، ففي عهد الوليد بن عبد الملك لم تعد حملات الصوائف والشواتي غارات روتينية موسمية على أراضي العدو فحسب، بل أصبح لها خط ونسق واضحين هدفه التقدّم المستمرّ بالفتح نحو القسطنطينية<sup>1</sup>، وحتى بروكلمان يعطي الانطباع أنّ الوليد كان إنّما يستهدف التوجّه إلى مهاجمة العاصمة البيزنطية في النهاية من خلال رفعه وتيرة حملات الصوائف، لكنّ الخليفة توفي قبل أن يرى مشروعه يتحقّق على أرض الواقع<sup>2</sup>. وهكذا نجد أنّه بين سنوات 88-97هـ/707-716م تمّ استهداف وفتح كل من طوانة، وهرقلة، والمناطق المحيطة بعمورية، في المرحلة الأولى وهي كما هو واضح من خلال موقعها على الخريطة كلّها أهداف مهمّة ومراكز رئيسية للروم على الطريق الرابط بين الشام وخليج القسطنطينية، وفي مرحلة ثانية غطّت الحملات مجالا جغرافيا أوسع من خلال استهداف حصون إقليم إيسوريا (سورية في المصادر العربية)، وطرنودة، وأماسية، وخنجرة شمالا، ومدينة أنطاكية في إقليم بيسيديا، وليس مفاجئا أنّ هذه الحملات ألحقت خسائر ودمار معتبرين بالقوّات والدفاعات البيزنطية على حدّ سواء كما تشير إلى ذلك المصادر، فالهدف منها كان تحييد مراكز المقاومة المحتملة وفتح الطريق أمام الجيش الرئيسي الذي سيّتجه لاحقا إلى القسطنطينية لفتحها، وحتى المؤرخ البيزنطي نقفور لم يفتّه ادراك هذا الأمر فقام بتسجيل هذه الملاحظة في كتابه حين أشار إلى أنّ غياب ردّ الفعل من البيزنطيين على غزوات العرب انتهى أخيرا بان دفاعهم إلى القسطنطينية في حملة تضم عددا لا يحصى من الجنود<sup>3</sup>، ومع حلول سنة 98هـ/716م كانت كلّ الظروف قد أصبحت مواتية أخيرا للانطلاق في حملة جديدة ضدّ العاصمة البيزنطية في محاولة أخرى لإخضاعها، ومع حلول شهر أوت من نفس السنة كانت القوّات الإسلامية تطوّق القسطنطينية برّا وبحرا، لكن ورغم كلّ الإمكانيات الضخمة وغير المسبوقة التي تمّ توفيرها لإنجاح مشروع فتح العاصمة الإمبراطورية البيزنطية إلا أنّ النتيجة كانت مخيبة، إذ انتهى الحصار إلى فشل ذريع اضطرّ معه الجيش الإسلامي إلى الانسحاب بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد أقلّ من عامين على بداية الحصار.

<sup>1</sup> - علا عبد العزيز أبو زيد: المرجع السابق، ص 30.

<sup>2</sup> - تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 136.

<sup>3</sup> - Nikephoros: Op cit, p 121.

بعد فترة فراغ دامت حوالي عشر سنوات عقب فشل الحصار الثاني للعاصمة البيزنطية، كانت فيها حملات الصوائف محدودة جدا جغرافيا وعسكريا أخذت خلالها طابعا جهويا أكثر، نلاحظ مرّة أخرى في عهد هشام بن عبد الملك نفس النسق يتكرّر من جديد، حيث نرى حملات سنوية بوتيرة متصاعدة مسّت كل ربوع آسيا الصغرى تقريبا لكنّ الظروف الداخلية والخارجية التي رافقتها كانت قد تعيّرت لغير صالح المسلمين فلم تستطع تلك الحملات أن تحافظ على اندفاعها لأكثر من سنوات معدودة متتالية قبل أن تتعثّر وتفقد نسقها التصاعدي، حيث يحدث في كل مرّة انكسار في وتيرة الاندفاع العربي في آسيا الصغرى يحول دون استثمارها وترجمة الزخم المتصاعد معها إلى حملة تستهدف القسطنطينية في نهاية المطاف. ويحدّد الأستاذ عبد المهدي شعيرة في هذه الفترة ثلاث مراحل للاندفاع العربي<sup>1</sup>، لكن في الحقيقة يمكن تمييز مرحلتين فقط بكل وضوح:

كانت المرحلة الأولى بين سنتي 107-112هـ/726-730م، وعرفت استهداف قيصرية، وخنجره، ونيقية، وصملة، وخرشنة، لكنّها توقّفت مع تفاقم خطر الخزر في أذربيجان وأرمينية. أما المرحلة الثانية التي استرجعت فيها حملات الصوائف نسقها التصاعدي المعتاد فكانت بين سنتي 114-122هـ/732-740م، وهي المرحلة التي طالت فيها الهجمات الإسلامية كلّ من قيصرية مرّة أخرى، وبافلاجونيا في الشمال، وسييرة وسردة وسندرة في الغرب، قبل أن يتوقّف هذا المدّ أيضا بعد هزيمة أكروينون (أقرن) المفجعة أمام الجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور ليو الإيسوري سنة 122هـ/740م. وحتى إن كانت المصادر لا تشير في هذه الفترة التي تزامنت مع خلافة هشام بن عبد الملك إلى أيّ شيء عن مشروع يتمّ التحضير له لاستهداف العاصمة البيزنطية مرّة أخرى، إلّا أنّ التجارب السابقة أثبتت أنّ تفعيل الصوائف بوتيرة متصاعدة إنّما يهدف لتهيئة الظروف العامة الملائمة للهجوم على القسطنطينية في نهاية المطاف، لكن للأسف في هذه المرحلة لا يسعفنا الوقت ولا مجرى الأحداث لاكتشاف مدى صحّة هذا الافتراض، فلم تكد الدولة الأموية تتجاوز آثار هزيمة أكروينون حتّى وجدت نفسها تتخبط في صراعات وحروب داخلية على نطاق واسع أدّت في النهاية إلى سقوطها سنة 132هـ/751م، ما منح الروم فرصة نادرة من السلام والهدوء استغلّوها لإعادة ترتيب أوضاعهم الداخلية ومراجعة وتكليف عقيدتهم العسكرية في مواجهة المسلمين.

### 3- الأهداف الاقتصادية:

كانت الأهداف الاقتصادية لمنظومة الصوائف والشواتي أحد أكثر الغايات أهمية على الإطلاق، وهذا الجانب على ما هو عليه من قيمة تعترضنا في دراسته وتحليله الكثير من العقبات ليس أقلّها شح المادة الخبيرة في المصادر، ويمكن تصنيف هذه الأهداف الاقتصادية للمواجهات مع الروم عموما إلى نوعين:

<sup>1</sup> - Cheira: Op cit, pp 224-226-228.

المحور الأول منها يرتكز على ضرورة حرمان الخصم من موارده من أجل إضعافه وتحجيم قدراته الحربية، والثاني منها يتعلّق بمصالح الدولة الأموية ومقاتليها المتمركزين في الشام.

فيما يتعلّق بالمجال الأوّل من الأهداف لم تكن الحملات السنوية على المستوى الرسمي تكاد تخرج تقريبا عن إطار حرب الاستنزاف المستمرة التي كان يشنّها المسلمون ضدّ الروم، وتمثّل كما يذكر هالدين في توجيه ضربة شديدة التدمير لاقتصاد العدو، وللبنى التحتية، والعمل على حرمانه من موارده وتحجيمها<sup>1</sup>، وهو ما ينعكس على قدرة البيزنطيين في تمويل وتموين جهدهم العسكري في مواجهة المسلمين، ويمكن ملاحظة هذه الاستراتيجية من خلال طبيعة العمليات التخريبية التي غالبا ما كانت تضطلع بها حملات الصوائف خلال نشاطها في بلاد الروم، أين يتمّ استهداف وتدمير المدن والقرى والحصون البيزنطية التي تمثّل البنية التحتية للدولة، بالإضافة إلى تخريب الزراعة، التي تعتبر ركيزة الاقتصاد البيزنطي والرافد الأساسي للجيش والدولة، عن طريق اتلاف المحاصيل والحقول والاستيلاء على الماشية والأغنام<sup>2</sup>، ونجد في هذا الصدد إشارات قيّمة في المصادر العربية عن هذه الأساليب التي كانت تنتهجها الحملات الصيفية، فاليقوي مثلا يذكر أنّ الوليد بن عبد الملك غزا سنة 77هـ/696م أطمارا من ناحية ملطية<sup>3</sup>، وتكرّر هذا الأمر مرّة أخرى سنة 121هـ/739م حيث يذكر كل من الطبري وابن الأثير أن مسلمة بن هشام استهدف مطامير في بلاد الروم في حملة قادها تلك السنة<sup>4</sup>، واستهداف هذه المنشآت المخصصة لحفظ وتخزين المحاصيل والأطعمة خاصة في موسم الحصاد الذي يتصادف مع فترة نشاط حملات الصوائف لا يمكن تفسيره إلا برغبة المسلمين في حرمان الروم من هذه الموارد لإضعاف معنوياتهم وإلحاق أكبر ضرر ممكن بمخازن الدولة وسلسلة التموين الخاصة بها، وما يدعم ويفسّر هذه الفرضية الأخيرة أنّ المسلمين في بعض الأحيان كانوا يعمدون أيضا إلى تدمير الإنتاج الزراعي خاصة في الحالات التي لم يكن في استطاعتهم الاستفادة منه أو نقله، وهذا يشبه إلى حدّ كبير ما يعرف في الوقت الحاضر بسياسة الأرض المحروقة، ففي سنة 106هـ/724م مثلا قاد معاوية بن هشام الصائفة فلما كان ببلاد الروم بعث بأحد قادة النخبة في جيشه وهو الوضّاح على رأس فرقة من المقاتلين لتخريب المناطق المحيطة بمجال عمليّات جيش الصائفة الرئيسي فقام بإحراق الزرع والقرى وقطع الأشجار<sup>5</sup>، وكنتيجة لهذه الممارسات التي كان يقوم بها المسلمون

<sup>1</sup> - هالدين: بيزنطة في حرب، ص37.

Bury: Op cit, Vol 2, p 405.

<sup>2</sup> - ستيفن رنسيان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1997، ص 251.

<sup>3</sup> - اليقوي: المصدر السابق، ج 2، 203.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 160 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 443.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 137 / اليقوي: المصدر السابق، ج 2، ص 259 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 59، ص 281.

أثناء الغزو تعرّضت مناطق آسيا الصغرى إلى التخريب<sup>1</sup>، ما دفع ببعض المؤرخين إلى الاستنتاج أنّ انخفاض الإنتاج الزراعي فيها كان نتيجة لا يمكن تفاديها في ظلّ تلك الظروف<sup>2</sup>.

كما أنّ هذا الجهد العسكري الموسمي كان يستهدف أيضا توجيه ضربة شديدة للموارد البشرية للإمبراطورية وقواها العاملة، لهذا لا تكاد تخلو الأخبار عن حملات الصوائف والشواتي في المصادر العربية وحتى البيزنطية والسريانية من إشارات عن عمليّات السبي الواسعة للروم التي كانت تقوم بها القوّات الإسلامية ما يعطي الانطباع أنّها كانت مبنية على نيّة مسبقة وليس بشكل عشوائي أو عمليّات عفوية، وقد أدّى سقوط عشرات الآلاف من الروم في الأسر نتيجة الحملات المتكرّرة إلى حرمان الاقتصاد البيزنطي من اليد العاملة اللازمة، لأنّ أغلب من كان يقع في الأسر هم من أهل القرى والفلاحين وأصحاب المهن الذين يمثلون قسما معتبرا من الفئة الاجتماعية النشيطة في البناء الاقتصادي وحتى العسكري لبيزنطة، وعليه لم تؤدّي عمليّات الأسر الواسعة خاصة في صفوف الذكور إلى حرمان الإمبراطورية من اليد العاملة فقط، بل تعدّاه إلى حرمان الجيش البيزنطي من مورده الأساسي للتجنيد أيضا، وهذا الوضع كانت له انعكاسات مباشرة على الامكانيّات العسكرية للإمبراطورية التي تراجعت قدرتها على دفع عطاء جنودها، أو تجنيد مزيد من المرتزقة نتيجة ضعف الجباية بسبب إلحاق الضرر الشديد بالاقتصاد.

وسنكتفي هنا بهذا القدر من التحليل حيث سنخصّص لاحقا مبحثا مستقلا لسرد وإبراز هذه الانعكاسات السلبية على اقتصاد الدولة البيزنطية ومواردها المادية والبشرية نتيجة هذه الاستراتيجية التي طبّقها المسلمون في حملاتهم بشكل مفصّل ومعتمّق.

أمّا المحور الثاني من الأهداف الاقتصادية للاستراتيجية الأموية خلال الحملات الموسمية فيتمثّل في إيجاد مجال للجند الشامي لتحصيل الغنائم، كغيرهم من جند الأمصار الأخرى، حتى وإن كانت العائدات الاقتصادية والغنائم غير مجزية بالنسبة للدولة كما ذكرنا سابقا بالتفصيل، إلّا أنّها كانت مرضية جدا بالنسبة لمقاتلة القبائل في الشام الذين كانوا يعتبرون الغنائم موردا إضافيا بالنسبة إليهم بجانب العطاء السنوي الذي كانوا يتقاضونه، من أجل تحسين وضعيتهم الاقتصادية والمعيشية، ونظرا لحاجة السلطة الدائمة لتواجد الجند الشامي في المركز لم تكن تستطيع أن ترسلهم في حملات بعيدة منهكة وتستغرق وقتا طويلا، وهكذا استطاعت الجبهة البيزنطية أن تلبي كل المتطلبات بالنسبة للدولة والقبائل على حدّ سواء، حيث تقاطعت مصالحهما بشكل مرضي للطرفين، فرغبة القبائل في الغزو والغنائم كانت تتوافق تماما مع أهداف الدولة في الضغط على عدوّها التقليدي، وهكذا أصبحت هذه الجبهة مجالا للقبائل الشامية لشن حملات غزو سنوية

<sup>1</sup> - George Ostrogorsky: History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Basil Blackwell, Oxford 1968, p 123.

<sup>2</sup> - Bury: Op cit, Vol 2, p 405.

من أجل تحقيق منافع ذاتية ورغبة في الغنيمة التي كانت من دون شك معتبرة<sup>1</sup>، ويمكن هنا أن نورد بعض الأمثلة عن ذلك رغم ندرتها في المصادر مقارنة بما نجده من معطيات في هذا الشأن عن جبهات أخرى للفتوح خاصة في الشرق، ففي إحدى الصوائف خلال عهد معاوية بن أبي سفيان استهدفت سرية تضم أقل من خمسين رجلا حصنا للروم في محيط منطقة عمليات جيش الصائفة ففتحوه واستولوا على ما فيه من أموال ومتاع التي كانت على ما يبدو معتبرة حيث بلغ نصيب الفارس في هذه السرية من الغنيمة مائتي دينار<sup>2</sup>، وهو مبلغ كبير جدا يمكن أن يحصل عليه المقاتل في عملية حربية واحدة أو حتى حملة كاملة قياسا بالحد الأدنى للعطاء الذي كان يتقاضاه الجند سنويا ويبلغ عشرين دينارا، أو مقارنة بالحد الأعلى الذي لم يكن يتحصّل عليه إلا كبار رجال القبائل والأشراف، ويقدر بمائتي دينار ويعرف بعطاء الشرف<sup>3</sup>، وفي سنة 46هـ/666م قاد مالك بن عبد الله الحثعمي حملة ناجحة أحرز فيها غنائم كثيرة جدا فأقام لها سوقا في طريق عودته عند الثغور قرب درب الحدث فلم يفرغ من بيعها إلا بعد ثلاثة أيام كاملة<sup>4</sup>، ولا نشك في أنّ نصيب كل فرد كان معتبرا قياسا بحجم الغنائم المحصّلة، وفي سنة 88هـ/707م تمكّن المسلمون بعد حملة قوية من فتح مدينة طُوانة، وكانت الغنائم كبيرة أيضا بشكل لافت حتى أنّ سهم الفرد ممّن اشترك في الحملة بلغ مائة دينار<sup>5</sup>، ورغم شح المعلومات في المصادر سواء العربية أو البيزنطية والسريانية حول قيمة وحجم الغنائم التي كانت تحقّقها حملات الصوائف في بلاد الروم، حيث لا تأتي على ذكرها إلا نادرا للأسف، إلا أنّها مع ذلك لا تغفل الإشارة في عشرات الحالات عن تحصيل الحملات للغنائم والتي تصفها في الكثير من الأحيان بالكثيرة والضحمة لكن دون تفاصيل حول قيمتها طبعاً.

وما يمكن استنتاجه في نهاية هذا العرض أنّ دوافع حملات الصوائف والشواتي كما أهدافها كلّها متّصلة ومتشابكة ومتكاملة، بحيث لا يمكن أن نحصرها في دافع دون آخر، كما لا يمكن أن نجزم كذلك أنّها تسعى لتحقيق غاية دون أخرى، ومحاولة طرح هذه المسألة من زاوية واحدة أو حصرها في قالب معيّن كالتركيز على الجانب الديني كمحفز ودافع أساسي لهذه الظاهرة، أو محاولة تفسيرها بالأسباب والأهداف الاقتصادية المادية حصراً، سيفرغها بكلّ تأكيد من بعض محتواها وبالتالي سيفقدنا التفسير الموضوعي لها ويبعدنا عن حقيقتها الفعلية، ونسجّل أيضاً أنّ هذه الحملات التي غطّت مجالاً زمنياً واسعاً امتدّ لأكثر من قرن تقريباً (مع بعض التوقفات في فترات الفتن) بين العهدين الراشدي والأموي كان ترتيب أولويات دوافعها وأهدافها يختلف بالنسبة للدولة الإسلامية حسب الظروف العامة لكلّ فترة ومميّزاتها، لكن مع ذلك

1 - محمد عبد الحي محمد شعبان: صدر الإسلام والدولة الأموية 600-750م (132هـ)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ص 92.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 38، ص 154.

3 - نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 387-388.

4 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 226.

5 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 26، ص 445.

دوافعها وأهدافها .....

يمكن التسليم بأنّ الدوافع والأهداف الأمنية في النهاية كانت تحظى بأفضلية مقبولة، وتبقى هي الأبرز من بين جميع العناصر الأخرى، وكان لها حضور قوي منذ تمّ وضع منظومة حملات الصوائف والشواتي قيد التنفيذ في العهد الراشدي إلى غاية نهاية فترة الدراسة أواخر العهد الأموي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الثاني: العوامل المؤثرة فيها

خضعت عمليات الصوائف والشواتي لتأثيرات عديدة كان لها انعكاسات على سيرورتها وانتظامها السنوي أو حتى على حجمها وقوتها وفعاليتها الحربية، وهذه التأثيرات متعددة ومتداخلة، ومنها ما كانت محلية ذاتية تتعلق بالظروف والأوضاع العامة التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية والأحداث التي مرت بها، ومنها ما كانت متصلة بعوامل خارجية متمثلة في الأوضاع الإقليمية ومتغيراتها.

### أولاً- الأوضاع داخل الدولة الإسلامية:

ترتبط ديمومة استمرار إرسال حملات الصوائف والشواتي سنويا ارتباطا وثيقا بوضعية الاستقرار السياسي والأمني داخل الدولة الإسلامية التي عرفت منذ اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان سنة 35هـ/656م العديد من فترات الفتن والاضطرابات الداخلية، وحتى مع تأسيس الدولة الأموية سنة 41هـ/661م، لم تعرف الجبهة الداخلية استقرارا دائما أبدا إذ كانت الحروب الأهلية والانقسامات تفرض نفسها من حين إلى آخر فتستهلك الأمة مقدراتها العسكرية وجهدها الحربي محليا نتيجة الاقتتال بين الأطراف المتعارضة فيها، ما كان يؤثر بشكل مباشر على حملات الصوائف والشواتي والصراع مع الروم خاصة، ولسنا هنا في مقام استعراض الأحداث السياسية والأمنية التي كانت تعترى الدولة الأموية منذ تأسيسها حتى سقوطها بكل تفاصيلها إلا بقدر ما يسمح لنا المجال وما يتصل أساسا بالفكرة التي نحن بصدد توضيحها، حتى وإن كان استعراض بعض حثياتها يفرض نفسه على الموضوع بما أنه يلقي الضوء على كيفية تفاعل هذه الأحداث مع منظومة حملات الصوائف والشواتي وتأثيرها عليها وعلى استمراريتها وقدرة الدولة على الالتزام بها، وهو ما سنحاول التركيز عليه في هذا العنصر بشكل أكبر.

لقد حافظت حملات الصوائف على وتيرة منتظمة ومستقرة نسبيا منذ اعتماد هذه الاستراتيجية في مواجهة البيزنطيين في عهد عمر بن الخطاب حتى وفاة الخليفة عثمان بن عفان سنة 35هـ/656م، حيث عرفت هذه الفترة إعداد واطلاق حوالي اثنا عشر حملة كاملة على بلاد الروم بلغ بعضها عمق الأناضول مثل عمورية، ودرولية، وربما خلقدونية أيضا على مشارف القسطنطينية، قبل أن تتوقف هذه الحملات بشكل تام لمدة تقارب ثماني سنوات كاملة<sup>1</sup> نتيجة انشغال المسلمين بصراعاتهم الداخلية وتوظيف كل مقدراتهم العسكرية في حروبهم على السلطة فيما يعرف بالفتنة الكبرى، وكان معاوية بن أبي سفيان، الذي يشرف على إعداد وإرسال الحملات السنوية، وحتى قيادتها في الكثير من الأحيان، بوصفه المسؤول عن الشام والجزيرة، قد وطّد سلطته في الشام وأقام علاقات متينة جدا مع قبائلها بعد حوالي عشرين سنة من إدارة المنطقة بصفته واليا عليها، وهكذا استطاع توجيه جُندها الذين يقع على عاتقهم تنفيذ حملات

<sup>1</sup> - آخر صائفة إلى بلاد الروم في العهد الراشدي كما جاء في المصادر العربية كانت سنة 33 هـ/654م، ولم يتح لمعاوية إعادة إطلاق الحملات السنوية إلا سنة 42 هـ/662م كما مرّ علينا في بداية الفصل الأول.

الصوائف السنوية ضدّ الروم، إلى التركيز على محاربة منافسه على الخلافة علي بن أبي طالب بدل الالتزام بمواصلة الضغط على البيزنطيين، وكان عدّة من معه من أهل الشام في موقعة صفين أكثر من ثمانين ألف رجل<sup>1</sup>، وقد ترتّب عن ذلك إهمال الجبهة البيزنطية تماما، والمصادر بدورها لا تغفل الإشارة إلى ذلك فالمسعودي مثلا يذكر أنّ المسلمين خلال هذه الفتنة امتنعوا عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب، بل وأكثر من ذلك فقد لجأ معاوية إلى مصالحة ملك الروم على مال يحمله إليه بسبب انشغاله بالصراع مع علي<sup>2</sup>، فقد كان بحاجة إلى تجنيد كلّ الطاقات الحربية المتوفّرة لديه لحسم الصراع مع خصمه، وكانت الضرورة الاستراتيجية تقتضي تحنّب فتح جبهتين متزامنتين من المواجهات (مع علي والروم)، وانتهى تركيز الجهود العسكرية حسب الأولويات بمعاوية إلى إيقاف إرسال الحملات السنوية حتّى يتفرّغ للحرب مع علي ابن أبي طالب، فكان هذا أول ركود يسجّل على نشاط الحملات الموسمية منذ اطلاقها، وبذلك حطّمت هذه الفتنة ولسنوات عديدة انطلاقة الفاتحين العرب كما يقول المؤرخ الفرنسي جون كلود شينييه Jean Claude cheynet<sup>3</sup>، وشلّت تماما المجهودات والعمليات الحربية على جبهة الروم.

مع تأسيس الدولة الأموية وإعادة توحيد الأمة الإسلامية من جديد سنة 41هـ/661م على يد معاوية بن أبي سفيان، تمّ استئناف الحملات الموسمية بسرعة كبيرة، وفي ظلّ الاستقرار العام الذي عرفته الجبهة الداخلية في عهد معاوية طيلة عشرين سنة تقريبا بين 41-60هـ/661-680م استرجعت حملات الصوائف والشواقي حيويّتها وزخمها المعتاد واستطاعت إلحاق هزائم وخسائر كبيرة بالروم وتحقيق مكاسب معتبرة للمسلمين، لكن سنشهد من جديد توقّفا آخر لهذه الحملات بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة 60هـ/680م حيث دخلت الدولة الأموية في مرحلة استقرار هش في ظلّ حكم يزيد بن معاوية القصير نسبيا بين 60-64هـ/680-683م نظرا للرفض الواسع لتولّيه الخلافة والمعارضة التي واجهها في إقرار حكمه، وفعلا ما لبث أن ثار عليه الحسين بن علي بعد ستة أشهر فقط من ولايته للمطالبة بالخلافة لنفسه سنة 61هـ/680م، وواجه يزيد بن معاوية بعد ذلك أيضا تمردا من أهل المدينة سنة 63هـ/683م، ورفض ابن الزبير مبايعته بالخلافة واحتمى بمكة<sup>4</sup>، وهذه الأحداث كانت مقدّمات ومؤشّرات قوية تنذر بقرب انفجار الجبهة الداخلية مرّة أخرى، وفي ظلّ هذه الصعوبات، ومع معاهدة السلم التي كان عقدها أبوه معاوية مع الروم قبيل وفاته مباشرة تقريبا بعد فشل حصار القسطنطينية، لم يكن في استطاعة يزيد الالتزام بإرسال الحملات السنوية واضطرّ إلى التخلّي مؤقتا عن هذا الاجراء التقليدي نظرا لحاجته لإبقاء

<sup>1</sup> - ابن أعثم: المصدر السابق، ج 2، ص 538 / المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 292 / ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328هـ): العقد الفريد، تحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983، ج 5، ص 85.

<sup>2</sup> - مروج الذهب، ج 2، ص 294.

<sup>3</sup> - جون كلود شينييه: تاريخ بيزنطية، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2008، ص 57.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 231-237-252.



الجند الشامي تحت تصرفه لمواجهة التحديّات الداخلية والتصدي لكل تمرد أو معارضة محتملة عملا بوصية والده معاوية<sup>1</sup>، وأكثر من هذا عمد إلى استدعاء الحاميتين الإسلاميتين اللتين كانتا متمركزتين في جزيرتي رودس وقبرص وكانت هذه الأخيرة لوحدها تستقبل اثنا عشرة ألف مقاتل<sup>2</sup>، ما ترك السواحل الشامية مكشوفة تماما أمام البحرية البيزنطية وساهم هذا الأمر في تعقيد حسابات الخليفة إذ أنّ أي تحرك ضدّ الروم في البر سيؤدّي إلى ردّ فعل من طرفهم في البحر وإحراق خسائر معتبرة بالمسلمين وهيبتهم على حدّ سواء، وهنا سيجد يزيد بن معاوية نفسه تحت ضغط مزدوج داخلي وخارجي.

أمّا على الصعيد الداخلي دائما، أدّى تطوّر الأحداث في الحجاز إلى تحرك الخليفة عسكريا ضدّ خصومه حيث أعدّ جيشا معتبرا من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المريّ للقضاء على تمرد أهل المدينة ومحاولة إنهاء حركة ابن الزبير في مكة<sup>3</sup>، وقد استغرق إخماد هذه الفتن كلّ فترة حكمه.

مع وفاة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م، وابنه وخليفته من بعده معاوية في نفس العام، انغمست الأمة الإسلامية في حلقة جديدة من الصراع الداخلي والحروب الأهلية التي سترتّب عنها أطول فترة توقّف للعمليات الحربية ضدّ الروم على الإطلاق، أين عرفت حملات الصوائف والشواتي شللا تاما لفترة تقارب خمسة عشر سنة كاملة، فقد فيها المسلمون زمام المبادرة والمبدأ الذي قامت عليه العمليات الموسمية منذ اعتمادها، وهو الهجوم خير وسيلة للدفاع، وبفعل انقسام الدولة كانت أولوية مروان بن الحكم وابنه عبد الملك من بعده إعادة توحيد الأمة من جديد، فأنجها لتوظيف مقدرات الشام الاقتصادية وقوّتها العسكرية لضرب خصوم الداخل تماما كما فعل معاوية بن أبي سفيان من قبل، وهكذا انشغل الجند الشامي مرّة أخرى بحروب طويلة مع مختلف القوى المعارضة من أجل إعادة تثبيت الحكم الأموي، وسنورد فيما يلي من أسطر بعض الأمثلة عن ذلك حتّى تكون الصورة أكثر وضوحا.

كانت القوّة الشامية بعد وفاة يزيد بن معاوية، ولأوّل مرّة، منقسمة على نفسها ويتجاذب مراكز القوى فيها شخصيتين محوريتين في أحداث تلك المرحلة، هما مروان بن الحكم ممثّل التيار الأموي ومرشح الخلافة في مؤتمر الجابية والذي تسانده حصرا القبائل اليمينية في الشام وبصورة خاصة كلب من جهة، والضحاك بن قيس رجل الشام القوي ممثّل التيار الزبيري والذي تدعمه القبائل القيسية أساسا ويجمع حوله كل الأجناد باستثناء الأردن من جهة أخرى<sup>4</sup>، وقد أدّى الاصطدام بين هاتين الجبهتين في معركة مرج

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 323.

2 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 181-275.

3 - تختلف تقديرات المصادر حول تعداد الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية لإخماد تمرد أهل الحجاز، ففي حين يقدر الطبري وابن الأثير العدد باثنا عشر ألف رجل، يذكر ابن أعمم أنّهم كانوا في سبعة وعشرون ألف، في حين يورد ابن كثير ثلاث روايات مختلفة تقدر عدد الجيش بين عشرة آلاف رجل، واثنا عشر ألف، وسبعة وعشرون ألف.

4 - إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص 146-147.

راهط أواخر سنة 64هـ/684م إلى استنزاف قسم معتبر من القوة الشامية حيث كانت الخسائر كبيرة في صفوف كل قبائلها حتى وصفتها المصادر بأنها كانت مقتلة عظيمة<sup>1</sup>، لكنّ مروان بن الحكم في الأخير استطاع أن يحسم الموقف لصالحه في هذه الموقعة التي ترتب عنها اخضاع كلّ الشام لسلطته، لكنّ الأهم من ذلك إعادة توحيد القوة العسكرية لهذه المنطقة من جديد بعد تجاوز الانقسام الظرفي الذي اعترأها بعد وفاة يزيد بن معاوية كما ذكرنا، أين سيتمّ اقحامها مباشرة في الصراع على الخلافة وتوظيفها ضدّ كل القوى المناوئة للأمويين، وهكذا نجد أنّ مروان بن الحكم بعد هذه المعركة بقليل وبالاعتماد على جند الشام يتوجّه إلى مصر فيضمّها إلى سلطانه بأقلّ جهد، ويرسل جيشاً إلى الحجاز، ويجهّز آخراً يضمّ معظم القوّات الشامية تحت قيادة عبيد الله بن زياد سنة 65هـ/684م لاستعادة العراق<sup>2</sup>. وبعد وفاة مروان بن الحكم وانتقال الخلافة إلى ابنه عبد الملك، استمرّ هذا الأخير على نفس النهج في توظيف القوة الشامية في صراعه ضدّ خصومه في الداخل رغم نصيحة عمّه يحيى بن الحكم بالاكْتفاء بالشام والاستغناء عن العراق<sup>3</sup>، فكان عبد الملك يقوم كل سنة مع اعتدال المناخ، وهي الفترة التي كان يغزو فيها المسلمون بلاد الروم عادة، بتعبئة الجيش الشامي لغزو العراق فيتقدّم حتى يأتي أقصى بلاد الشام في موضع يقال له بطنان حبيب فيعسكر فيه فإذا حلّ الشتاء رجع إلى دمشق<sup>4</sup>، وفي معركة دير الجاثليق المفصلية سنة 72هـ/691م التي انتهت بالقضاء على مصعب بن الزبير واخضاع العراق للسلطة الأموية، رافق عبد الملك بن مروان خمسين ألفاً من أهل الشام<sup>5</sup>، وفي بعض المصادر ثلاث وستون ألفاً من أهل الشام ومصر معا<sup>6</sup>، ومهما يكن الاختلاف

تتضارب المعطيات في المصادر حول أنصار كلّ طرف من طرفي المواجهة في مرج راهط، فيذكر خليفة مثلاً أنّ مروان بن الحكم كان معه ثلاثة عشر ألف من أنصار بني أمية ومواليهم، في حين كان مع الضحّاك ستون ألف من أهل الشام (تاريخ خليفة، ص 259)، وهذا الرقم الأخير يؤكده البلاذري بدوره (أنساب الأشراف، ج 6، ص 269)، بينما يذكر المسعودي أنّ عدّة من كان مع الضحّاك ثلاثون ألفاً، ومن مع مروان ثلاثة عشر ألف (التنبية والإشراف، ص 308)، أمّا ابن أعثم فيعطي أرقاماً أقلّ لجيش الضحّاك الذي ينزل به إلى اثنان وعشرون ألفاً، ويرفع أعداد أنصار مروان إلى ثمانية عشر ألف (الفتوح، ج 5، ص 171).

1 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 6، ص 269 / الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 537.

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 259-262.

يقدر المسعودي عدد الجيش الشامي الذي قاده عبيد الله بن زياد لاستعادة العراق بثلاثين ألف رجل (مروج الذهب ج 3، ص 82)، بينما يذكر الدينوري أنّ ابن زياد كان معه أربعون ألف رجل عندما واجه إبراهيم بن الأشتر عند نهر الخازر في الموصل (الأخبار الطوال، ص 287)، في حين يذكر كلّ من خليفة في تاريخه (ص 262)، والبلاذري أنّ عدد الجيش كان ستون ألف رجل (أنساب الأشراف، ج 6، ص 363)، ويرفع ابن أعثم العدد إلى ثمانين ألف (الفتوح، ج 6، ص 255).

3 - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 104.

4 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 151 / ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 58، ص 220.

5 - محمد ضياء الدين الرئيس: عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص 168.

6 - ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج 6، ص 331.

حول عدد الجيش الذي كان مع عبد الملك ومن كان فيه من أهل الأمصار، فمن المؤكّد أنّه قد اعتمد بشكل أساسي على قوّات أهل الشام وحشد القسم الأكبر من مقاتلة أجنادها لهذه المعركة المصيرية<sup>1</sup>. بالتزامن مع انشغال الجند الشامي بالحروب الأهلية لتثبيت الحكم والسيادة الأموية على باقي أقاليم الدولة الإسلامية، كانت الجزيرة الفراتية تخوض صراعها الخاص حين تفجّرت فيها الحروب القبلية وعمّت أرجائها نتيجة العصبية التي تعمّقت في موقعة مرج راهط، حيث كان زفر بن الحارث المتمركز في قرقيسيا يُغيّر على مناطق قبيلة كلب، في حين كان حليفه عمير بن الحباب السلمي يُغيّر على قبائل قضاعة وكلب وأهل اليمن، فكانت بين قيس المضرية من جهة، وتغلب وكلب اليمينيين حلفاء بني مروان من جهة أخرى، حروب ووقائع اهتمّت المصادر بتدوين أحداثها ووصفتها بـ "الأيام" تماهيا مع أيام العرب وحروبهم ذات الطابع القبلي قبل الإسلام، وقد أدّت هذه الحروب "الأيام" إلى استنزاف قبائل الجزيرة، ولم تتراجع حدّتها إلا بعد مقتل عمير بن الحباب سنة 70هـ/689-690 م<sup>2</sup>.

إنّ تركيزنا في هذه الأمثلة على الجند الشامي بالخصوص، وأهل الجزيرة أيضا، يرجع إلى أنّهم هم بالتحديد من كان يقع على عاتقهم مسؤولية تنفيذ حملات الصوائف والشواقي<sup>3</sup>، وكما توضّح الأرقام في الأعلى فإنّ القوّات الشامية المنخرطة في الصراع خلال فترات الحروب الأهلية كانت ما بين أربعين ألف، وستين ألف رجل، وهو ما يمثّل معظم أو كلّ قوّات الأجناد التي كانت تقدّر على الأقل في خلافة معاوية ابن أبي سفيان بستين ألف رجل حسب المعطيات المتوفرة لدينا<sup>4</sup>، وهكذا يمكن أن نلاحظ بسهولة أنّ انغماس وانشغال معظم أو كلّ القوّات الشامية وأهل الجزيرة بالفتن والصراعات الداخلية عند اضطراب الأوضاع سيؤدّي حتما إلى اهمالهم لواجباتهم الأساسية وابعادهم عن دورهم المحوري في حفظ الثغور وغزو الروم، ويمكن تلمّس هذا من خلال بيت شعر ينسب لعبد الرحمن بن الحكم، أخو مروان بن الحكم يلوم فيه القبائل القيسية المتمركزة في الجزيرة على اهمالها الثغور وتفريطها في واجباتها في حماية المنطقة، حين يقول: **لما الله قيسا قيس عيلان إنها أضاعت ثغور المسلمين وولّت**<sup>5</sup>. وفي مثل هذه الظروف لم يكن في إمكان عبد الملك بن مروان أن يلتزم بإرسال حملات الصوائف ضدّ بيزنطة فيفتح بذلك جبهة أخرى للصراع هو في غنى عنها، مع ما يتطلّب تمويله وتمويل هذه الحملات السنوية من نفقات في ظلّ الإمكانيات المحدودة للشام كما كان عبد الملك نفسه يرى ذلك<sup>6</sup>، لهذا فقد

1 - الدينوري: الأخبار الطوال، ص 301.

2 - إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص 180-181.

3 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 191.

4 - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج 1، ص 172.

5 - الطبري: المصدر السابق، ج 5، ص 544.

6 - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 104.

تبنت سياسة سلمية تجاه الإمبراطورية البيزنطية، بل واضطرَّ حتى إلى طلب الصلح من الإمبراطور جستنيان الثاني سنة 70هـ/689م مقابل أموال يدفعها له كل سنة لإبعاده عن الشام<sup>1</sup> مقتدياً بما فعله معاوية من قبل خلال فترة الفتنة الأولى، ولم يُتَّح لعبد الملك بن مروان إعادة بعث الصراع مع الروم بكلِّ قوَّة إلا بعد أن تمَّ له استرجاع الاستقرار والسيادة على كامل بلاد الإسلام عقب القضاء على ابن الزبير في مكة سنة 73هـ/692م، أين وجد نفسه بعدها متحرِّراً من كل ضغوطات داخلية وفي وضعية مريحة تسمح له بإعادة تعبئة موارده وقواته لاستئناف الصراع مع البيزنطيين، وحتى المصادر البيزنطية لم يغب عنها هذا الأمر فنجدها تصرِّح أنَّ العرب منذ استرجعوا السلم الداخلي واستأنفوا حملاتهم السنوية أصبحوا أكثر جرأة في استهداف وتخريب بلاد الروم<sup>2</sup>، وفعلاً لم تنقطع بعدها حملات الصوائف على آسيا الصغرى طيلة نصف قرن تقريباً إلا بشكل محدود جداً في حالات نادرة، إلى غاية عودة الصراعات على الخلافة من جديد بعد اغتيال الوليد بن يزيد سنة 126هـ/744م.

وفي الفترة ما بين 74-125هـ/693-743م، لم تشهد عمليات الصوائف والشواقي توقفاً بسبب عوامل سياسية أو أمنية داخلية إلا مرة واحدة فقط لمدة سنة قبل أن تعاود نشاطها، وكان ذلك سنة 101هـ/720م عندما قاد يزيد بن المهلب ثورة في العراق ضدَّ يزيد بن عبد الملك أواخر تلك السنة، وقد تزامن ذلك مع فترة موسم حملات الصوائف أين كانت الحملة الموسمية التي ضمت جند الشام والجزيرة قد شارفت على انهاء استعداداتها وتجهزت للانطلاق إلى بلاد الروم بقيادة مسلمة بن عبد الملك<sup>3</sup>، ومع توالي الأخبار عن تمرد ابن المهلب وسيطرته على البصرة، لم يكن بين يدي يزيد بن عبد الملك من قوَّات في حالة جاهزية عسكرية إلا جيش الصائفة، وخوفاً من توسع التمرد نظراً لمكانة عائلة المهلب في العراق وخراسان وعمان، ومن أجل احتواء الوضع قبل أن يخرج عن السيطرة تماماً، لم يجد يزيد بن عبد الملك بُدّاً من التعجيل بتوجيه ما توقَّر من قوَّات الصائفة تحت قيادة العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس (وفي بعض الروايات عشرين ألف رجل)، قبل أن يلحق به مسلمة بن عبد الملك على رأس أهل الشام<sup>4</sup>، إلى العراق وكانوا فيما بين سبعين ألف أو ثمانين ألف مقاتل<sup>5</sup>، لمعالجة الوضع الطارئ هناك الذي تسبَّب فيه ابن المهلب، وهكذا تمَّ الاستغناء عن غزو الروم تلك السنة نتيجة الاضطراب في العراق الذي استقطب القوَّات الشامية ومعها قوَّات الجزيرة المكلفين بحملة الصائفة، وقد استغرق تجميع خطر الثورة تماماً عدَّة أشهر، حيث

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 188 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 150.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 512.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 38.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 585 / ابن أعثم: المصدر السابق، ج 8، ص 224. ويذكر ابن عساکر أنَّ عمر بن عبد العزيز هو من أمر بتوجيه جيش الصائفة لإخماد ثورة ابن المهلب.

<sup>5</sup> - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 336 / مجهول: العيون والحدايق، ج 3، ص 68. في رواية ابن أعثم كان مع مسلمة ثلاثون ألفاً فقط (الفتوح، ج 8، ص 224)

لم يتمّ القضاء على يزيد بن المهلب واطمأن التمرد إلا في صفر سنة 102هـ/أوت 720م<sup>1</sup>، حيث كان الوقت قد تأخر كثيرا لإرسال حملة الصائفة.

مع اغتيال الوليد بن يزيد سنة 126هـ/744م اضطربت أوضاع الدولة الأموية وتفجّر الصراع على الخلافة من جديد، لكن هذه المرة حدث انقسام بين أفراد البيت الأموي فتفرقت كلمة أهل الشام، ومرة أخرى فقدوا وحدتهم العسكرية وانقطعت بذلك حملات الصوائف والشواقي، إذ لم تعد مناطق الثغور خاصة في شمال الشام والجزيرة تستطيع أن تلعب دورها الطبيعي كقاعدة لانطلاق الحملات السنوية ضدّ بلاد الروم كالمعتاد بل غدت ميدانا للفتن والثورات<sup>2</sup>.

وكان على مروان بن محمد أن يحسم الصراع لصالحه على أكثر من جبهة، ضدّ منافسيه من بني مروان، وأيضا ضدّ الحوارج وقادة الثورات التي اندلعت في كل مكان تقريبا، ومع تركيزه على منطقة الشام غير المستقرة تماما لم يكن هناك مجال حتى للتفكير في الاستغناء عن جزء من قوّاته لتشكيل حملات الصوائف وإرسالها إلى آسيا الصغرى للقيام بنشاطها المعتاد، وأكثر من هذا اضطرّ حتى إلى المخاطرة بأمن الثغور عندما سحب قسم من مجموعة الصقالبة، الذين تمّ توطينهم بالمنطقة من قبل، من أجل دعم موقفه العسكري في مواجهة خصومه حيث نجد من ضمن مساعدي مروان بن محمد عند مواجهته جيش الشام بقيادة سليمان بن هشام قرب قنّسرين سنة 127هـ/745م، فارس من أنطاكية اسمه سلساق، الذي تقدّمه المصادر على أنّه قائد الصقالبة ضمن جيش مروان<sup>3</sup>، ويستطيع المرء أن يتصوّر حجم الخلل الذي سيصيب النظام الدفاعي في منطقة الثغور مع سحب الجند المرابط بها لتوظيفه في الحروب الداخلية ما يجعل المنطقة الحدودية مكشوفة أمام أي هجوم بيزنطي، وهكذا أدّت الصراعات الداخلية التي كانت تمزّق المسلمين ليس فقط إلى وقف الحملات الموسمية على بلاد الروم، بل وانتقال زمام المبادرة كاملا إلى الدولة البيزنطية<sup>4</sup>.

وبجانب التوقّف الاضطراري لحملات الصوائف والشواقي خلال فترات الفتن كما تمّ استعراضه سابقا، نلاحظ أيضا أنّ وتيرة العمليّات وفعاليتها تصبح أكثر ضعفا عندما تكون الأوضاع الأمنية غير مستقرّة أو عندما تندلع حركات مسلحة معارضة للدولة الأموية، فبين سنتي 82-83هـ/701-702م مثلا كانت الحملات محدودة جدا ولم تكد تتجاوز المناطق الحدودية في محيط قيليقية، بفعل انشغال الخلافة والجند الشامي بالسيطرة على الأوضاع في العراق في تلك الفترة بعد ثورة ابن الأشعث حيث اضطرّ عبد الملك بن مروان إلى توجيه أغلب قوّات الشام والجزيرة بقيادة ابنه عبد الله وأخيه محمد بن مروان مع حوالي

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 325 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 590.

2 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 2، ص 115.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 324.

4 - غلا عبد العزيز أبو زيد: المرجع السابق، ص 62.

سبعين ألف رجل مددا إلى الحجاج بن يوسف عند دير الجماجم<sup>1</sup>، وقد أثر هذا على قدرة الخلافة في تجنيد المقاتلين لإعداد حملة قوية ضدّ الروم حتى أنّ المصادر لا تغفل الإشارة ضمينا إلى هذه الصعوبات عندما تذكر أنّ عبد الله بن عبد الملك الذي قاد حملة سنة 83هـ/702م غزا في قلّة من الناس<sup>2</sup>.

وبالإضافة إلى انعكاسات الأوضاع السياسية والأمنية داخل الدولة على وتيرة واستمرارية حملات الصوائف والشوائب كانت للعوامل الطبيعية والأوبئة تأثير هي الأخرى على هذا النشاط، حيث كان القحط وتفشي الوباء مثلا عوامل تؤدي إلى خلق صعوبات لوجستية حقيقية في أعداد الحملات<sup>3</sup>، ما يساهم في الحدّ من قوّتها أو حتى إلى تعليق نشاطها، وتوثق لنا المصادر في هذا الصدد بشكل استثنائي ملفت للانتباه حادثة وبائية كان لها انعكاسات مباشرة على عمليّات الغزو، حين تذكر أنّ طاعونا شديدا أصاب أهل الشام سنة 698هـ/698م نتج عنه هلاك قسم كبير من السكان فلم تخرج تلك السنة حملة عسكرية ضدّ بلاد الروم<sup>4</sup>، ورغم أنّ المصادر تربط هذا التوقّف الاضطراري للغزو بانخفاض عدد سكان الشام وضعفهم بفعل الوباء الحاد<sup>5</sup> الذي اجتاح المناطق التي تقطنها القبائل المكثفة بغزو الأقاليم البيزنطية في آسيا الصغرى وما خلفه من خسائر كبيرة في الأرواح، إلّا أنّ التوقّف عن الغزو ربّما يرجع أساسا لاستمرار انتشار الوباء لفترة طويلة ما حال دون القدرة على تعبئة القوّات للمشاركة في الصائفة مخافة تفشي الطاعون في صفوف المقاتلين، وقد سجّلت المصادر ظهور الوباء بعد ذلك بفترة قصيرة في البصرة سنة 80هـ/699م بصورة حادة أيضا حتى أطلقت عليه اسم الطاعون الجارف<sup>6</sup>، وربّما يكون قد انتقل إليها من الشام، كما يمكن أن نضيف عاملا آخرًا يكون قد ساهم بدوره في التخلّي عن صائفة تلك السنة، يتمثّل في انشغال أهل الشام بما أصابهم وضعفهم عن التحضير للحملة، وهو ما استغلّه الروم فقاموا باستهداف أنطاكية وألحقوا بأهلها خسائر معتبرة<sup>7</sup>، كما نلاحظ كذلك أنّ المسلمين على الأرجح لم يغزو في صائفة السنة الموالية أيضا، عام 80هـ/699م، (رغم أنّ الطبري يتحدّث عن حملة بقيادة الوليد بن عبد الملك<sup>8</sup>) وهذا ربّما لاستمرار تأثير تداعيات هذا الوباء على السكان ما يبيّن بشكل واضح حجم الضرر الذي لحق بهم حتى عجزوا عن الغزو لسنتين متتاليتين.

1 - ابن أعمش: المصدر السابق، ج 7، ص 91.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 29، ص 345.

3 - يذكر كلٌّ من خليفة في تاريخه وابن الجوزي في المنتظم مثلا أنّ أهل الشام تخلّفوا عن غزو العراق مع عبد الملك سنة 688-689هـ/688-689م لقحط وجوع أصابهم تلك السنة ولو حدث ذلك وحملات الصوائف ما زالت نشيطة لربّما منعهم هذا الطارئ من الغزو أيضا.

4 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 322 / ابن الجوزي: المنتظم، ج 6، ص 203.

5 - ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 285.

6 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 325.

7 - الطبري: المصدر نفسه، ج 6، ص 322 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 285.

8 - الطبري: المصدر نفسه، ج 6، ص 330.

وكان للظروف الطبيعية والمناخية تأثير على الحملات الموسمية أيضا فشدة البرودة وانعدام المراعي في فصل الشتاء، بالإضافة إلى تراكم الثلوج لوقت طويل، كان يساهم في عرقلة تحركات المسلمين ويتسبب حتى في إلحاق خسائر معتبرة ضمن صفوفهم في بعض الأحيان<sup>1</sup>، وكان انغلاق الممرات الجبلية عند الثغور يحول دون قدرة القوّات الإسلامية على اجتياز الدروب إلى بلاد الروم<sup>2</sup>، أو التساقط الغزير للأمطار الذي يؤدّي إلى انزلاقات في التربة في بيئة تضاريسية وعرة أصلا ما يصعب من تحركات المسلمين وقد يؤدّي في بعض الأحيان إلى تسجيل خسائر في الأرواح بين جنود الحملة<sup>3</sup>، وهذه كلّها عوامل كانت تحدّ من مجال نشاط الحملات وتضعف فعاليتها وبالتالي تؤثّر على النتائج التي يمكن أن تحقّقها، ونظرا للصعوبات الحقيقية التي كانت تطرحها هذه الظروف الصعبة والمعاكسة تمّ الاستغناء تقريبا بشكل شبه كلي عن حملات الشواتي في العهد المرواني، فعلى عكس فترة خلافة معاوية بن أبي سفيان التي تميّزت بكثرة هذا النوع من الحملات لا نجد لاحقا في العهد المرواني إلا حالات نادرة جدّا لتنفيذ حملات شتوية.

وكما كان لبعض العوامل، خاصة السياسية والأمنية منها، انعكاسات سلبية على منظومة الحملات السنوية، يمكن أيضا بالعكس أن نلاحظ بأنّ الاستقرار والتماسك في الجبهة الداخلية كان له تأثير إيجابي محسوس على حملات الصوائف والشواتي، أين تصبح أكثر قوة وانتعاشا وتشهد ارتفاعا في نسقتها ووتيرتها، حيث تجد الخلافة نفسها متحرّرة من كل قيود وضغوطات داخلية لتركّز اهتمامها على الصراع مع خصمها الرئيسي، الإمبراطورية البيزنطية، فتعنى بالإعداد الجيّد للحملات وتسخر لها إمكانيات أكبر، وهنا يمكن أن نتميّز بكل وضوح ثلاث مراحل رئيسية عرفت فيها الحملات الموسمية اندفاعا كبيرا وفعالية عالية مستفيدة من استقرار الأوضاع الداخلية:

المرحلة الأولى امتدّت طوال سنوات خلافة معاوية بن أبي سفيان بين 41-60هـ/661-680م، تميّزت فيها حملات الصوائف والشواتي بحيوية كبيرة حتى أنّ بعضها كان يستغرق عدّة أشهر في بلاد الروم، فتمضي الشتاء هناك بعد توقف عمليّاتها العسكرية مع انقضاء فصل الصيف، ومنها من كان يقيم في بلاد الروم لسنتين متتاليتين<sup>4</sup>، واستطاعت أن تغطّي كلّ مناطق آسيا الصغرى تقريبا، وهذا الاندفاع تحقّق بفضل تماسك الجبهة الداخلية وانتقال المسلمين إلى التركيز على التحدّيات الخارجية التي تواجههم، بالإضافة إلى الاهتمام والدعم المطلق الذي حظيت به منظومة الصوائف والشواتي من طرف الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي يتمتّع بخبرة واسعة في الصراع مع الروم منذ كان واليا على الشام والجزيرة في العهد الراشدي، ويقدر جيدا أهمية الدور الذي تؤدّيه هذه الحملات السنوية في مواجهة البيزنطيين، وقد برز من

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 7، ص 94.

2 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 18، ص 258.

3 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 57، ص 79.

4 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 34، ص 330.

قادة الحملات في هذه المرحلة عدّة شخصيات من الصحابة وأبنائهم أو الفاتحين الأوائل مثل سفيان بن عوف الغامدي، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ويُسّر بن أبي أرتأة. أما المرحلة الثانية والتي بلغت فيها حملات الصوائف ذروتها فتبدأ منذ إعادة بعث الحملات الموسمية من جديد، بعد فترة ركود طويلة، ابتداء من النصف الثاني لخلافة عبد الملك بن مروان حتى حملة القسطنطينية الكبرى أواخر القرن الأول هجري، وتمتدّ زمنيًا بين سنوات 74-98هـ/693-716م، وشهدت فيها عمليّات الغزو الموسمي استرجاع نسقها المعتاد واستطاعت أن تحقّق مكاسب كبيرة جدا على الأرض وقد ساعدها على ذلك الظروف التي كانت تمرّ بها الإمبراطورية البيزنطية كما سنوضح ذلك بالتفصيل لاحقًا، وقد عرفت أواخر هذه الفترة إجراء تعديل مهم جدا على منظومة حملات الصوائف ابتداء من سنة 93هـ/712م على الأقل، عندما تقرر إرسال حملتين (صائفتين) منفصلتين بشكل متزامن على بلاد الروم كلّ سنة بدل حملة واحدة كما كان معمولا به في السابق، الحملة الأولى والتي أصبحت تُعرف بالصائفة اليمنى كانت من اختصاص جند الجزيرة وتدخل بلاد الروم عبر ملطية، أو درب الحدث، أو مرعش، وتنشط عادة في المناطق الشرقية الوسطى وشمال آسيا الصغرى ضمن نطاق بند الأرميناك عموما، أمّا الحملة الثانية التي تُعرف بالصائفة اليسرى كانت من اختصاص جند الشام وتدخل بلاد الروم عبر درب البوابات القيليقية بعد اجتياز أنطاكية مرورًا بالمصيصة، ويغطّي نشاطها منطقة وسط وجنوب آسيا الصغرى، وهاتين التسميتين مستوحاة كما هو واضح من المسار الذي تتخذه كلّ حملة في طريقها للغزو، حيث تسلك الأولى مسارا عبر الجناح الأيمن للغور انطلاقًا من الجزيرة الفراتية، أمّا الثانية فتأخذ طريقًا عبر الجناح الأيسر انطلاقًا من الشام مرورًا بقيليقية. وقد اشتهر في هذه المرحلة من قادة الحملات العديد من أفراد البيت الأموي الحاكم الذين بدأوا يكتفون تقريبًا القيادة والإشراف على هذا النشاط مثل محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك، ومسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد.

أمّا المرحلة الأخيرة التي عرفت فيها حملات الصوائف حيويّة وانتعاشًا كبيرين، فتستغرق معظم خلافة هشام بن عبد الملك ما بين 107-122هـ/726-740م، والتي شهدت فيها الحملات الموسمية عودة نشاطها الكبير داخل الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، خاصة مع الهدوء النسبي الذي تميّزت به الأوضاع الداخلية للدولة الأموية، وأيضًا بفضل استقرار معالم التعديل الذي تمّ استحداثه على منظومة حملات الصوائف كما سبق الإشارة إليه. وكان الغالب على قيادة الحملات في هذه الفترة ابنا الخليفة، معاوية بن هشام، وسليمان بن هشام.

وهكذا يتبيّن أنّ الوضع الداخلي للدولة الإسلامية بشكل خاص كان ينعكس بصورة مباشرة على حيويّة حملات الصوائف والشواقي، ففترات الفتن والاضطرابات الداخلية كانت تستقطب الاهتمام السياسي وتستهلك كلّ الجهد العسكري الممكن للمسلمين في صراعات بينية مضيئة تجعل الأمة في حالة انكماش على نفسها وغير قادرة على استثمار امكانياتها لمواصلة الضغط على خصومها الإقليميين،



العوامل المؤثرة فيها .....

وعكس ذلك يبدو واضحاً أنّ الخلافة كان في إمكانها خلال فترات الاستقرار الاستفادة من الهدوء والوحدة الداخلية لتوجيه طاقاتها بشكل مركّز على أعدائها الخارجيين خاصة الإمبراطورية البيزنطية، ما يسمح لها بتحقيق مكاسب جيّدة تدعم بها موقفها وتفوّقها على غيرها من القوى المعادية.

### ثانياً- الظروف الإقليمية:

كانت الأوضاع داخل الإمبراطورية البيزنطية نفسها بكلّ ما تعرفه من تقلّبات تنعكس بصورة مباشرة على أداء ونتائج حملات الصوائف والشواتي، كما أنّ الظروف الإقليمية المحيطة بالدولة الأموية كانت تؤثّر بدورها على الصراع الثنائي بين الخلافة والإمبراطورية البيزنطية خاصة في ظلّ سعي هذه الأخيرة لتوظيف القوى المعادية على أطراف دولة الخلافة للتحرش بالمسلمين في محاولة منها لإشغالهم عنها بصراعات هامشية وإبعاد الضغط العسكري الذي تمارسه الدولة الأموية عليها من خلال الحملات الموسمية السنوية صيفا وشتاء، وسنعمل في هذا العنصر على تحليل تأثير هذه الأوضاع والظروف على حملات الصوائف والشواتي سلبا وإيجابا.

### 1- الأوضاع داخل الإمبراطورية البيزنطية:

كانت أوضاع الإمبراطورية البيزنطية الداخلية ذاتها من العوامل التي لها تأثير قوي وملموس على سيرورة الحملات السنوية وحجمها وقوّتها وفعاليتها بل وحتىّ النتائج والمكاسب التي تحقّقها، ففي فترات الفوضى والاضطرابات السياسية والعسكرية التي تشهدها بيزنطة من حين إلى آخر كانت الحملات تندفّق على بلاد الروم دون تحدّيات حقيقية تواجهها، وكانت تحقّق نتائج كبيرة، في المقابل كان الاندفاع الإسلامي في الأقاليم البيزنطية يصادف صعوبات حقيقية ومقاومة جادّة عندما كانت الإمبراطورية تنعم باستقرار وتماسك داخلي، خاصة في ظلّ حكم الأباطرة الأقوياء ممّن كانوا يتمتعون بمؤهلات تنظيمية وعسكرية عالية مثل مؤسس الأسرة الإيسورية ليو الثالث مثلاً وابنه قسطنطين الخامس، وهي الفترة التي تزامنت مع آخر ثلاثين سنة من عمر الدولة الأموية.

مع تأسيس الدولة الأموية واسترجاع المسلمين وحدتهم وقوّتهم كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انحدرت إلى مستوى خطير من الضعف والفوضى وانتشار الفتن، خاصة في الأقاليم الغربية التي تقع في القسم الأوربي أين كان يشكّل تدفّق السلاف على البلقان، وثورة الأهالي في صقلية على خلفية الصراعات المذهبية مع الإمبراطور، وتقدّم اللومبارد على حساب ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في إيطاليا، ازعاجا مزماً للقسطنطينية، ولمواجهة هذه التحديّات الخطيرة ووضع حدّ للفوضى في الأقاليم الغربية التي تمثل الجزء الأوربي من بيزنطة قرّر الإمبراطور قسطنطين الثاني Constans II القيام بحملة على البلقان ابتداء من سنة 658م (37-38هـ) وبعد توقّف طويل في أثينا، قرّر الانتقال إلى صقلية مصطحباً معه عشرين ألفاً من رجال جيشه الآسيويين، وقد شغلت هذه الأحداث في الغرب الإمبراطور بشكل كامل طيلة فترة عشر

سنوات تقريبا<sup>1</sup>، وقد استغلّ قائد الأرمينياق سابور Saborios هذا الوضع وأعلن الثورة في الشرق سنة 668م (48هـ) ضدّ قنسطانز الثاني<sup>2</sup>، ما فاقم من متاعب بيزنطة أكثر، وقد ساهم هذا الوضع، بالإضافة إلى قرار الإمبراطور نقل جنوده من آسيا الصغرى إلى إيطاليا وبشكل خاص جنود بند الأوبسيكيون، في اختلال النظام الدفاعي للإمبراطورية في الأناضول فلم يكن هناك ما يكفي من القوّات في المنطقة لمواجهة المد الإسلامي<sup>3</sup> والدفاع عن المدن والحصون فيها، وهكذا أصبحت الأراضي الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية مكشوفة ومفتوحة تماما أمام تحركات القوّات الإسلامية حيث يمكن أن نتبيّن ذلك بوضوح من خلال الأخبار التي تنقلها المصادر عن الحملات الإسلامية الموسمية في تلك الفترة التي شهدت انتعاشا كبيرا، فقد كانت الصوائف والشواتي تجد سهولة كبيرة في اختراق الدفاعات البيزنطية وتنفيذ مهامها الحربية واستطاعت أن تضرب الأهداف المعادية في العمق الجغرافي لخصمها، وتمدّ فترة نشاطها لوقت طويل تستغرق كلّ الصيف والشتاء، وبعضها كان يقيم سنتين متتاليتين في بلاد الروم دون أن تتعرّض لتهديدات حقيقية أو مقاومة جدّية، واستطاع المسلمون أن يصلوا حتّى إلى مشارف العاصمة البيزنطية عندما استهدفوا مدينة خلقدونية والساحل الشمالي الغربي لآسيا الصغرى المطلّ على بحر مرمره، وبحقّقوا مكاسب جيّدة مستغلّين الأوضاع الحرجة التي كانت تمرّ بها بيزنطة.

وبعد فترة من الاستقرار الداخلي، تزامنت مع انغماس المسلمين في حروب أهلية فيما يعرف بالفتنة الثانية، عادت لاحقا الفوضى من جديد لتفرض نفسها داخل الإمبراطورية البيزنطية بعد أن أدّى الانقلاب الذي قام به ليونتئوس Leontios قائد بند الأناضول سنة 695م/76هـ ضدّ الإمبراطور جستنيان الثاني إلى تداعي الأوضاع في الإمبراطورية لمُدّة طويلة، امتدت بين سنوات 695-717م (76-98هـ) والتي تعرف بفترة العشرين سنة من الفوضى<sup>4</sup>، فبرزت أطماع وطموحات العديد من قادة الثيمات الأقوياء للاستيلاء على السلطة، وكان الجو السائد هو جوّ المؤامرات والانقلابات العسكرية<sup>5</sup>، فقد عرفت هذه الفترة تعاقب سبعة أباطرة على العرش البيزنطي<sup>6</sup> ما يعكس صورة عدم الاستقرار السياسي والأمني بكلّ وضوح، وقد أدّى هذا التنافس الداخلي على السلطة بقيادة الجند إلى التركيز على تثبيت مناصبهم والانشغال بالسياسة وإهمال الشؤون العسكرية فانهار النظام الدفاعي للإمبراطورية مرّة أخرى، وقد وجد المسلمون الذين كانوا قد استرجعوا وحدتهم من جديد قبل ذلك بقليل واستأنفوا حملات الصوائف منذ سنة

<sup>1</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 92-93-94.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 488.

<sup>3</sup> - Walter Emil Kaegi: Byzantine Military Unrest, p 165.

<sup>4</sup> - Bury: op cit, Vol 2, p 352.

<sup>5</sup> - جون كلود شينيه: المرجع السابق، ص 59.

<sup>6</sup> - ليونيوس بين 695-698م، وأبسيماروس (طيبوريوس الثالث) بين 698-705م، وجستنيان الثاني (للمرّة الثانية) بين 705-711م، وفيليبكوس بين 711-713م، وأنسطاسيوس الثاني 713-715م، وثيودوسيوس 715-717م، وليو الثالث ابتداء من سنة 717م.

74هـ/693م، هذه الفرصة مواتية لتحسين موقفهم في مواجهة الروم وتحقيق المزيد من المكاسب على حساب الأراضي البيزنطية<sup>1</sup>، حتى أنّ المصادر البيزنطية الأساسية التي تؤرّخ لتلك الفترة لا تغفل بصورة استثنائية ورائعة هذه المسألة وتشير بكل وضوح إلى العلاقة بين انتشار الفوضى في الداخل البيزنطي وتزايد نشاط المسلمين الحربي في آسيا الصغرى، حيث يذكر البطريك المؤرّخ نففور حرفيا: «وبسبب تفشّي وتكرّر ظاهرة الاستيلاء على الحكم بالقوة أهملت شؤون الإمبراطورية والعاصمة وتراجع شأنها، كما تضعضع النظام العسكري وكنتيحة لذلك أصبح العدوّ قادرا على غزو بلاد الروم والتسبب في العديد من المجازر والسي والاستيلاء على المدن دون عقاب»<sup>2</sup>. لقد أدرك نففور، المؤرّخ البيزنطي الأقرب زمنيا لهذه الأحداث، بكلّ وضوح انعكاسات انفلات الأوضاع السياسية والأمنية في بلاده على موقفها في مواجهة عدوّها الرئيسي (المسلمين) ولم يفوّت فرصة تدوين هذه الشهادة في كتابه "التاريخ المختصر" لتبقى شاهدا على تداعيات الفوضى الداخلية وما يمكن أن يعانیه البيزنطيون عندما ينغمسون في الصراعات العقيمة على العرش والسلطة.

فعلا لقد ساهم عدم الاستقرار الداخلي للإمبراطورية البيزنطية في زعزعة نظامها الدفاعي ما أحدث فراغا كبيرا أتاح المجال أمام حملات الصوائف للاندفاع داخل آسيا الصغرى دون عوائق حقيقية، واستعادة عنفوانها من جديد وفرض أسبقية جيدة في مواجهة الروم، أين استطاعت الحملات الموسمية في هذه الفترة تحقيق إنجازات غير مسبوقه مثل إعادة تثبيت السيادة الإسلامية على قاليقلا سنة 81هـ/700م<sup>3</sup>، والاستيلاء على المصيصة سنة 84هـ/703م، ومدينة طوانة سنة 88هـ/707م<sup>4</sup>، وكل من طرنده وطنادة في عام واحد سنة 92هـ/711م<sup>5</sup> وغيرها من الإنجازات الكبيرة.

وعليه يبدو واضحا جدّا أنّ الفوضى في داخل الإمبراطورية البيزنطية كانت من العوامل الرئيسية التي تسهّل من مهمّة عمليات الصوائف والشواتي، وتنعكس على أدائها إيجابا أين تنتعش هذه الحملات في فترات عدم الاستقرار التي تعترى بيزنطة، كما كان أيضا في إمكان الخلافة الاستفادة من الوضع لتحقيق مكاسب وتقدّم معتبر على حساب الروم، وهي إحدى الاستراتيجيات المشتركة التي كان يطبّقها كلا الطرفين في إطار الصراع الذي جمعهما.

لكن كما كانت الدولة الإسلامية تستفيد من تردّي الأوضاع الداخلية للإمبراطورية فتصبح الحملات السنوية أكثر توفيقا، نلاحظ أيضا بالمقابل أنّ هذه الحملات كانت تواجه صعوبات حقيقية تحدّد من

<sup>1</sup> - عمر يحي محمد: البيزنطيون والعرب، ص 300.

<sup>2</sup> - Nikephoros: Op cit, p 121.

<sup>3</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 331.

<sup>4</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 291-302.

<sup>5</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

خطورتها وفعاليتها كلما استعادت بيزنطة السلم والاستقرار الداخلي خاصة في ظلّ حكم الأباطرة الأقوياء، ما ينعكس سلبيًا على حملات الصوائف والشواتي، فالهزائم والخسائر في صفوف المسلمين التي كانت قليلة جدا ولا تأتي المصادر على ذكرها إلا نادرا قبل حصار القسطنطينية الفاشل الذي قاده مسلمة بن عبد الملك مع نهاية القرن الأول هجري/بداية القرن الثامن ميلادي نجدها أصبحت أقلّ غرابة بعدها في ظلّ حكم الأسرة الإيسورية بقيادة مؤسسها ليو الثالث الذي يميّز بالحيويّة والذكاء مع كفاءة عسكرية وتنظيمية عالية، وتحت حكم هذه الأسرة أصبحت الحملات الموسمية تلقى صعوبات حقيقية عند التوغّل في بلاد الروم وتواجه بمقاومة عنيفة ألحقت في بعض الأحيان خسائر معتبرة بالمسلمين نتيجة تطوّر الأداء العسكري لجنود الثيمات، ومن الأمثلة على ذلك، الخسائر التي تكبّدها في الحملة التي قادها العباس بن الوليد سنة 103هـ/721م في محيط حصن دبسة Thebassa<sup>1</sup> في منطقة قبادوقيا، وبعد ذلك بثلاث سنوات عام 106هـ/724م عندما فقد سعيد بن عبد الملك سرية كاملة من ألف رجل في مواجهة الروم<sup>2</sup>، ولاحقا أيضا في سنة 109هـ/727م حين قضى الروم على قسم معتبر من قوّات الفرسان التي يقودها عبد الله البطلّ عند حصن العطاسين (طيبة) Ateous<sup>3</sup>، وإن كانت هذه الخسائر قد تزامنت مع ظروف محلية وإقليمية معاكسة كانت تتعرّض لها الخلافة ساهمت في تراجعها، إلا أنّ الهزيمة الكبيرة التي تكبّدها المسلمون في أكروينون (أقرن) سنة 122هـ/740م والتي أدّت إلى استشهاد عدة آلاف منهم في مواجهة الجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور ليو الثالث<sup>4</sup> تعكس بشكل واضح الصعوبات التي أضحت تواجهها حملات الصوائف في ظلّ استقرار وتماسك الجبهة الداخلية للروم.

## 2- الوضع الإقليمي:

بجانب الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية، كان للوضع الإقليمي المحيط بالقوتين تأثيره هو الآخر على حملات الصوائف والشواتي، وهذا الوضع الإقليمي كثيرا ما كانت الإمبراطورية البيزنطية تسعى لتوظيفه لصالحها للتخفيف من الضّغط الإسلامي ووطأة الحملات السنوية على أراضيها، والأوضاع الإقليمية التي كان لها تأثيرا مباشر وملموس على حملات الغزو السنوي هي تلك التي كانت تحدث في منطقة أرمينية والقوقاز، وقد سبق وتحدثنا بنوع من التفصيل في الفصل السابق عن استراتيجية الإمبراطورية البيزنطية في التعامل مع الأحداث الإقليمية لتشتيت تركيز المسلمين وجهدهم ودفعهم بعيدا عن أراضيها في آسيا الصغرى، وسنحاول هنا التركيز على توضيح وتحليل العلاقة بين هذه الظروف وحملات الصوائف والشواتي، ونهدف لإبراز انعكاساتها وتأثيرها على إعداد الحملات الموسمية وفعاليتها.

<sup>1</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 243.

<sup>2</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 21-46.

<sup>3</sup> - يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 243.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 571.

كانت السياسة البيزنطية في أرمينية، كما ذكرنا سابقاً، تقضي بمحاولة إضعاف النفوذ الإسلامي فيها وتشجيع نبلائها على التمرد ضدّ الوجود العربي مستغلّين الشعور القومي القوي لسكان المنطقة وتطلّعات أهلها للانفصال ما يجلب تركيز المسلمين عليها، حيث كلّما كانت المسألة الأرمينية تطفو على سطح الأحداث تستقطب مجهوداً عسكرياً معتبراً من المسلمين لإعادة فرض السيادة الإسلامية عليها، وتصبح أولوية حملات الصوائف تنفيذ عمليات عسكرية وقائية بين أرمينية وبند الأرمينيا في الشرق لدفع البيزنطيين بعيداً ومنعهم من التدخل، وهكذا كانت الحملات الموسمية تُختزل في مجال جغرافي محدود ما يتيح لباقي مناطق آسيا الصغرى في الغرب والجنوب التخلّص قليلاً من الضغط الإسلامي ما يسمح لها بإعادة ترتيب أوضاعها من جديد، وكانت بيزنطة قد استغلّت توقف حملات الصوائف طيلة عقد ونصف تقريباً بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة 60هـ/680م لإعادة ضمّ أرمينية من جديد بين 686-693م (66هـ/73هـ)<sup>1</sup>، ويمكن أن نلاحظ بعد هذا التاريخ أنّ حملات الصوائف مع استئنافها في الربع الأخير من القرن الأول هجري قد استهدفت كل من أندريّة سنة 74هـ/693م<sup>2</sup>، وأرمينية الرابعة سنة 76هـ/695م<sup>3</sup>، ومنطقة خرشنة في السنة الموالية، عام 77هـ/696م<sup>4</sup>، وقاليقلا سنة 81هـ/700م<sup>5</sup>، وطُرُنْدَة في سنة 84هـ/703م<sup>6</sup>، وكما هو واضح فكُلّها مناطق تقع على الأطراف الشرقية للإمبراطورية البيزنطية وغير بعيدة عن أرمينية، ولم تباشر حملات الصوائف التوغّل في عمق بلاد الروم من جديد إلّا ابتداءً من سنة 89هـ/708م حين وصل مسلمة بن عبد الملك بقوّاته إلى عمورية حاضرة بند الأناضول، لترتفع بعدها وتيرة حملات الصوائف تدريجياً وتستهدف مناطق متفرقة أكثر إبعاداً في آسيا الصغرى مثل أماسية وخنجرية في الشمال سنة 93هـ/712م<sup>7</sup>، وأنطاكية سنة 94هـ/713م<sup>8</sup> التي تقع في الوسط الغربي، ومنطقة غلاطية في وسط الأناضول سنة 96هـ/715م<sup>9</sup>، وهكذا يمكن أن نلاحظ أنّ المدن والحصون في عمق بلاد الروم، وتلك التي تقع بعيداً في غرب آسيا الصغرى، خاصة على الطريق إلى القسطنطينية قد استفادت من فترة هدوء طويلة تجاوزت ربع قرن من الزمن تخلّصت فيها من ضغط

<sup>1</sup> - Laurent: Op cit, pp 191-202-203.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 270.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 514.

<sup>4</sup> - Cheira: Op cit, p 163.

<sup>5</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 331.

<sup>6</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 291.

<sup>7</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 469.

<sup>8</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 306.

<sup>9</sup> - Theophanes: Op cit, p 534.

الحملة الموسمية للمسلمين ما سمح لها بإعادة ترتيب أوضاعها وهذا ما أتاح لها فرصة جيدة لإعادة تأهيل تحصيناتها وتعزيز قدراتها الدفاعية من أجل الصمود ودعم موقفها في مواجهة المسلمين مستقبلا.

كما يبدو التأثير السلبي للأحداث في أرمينية جليًا على عمليات الصوائف التي لا تستطيع في هذه الظروف تحقيق الأهداف المنوطة بها تجاه الإمبراطورية البيزنطية ومواصلة الضغط عليها في المركز وليس على الأطراف كما كانت تريد ببيزنطة على كل حال، ومن أجل تجاوز هذه المعضلة، ولتجنب الاخلال بالدور الرئيسي للصوائف أيضا، قامت الدولة الأموية باستحداث جبهة مستقلة للعمليات المرتبطة بتأمين أرمينية من خلال استحداث نظام الصائفتين اللتين تنشطان بشكل متزامن، حيث تهتم الصائفة اليمنى بإجراء عمليات روتينية على أطراف أرمينية من جهة الغرب مستهدفة بالخصوص بند الأرميناق، بينما تتكفل الصائفة اليسرى، وهي الحملة الأكثر تجهيزا وقوة عادة، باستهداف المعقل الرئيسية للروم في الأناضول.

كما شكّل ضغط الخزر على منطقة القوقاز، بتحريض من الدولة البيزنطية على الأرجح، من جهة أخرى عاملا مساهما في تشتيت التركيز العسكري للمسلمين ونقله بعيدا عن بلاد الروم إلى الجبهة الشمالية، وقد حدّد هذا الوضع الطارئ من قدرة الدولة الأموية على الاستمرار في إرسال حملات جدية إلى آسيا الصغرى، ويمكن أن نتبين ذلك بشكل جليّ عندما نرى يزيد بن عبد الملك يوجّه سنة 104هـ/723م، تحت ضغط الأعمال العدائية للخزر في أذربيجان وأرمينية، قسما معتبرا من القوّات الشامية، المضطّعة أساسا بالغزو على الجبهة البيزنطية، لتعزيز الحامية الإسلامية المسؤولة عن مواجهة الخزر بعد الهزيمة الكبيرة التي لحقها بالمسلمين قبل ذلك بسنة<sup>1</sup>، وكانت هذه التعزيزات المرسلّة من الشام، وعلى الأرجح من الجزيرة أيضا، تحت قيادة الجراح بن عبد الله الحكمي الذي يذكر ابن الأثير أنّ تعداد جيشه بلغ أكثر من ثلاثين ألف رجل في مواجهاته مع الخزر<sup>2</sup>، لكننا لا نعلم للأسف عدد القوّات الشامية من بينها ومع ذلك يبدو أنّها كانت معتبرة وتشكّل الركيزة الأساسية في بنية الجيش، ربّما تمثّل نصف قوّاته على الأقل إذا أخذنا في الاعتبار الخسائر التي تكبّدها المسلمون قبل ذلك بسنة عندما واجهوا جيشا للخزر من ثلاثين ألف رجل<sup>3</sup>، ما يجعلنا نفترض أنّ عددهم حينها كان أقل من خصمهم بكثير.

وقد بقي الجراح بن عبد الله الحكمي مع قوّاته الشامية مشغولا بمعالجة الأوضاع في منطقة القوقاز طيلة سنتي 105-106هـ/723-724م<sup>4</sup>، وترتّب عن هذا الوضع في ظلّ انشغال القوّات الشامية بالتصدّي للتهديد الخزري، تراجع وتيرة الصوائف في عهد يزيد بن عبد الملك حيث أصبحت أقلّ فعالية

1 - عُلا عبد العزيز أبو زيد: المرجع السابق، ص 59.

2 - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 362.

3 - دنلوب: المرجع السابق، ص 100.

4 - خليفة: المصدر السابق، ص 331-336 / الذهبي: المصدر السابق، ج 7، ص 15.

كما هو واضح وأكثر روتينية، وانحسرت جغرافيا كذلك حتى لم تكد تتجاوز المناطق القريبة من الثغور أين تركز نشاطها بشكل خاص في منطقة قبادوقيا دون أن تحقق نتائج حاسمة كما في السابق.

مع تجدد خطر الخزر مرة أخرى سنة 108هـ/726م، اضطر هشام بن عبد الملك إلى سحب أخيه مسلمة بن عبد الملك من قيادة الصوائف ضد الروم وإرساله إلى أذربيجان في السنة الموالية، عام 109هـ/727م<sup>1</sup>، بكل تأكيد مع تعزيزات من قوات الشام والجزيرة كان قد أرسل في طلبها الجراح بن عبد الله من قبل بإلحاح شديد<sup>2</sup>، وعلى جبهة الروم نسجل بالتزامن مع هذه الأحداث أن الدولة الأموية اضطرت إلى إرسال حملة واحدة فقط في السنة بين عامي 109-110هـ/727-728م بدل حملتين (صائفتين) في السنة كما كان معمولا به من قبل، وهذا على الأرجح نتيجة غياب مسلمة بن عبد الملك أحد القادة الرئيسيين لحمالات الصوائف والشواتي، وأيضا لانشغال قسم معتبر من قوات الشام والجزيرة، بمحاربة الخزر في القوقاز.

ورغم كل الإجراءات التي اتخذها هشام بن عبد الملك لمعالجة المسألة الخزرية والقضاء على هذا التهديد الذي أهدم المسلمين في القوقاز من أجل التفريغ للصرع مع الروم مرة أخرى، يبدو أن خطر الخزر لم يتلاشى تماما حيث استطاعوا إلحاق هزيمة كبيرة بالمسلمين سنة 112هـ/730م وقتلوا معظم الجيش الإسلامي بما في ذلك القوات الشامية التي كان أرسلها يزيد بن عبد الملك من قبل وأسروا الآلاف منهم، وغلبوا على أذربيجان وبلغت سراياهم قريبا من الموصل<sup>3</sup>، وعليه توجه مسلمة بن عبد الملك مرة أخرى إلى أذربيجان على رأس قوة كبيرة تتكوّن كما في المرّات السابقة من أهل الشام أساسا، وبدرجة أقل من أهل الجزيرة، يمكننا أن نعرف ذلك هذه المرّة من خلال الأخبار التي نقلتها المصادر حول قيام مسلمة بتوطين أربعة وعشرين ألفا منهم في مدينة الباب (دريند) لتأمين المنطقة في مواجهة الخزر<sup>4</sup>، كما يمكن أن نقدر حتى نسبة توزيع المقاتلين حسب الأجناد، حيث يظهر أن الجيش كان يتكوّن أساسا من أفراد القبائل المستقرّة في دمشق وحمص وفلسطين، إذ أنّ مسلمة عندما قسم القوات التي تمّ انزالها في مدينة الباب إلى أرباع جعل كل جند من الأجناد السابقة رُبعًا مستقلا في حين ضمّ الجنود من باقي الأجناد (ربما قنشرين والأردن) إلى أهل الجزيرة ليشكّلوا رُبعًا واحدا<sup>5</sup>، ما يجعلنا نستنتج أن القوات الشامية كانت تمثّل أكثر من ثلاثة أرباع الجيش الذي رافق مسلمة إلى أذربيجان، وتذكر المصادر أنه أدرج تلك القوات التي قرّر انزالها

1 - خليفة: المصدر السابق، ص 339.

2 - ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 362.

3 - خليفة: المصدر السابق، ص 342 / ابن الأثير: المصدر نفسه، مج 4، ص 393-394.

4 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 242.

دريند: تُعرف أيضا بالباب وباب الأبواب، وهي مدينة من الثغور الجليلية على بحر الخزر يصيب ماءه حائطها. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 1، ص 303.

5 - صلاح طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2009، ص 178.

هناك في قائمة العطاء<sup>1</sup>، ما يجعلنا نفترض أنّ قسما كبيرا من القوّات التي رافقت مسلمة لم يكونوا من أهل الديوان في الشام وتمّ اضافتهم خلال هذه الحملة إلى ديوان أذربيجان، وعليه سترجع القوّات الشامية الرئيسية مع مسلمة عند الانتهاء من التعامل مع الخزر لتقوم بدورها الأساسي في غزو بلاد الروم، وإذا ألقينا نظرة على هذه الجبهة في تلك الفترة سنلاحظ توقّف الصوائف بشكل استثنائي في السنة الموالية لهزيمة المسلمين أمام الخزر، أين تمّ تجهيز حملة الصائفة لعام 113هـ/731م لكنّها لم تتجاوز أراضي الدولة الإسلامية حيث رابط معاوية بن هشام بقوّات الحملة عند مرعش دون أن يدخل بلاد الروم<sup>2</sup>، وتصمت المصادر هنا عن ذكر السبب، وإذا عرفنا أنّ الأوضاع الداخلية للدولة الأموية كانت مستقرّة في تلك الفترة ولم تشهد حدثا طارئا يمنعها من الالتزام بإرسال حملة الغزو السنوي، فيبدو أنّ التهديد الخزري الخطير هو السبب المباشر وأيضا السبب المنطقي الوحيد المتوقّر الذي يمكن أن يفسّر هذا الأمر، هذا الخطر الذي أخذ كلّ اهتمام المسلمين وجهدهم الحربي أيضا حينها عندما غادر مسلمة الشام على عجل مع جيش المسلمين إلى أذربيجان، فتغيّرت الأولوية العسكرية من حرب الروم إلى إيقاف خطر الخزر وطردهم، وعليه نكاد نجزم أنّه لم يكن يتوقّر لمعاوية بن هشام بعد التحاق مسلمة بمنطقة القوقاز إلاّ قوّات محدودة تلك السنة لا تمكّنه على أي حال من القيام بعمليات عسكرية داخل الأراضي البيزنطية دون التعرّض لمخاطر حقيقية، لهذا فضّل البقاء عند منطقة الثغور ومراقبة الأوضاع عن كثب ومحاولة منع البيزنطيين من استغلال الأحداث في القوقاز لضرب نفوذ المسلمين في أرمينية أو أكثر من هذا استهداف الثغور والمراكز الإسلامية فيها.

لقد أرادت بيزنطة الاستفادة من القوى الإقليمية المعادية للخلافة من أجل تخفيف الضغط عنها واستطاعت تحقيق ذلك جزئيا، فقد كان الصراع مع الخزر يستنزف جهدا عسكريا كبيرا من المسلمين، حيث كانت تضطرّ الدولة الأموية إلى إرسال جند الشام باستمرار كلّما تجدد تهديد الخزر لمراكز المسلمين في أذربيجان وأرمينية، وهذا كان يؤثّر بكلّ تأكيد في قدرتها على تجهيز واعداد الحملات الصيفية سواء ماديا أو بشريا، فإن لم تتوقّف الحملات تماما كما حدث سنة 113هـ/731م مثلا، فإنّ وتيرتها كانت تنخفض من دون شكّ كما حدث أواخر خلافة يزيد بن عبد الملك، وإدراكا منها لهذا الوضع الذي ظهر جليّا أنّه يخدم مصالحها عملت بيزنطة على الاستفادة من القوّة الجديدة في القوقاز من خلال التحالف معها للاستمرار في ازعاج الخلافة ومناوئتها، وقد تمّ تأكيد هذا التحالف وتوثيقه من خلال علاقة المصاهرة التي جمعت الإمبراطور ليو الثالث بخاقان الخزر عندما زوّج الأول ابنه وولي عهده قسطنطين بابنة الثاني سنة 733م/1115هـ<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 242.

<sup>2</sup> - تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 260 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 88.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 567.



في نهاية هذا العرض يمكن أن نستنتج أنّ العوامل المؤثرة في حركة وحيوية حملات الصوائف والشواتي كانت متعدّدة، داخلية وخارجية، لكن يمكن التأكيد على قوة تأثير العوامل الذاتية الخاصة بالخلافة، حيث أثبتت التجارب أنّ الحملات الموسمية السنوية كانت أكثر استجابة وتأثراً بالمتغيرات والأوضاع الداخلية حسب فترات السلم والاستقرار أو الفتن والحروب التي كانت تمرّ بها الدولة الإسلامية، إذ لم يحدث أن توقفت عمليات الغزو لسنوات عديدة متواصلة تحت أيّ ظرف إلّا عندما كانت تنقسم الأمة على نفسها وتنغمس في الصراعات الداخلية، في حين لم تكن عمليات الصوائف والشواتي تبلغ ذروة نشاطها وقوتها إلّا عندما كانت الجبهة الداخلية متماسكة ومستقرّة، ومع ذلك يمكننا أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار في المقام الثاني الأوضاع التي كانت تعيشها بيزنطة، بين الفوضى والاستقرار، وقدرتها على المواجهة وردّ الفعل، والذي يعتبر عاملا مؤثرا في حيوية الصوائف والشواتي وخاصة ما يترتب عنها من نتائج.

### المبحث الثالث: اعداد حملات الصوائف والشواتي

إنّ التحضير اللوجستي لحملات الصوائف والشواتي، وتجميع المقاتلين من مناطق متفرقة ومتباعدة جغرافياً، والوقوف على استعداداتهم وجاهزيتهم، مع العمل على توفير احتياجاتهم قبل الانطلاق للغزو، ومن بعد ذلك قيادة القوّات الإسلامية في بيئة معادية وما يتطلبه الأمر من حذر وبقظة وحنكة عسكرية، مع التركيز على محاولة تحقيق الأهداف المنوطة بكلّ حملة، لم يكن أمراً بسيطاً يحدث بشكل عفوي وتلقائي دون عناء ونظام محدّد، بل كان يتطلّب الكثير من الجهد والموارد مع كفاءة تنظيمية وعسكرية عاليتين، وهذه الجهود كانت تتكرّر بشكل سنوي تقريباً وأكثر من مرّة خلال السنة الواحدة في الكثير من الأحيان، والتعرّف على طبيعة هذه الاستعدادات وظروفها وتطوراتها يعتبر نقطة حيويّة تُلقِي الضوء على زاوية مهمّة من منظومة حملات الصوائف والشواتي، لهذا سنحاول في هذا المبحث شرح جميع المراحل التي كانت تمرّ بها حملات الغزو الموسمية بدءاً من الاعداد والتنظيم، إلى الانطلاق وسير العمليات الحربية داخل بلاد الروم والتكتيكات الموظّفة على أرض المعركة هناك، حتّى نهاية الحملة والعودة إلى بلاد الإسلام، وبهذا سنقوم هنا في هذا المبحث بنوع من محاكاة سير عمليات الصوائف بكلّ مراحلها وتفصيلها.

#### أولاً- التحضيرات والاستعدادات:

سنتعرّف في البداية من خلال هذا العنصر للمرحلة الأولى من المسار الطويل الذي يمرّ به تنفيذ حملات الصوائف والشواتي، أين سنتعرّف على الإجراءات التي يبدأ بها التحضير لعملية الغزو، من خلال مجموع الاستعدادات اللازمة من حشد وتعبئة الإمكانات المادية واللوجستية والبشرية قبل انطلاق الجيش، بهدف توفير أفضل الفرص لإنجاح الحملة العسكرية.

كان الخلفاء، خاصة في بدايات الدولة الأموية، يحرصون على الإشراف شخصياً على اعداد حملات الصوائف والشواتي باعتبارها من واجباتهم الأساسية كقادة للأمة الإسلامية، فقد كان معاوية بن أبي سفيان بحكم مؤهلاته التنظيمية العالية وخبرته الواسعة في الاشراف على اعداد وقيادة الصوائف بنفسه خلال ولايته الشام والجزيرة في العهد الراشدي، يباشر من دمشق التحضير للصوائف مع الأمير الذي أسند إليه قيادتها ويتابع كلّ تفاصيلها وتطوراتها، وكان حريصاً على الاعداد الجيّد للحملة فإذا رأى تقصيراً أو خللاً فيها تذرّس من ذلك واستدرك سفيان بن عوف أحد أشهر قادة الصوائف في العهد الأموي، الذي يبدو أنّه كان على قدر كبير من الكفاءة وحسن التنظيم والتدبير، وكان معاوية يقدر كثيراً مجهوداته فلمّا توفي اختلّت عملية اعداد وتنظيم الحملات من بعده حيث لم يكن هناك قائد بنفس مستوى كفاءته يمكنه أن يملأ الفراغ الذي تركه في عملية الاشراف والتنظيم اللوجستي والعسكري لحملات الغزو، حتّى كان معاوية يتحسر عليه قائلاً: "واسفياناه، ولا سفيان لي"<sup>1</sup>، وفي العهد مرواني كان الخلفاء يقفون غالباً على

<sup>1</sup> - ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج 21، ص 351.

تحضيرات الصوائف التي تكتسي أهمية خاصة مثل حملة سنة 88هـ/707م التي استهدفت طوانة، حيث قام الوليد بن عبد الملك بتعبئة جند الشام وجهّزهم بكل ما يحتاجونه وقوّاهم وقام بإسناد القيادة إلى أخيه مسلمة وألحق به ابنه العباس بن الوليد، وسيّروهم إلى بلاد الروم وانتهت الحملة بالاستيلاء على المدينة وإلحاق هزيمة كبيرة بالبيزنطيين<sup>1</sup>، وفي خلافة سليمان بن عبد الملك وبالتزامن مع انطلاق الحملة الضخمة لفتح القسطنطينية سنة 98هـ/716م انتقل الخليفة بنفسه إلى المنطقة الشمالية الحدودية مع بلاد الروم ليعسكر في سهل دابق، أين كان يُشرف على تعبئة وإرسال جيوش الصوائف من هناك لغزو الأراضي البيزنطية، وبدوره كان هشام بن عبد الملك الذي تصفاه المصادر بالحزم وحسن التدبير في الحرب<sup>2</sup>، يقف على استعدادات حملات الصوائف أيضا ويحرص على استعراض الجند والاطلاع على تحضيراتهم ومدى جاهزيتهم قبل انطلاقهم إلى الغزو<sup>3</sup>، وأشرف بنفسه على اعداد وقيادة صائفة 123هـ/741م التي توجّهت إلى ملطية بعد أن تعرّضت لهجوم عنيف من طرف الروم، حيث نزل في مدينة الرقة ومنها أرسل قوّات بشكل عاجل لتربط بالمدينة بعد انسحاب الجيش البيزنطي، وبقي هو في معسكره يُشرف على تحضير الجيش وتعبئة الناس ثمّ سار بهم إلى ملطية وبقي بها حتى أعاد بنائها وترميمها<sup>4</sup>، وبلغ من حرص الخلفاء على الاشراف على اعداد الحملات وتحضيرها اسناد قيادتها إلى أمراء من بني أمية.

أما في الحالات العادية التي تتعلّق بالحملات الروتينية فكان أمير الصائفة، الذي يعيّنه الخليفة طبعاً، هو من يتولّى الاشراف على اعداد الحملة، وكانت الاستعدادات والإجراءات المرتبطة بها تستغرق في المتوسط عدّة أشهر من التحضير.

يبدأ اعداد الحملات باختيار الخليفة لأكفأ القادة أميرا على الصائفة أو الشاتية، وكان بعضهم يخضع لاختبار من طرف الخليفة لقياس قدراتهم وكفاءاتهم القيادية مثلما فعل معاوية بن أبي سفيان مع عبد الرحمن بن خالد المخزومي عندما عينه قائدا لإحدى الصوائف، لكنّه بعد مقابلة صغيرة معه تخلّله حوار بين الطرفين حول مدى التزامه بتعليمات وتوجيهات الخليفة قرّر أن يبعده فورا عن قيادة الحملة بعدما لمس فيه افتقاده لروح المبادرة فاستبدله بسفيان بن عوف الغامدي وفضّله عليه لما رأى فيه من حسن بصيرة وتدبّر وسياسة للحرب رغم أن عبد الرحمن كان أكثر طواعية له وطاعة عندما أبدى استعداداته التام للتقيّد حرفيا بما جاء في كتاب ولاية الصائفة<sup>5</sup>، ولأنّ هذا الأخير كان يدرك بحكم تجرّبه الطويلة في حروب الروم أنّ بعض المواقف العسكرية تتطلّب سرعة بديهة واجتهاد من القائد بغضّ النظر عن تعليمات الخليفة، وفي

1 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 443 / ابن الأثير: المصدر السابق، مج 4، ص 13.

2 - الطبري: المصدر السابق، ج 8، ص 78 / المسعودي: المصدر السابق، ج 3، ص 170.

3 - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 102.

4 - البلاذري: فتوح البلدان 221 / أنساب الأشراف، ج 8، ص 408.

5 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 5، ص 112-113 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 21، ص 349.

هذا الشأن كتب المهلب بن أبي صفرة مرّة إلى الحجاج يذكر له أن البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره<sup>1</sup>، وكان الخلفاء رغم ذلك يحرصون على توجيه نصائح وإرشادات عامة لقادة الصوائف خاصة فيما يتعلّق بطريقة التعامل مع الجند، يسيرون عليها لضمان نجاح الحملة وسلامة المسلمين، فقد أوصى عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة عندما ولاه قيادة الصائفة أن يترقّق بجنده وأن يتواضع في التعامل معهم<sup>2</sup>، وأوصى مرّة أحد أمراء الصوائف أن يكون كالتاجر الكيس الذي إذا وجد ربحاً تجر وإلا احتفظ برأس المال<sup>3</sup> والميراث بهذه النصيحة أن يجعل قائد الجيش سلامة جنده أولوية على أيّ مكسب آخر، وكان عمر بن عبد العزيز أيضاً يفعل ذلك فقد أوصى عمرو بن قيس عندما بعثه على رأس صائفة سنة 101هـ/720م أن يتق الله وأن يكون مرناً في تعامله مع جنده، وأن يتخذ موضعاً يتوسط به جيشه فلا يتقدّمه ولا يتأخّره حتى يكون على مسمع ومرأى من الجند فيضمن بذلك ضبط نظام جيشه<sup>4</sup>.

كان الخلفاء يخصّصون الموارد المالية الكافية من أجل تجهيز الحملة بكلّ ما تحتاجه، وللأسف لا نجد أيّ إشارة تُذكر عن تكاليف حملات الصوائف والشواتي ما كان سيُساهم في إلقاء الضوء على جانب مهم من تحضيرات هذا النشاط العسكري ويجعل الصورة أكثر اكتمالاً، وحتى المراجع التي تتعرّض للنفقات العسكرية في العهد الأموي تركز على عطاء الجند ومقداره دون الخوض في تكاليف تجهيز جيوش الفتح، أمّا عن جيوش الصوائف فالمعلومات عنها في هذا الجانب منعدمة تماماً، والإشارة الوحيدة المتوقّرة في المصادر ترجع إلى فترة لاحقة مطلع القرن الثالث هجري عند قدامة بن جعفر الذي يذكر أنّ تكاليف حملات الصوائف والشواتي في البرّ والبحر عبر الثغور الشامية كانت تبلغ بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف دينار في السنة<sup>5</sup>، لكن الفرق الزمني الطويل بين فترة الدراسة والقرن الثالث هجري يجعل من محاولة اسقاط هذا المثال على الحقبة الأموية عملاً اعتباطياً من دون مصداقية، لكن مع ذلك يمكن أن نجزم أنّ هذه الحملات كانت تتكلّف، حسب أهميّتها وقوّة تجهيزها وعدد أفراد الجند المشارك فيها، أموالاً معتبرة ولا يمكننا في ظلّ غياب المعلومات إلا الاستعانة بالمقارنة التقريبية مع تكلفة الحملات العسكرية المشابهة في مناطق أخرى لإزالة جزء من اللبس عن هذا الجانب، وهنا ستكون حملة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على سجستان سنة 80هـ/700م هي المثال الأقرب تشابهاً ربّما، فقد ضمّت هذه الحملة عشرين ألف مقاتل وتكفّلت السلطة (والي العراق) بتجهيزها وبلغ ما أنفق عليها مليوني درهم<sup>6</sup>، وكان عمر العرجي

1 - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 1، ص 111.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

3 - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 1، ص 118.

4 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 360 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 11، ص 244؛ ج 68، ص 225.

5 - قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص 186.

6 - البلاذري: أنساب، ج 7، ص 309-310.

حفيد عثمان بن عفان في احدى غزواته مع مسلمة بن عبد الملك في آخر خلافة سليمان قد أمر التجار بتجهيز المعدمين من المقاتلين فبلغ ما أعطوهم قيمة عشرين ألف دينار، رغم أنهم كانوا لا يمثلون إلاّ قسما صغيرا فقط من الجيش، ومن المؤكّد أنهم من المتطوّعة وليسوا من أهل الديوان، فلمّا تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة قضى عنه ذلك المبلغ من بيت المال ورأى أنّ الدولة أولى بتجهيز المقاتلين<sup>1</sup>، وهذا في حدّ ذاته دليل على ادراك الخلفاء أنّ تحمّل نفقات الحملات العسكرية ضدّ بلاد الروم هو من صميم واجبات السلطة تجاه جندها، وهكذا يمكن أن نستنتج إذا أخذنا بعين الاعتبار تباين عدد جند الصوائف من حملة إلى أخرى واختلاف المجال الجغرافي لنشاط الحملات والمدة التي تقضيها داخل بلاد الروم من سنة إلى أخرى، أنّ الصوائف والشواتي كانت تتكلّف بين بضع عشرات الآلاف ومئات الآلاف من الدنانير في كل حملة، وتشمل هذه النفقات السنوية على حملات الصوائف والشواتي توزيع العطاء على مستحقّيه عند التجمّع في دابق أين تجري آخر الاستعدادات قبل عبور الدروب ودخول بلاد الروم<sup>2</sup>، وكان جند الشام أكثر الجند عطاء في الدولة الأموية حيث كان معاوية ينفق عليهم ستين مليون درهم في السنة وهم في ستين ألف رجل<sup>3</sup>، بينما في الفترة نفسها كان ديوان جند البصرة مثلا يحصي ثمانون ألف رجل مجمل ما يتقاضونه من عطاء بمختلف أصنافه بلغ ست وثلاثون مليون درهم<sup>4</sup> وهذا التفضيل في العطاء راجع لاعتبارات الولاء أساسا إذ كان أهل الشام أنصارا للأسرة الأموية وبهم توطّد سلطانهم<sup>5</sup>.

إنّ هذه الإشارات تعطينا فكرة واضحة عن ضخامة النفقات التي كانت تخصّصها الدولة الأموية للحملات السنوية التي تستهدف الإمبراطورية البيزنطية حتّى دون أن نحتسب ما كانت تستهلكه من أموال بعض الإجراءات والالتزامات التي كانت ترتبط بمنظومة حملات الصوائف والشواتي بطريقة غير مباشرة وتعتبر جزءا من الاستراتيجية العامة لمواجهة البيزنطيين مثل عمليّات البناء والتعمير والتوطين في منطقة الثغور وعلى طول مسارات حركة جيوش الصوائف والشواتي.

كانت الدولة غالبا هي من يتحمّل مسؤولية تجهيز حملات الصوائف جزئيا بما تحتاجه، وتبذل في سبيل ذلك المال الوفير والجهد الكبير، فقد كانت تخصّص عدّة من خيل موقوفة على أعمال الجهاد يتمّ تمييزها بختم على أفخاذها ونجد إشارة عن هذه الخيل "الموسومة" في عهد عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول هجري<sup>6</sup>، وهذا الإجراء لا يعتبر استثناء بل هو امتداد لتقليد سابق كان معمولا به من قبل منذ

1 - البلاذري: المصدر السابق، ج 6، ص 240.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 2، ص 346.

3 - جرجي زيدان: المرجع السابق، ج 1، ص 172.

4 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 398 / أنساب الأشراف، ج 5، ص 227.

5 - محمد فرقاني: السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، ص 181-190.

6 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 24، ص 150.

خلافة عمر بن الخطاب الذي أوقف خيلا وإبلا على الجهاد<sup>1</sup>، وهذه الخيل والدواب بصفة عامة المخصّصة للمهام الحربية تتصوّر أنّ مصدرها الأساسي هو سهم (حصّة) الدولة من الغنائم (الخُمس) الذي يعتبر من حقوقها المضمونة، بالإضافة إلى ما كانت توفّره السلطة كمساهمة منها، كما تتصوّر أنّ البعض منها أيضا يكون قد تمّ توفيره من طرف أشخاص بمبادرات فردية منهم لدعم الجهاد إذ كان هذا الأمر من الأعمال الجليلة المستحبّة في الإسلام، وهذه الخيل كانت مخصّصة لتجهيز حملات الصوائف أو إرسالها كإمدادات سريعة عندما تواجه الحملات صعوبات كبيرة داخل بلاد الروم تكون فيها بحاجة إلى دعم عاجل، مثل المدد الذي أرسله الوليد بن عبد الملك بصفة مستعجلة لأخيه مسلمة عندما كان محاصرا لمدينة طُوانة سنة 88هـ/707م، وضمّ خيلا ودوابا أخرى للنقل مع كميات معتبرة من المؤونة<sup>2</sup>.

وكانت الدولة تتكفّل حصريّا بتحضير آلات الحصار مثل المجانيق والعزادات وغيرها، وتعتبر هذه التجهيزات ضرورية للغاية في عمليات الصوائف والشواتي تبعا لطبيعة العمليات التي كانت تضطلع بها والأهداف التي تريد تحقيقها، وقد كانت هذه الآلات تُستخدم على نطاق واسع وفي العديد من المرات عندما يكون الهدف اقتحام واخضاع المراكز البيزنطية المحصّنة مثل القلاع والحصون والمدن التي كانت تمثل ملاذات آمنة للبيزنطيين في أوقات الحملات حيث يلجئون إليها للاحتماء من هجمات المسلمين وتجنّب التعرّض للقتل أو السبي، وتتواتر الأخبار عن استعمال مثل هذه التجهيزات في حصار الحصون والمدن البيزنطية في آسيا الصغرى مثل حملة مسلمة بن عبد الملك على مدينة طُوانة سنة 88هـ/707م<sup>3</sup>، وعلى طُرندة سنة 92هـ/711م<sup>4</sup>، وحملة عثمان بن حيان على مدينة عمورية سنة 104هـ/722م التي وظّف فيها ست وثلاثين منجنيقا لحصار المدينة وتدمير أسوارها<sup>5</sup>، وأيضا حملة مروان بن محمد ناحية كمش سنة 105هـ/723م أين أقام المجانيق على حصن يدعى مواسا حتى فتحه<sup>6</sup>، وحصار معاوية بن هشام لمدينة نيقية في منطقة بيثينيا سنة 109هـ/727م<sup>7</sup>، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه على الصائفة وهو ببلاد الروم يأمره بنصب المنجنيق على أحد الحصون<sup>8</sup> حتى يتسنى له فتحه دون أن يعرّض حياة المسلمين

1 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 10، ص 355 / الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 51-211.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 18، ص 258.

3 - Nikephoros: Op cit, p 107.

4 - زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، دار المعارف، مصر 1961، ص 131.

5 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 66، ص 140.

6 - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 89.

7 - Theophanes: Op cit, p 560 / Michel le syrien: Op cit, Tome 2, p 501.

نخاية الرواية عند ميخائيل السرياني تختلف عن المصادر البيزنطية حيث يرى أنّ المدينة سقطت في يد المسلمين بعد حصار دام أربعين يوما وقاموا بتدميرها بعد أن فرّ أهلها منها على متن القوارب.

8 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 345.

للخطر، وأمره ألا يقيم عليه إلا يوما وليلة يعمل فيها على تقدير موقفه وتقييم فرص نجاحه لفتح الحصن فإن وجد إلى ذلك سبيلا وإلا ارتحل عنه<sup>1</sup>، وهذه الأمثلة المحدودة التي حفظتها لنا المصادر تمثل بكل تأكيد عينة بسيطة فقط عن استخدام هذا النوع من وسائل القتال على جبهة الروم، حيث نعتقد إلى حد كبير أنّ توظيفها كان على نطاق أوسع من الحالات التي اكتفت المصادر بتدوينها، ويمكن أن نستنتج ذلك ببساطة من خلال تواتر الأخبار عن سقوط أعداد معتبرة من المدن والقلاع ذات التحصين الجيد طيلة العهد الأموي والتي تحتاج بكل تأكيد من أجل اخضاعها وتجاوز أسوارها ومنشأتها الدفاعية إلى وسائل الحصار والاقتحام الملائمة.

ومن المؤكّد، على ضوء استخدام هذه الآلات، أنّ جيوش الصوائف كانت تضم مختصّين في تركيب وتفكيك وتشغيل المجانيق والعزّادات واصلاحها، فمن المستحيل عملياً اصطحابها جاهزة نظراً لضخامتها مع ما كانت عليه الدروب من ضيق وتضاريس وعرة، وهناك إشارات على أنّ جيوش الصوائف كانت في بعض الحالات تتخلّص من المجانيق وآلات الحرب بعد انتهاء العمليات العسكرية حتّى يتخفف الجيش في طريق العودة ولا يُعطى في بلاد العدو خاصة إذا كان محملاً بغنائم معتبرة، فعندما فرض عثمان بن حيان الحصار على عمورية ونصب عليها المجانيق سنة 104هـ/722م كما سبق الإشارة إليه، وبعد فشله في اقتحامها قام بإحراق جميع المجانيق التي كانت معه بعد الانسحاب من محيط المدينة<sup>2</sup>.

كانت الدولة تقوم بإنشاء مخازن للسلاح في كلّ التجمّعات الرئيسة للمسلمين في الأمصار وفي المناطق الثغرية كما فعل مسلمة في مدينة الباب عندما أعاد فتحها وطرده الخزر منها سنة 113هـ/731م حيث أشرف على عملية تجديدها وتحصينها وأنشأ بها مخزناً لحفظ السلاح<sup>3</sup>، وكان في دمشق أيضاً خزائن للسلاح عليها عامل مكلف بحفظها والإشراف عليها<sup>4</sup>، ويبدو أنّ الأمر كان كذلك في كل جند من الأجناد والمدن الثغرية، كما اهتمّت الدولة بإنشاء مخازن للطعام أيضاً فبعد فتح المصيصة سنة 84هـ/703م تمّ تحويل كنيسة كانت بها إلى مستودع لحفظ الطعام<sup>5</sup>، ولا شك أنّ تموينه كان من الانتاج الزراعي للمنطقة ذاتها ويمكننا أن نتصوّر أنّه كان مخصصاً لإعالة الطوابع التي كانت تأتي المدينة كلّ عام وكذا تموين الحامية المتمركزة بالمدينة، وأيضاً حملات الصوائف عند الحاجة، التي تمرّ بالمنطقة نحو درب البوابات القيليقية للدخول إلى بلاد الروم، وحتّى ملطية بعد إعادة تأهيلها نهاية القرن الأول هجري على يد عمر بن عبد العزيز تمّ انشاء مخزن فيها لحفظ الطعام يبدو أنّه كان محكم البناء حيث لم يستطع البيزنطيون

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 225.

2 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 66، ص 140.

3 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 242.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 69، ص 191.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ص 192.

تهدم إلا جزء بسيط منه في حملتهم على المدينة سنة 133هـ/752م<sup>1</sup>، وفي مدينة الباب التي أعاد مسلمة ترميمها كما أشرنا سابقا أنشأ بها مخزنين أحدهما للطعام والآخر للشعير وكان يجري تموينها بشكل خاص من خلال الجزية العينية التي فرضت على شعوب منطقة القوقاز منذ ولاية مروان بن محمد والتي بلغت سنويا أكثر من مائتي ألف مدي من الطعام والحبوب<sup>2</sup>.

مع كل هذه الالتزامات التي اضطلعت بها الدولة الأموية لتجهيز حملات الصوائف والشواتي، كان الجند من أهل الديوان مع ذلك مطالبون على الأقل بتسليح وتجهيز أنفسهم أيضا بالحد الأدنى الذي يلزم الفارس من عُدّة القتال، مثل المركب (الخيل والدواب التي تحمل المؤن والسلاح) والأسلحة القتالية المختلفة والمؤونة استعدادا للغزو، فقد كان سفيان بن عوف وهو أشهر أمراء الصوائف في عهد معاوية وأكثرهم كفاءة، إذا حلّ وقت الصائفة يستعرض الجند ويتفقد استعداداتهم ومستوى تجهيزهم وتسليحهم، وكان لا يقبل في جيش الصائفة إلا من كان له فرس، ورمح، ولباس، ونقود، وبعض الضروريات الأخرى التي يمكن أن يحتاجها المقاتل الذي يشارك في حملة الصائفة مثل مخصف، ومسلّة، وحيوط، وحتى مخلّعة ومبضع وسكة حديد<sup>3</sup>، وكان عمر بن عبد العزيز بدوره في خلافته قد حدّد المستوى الأدنى لتسليح المقاتلين العرب من أهل الديوان عندما اشترط على كل منسب لهذه المؤسسة وله مائة دينار في العطاء على الأقل أن يكون له فرس عربي، ودرع، وسيف، ورمح، ونبل، وقد عمّم هذا الاجراء على كل الأقطار<sup>4</sup>، وعلى سبيل المقارنة كان الحجاج في العراق قبيل خلافة عمر بن عبد العزيز بسنوات قليلة يفرض هذا المستوى من التجهيز على من كان له ثلاثمائة درهم فقط في العطاء وهذا التكليف يبدو أنّه كان يفوق قدرة من يأخذون ذلك المبلغ الذي يمثّل الحد الأدنى من العطاء حينها، ما كان يولّد تدمرا معلنا بينهم ويمكن تبين ذلك بوضوح من شعر الحرنفش أحد بني ثعلبة بن سلامان، حين يقول:

يُكَلِّفُنِي الْحَجَّاجُ دِرْعاً وَمَغْفِراً  
وَسِتِّينَ سَهْمًا صَنْعَةً يَثْرِيَّةً  
وَطَرْفًا كَمِيَّتًا رَائِعًا بِثَلَاثِ  
وَقَوْسًا طَرُوحَ النَّبْلِ غَيْرَ لَبَّاثِ  
فَرِيٍّ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ غَيَّاثِ<sup>5</sup>

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 221.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 242-243-244.

المدي: مكيال لأهل الشام يساوي 45.9 كغ. انظر علي جمعة محمد: المكايل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 2001، ص 45.

3 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 351-352.

4 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 344.

5 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 7، ص 278.



لهذا يمكن اعتبار الحد الأدنى من العطاء الذي وضعه عمر بن عبد العزيز مرجعا لتجهيز الفارس لنفسه موضوعيا إذا ما أدركنا أنّ من كان معني بحملات الصوائف مثلا، والتي تتطلب خفة الحركة والسرعة، هم أساسا من فئة الفرسان الذين يتوجب عليهم تسليح وتجهيز أنفسهم بشكل أفضل من فئة المشاة وهذا ما يضع عليهم أعباء إضافية ويرفع من كلفة التجهيز بالنسبة إليهم، لكن هذا المبلغ من العطاء مع ذلك لم يكن متاحا للجميع ذلك أن عطاء الجند كان يختلف في التدرج من فرد إلى آخر، ولهذا ربما كانت الدولة تتكفل جزئيا بتجهيز من لم يبلغوا هذا الحدّ من العطاء.

وبفضل مجهودات الدولة الأموية وحرصها على تجهيز الجند وتشديدها على مساهمتهم الشخصية في ذلك استطاعت أن تبلغ بهم مستوى عال من التسلّح والإمكانات الحربية استرعى انتباه حتى الجانب البيزنطي إلى حدّ أنّ الإمبراطور ليو الثالث الذي جمعته بالمسلمين مواجهات كثيرة منذ أن كان قائدا لبند الأناضول، اعترف بأنّ الجندي العربي لا يختلف عن نظيره البيزنطي في السلاح ووسائل الدفاع وآلاته<sup>1</sup>، وهذه شهادة مهمّة تبين التطور الكبير الذي عرفه الجيش الإسلامي في هذا الميدان في فترة أقل من قرن.

مع استكمال الاستعدادات المادية للحملة، كان أمراء الصوائف يجنّدون العدد اللازم من المقاتلة للغزو حسب أهداف وطبيعة العمليات العسكرية المزمع تنفيذها، وكان كلّ جند من أجناد الشام يشترك بعدد معين من المقاتلين، ويمكننا هنا الافتراض أنّ أمير الصائفة كان يبعث إلى مختلف قادة أجناد الشام يعلمهم بموعد انطلاق الحملة وحجم القوات التي يجب أن يقدمها كل جند لجيش الصائفة<sup>2</sup>، وكان يتمّ تجنيد أفراد الحملة من بين المقاتلين المسجّلين في الديوان بطرق مختلفة، إمّا عن طريق التطوّع حيث كانوا يفتحون الاكتتاب لمن يريد الغزو في الصائفة بصفة اختيارية<sup>3</sup>، أو عن طريق الانتخاب أين يقوم قادة الأجناد باختيار من يروونه مناسبا للمشاركة في الحملة، حيث استعرض مثلا عبد الملك بن مروان في أواخر سنوات خلافة الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفا من أهل البأس والنجدة<sup>4</sup>، وكان أيضا الاقتراع بين المسجّلين في الديوان إحدى الطرق المعتمدة في تجنيد أفراد الحملة بما تحتاجه من مقاتلين<sup>5</sup>.

أمّا عن أعداد الجند المشاركين في حملات الصوائف والشواتي فالمعلومات المتوفّرة محدودة جدا والأخبار التي تأتي بها المصادر في هذا الشأن قليلة ولا تركز إلا على الصوائف المهمة التي ضمت عددا معتبرا من الجند، والتي يغلب عليها هي أيضا في الكثير من الأحيان طابع المبالغة، وما يمكن ملاحظته أنّ تعداد جيوش الصوائف كان يختلف من حملة إلى أخرى حسب الظروف وأهداف العمليات العسكرية،

1 - نجدت خمّاش: الشام في صدر الاسلام، ص 368.

2 - محمد كرد علي: رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1913، ص 157.

3 - ابن عسّاك: المصدر السابق، ج 12، ص 241؛ ج 48، ص 301.

4 - ابن عسّاك: المصدر نفسه، ج 9، ص 168.

5 - نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 357.

ففي بعض الحملات المحدودة التي تضطلع بمهمّات عادية روتينية يضمّ الجيش بضعة آلاف من الجند فقط، وفي البعض الآخر يمكن أن يرتفع العدد إلى بضعة عشرات الآلاف، فقد ضمّت حملة مسلمة بن عبد الملك سنة 86هـ/705م ناحية المصيصة ثلاثين ألف جندي<sup>1</sup>، وكانت الصائفة التي قادها معاوية بن هشام مع كل من عبد الله البطال وعمرو بن الوضاح سنة 109هـ/727م تتكوّن من مائة ألف مقاتل حسب المصادر البيزنطية<sup>2</sup>، والمبالغة في تقدير حجم القوّات الإسلامية واضح هنا لكن مع ذلك يمكن أن نخمّن في صحة نصف هذا العدد أو ثلثه على الأقل إذا ما أخذنا في الاعتبار أن قوّات الاستطلاع في هذه الحملة التي كانت تتقدّم الجيش بقيادة عمرو بن الوضاح كانت لوحدها تضم عدة آلاف من الفرسان، وكانت الصائفة اليسرى التي قادها بعد ذلك معاوية بن هشام أيضا سنة 114هـ/732م تتكوّن من عشرين ألف رجل<sup>3</sup>، وكانت هناك حملات عادية روتينية ضمّت أعدادا أقل من هذا بكثير ففي سنة 83هـ/702م غزا عبد الله بن عبد الملك في عدد قليل من الناس<sup>4</sup>، وإن كانت المصادر اكتفت بهذه الإشارة ولم تصرّح بعدد أفراد الحملة إلا أنّها من دون شكّ ضمّت بضعة آلاف فارس على الأكثر وبالكاذ تجاوزت درب البوابات القيليقية.

وفيما يخصّ عمليّة تعبئة جنود الحملة المعنيين بالغزو من مختلف الأجناد فقد كانت تتمّ على عدّة مراحل حيث يتجمّع أولا مقاتلة كلّ جنود في المراكز المخصّصة لهم على مستوى اقليمهم قبل الانتقال للتجمّع أخيرا في دابق لإتمام تشكيل جيش الصائفة، وقد كانت عمواس واللد مثلا مركز التجمع في جند فلسطين<sup>5</sup>، وكان المقاتلون من هذه الأخيرة والأردن أيضا، يتوجّهون أولا إلى دمشق على الأرجح باعتبارها نقطة الانطلاق الرسمية للحملة وأيضا لأنها تقع في طريقهم نحو الشمال للالتحاق بمنطقة الثغور التي تمثل المحطّة الأخيرة التي يتوقّفون فيها في انتظار التحاق المقاتلة من مختلف الأجناد الأخرى، وفي دمشق كان الجند بعد استدعائهم للحملة يخرجون للتجمّع خارج المدينة على بضعة أميال تحت إشراف قائد الصائفة حتّى إذا التحق الجميع بالمعسكر واستعدّوا للرحيل جاءهم الخليفة ليستعرضهم ويقف على استعداداتهم وجاهزيتهم القتالية قبل أن ينصرفوا للغزو<sup>6</sup>، فيتوجّهون بعدها (مع جند الأردن وفلسطين) شمالا إلى حلب مرورا بحمص فينزلون بمنطقة دابق حتّى تجتمع إلى أمير الصائفة المقاتلة من باقي الأجناد<sup>7</sup>، ومن مراكز

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 560.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 46، ص 445.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 29، ص 345.

<sup>5</sup> - محمود أحمد محمد عواد: الجيش في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1992، ص 101.

<sup>6</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 5، ص 113 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 169 / مجهول: العيون والحداثق، ج 3، ص

102.

<sup>7</sup> - ابن أعثم: المصدر السابق، ج 7، ص 112.

الثغور أيضا، فإذا توافت إليه الجنود قام بتوزيع العطاء عليهم وأشرف على تنظيم الجيش واستعداداته قبل اقتحام الدروب، وكان أمير الصائفة يبقى في دابق بقدر ما يتجهز الجند بما يحتاجونه من مؤونة وأعلاف وكسوة وغيرها حيث يتزامن توافد قوات الصائفة مع انتقال العديد من التجار إلى المنطقة لتأمين حاجيات المقاتلين والتجار معهم.

وكانت الجابية قبل ذلك قاعدة تجمع وانطلاق جيوش الصوائف للغزو في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فلما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان قام بنقل المعسكر إلى دابق لما توفّر من خصائص استراتيجية إذ أنّها أقرب إلى الثغور<sup>1</sup>، كما أنّها لا تبعد كثيرا عن مراكز المسلمين حيث تقع شمال حلب بحوالي أربعة فراسخ فقط (حوالي 22 كيلومترا)، وبها مرج فسيح معشّب<sup>2</sup>، يصلح لانتجاع الخيول والدواب ما يسمح بتهيئتها وتقويتها قبل الانطلاق للغزو، كما أنّ هذا الفضاء الجغرافي نظرا لمساحته الواسعة يمكن أن يستوعب عددا كبيرا من المقاتلين القادمين من مختلف الأجناد ومراكز الثغور.

أما جند الجزيرة فقد كانوا ينتقلون أولا إلى حرّان التي تمثل مركز تجمع المقاتلة فيها<sup>3</sup>، ومنها يلتحقون بدابق أيضا للانضمام إلى أمير الصائفة قبل دخول بلاد الروم، وهذا الأمر كان معمولا به عندما كانوا ينفذون عمليات الغزو بالاشتراك مع مقاتلة الشام حتى أواخر القرن الأول هجري، قبل إجراء التعديل المعروف على منظومة حملات الصوائف الذي يقضي باستحداث حملتين متزامنتين ما منحهم استقلالية تنفيذ الحملات على جبهة الثغور الجزيرة فيما يعرف بالصائفة اليمنى.

وتجدر الإشارة هنا أنّ جند الشام والجزيرة هم من اختصّ بالحرب على جبهة الروم فقد كانوا هم المعنيون بحملات الصوائف والشواتي دون غيرهم من مقاتلة الأمصار الأخرى<sup>4</sup>، لكن كان هناك بعض الحالات الاستثنائية التي يتم فيها استدعاء جند من خارج هذين الاقليمين خاصة من أهل المدينة عندما كان يفرض عليهم بعض الخلفاء الأمويون إرسال البعوث إلى الشام استعدادا لغزو الصائفة، وقد حفظت لنا المصادر حالتين على الأقل للتجنيد من المدينة كما مرّ علينا سابقا، الأولى كانت سنة 88هـ/707م عندما فرض الوليد بن عبد الملك على أهلها بعثا من ألفي مقاتل للمشاركة في حملة طوّانة ويبدو أنّهم كانوا كارهين للالتحاق بجيش الصائفة فأرسلوا بدلاء عنهم تجنبا للعقاب واسقاط أسمائهم من الديوان وبالتالي انقطاع العطاء عنهم، ومع ذلك لم يلتحق بجيش مسلمة والعباس إلا ألفا وخمسمائة رجل فقط وتخلّف الباقي عن الغزو<sup>5</sup>، والمرّة الثانية التي تمّ فيها تجنيد مقاتلين من المدينة كانت في خلافة هشام بن عبد الملك

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 2، ص 346 / ابن العلم: المصدر السابق، ج 1، ص 47-48.

2 - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 416.

3 - محمود أحمد محمد عواد: المرجع السابق، ص 101.

4 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 191.

5 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 434.

عندما ضرب عليهم هو أيضا بعثا آخرًا حين حجّ سنة 106هـ/724م وذلك أنّه لما حضر جنازة أحد أعيان المدينة بالبقيع ورأى من كثرة الناس التي شيعته فرض عليهم إخراج أربعة آلاف رجل للغزو، فلمّا قدموا الشام تمّ إلحاق نصفهم بالأسطول للمشاركة في الحملة البحرية التي قادها معاوية بن هشام، في حين تمّ الإبقاء على النصف الآخر في المدن الساحلية لتعويض حاميات المسلمين في السواحل ممّن توجهوا للغزو حتّى لا تبقى الثغور البحرية دون حماية<sup>1</sup>، وكانت هناك حالات استثنائية يتمّ فيها التجنيد حتّى من مصر والعراق لتعزيز قوّات الصوائف في عمليّاتها ضدّ الروم، خاصة إذا كانت الحملة على قدر كبير من الأهميّة<sup>2</sup>. وبالإضافة إلى الجُند، كان هيكل جيش الصائفة يضمّ العديد من العناصر التي كان لها دور حيويّ في دعم العمليّات الحربية في الفضاء البيزنطي، خاصة أولئك الذين يعملون على تقديم الدعم اللوجستي للحملة في صورة الحرفيين والمتخصّصين في أعمال الإصلاح والبناء والهندسة ممّن تُطلق عليهم المصادر اسم "الفعلة"، حيث كان قائد الصائفة يحرص على إلحاق عدد معتبر منهم بالجيش لدورهم المحوريّ في تسهيل حركة قوّات الصوائف من خلال قطع الأشجار وإصلاح الطرق وغيرها، وأيضًا المساعدة في العمليّات الحربية خاصة فيما يتعلّق بإحداث منافذ وثغرات في تحصينات العدو وأسوار مدنه وحصونه، كما كان يتمّ توظيفهم أيضًا عند الضرورة في مهام إعادة بناء وترميم الحصون والمدن الإسلامية في منطقة الثغور، ويعتبر وجودهم في جيش الصائفة أساسي وحيوي لضمان عدم استنزاف جهود الجُند قبل انخراطهم في العمليّات القتالية، وأيضًا للخدمات الكبيرة التي كانوا يقدمونها، ويكون الفعلة في مقدمة الجيش عادة عند الانطلاق إلى الحرب حتّى يهيئوا الطريق ويتأكّدوا من صلاحيته<sup>3</sup>، ونجد إشارات مهمّة في المصادر عن هذه العناصر في حملات الصوائف ففي إحدى الحملات المعتادة لغزو الروم عسكر مسلمة بن عبد الملك بجيشه في بالس قرب قنّسرين استعدادًا للانطلاق عبر الجزيرة على رأس الصائفة فأتاه أهلها وسكان القرى المحيطة بها وطلبوا منه أن ينجز لهم بعض المشاريع لتأمين المنطقة وتنشيط الزراعة فيها فحفر لهم نهرًا من الفرات عرف بنهر مسلمة وأعاد ترميم سور المدينة وأحكمه<sup>4</sup>، وقد أنجز كلّ هذه الأعمال قبل حتّى أن يفوت موسم الغزو ما يدلّ على السرعة والفعالية في إنجاز الأعمال بفضل مهارة العمّال "الفعلة" الذين يضمّهم جيشه، وقام العباس بن الوليد أيضًا بنشاطات مماثلة في مرعش التي مرّ بها في إحدى الصوائف التي قادها عبر الجزيرة فتوقّف في المدينة التي كانت تعاني حينها من الخراب والإهمال بعد أن تعرّضت للتدمير من طرف

1 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 199 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 29-40 / ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 20، ص 69.

2 - ابن عسّاكر: المصدر نفسه، ج 9، ص 168.

3 - عبد العزيز عبد الله السلومي: المرجع السابق، ص 357.

4 - البلاذري: المصدر السابق، ص 177-178.

الروم خلال فتنة ابن الزبير، فأعاد العباس بنائها من جديد وعمّرها وبنى بها مسجدا جامعاً<sup>1</sup>، وفي أواخر العهد الأموي توجّهت صائفة سنة 123هـ/741م بقيادة الخليفة هشام بن عبد الملك شخصياً لنجدة ملطية التي تعرّضت لهجوم عنيف من طرف الروم في نفس السنة وبقي معسكراً فيها مع جيش الصائفة حتى تمّ إعادة بناء وترميم الأضرار التي لحقت بالمدينة وأسوارها<sup>2</sup>، وهكذا يتبيّن من خلال هذه الأمثلة أنّ أعمال البناء والترميم التي اضطلعت بها جيوش الصوائف كانت تقتضي حتماً وجود حرفيين ومختصّين في مختلف المهن بين صفوفها ما يثبت أنّ حملات الصوائف كانت تضمّ ضمن هيكلها الفعلة بمختلف اختصاصاتهم.

وكان قادة الصوائف والشواتي يحرصون على ضمّ الرجال من ذوي الرأي والمشورة يستعينون بهم ويستنصحوهم إذا اعترضتهم المصاعب أو أشكل عليهم أمر ما، وكان هذا الأمر معمولاً به في ذلك الوقت، حتّى أنّ عبد الحميد الكاتب لم يغفل ذكره في رسالته "في وصية ولي العهد" التي دوّنها أواخر العهد الأموي وبعث بها إلى عبد الله بن مروان حين توجّه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، والتي لخصّ فيها عبد الحميد الكاتب تجارب ذلك العصر في السياسة والحرب ومن أهم ما جاء فيها الاستعانة باستشارة ذوي النصيحة ممّن حنكتهم التجربة والحروب<sup>3</sup>، وكان سفيان بن عوف وهو من أشهر قادة الصوائف في الفترة المبكّرة للدولة الأموية قد اتخذ من كل جنود من أجناد الشام رجالاً من ذوي الشجاعة والرأي ومعرفة بالحرب يستعين بهم ويلزمونه في حملاته حتى عُرف بهم واشتهروا به<sup>4</sup>.

يضمّ جيش الصائفة أيضاً، بالإضافة إلى العناصر السابقة، شخصاً مكلفاً بالغنائم والإشراف عليها وعلى توزيعها بما يوافق الشرع، وكان يعرف بـ "صاحب المقاسم"، أو "صاحب الأقباض" ويتمثّل دوره في جمع الغنائم والاحتفاظ بها حتّى انتهاء الأعمال القتالية ثمّ تقسيمها وتوزيعها بعد ذلك على مستحقيها حسب المعادلة المالية الشرعية<sup>5</sup>، وكان هذا الدور كثيراً ما يقوم به أمراء الصوائف في بداية الدولة الأموية حيث كانوا يشرفون بجانب مهامهم العسكرية على توزيع الغنائم على المشاركين في الحملة بعد تحييد الخمس الخاص بالخلافة، لكن يبدو أنّ هذا الدور قد اختفى لاحقاً في العهد مرواني أين أصبح الخليفة يعيّن للغنائم من يقوم بأمرها ومن أشهر هؤلاء رجاء بن حيوة الذي اشترك في حملة طوّانة مكلفاً بالغنائم وأمينا على أمير الصائفة مسلمة بن عبد الملك<sup>6</sup>، وفي عهد الوليد بن عبد الملك كان على المقاسم حوشب

1 - البلاذري: المصدر السابق، ص 223.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 221.

3 - محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 151.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 49-50.

5 - محمود أحمد محمد عواد: المرجع السابق، ص 87.

6 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 167.

ابن سيف وهو من أهل حمص<sup>1</sup>، وتولّاها بعده عبد الواحد بن عبد الله النصرى في عهد يزيد بن عبد الملك<sup>2</sup>، ثمّ عبد الرحمن بن يزيد الأزدي في عهد هشام بن عبد الملك<sup>3</sup>. وكان جيش الصائفة يضمّ أيضا قاض يحكم بين عناصر الحملة فيما يكون بينهم من خلاف، ومن الصفات التي يجب أن تتوفر فيه أن يكون ورعا نزيها عفيفا عادلا ذو تجربة وبصيرة<sup>4</sup>.

مع انتهاء الاستعدادات المادية واللوجستية كان غالبا يتمّ تحديد الهدف الذي ستقصده الحملة قبل التحرك نحو بلاد الروم، لكنّ الخلفاء وأمراء الصوائف كانوا حريصين على عدم افشاء وجهة الحملة وهدفها في الغالب، وذلك من أجل الاستفادة من عنصر المفاجئة لتحقيق أفضل المكاسب الممكنة، وأيضا خشية تسرب المعلومات إلى العدو فيتخذ احتياطاته بعد ذلك ويعمل على نصب الكمائن لجيش المسلمين في طريقهم للغزو، ويبدو أنّ الأمراء كانوا على اطلاع بمحاولات الروم اختراق جيوش الصوائف وزرع الجواسيس فيها، وعلى ما كان عليه الروم من مكر، فكان أمراء الصوائف يتخذون الاحتياطات اللازمة لذلك فمالك بن عبد الله الخثعمي مثلا، الذي اشتهر بغزو الروم وقيادة الصوائف حتّى عُرف بمالك الصوائف<sup>5</sup> كان إذا استعدّ لعبور الدروب إلى بلاد الروم يخطب في جيشه ويعلمهم بمسيرهم والدرب الذي سيعبرون منه على غير الوجه الذي ينوي فتنفّر عن الجواسيس لنقل الخبر فإذا تحرك بجيشه سلك غير الطريق الذي أعلنه، وبلغ من العدو في المكيدة والخداع حتّى سمّته الروم الثعلب<sup>6</sup>، وفي حملة طوانة سنة 88هـ/707م بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد قام الوليد بن عبد الملك بعمل تضليلي على قدر كبير من الدهاء والحيلة قبل إرسال الحملة حيث أظهر نيّته التحرك باتجاه أرمينية للتصدي للأخطار التي تتهدّد المنطقة، وكاتب إمبراطور الروم بذلك مستظفرا له رسائل من أمير أرمينية كان الوليد قد أمره أن يكتب بها إليه ينذره باستعداد الخزر لغزو أراضيه، فلمّا جهّز الوليد بن عبد الملك جيش الصائفة أرسله عبر الجزيرة كأنه قاصد أرمينية بالفعل، فلمّا عبروا الدروب انعطفوا يسارا في حركة مفاجئة متجهين نحو طوانة ففرضوا عليها الحصار حتّى فتحوها<sup>7</sup>، ومع مطلع القرن الثاني هجري اشتهر في قيادة الصوائف الأمير معاوية بن هشام الذي لم يكن أقلّ حيلة ممّن سبقه في قيادة حملات الصوائف، ففي إحدى الحملات قام

1 - النصرى: تاريخ أبي زرعة، ص 174 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 15، ص 340.

2 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 37، ص 347.

3 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 36، ص 54.

4 - محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 154.

5 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 56، ص 473.

6 - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 1، ص 115 / النويري، شهاب الدين (ت 733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق علي

بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004، ج 6، ص 149.

7 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 26، ص 443.

يخطب في جيشه ودعا بالنصر على عمورية حتى يعطي الانطباع أنّها هدف حملته بينما كان يريد غيرها<sup>1</sup>، وقد استطاع المسلمون من خلال هذه المناورات والتمويه في تحديد الهدف تحقيق مكاسب كثيرة مثل ضمان سلامة حملاتهم من كمائن البيزنطيين، والاستفادة من عنصر المفاجئة لمباغثة الروم على غير استعداد منهم، وقد برهنوا بذلك على مستوى عال من الدهاء في مواجهة خصومهم، حيث لم يغفلوا عن عنصر المكيدة والتضليل كوسيلة فعّالة لإرباك الروم وافشال دور جواسيسهم، وأيضا لحرمانهم من فرصة الاستعداد المسبق لمجابهة حملات الصوائف والشواتي<sup>2</sup>.

وتمرّ كلّ الحملات سواء كانت صيفية أو شتوية بنفس هذه المراحل من التحضير، لكن مع ذلك كان تحضير حملات الشواتي يعتبر أكثر صعوبة وكلفة، بسبب الظروف المناخية الصعبة التي تجري فيها الاستعدادات، وأيضا بسبب ارتفاع نفقة توفير ما يلزم الجيش من مؤونة، والدواب من أعلاف، نظرا لانقطاعها في بلاد الروم في فصل الشتاء مع غياب المراعي اللازمة للخيول والدواب، كما أنّ الجند كانوا بحاجة إلى لباس أكثر لمواجهة البرد.

#### ثانيا- التعبئة والتنظيم:

كانت قوّات الصوائف تتجمّع أخيرا عند المنطقة الحدودية في معسكر دابق كما ذكرنا سابقا، وهناك كانت تجري آخر استعداداتها حيث يتمّ تنظيم الجيش وترتيب المقاتلين وتوزيعهم تحت إمرة قادتهم على مختلف مواقعهم مع معالجة مواطن الخلل قبل الانطلاق إلى بلاد الروم، وهذه العملية الحساسة تكتسي قدرا كبيرا من الأهمية وتعرف في المجال العسكري بالتعبئة، وهو ما سنقوم باستعراضه بالتفصيل في هذا العنصر.

إنّ مصطلح التعبئة يعبر عن كلّ ما يقوم به الجيش من تحركات استراتيجية وتكتيكية لتهيئته ووضعها في وضع القتال من خلال تنظيم وصف الكتائب أثناء المعركة أو قبلها<sup>3</sup>، وهذا الإجراء مهمّ جدا بالنسبة للجيش حتى عدّ بعضهم التعبئة سرّ التفوّق في الحروب وشبّهها بالروح للجسد<sup>4</sup>، وكانت جيوش الصوائف والشواتي تنتظم وفق ترتيب محدّد لكنّه بطبيعة الحال يختلف باختلاف عدد أفراد الحملة وطبيعة العمليات التي تقوم بتنفيذها وشكل المواجهات التي ستخضع لها، لكن الترتيب الغالب الذي كانت تسير عليه جيوش الصوائف هو نظام الخميس، حيث يقسم الجيش إلى خمسة أقسام كل واحد منها له دور محدّد يختصّ به، وهذه الأقسام هي: المقدمة، والميمنة، والميسرة، والقلب، والساقة، وكان هذا النظام معمولا به في

1 - ابن العديم: المصدر السابق، ج 10، ص 4690.

2 - عدي سالم عبد الله حمد الجبوري: المرجع السابق، ص 167.

3 - عبد الجبار محمود السامرائي: نظم التعبئة عند العرب، مجلة المورد، مجلد 12، عدد 4، بغداد 1983، ص 7.

4 - محمود أحمد محمد عواد: المرجع السابق، ص 184.

تحرّكات الجيوش ومسيرها للحدّ من الخسائر إذا تعرضوا لهجوم مباغت من العدو<sup>1</sup> خاصة في بيئة معادية وخصائص طبيعة تعطي أفضلية دفاعية للخصم وتسمح بنصب الكمان مثل بلاد الروم، وفي ظلّ هذا التقسيم كان يتمّ توزيع المسؤوليات على عدد معتبر من القادة الفرعيين مثل أمراء الأجناد وزعماء القبائل، بحيث كان على كلّ قسم من أقسام الجيش الخمسة قائد يشرف عليه يُعتبر مسؤولاً بشكل مباشر أمام أمير الصائفة، وإذا كان أحد أقسام الجيش يضمّ مقاتلين من جندين مختلفين فكان يتمّ تعيين قائد على كل جند تحت اشراف قائد ذلك القسم، ثمّ يتمّ بعدها توزيع أهل كل جند في كل قسم حسب الانتماء القبلي لهم أين يتمّ تعيين زعيم قبلي على أفراد كل قبيلة ضمن ذلك الجند<sup>2</sup> يعتبر هو المسؤول المباشر عن أفراد قبيلته أمام قائد الجند، ونجد عند ابن عساکر إشارات نادرة على قدر كبير من الأهميّة عن هذا التنظيم، ففي احدى الصوائف استعرض عبد الملك بن مروان الناس وانتخب منهم جيشاً من ثلاثين ألف فارس من أهل البأس والنجدة وجعل القيادة لابنه مسلمة ثمّ نظّمه وفق التقسيم الحماسي المعروف فجعل على مقدمة الجيش محمد بن الأحنف بن قيس التميمي، وعلى الميمنة محمد بن مروان بن الحكم، وعلى الميسرة عبد الرحمن بن صعصعة، وعلى الساقية محمد بن عبد العزيز بن مروان، وجعل في القلب ابنه مسلمة قائد الحملة وأمره أن يجعل على طلائع الجيش البطل لشجاعته واقدامه<sup>3</sup>.

ويكون موضع أمير الصائفة مع حاشيته دائماً في وسط الجيش حتّى يستطيع ضبط نظام جنده ويكون قريباً من كل أقسامه، وكان عمر بن عبد العزيز قد أوصى عمرو بن قيس السكوني بمثل هذا عندما عينه على رأس الصائفة فأمره بالألا يكون في مقدمة الناس حتّى لا ينهزم الجيش إن هو قُتل، وألا يكون في آخرهم فيفسلوا ويدخل نفوسهم الجبن، وأن يكون في وسطهم حتّى يروا موضعه ويسمعوا صوته<sup>4</sup>، لكن مع ذلك كان أمراء الصوائف في بعض الأحيان يحبّذون التواجد في الصفوف الأمامية للجيش عند مواجهة العدو رغبة في الشهادة، وأيضاً تشجيعاً للجند على القتال ودفعهم للاستماتة فيه، ومن باب الاحتياط في حالة تعرّضهم للقتل كانوا يقومون بتعيين نوابٍ لهم على الجيش حتّى لا يبقى دون أمير يضبط أمره ويجنّبه الوقوع في الفوضى ما يمكن أن يسهّل على العدو إلحاق خسائر كبيرة في صفوف المسلمين، وهذا ما فعله سفيان بن عوف مثلاً عندما أدركه الموت ببلاد الروم وهو أمير الناس على الصائفة سنة 55هـ/675م فاستخلف ابن مسعود الفزاري وأوصاه بالحرص على سلامة المسلمين<sup>5</sup>.

1 - عبد الجبار محمود السامرائي: المرجع السابق، ص 12.

2 - نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 361.

3 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

4 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 360 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 11، ص 244.

5 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 21، ص 351.



أمّا على صعيد التقسيم القبلي لهذه الحملة، فقد كانت قبيلة تميم تحت إمرة محمد بن الأحنف، وجماعة قريش بما في ذلك بني أمية ومواليهم تحت إمرة محمد بن مروان، وقبيلة ربيعة بقيادة عبد الرحمن بن صعصعة، وعلى همدان صدقة بن اليمان الهمداني بعد أن اعتذر عبد الله بن قيس أن يلي عليهم، وعلى قبائل طيء ولخم وجذام، عبد الله بن عدي بن حاتم الطائي، وعلى قبائل قيس، الضحّاك بن مزاحم الأسدي، وعلى كندة وغسان، الأصبع بن الأشعث الكندي<sup>1</sup>، وإن كان يمكن لنا أن نتبيّن مواقع بعض القبائل في الجيش من خلال أسماء قادتها فإنّ بعضها الآخر للأسف لا يمكن تحديده موضعه لغياب أي إشارة عن ذلك.

ويبدو أنّ تنظيم أهل الشام في جيوش الصوائف كان كما جيوش المسلمين في غيرها من الأمصار يتمّ على أسس قبلية حيث يتمّ جمع أفراد القبيلة الواحدة في كتيبة مستقلة مراعاة للانسجام الذي يكون بين أفرادها من أجل تسهيل تنظيم القتال وإدارته مكوّنة بذلك الوحدة الأساسية في الجيش، لكن الشام مع ذلك كانت لها خصوصياتها لتعدّد حواضرها وأجنادها وهكذا تمّ توزيع المقاتلين على أسس إقليمية كذلك بالموازاة مع الاعتبارات القبلية، وفي هذا الصدد لدينا رواية على قدر كبير من الأهميّة عند ابن عسّاكراً دائماً تنتهي سلسلة سندها إلى أحد الجند من أهل الشام ممّن اعتادوا المشاركة في حملات الصوائف يذكر فيها أنّهم إذا غزوا بلاد الروم كانوا ينزلون أربعاً<sup>2</sup>، على أنّ هذا التقسيم ليس قبلياً خالصاً كما كان الحال مع أرباع الكوفة أو أحماس البصرة مثلاً بل كان إدارياً يستند إلى أجناد الشام الأربعة المعروفة، وهي دمشق والأردن وفلسطين وحمص، وإذا أردنا أن نفهم هذا التقسيم القبلي الإقليمي للجيش يجب أن نرجع إلى فترة سابقة نمتلك عنها معلومات كافية والتي يمكن أن نعتبرها المرجعية التي سار عليها التنظيم العسكري لمقاتلة الشام لاحقاً، ونعني هنا التقسيم الذي كان عليه جيش الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين سنة 37هـ/657م في مواجهة جيش علي بن أبي طالب، أين كان مقاتلة جند دمشق بقيادة الضحّاك بن قيس الفهري في القلب الذي اشتمل على قبائل قريش وقضاعة وكندة وبجيلة وحمير وحضر موت، وكان مقاتلة جند حمص وقنّسرين على الميمنة وكان أهل حمص تحت قيادة ذي الكلاع الحميري وأهل قنّسرين تحت قيادة زفر بن الحارث الكلابي ويشرف عليهما كلاهما عبد الله بن عمرو بن العاص وضمّ هذا الجند التشكيل القبلي الآتي: بني كلاب وباهلة وحمير وكندة وقضاعة والأزد، أما الميسرة فكانت تتشكّل من أهل جند الأردن وفلسطين معاً وكان أهل الأردن تحت قيادة سفيان بن عمرو في حين كان أهل فلسطين تحت قيادة مسلمة بن مخلّد ويشرف على هذا الجناح (الميسرة) حبيب بن مسلمة الفهري وضمّ هذين الجند قبائل بنو سليم وقضاعة ومذحج وغسان بالنسبة للأردن، و قبائل كنانة وقضاعة و تميم

1 - ابن عسّاكراً: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

2 - ابن عسّاكراً: المصدر نفسه، ج 1، ص 273.

وجدام بالنسبة لفلسطين<sup>1</sup>، ويظهر جلياً أن هذا التقسيم ليس قبلياً خالصاً إذ نجد أن القبيلة الواحدة موزعة على عدة أجناد وتمّ الإبقاء على هذا الوضع دون تغيير ولم يتم دمج أفراد القبيلة الواحدة الموزعة على عدة أجناد ضمن وحدة منفردة، وتجدر الإشارة هنا أنّ هذا التقسيم الإقليمي بقي معمولاً به مع الجند الشامي حتى خارج مواطنهم، ففي خراسان كانوا موزعين حسب أجنادهم على أربعة أقسام، أهل فلسطين وأهل قنسرين وأهل حمص وأهل دمشق، وعندما قام مسلمة بتوطين أربعة وعشرين ألف من أهل الشام والجزيرة في مدينة الباب عمد إلى تقسيمهم إلى أرباع ودائماً حسب الانتماء الإقليمي وليس الانتماء القبلي فجعل أهل دمشق ربعاً وأهل حمص ربعاً وأهل فلسطين ربعاً وسائر أهل الشام والجزيرة ربعاً<sup>2</sup>، هذه الأدلة تثبت فعلاً أنّ توزيع الجند على أقسام الجيش كان يخضع لاعتبارات إقليمية بالأساس، وقد سارت حملات الصوائف أيضاً على هذا التقسيم الذي كان عليه جيش الشام في معركة صفين إذ يمكن تبين ذلك من خلال رواية تفيد بأنّ أحد القادة وهو عبد الله بن قرط كتب إلى معاوية يستفسره عن مواضع رايات الأجناد فأخبره أنّها كما كانت على مواضعها الأولى<sup>3</sup>، وفي رواية أخرى يذكر شيخ مَن اعتاد المشاركة في حملات الصوائف أنّهم إذا غزوا يكون أهل دمشق قلب الجيش مع الأمير في أهله وخاصته ويتوزع باقي أجناد الشام يمنة ويسرة<sup>4</sup>، وعليه يمكن أن نتصوّر أن أهل حمص وقنسرين كانوا يشكلون الميمنة في حين كان أهل الأردن وفلسطين يشكلون الميسرة كما كان الحال في صفين من قبل.

### ثالثاً- سير العمليات الحربية:

بعد إتمام الاستعدادات عند منطقة الحدود في دابق بالشام أو حرّان بالجزيرة أين يتمّ تعبئة الجيوش وضبط نظامها تدخل قوّات الصائفة إلى بلاد الروم عبر إحدى الدروب المعتادة، ففي الظهر الشامي كان درب البوابات القليلية هو المعبر الرئيسي للحملات السنوية لاستهداف بند الأناضول والأقاليم الجنوبية والغربية في آسيا الصغرى، وعلى جبهة الجزيرة كانت الجيوش تعبر إلى بلاد الروم عبر ملطية، أو درب الحدث وهو درب السلامة كما يفضّل المسلمون تسميته تطيراً من الاسم الأول، أو عبر مرعش كذلك.

عندما تصبح الحملة داخل بلاد الروم يكون المسير على حذر زيادة في الاحتياط من أيّ هجوم مباغت محتمل من طرف العدو أو كمين معادٍ ضدّ القوات الإسلامية، وكان قادة الصوائف يتركون بين مختلف أقسام الجيش مسافة قصيرة فاصلة بمقدار طريق تسمح بمرور الخيل والناس، وهذا الإجراء المهمّ كان متّبعا للحفاظ على نظام الجيش وتوازنه إذا تعرّض إلى هجوم مفاجئ من العدو، حتّى لا يحدث ارتباك

1 - محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص 238-239 / محمود أحمد محمد عواد: المرجع السابق، ص 187.

2 - محمود أحمد محمد عواد: المرجع نفسه، ص 187-188 / صلاح طهوب: المرجع السابق، ص 178.

3 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 1، ص 273.

4 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 1، ص 274.

واختلال يُدخل الجيش في فوضى<sup>1</sup>، وقد التزم قادة الصوائف بهذا المبدأ حتى عند عمليات الحصار التي يفرضونها على الحصون والقلاع لكي لا يُضيق الجند المنازل فيما بينهم وللإبقاء على مساحة كافية للتحرك والمناورة<sup>2</sup>، وداخل بلاد الروم تتقدم فرق الطلائع جيش الصائفة وهي وحدات خفيفة سريعة الحركة تضم فرسانا على قدر كبير من الكفاءة والمهارة<sup>3</sup>، وتعتبر من الأهمية بما كان حتى عدّها عبد الحميد الكاتب أول المكيدة ورأس الحرب فكانوا ينتخبون لها الرجال الشجعان ذوي النجدة والبأس والصرامة ممن صقلتهم تجارب الحروب ويتخيرون لقيادتها من ذاع صيتهم في حرب العدو من الأبطال<sup>4</sup>، وفي حملات الصوائف اشتهرت عدّة شخصيات في قيادة الطلائع مثل أبو مسلم الخولاني، وكان الولّاة يتيّمون به لورعه وتقواه فيؤمرونه على المقدمات، وكان إذا همّ الجيش بالرجوع يتأخّر حتى يكون في الساقة ليردّ عن المسلمين هجمات الروم وكمائهم<sup>5</sup>، واشتهر أيضا في وقت لاحق على طلائع الجيش عبد الله البطال، وأيضا عبد الوهاب بن بخت، والوضّاح مولى بني مروان، وابنه عمرو بن الوضّاح، وفي أواخر القرن الأول هجري بدأت تتشكّل فرق متخصصة في هذا النوع من العمليات برزت كقوّات طلائع نشيطة تتقدّم الجيوش ويتمّ توظيفها كقوّات نخبة يُعهد لها بالمهمّات الصعبة، وكانت بشكل مثير للانتباه تتكوّن من الموالي خصوصا، مثل فرقة ميمون الرومي المعروف بالجرجماني من أهل أنطاكية وتضمّ ألف فارس، وكان ميمون هذا عبدا روميا مملوكا لجماعة من ثقيف وقد اشتهر بشجاعته وبأسه أيام تمرّد الجراجمة في جبال اللكام في خلافة عبد الملك، فاستماله الخليفة وسعى في اعتاقه من مواليه وجعله على قيادة جماعة من الجند في أنطاكية فكان يغزو الصوائف حتى استشهد قرب طوانة سنة 85هـ/704م مع يزيد بن حنين<sup>6</sup>، وتبقى أكثر الفرق التي لاقت شهرة ونجاحا كبيرين في العهد الأموي هي فرقة الوضّاحية التي برزت منذ نهاية القرن الأول هجري كقوة استطاع ذات كفاءة عالية تتقدّم جيوش الصوائف، وكما يدلّ عليها اسمها كانت تنسب لقائدها الوضّاح أحد الفرسان المشهود لهم بالشجاعة، وكان مولى لبني مروان من أصول بربرية نال بفضل خصاله الحرية مجدا عظيما حتى مدحه جرير الشاعر وأثنى عليه في قصيدته (ضاربو هام الملوك) رغم ما كان يعرف

1 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 1، ص 274.

2 - عدي سالم عبد الله حمد الجبوري: المرجع السابق، ص 166.

3 - عبد الجبار محمود السامرائي: المرجع السابق، ص 12.

4 - الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون ومراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص 48 / محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 154-156.

5 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 27، ص 229-230.

6 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 188 / ابن عسّاكر: المصدر نفسه، ج 61، ص 369.

عنه من عنصرية تجاه الموالي<sup>1</sup>، وكان لفرقة الوصاحية مواقع مشهودة وحققت نجاحات كثيرة في المواجهات مع الروم، وبلغ عدد أفراد هذه الوحدة أواخر دولة بني أمية حوالي ثلاثة آلاف فارس<sup>2</sup>.

كان عدد أفراد الطليعة يختلف حسب حجم الجيش وطبيعة المهمات والأهداف التي تضطلع بها، وتشكّل عادة من بضع عشرات إلى عدّة آلاف من الفرسان، ففي إحدى الغزوات عقد مسلمة بن عبد الملك لعبد الله البطال على عشرة آلاف رجل طليعة تتقدّم الجيش فجعلهم بينه وبين ما يليه من حصون الروم حتى يأمن كمائنهم واعتراضهم عسكر المسلمين<sup>3</sup>، وفي حملة قادها سليمان بن هشام كان يتقدّم الجيش طاعة من ثمانية آلاف رجل فيهم البطال و عبد الوهاب بن بخت<sup>4</sup>.

ويمنع على أفراد الطليعة أن يحملوا معهم الأثقال ولا يستكثروا من الخيول ودواب النقل ما قد يُبطأ سيرهم أو يشغلهم عن عدوّهم إذا لقوه، وكان يلزمهم السلاح الكامل مع الاستغناء عن الدروع والتروس حتى يتخفّفوا، وكانوا يستعملون الأفراس مقطوعة الذنب لسرعتها وقوة احتمالها<sup>5</sup>، وقد ضمّت الطليعة التي ذكرناها سابقا بقيادة مالك بن شبيب سنة 122هـ / 740م مثلا ثمانية آلاف فارس ليس معهم إلاّ خيولهم وراحلة واحدة فقط<sup>6</sup>.

ومن مهام الطليعة استكشاف الطريق وتبّيع تحركات العدو ورصد الكمائن التي تستهدف أطراف الجيش في طريق الغزو، ودور الطليعة استخباراتي بالأساس حيث تجمع معلومات عن مراكز تجمع العدو وطبيعة استعداداته وحجمها، كما يمكن أن تحدّد حتى الأهداف المناسبة التي يجب التركيز عليها، وهذا الأمر حيوي جدا بالنسبة لحملات الصوائف التي تنفذ مهمات قتالية بعيدا عن قواعد امدادها، وتنشط في بيئة معادية وفي ظروف تمنح أفضلية واضحة للخصم، وكان أهل البصيرة بالحرب يعدّون اذكاء العيون واستطلاع الأخبار أكثر المكائد حزما في الحروب<sup>7</sup>، وقد عدّ عبد الحميد الكاتب العيون رأس المكيدة وقوام التدبير في الحرب ويتحدّد سير المعركة على ما يأتون به من أخبار ومدى نجاحهم فيما أسند لهم يعدّ أول الفوز والظفر<sup>8</sup>، والطليعة لا تقاوم عند اكتشاف قوّة العدو أكبر حجما إلاّ عند الضرورة، وعلى صعيد الأمثلة العملية المتعلقة بموضوعنا تذكر الأخبار أنّ مالك بن عبد الله الخثعمي جاءته في إحدى الصوائف التي كان يقودها أخبار عن تجمع لقوّة الروم لاستهداف جيش المسلمين فأخذ زمام المبادرة

1 - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 5، ص 378-379 / نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 348.

2 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 523؛ ج 7، ص 313.

3 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 33، ص 402.

4 - ابن عسّاكر: المصدر نفسه، ج 56، ص 459.

5 - الهرثمي: المصدر السابق، ص 49 / محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 155-156.

6 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 56، ص 459.

7 - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 1، ص 110.

8 - محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 153.

وسار إليهم لمواجهةهم وهو على علم بأمرهم واستعداداتهم وبالظروف التي ستكون عليها المواجهة<sup>1</sup>، وقد منحته هذه المعلومات أفضلية قتالية في مواجهة القوّات البيزنطية، ونظرا للدور المحوري والحيوي الذي كانت تقوم به قوّات الطلائع ربّما كان يتم تفضيل أصحابها على غيرهم من جند الصائفة في الأرزاق والعطاء نظرا لطبيعة المهّمات الخطيرة التي يقومون بها<sup>2</sup>.

تختلف مدّة نشاط حملات الصوائف والشواتي في بلاد الروم من حملة إلى أخرى، حسب طبيعة الحملة والأهداف المسطّرة والظروف العامة التي تُنفذ فيها مهامها، ورغم أن ابن خرداذبة يحدّد مداها بمدّة شهرين للصوائف ابتداء من جويلية، وبأقل من شهر للشواتي ابتداء من أواخر فيفري<sup>3</sup>، إلا أن الواقع العملي يشير إلى أنّ هذا التحديد الزمني لا يعدو أن يكون نظريا فقط ولا يتوافق دائما مع المعطيات الميدانية، فالصوائف عادة ما تمتدّ من عدّة أسابيع إلى عدّة أشهر حسب طبيعة العمليّات العسكرية ومدى توغّلها في بلاد الروم، وكانت غالبا ما ترجع قبل انقضاء فصل الصيف لتجنّب التعرّض للعوامل المناخية القاسية التي تميّز بها آسيا الصغرى، والاستثناء الوحيد المسجّل نجده في فترة خلافة معاوية بن أبي سفيان أين كانت الصوائف تستغرق كلّ فصل الصيف وتمضي الشتاء في بلاد الروم قبل العودة إلى قواعدها في الشام أين كان العمل بنظام الحملات الطويلة (زمنيا) هو الاستراتيجية المتّبعة في ذلك الوقت، أمّا الشواتي فإنّ مدّة نشاطها داخل بلاد الروم أقلّ بكثير نظرا لعوامل عديدة طبيعية ولوجستية مثل قساوة المناخ، وعدم قدرة الجيش على التوغّل عميقا داخل بلاد الروم بسبب العوامل الطبيعية المعاكسة كالتساقط الغزير للأمطار وانغلاق الطرق بالثلوج ما يحدّ من قدرة الجيش على التحرك، وأيضا بسبب غياب المراعي للخيول والدواب ما يجبر عناصر حملة الشتاتية على حمل الأعلاف معهم ولا شك أنّ ما يستطيعون حمله معهم لا يمكن أن يستمرّ إلا لأسابيع قليلة ما يساهم في تقليص مدّة نشاط الحملة.

لقد كان التوغّل في عمق بلاد الروم الذي كانت تقوم به بعض الحملات يستغرق مدّة زمنية طويلة ما يجبر قادتها على إقامة معسكرات يتّخذونها قواعدا لهم وكان هذا الإجراء يستلزم عدّة ترتيبات لضمان سلامة الجيش ومعدّاته لهذا كان أمير الجيش إذا أراد أن يعسكر يباشر إرسال السرايا في المنطقة لتأمين محيط المعسكر وانشاء منطقة أمان يرعى فيها المسلمون خيولهم ودوابهم دون أن يتعرّضوا لهجمات مفاجئة من الروم، ويقومون وسائل دفاعية تحميهم بل وحتى أماكن مخصصة للعبادة، فقد أقام أبو أيوب الأنصاري مثلا في إحدى الصوائف مسجدا يصلي فيه بالناس<sup>4</sup>، ولا شك أنّ هذا المسجد كان يسيطر البناء وعلى الأرجح يتكون من الأخشاب المتوفرة محليا كما أنه لم يكن بناء دائما على كل حال، وكان معسكر الجيش

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، 474.

2 - محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 156.

3 - ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 259.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 34، ص 330.

على الأرجح يتخذ شكلا مستديرا بحيث يكون الجند قريبين من بعضهم لتسهيل مهمّة الحراس الذين يكلفون بحفظ المعسكر من الأعداء وهذا التنظيم لا يجعل الجند متفرّقين ومنتشرين فيسهل على العدو استهدافهم<sup>1</sup>، وكان قادة الحملات في بعض الأحيان يفضلون الاستيلاء على أحد الحصون لاتخاذهم كمعسكر وقاعدة عمليات لجيش الصائفة ما يسمح لهم بالتراجع إليه بعد القيام بغارات محليّة<sup>2</sup>.

تمثلت أولوية الحملات الصيفية والشتوية، بجانب الأهداف العسكرية والاستراتيجية، في تحقيق سلامة الجند عند لقاء العدو أو على الأقل الحدّ من الخسائر البشرية إلى أدنى مستوى ممكن، وقد كان هذا الأمر يشغل كثيرا قادة الصوائف والشواتي وحتى الخلفاء من ورائهم، وتذكر المصادر أنّ مالك بن عبد الله الخثعمي كان يمتنع عن استعمال الطيب وهو ببلاد الروم حتى يجتاز الدرب قافلا بسبب ما كان يشغله من أمر جنده والحفاظ على سلامتهم<sup>3</sup>، وكان أكبر همّه في غزواته الرجوع بالناس سالمين وله في هذا الصدد حديث مع أحد البيزنطيين في مجلس معاوية بن أبي سفيان جاء وافدا إلى دمشق من طرف الإمبراطور، اعتبر نفسه إذا غزا كمثل التاجر الذي لا همّ له إلا رأس ماله فإذا أحرزه وحافظ عليه فكل ما أصاب من بعده فهو فضل وفائدة<sup>4</sup>، أي أنه يركّز أولا على تأمين عناصر جيشه والعودة بهم سالمين وكلّ ما يحقّقه فوق ذلك من فتوحات وانتصارات فهو مكسب إضافي، وحدث في إحدى حملاته أن فتح حصنا من الحصون البيزنطية في آسيا الصغرى فأصيب رجل من المسلمين فاغتمّ لذلك كثيرا حتى كان الناس يعزّونه لشدة ما وقع به حزن وهو يردّد: « يا ليت الرجل لم يمّت ويا ليت الحصن لم يفتح »<sup>5</sup>، وكان الخلفاء أيضا رغم أهميّة الصراع مع الروم وحيويّة تحقيق الأهداف العسكرية والاستراتيجية التي يرجونها من وراء توجيه حملات الغزو السنوية، يؤثرون مع ذلك سلامة الجند على أيّ مكسب مهما كان كبيرا، ولا يفوتون الفرصة لتذكير قادة الصوائف بذلك، فقد أوصى عبد الملك بن مروان أحد أمراء الصوائف بما يشبه قول مالك بن عبد الله الذي استشهدنا به سابقا، بأن يكون كالتاجر الكيس الذي إذا وجد ربحا تجر وإلا احتفظ برأس المال<sup>6</sup>، والمعنى هنا أن يحرص أمير الصائفة قبل كل شيء على حياة جنده والعودة بهم سالمين والتحلّي بالحيلة والحذر مع استغلال الفرص المتاحة لتحقيق أي نصر عسكري.

لقد واجه المسلمون في حروبهم ضدّ الروم على ميدان آسيا الصغرى العديد من أساليب المجابهة وأشكال المواجهة مع القوّات البيزنطية، فمن مواجهات مفتوحة بين الطرفين على ندرتها، ومواجهات بين

<sup>1</sup> - محمد كرد علي: المرجع السابق، ص 153.

<sup>2</sup> - Hélène Ahrweiler: L'Asie mineure et les invasions arabes (7<sup>e</sup>-9<sup>e</sup> siècles), Revue Historique, Presses Universitaires de France, Fasc. 1, 1962, p 10.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 474.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 56، ص 475.

<sup>5</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 56، ص 475.

<sup>6</sup> - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 1، ص 118.

قوات محدودة تعتمد أسلوب الكرّ والفرّ، إلى مواجهات قائمة على حصار المدن والحصون، وكان لكل شكل من أشكال هذه المواجهات تكتيكات ومناورات وأدوات وأسلحة خاصة به.

لقد كان في إمكان جيوش الصوائف أن تنتظم وفق مختلف تشكيلات المواجهة المفتوحة ضدّ الخصوم عند اللقاء كلّما قرّر الروم الدخول في اشتباكات واسعة مع المسلمين الذين كان لهم التفوّق على نظرائهم البيزنطيين في هذا النوع من المواجهات التي كانت قليلة على كل حال، فالمصادر لا تذكر أخباراً عن مواجهات مفتوحة بين المسلمين والروم في العهد الأموي داخل آسيا الصغرى إلاّ بشكل نادر مثل موقعة سيباستوبوليس (Sebastopolis) (سبيسطة أو سبسطة في المصادر العربية) سنة 693هـ/693م التي انتهت بانتصار كبير للمسلمين بقيادة محمد بن مروان على جيش بيزنطي معتبر يقوده الإمبراطور جستنيان شخصياً<sup>1</sup>، وأيضاً المواجهة قرب مرعش سنة 694هـ/694م التي قام فيها أبان بن الوليد بسحق جيش بيزنطي أراد التوغّل داخل الأراضي الإسلامية واستهداف أنطاكية<sup>2</sup>، لكن المواجهة بين الطرفين عند حصن سوسنة سنة 85هـ/704م انتهت بهزيمة قاسية للمسلمين هذه المرّة<sup>3</sup>، وعندما تجدد اللقاء بالقرب من مدينة طوانة بعد ذلك بثلاث سنوات، عام 88هـ/707م انهزم الروم هذه المرّة وكانت خسائرهم فيها كبيرة وغير مسبوقه<sup>4</sup>، وكانت موقعة أكروينون سنة 122هـ/740م آخر المواجهات الكبرى المفتوحة بين المسلمين و الروم في العهد الأموي، وفيها وجّه الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإيسوري ضربة شديدة لقوات المسلمين<sup>5</sup> عانوا من تداعياتها حتى سقوط الدولة الأموية.

إنّ تجنّب الروم مواجهة المسلمين بشكل مباشر يمكن تفسيره من خلال العقيدة العسكرية الدفاعية التي تمّ تبنيها تدريجياً منذ أواخر عهد الإمبراطور هرقل وما رافقها من تعديلات عسكرية وإدارية على الجيش البيزنطي في إطار نظام الثيمات لاقتصاد الجهد والموارد، وللحدّ من الخسائر نظراً لاختلال موازين القوة بين الإمبراطورية والخلافة في أغلب فترات العهد الأموي تقريباً، ولم تكن بيزنطة تتحمّس أو تشجّع لاختبار المسلمين في مواجهات مفتوحة إلاّ عندما تكون لها الأفضلية وتكون كلّ الظروف في صالحها.

إنّ هذا الوضع الدفاعي الذي تبنته دولة الروم في معظم فتراتها المتزامنة مع الدولة الأموية، وما ترتّب عنه من تجنّب المواجهة المباشرة مع الجيوش الإسلامية إلى اعتماد حرب العصابات، جعل من تطبيق

<sup>1</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 270.

Theophanes: Op cit, p 511.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر نفسه، ص 271 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 203.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 470.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, p 520.

<sup>4</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 26، ص 444-445.

Agapius: Op cit, Partie 2, p 239 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 478.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 571.

أسلوب الزحف والصف في كل الأحوال أمرا شبه مستحيل وغير فعال من الناحيتين التكتيكية والعسكرية في مواجهة مجموعات محدودة العدد خفيفة الحركة من القوّات البيزنطية التي تتربّص بالجيش الإسلامي وتعمل على مباغتته في الكمائن وتعتمد أسلوب الكرّ والفر، لهذا كانت القوّات الإسلامية أيضا تنتظم في شكل كتائب متحركة عندما يُفرض عليها هذا النوع من القتال حتى تستطيع أن تواجه خصومها<sup>1</sup>، وكانت جيوش الصوائف كثيرا ما يتم تقسيم جزء مهمّ منها إلى سرايا وفرق تتكوّن من عدة مئات إلى بضع آلاف يتم توزيعها لاستهداف عدّة مناطق في محيط عمليّات الجيش الرئيسي وضرب مجموعة أهداف كثيرة بشكل متزامن لإلحاق أكبر الأضرار المادية والمعنوية بالروم، نظرا لانتفاء الحاجة إلى بقائها متجمّعة مع غياب جيش مكافئ يمكن أن يشكّل خطرا على قوّات المسلمين في مواجهة تقليدية مفتوحة.

وكان التجاء الروم إلى التحصّن بالقلاع والمدن ذات الاستحكامات الجيدة قد فرض على المسلمين تطوير أساليب الحصار مثل نقب الأسوار، وفتح الأبواب من الداخل عن طريق اقتحام أسوار المدن والحصون، وتخريب محيط منطقة الحصار لإضعاف الروح المعنوية للخصم، مع توظيف الآلات الخاصة بهذا النوع من المواجهات مثل المجانيق والعزادات في استهداف التحصينات التي تكون في مواقع جغرافية يسهل الوصول إليها مما يجعل استعمال هذا النوع من السلاح ممكنا، والأخبار عن استهداف المسلمين لقلاع وحصون ومدن آسيا الصغرى بمختلف هاته الوسائل تتكرّر في المصادر العربية وغيرها، وقد ذكرنا بعض الأمثلة عنها في العنصر الأوّل من هذا المبحث، وبرع المسلمون في حروب الحصار هذه أيضا وبرهنوا على قدرتهم الفائقة في التكيّف مع هذا النمط الذي لم يكن مألوفا عندهم من قبل، فتعلّموا طريقة تشكيل المظلات الواقية بجمع الدروع بعضها إلى بعض فوق الرؤوس لحماية الرجال من القذائف التي تطلق عليهم من فوق أسوار المدن والحصون المستهدفة، كما تعلّموا التحكّم في مناورات مهاجمة الحصون وتدمير أسوارها وأبوابها بكفاءة عالية<sup>2</sup>.

لقد تميّزت حملات المسلمين بمستوى عال من المرونة والقدرة على استيعاب وتطبيق العديد من الأساليب والتكتيكات المتنوعة في مواجهة مختلف الوضعيات القتالية التي كان يتّخذها البيزنطيون، وطبقوها بكفاءة عسكرية عالية، ويمكن التوصل إلى هذا الحكم بكلّ ثقة استنادا إلى شهادة ترجع إلى الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري نفسه في كتيّب له يذكر فيه أنّ البيزنطيين في حروبهم مع العرب كانوا يواجهون عمليات حربية على مستوى عال من الإحكام والانضباط، كان القادة المكلفون بمواجهتهم يحتاجون إلى كلّ قدراتهم التكتيكية والاستراتيجية، وكان على الفرق التي يقودونها أن تتميز بالانضباط والجرأة إذا أرادوا أن ينجحوا في التصديّ للعرب الكفرة<sup>3</sup>.

1 - أحمد بدر: التنظيم العسكري عند العرب المسلمين، ص 133.

2 - جون باجوت جلوب: المرجع السابق، ص 528.

3 - نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 364.



بعد إنجاز حملة الصائفة مهامها داخل الأراضي البيزنطية وانتهاء العمليات القتالية مع اقتراب نهاية فصل الصيف يحين موعد العودة، كان القادة يتخذون كل الاحتياطات اللازمة لتأمين الجند والغنائم من كمائن البيزنطيين حيث يحرصون على عدم تفرق المقاتلين والتزامهم بنظام الجيش، ومع ذلك كانوا يترقبون في السير بالجند حتى لا يرهقوهم ويكلفوهم فوق طاقتهم ما يسمح لهم باسترجاع أنفاسهم بعد مدة من العمل الحربي المضني، ولدنا في هذا المعنى أثر يعبر عن هذه الفكرة بوضوح يعود لأشهر قائد صوائف في بداية العهد الأموي، مالك بن عبد الله الحثعمي، حيث خطب في جنده خلال أحد الحملات يخبرهم أنه بعد لقاء عدوهم سيسير بهم سير يبرأ فيه الدبر، وتضمن فيه العجفاء، ويسمن فيه الضالع<sup>1</sup>، وخطابه هذا يبيّن بوضوح أنه قد راعى في قراره الرفق بالضعيف والمصاب من جنده وقدرة دوابهم على التحمل.

وعندما يصبح الجيش في أرض الإسلام أو يكون في منطقة الثغور بعيدا عن كل خطر محتمل، يقوم الأمير بتهيئة سوق لبيع الغنائم العينية التي تم جمعها خلال الحملة حتى يتسنى تقسيم قيمتها بين الجند نقدا، لتسهيل العملية، حسب النصاب الشرعي بعد تخميسها<sup>2</sup>، ونجد عند البلاذري مثالا عن ذلك في بداية العهد الأموي حيث يذكر أن مالك بن عبد الله الحثعمي عندما عاد من غزوه لبلاد الروم سنة 46هـ/666م محمّلا بغنائم كثيرة أقام بموضع قرب الحدود، يدعى الرهوة، ثلاثة أيام فباع ما كان معه من الغنائم، وأصبحت تلك المنطقة تعرف بـ "رهوة مالك" منذ ذلك الوقت<sup>3</sup>، وهذه الحادثة تقف شاهدا على المعاملات التجارية التي تتخلل حملات الغزو وما يمكن استنتاجه من المدة التي قضاهها قائد الصائفة في بيع الغنائم أمّا من دون شك كانت معتبرة، وكان يتم بيع الغنائم المحصّلة في الحملات بطريقة المزايدة حتى تحقّق أكبر المكاسب المالية الممكنة للجند وبيت المال، ويذكر ابن سعد بهذا الخصوص أنّ عمر بن عبد العزيز في خلافته كان يأمر ببيع الغنائم فيمن يزيد<sup>4</sup>.

وأخيرا عندما يصبح جيش الحملة في بلاد الإسلام مجدّدا بعد اجتياز الدروب كان الجند يتفرّقون إلى مناطقهم وأجنادهم، بينما يتوجّه أمير الجيش مع كبار القادة إلى دمشق للاجتماع بالخليفة في مجلسه أين يتمّ تقديم عرض عام له عن أهم أحداث الصائفة وأبرز إنجازاتها وكلّ ما جرى فيها، وكان الأمير نفسه هو من يتكفّل بهذا الدور باعتباره المسؤول الأول عن الحملة، وفي بعض الأحيان يوكل خطيبا ينوب عنه في استعراض التفاصيل حتى يضيف عليها طابعا ملحميا ربّما، وبعد ذلك يقوم قائد الحملة بتقديم خمس الغنائم الواجبة لبيت المال إلى الخليفة<sup>5</sup>، وكان هذا المجلس يشكّل فرصة لتقييم أداء الحملات بشكل عام وظروف

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 474.

2 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 226.

3 - البلاذري: المصدر نفسه، ص 226.

4 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 346.

5 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 473-474.

تنفيذ مهامها بهدف تدارك النقائص المسجّلة وتصحيح الأخطاء وتقويمها من أجل رفع مستوى أدائها العسكري مستقبلاً، وكان الخلفاء في هذه المناسبة يحاسبون قادة الصوائف إذا أخطأوا أو قصّروا أو عرّضوا حياة المسلمين للخطر بسبب الإهمال أو التهور أو نتيجة ضعف كفاءتهم العسكرية<sup>1</sup>، أو يكرمونهم ويصلونهم بالجوائز إذا كان لهم بلاء محمود وحسن تدبير في الحرب<sup>2</sup>. وتُشكل هذه المخطّطة الفصل الأخير من الحملة، إذ يركن بعدها القادة والجنود للراحة لعدة أشهر قبل أن يبدأ التحضير مرّة أخرى لحملة السنة المقبلة بنفس الخطوات السابقة.

وفي نهاية هذا العرض يمكن أن نسجّل بعض الملاحظات حول اعداد الحملات والمراحل التي تمر بها في النقاط الآتية:

- ضخامة الجهود المادية والبشرية التي يتمّ تسخيرها وتوظيفها لإنجاح حملات الصوائف والشواتي سنوياً.
- طول المدّة الزمنية التي تستغرقها عملية الاستعداد للغزو ودقّة الإجراءات التي ترافقها.
- تنوّع أساليب المجابهة وأشكال المواجهة التي كانت تصادفها قوّةات المسلمين في بلاد الروم أثناء أداء مهامها القتالية.
- مستوى الأداء العالي للمقاتل المسلم وتحكّمه في مختلف التكتيكات الحربية من المواجهة المباشرة المفتوحة، إلى حرب العصابات، وأساليب الحصار أيضاً.

1 - ابن عسّاكر: المصدر السابق، ج 21، ص 360.

2 - ابن عسّاكر: المصدر نفسه، ج 56، ص 474.

## الفصل الثالث: الانعكاسات المترتبة عن حملات

### الصوائف والشواتي

المبحث الأول: على العلاقات الإسلامية البيزنطية

المبحث الثاني: على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة

المبحث الثالث: على التفاعلات الحضارية بين المسلمين والروم

## المبحث الأول: الانعكاسات على العلاقات الإسلامية البيزنطية

لم تكن حملات الصوائف والشواتي، أو حتى العلاقات الإسلامية البيزنطية، وليدة العصر الأموي بل إن بداية الاحتكاك بين الطرفين يرجع إلى فترة سابقة، وبالضبط إلى السنوات الأولى لنشأة الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>، ومن المهم هنا توضيح الخلفية التي قامت عليها العلاقات بين الطرفين وموقع منظومة حملات الصوائف والشواتي منها ومدى تأثيرها على هذه العلاقات حتى يتسنى لنا فهمها في المرحلة اللاحقة خلال العهد الأموي انطلاقاً من الأحداث التي شهدتها في بداياتها.

لقد كان المسلمون هم القوّة التي طردت بيزنطة من ممتلكاتها في الشام ومصر خلال العهد الراشدي، حتى أنّهم لم يكتفوا بذلك وواصلوا التحرش بأراضيها في آسيا الصغرى من خلال حملات موسمية سنويًا تعرف بالصوائف والشواتي، ورغم أنّها لم تكن حملات حاسمة وذات شأن كبير كما كان الحال مع موجة الفتوحات الكبرى في الشام من قبل، إلا أنّها كانت في بداياتها تبدو كأنها امتداد طبيعي لتلك الفتوحات لكن بوتيرة ضعيفة، وربما كان مقدرًا لها أن تتوقّف في مرحلة ما عند تثبيت المسلمين وجودهم بشكل نهائي دون جبال طوروس، أمّا بيزنطة فكانت لا ترى في المسلمين إلا جماعة من الغزاة انتزعوا بشكل مؤقت بعض ولايات الإمبراطورية فلم تعترف بسلطتهم فيها حيث لم ترضخ للأمر الواقع وتسلم بضياح ممتلكاتها في الشرق إلا مع نهاية القرن السابع ميلادي عندما قام عبد الملك بن مروان بسكّ الدنانير العربية وهذا ما يفسّر اعتراض جستنيان الثاني على هذه الخطوة وغضبه من الخليفة حيث اعتبر الإمبراطور هذا الأمر تعديًا على امتيازاته<sup>2</sup>، وخطوة باتجاه تأكيد سيادة الدولة العربية على الأقاليم البيزنطية المسلوّبة، وبعد هذا الإجراء لم يبق أمام البيزنطيين إلا التسليم بالوضع الذي فرضه المسلمون عليهم في المنطقة منذ الفتوحات الكبرى واعتبار الشام ومصر أخيرا بلادا أجنبية عنهم<sup>3</sup>، واقتنعوا بفقدان الأقاليم الشرقية التي استولى عليها المسلمون بشكل نهائي.

وعليه يبدو واضحًا أنّ الاحتكاك العسكري الأوّل والمواجهات التي جمعت الدولة الإسلامية الناشئة بيزنطة والتي نتج عنها فقدان الروم لممتلكاتهم الشرقية لصالح العرب هو العامل الرئيسي في التأسيس لعلاقة العداوة بين الطرفين، أمّا حملات الصوائف والشواتي التي أعقبت مرحلة الفتوحات الكبرى في الشام فلم

1 - حصل أول اتصال دبلوماسي بين المسلمين والروم أواخر سنة 628/هـ6 عندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم، دحية بن خليفة الكلبي إلى ملك الروم (قيصر) الذي كان بالقدس حينها يدعو إلى الإسلام، وبعد ذلك بأقلّ من سنتين حدث الاحتكاك العسكري المباشر الأوّل بين الطرفين في موقعة مؤتة سنة 629/هـ8م عندما أرسل النبي جيشا من ثلاثة آلاف رجل في حملة استهدفت أطراف الشام أين اشتبكوا في معركة غير متكافئة مع قوّة بيزنطية مدعومة بمقاتلين من القبائل العربية الحليفة.

راجع: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2، ص 644-649؛ ج 3، ص 36.

2 - هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص 77.

3 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 125.

تكن إلا عاملا إضافيا ساهم في تكريس وتعميق هذه العداوة بينهما خاصة في العهد الأموي عندما انتهت المواجهات الكبرى بين الدولتين في الشرق مع انقضاء موجة الفتوح، على الرغم من أنه لم يطرأ أيّ تغيير في موقف المسلمين من بيزنطة مع قيام هذه الدولة حيث جرى الأمويون في سياستهم العامة على سياسة أسلافهم فاستمروا في اعتبار بيزنطة عدوا لهم<sup>1</sup>، أما منظومة حملات الصوائف التي وُضعت أسسها في العهد الراشدي لتأمين أراضي الخلافة في المناطق الحدودية فقد تمّ الاحتفاظ بها الآن كاستراتيجية دائمة في مواجهة البيزنطيين، وحرص الأمويون منذ عهد معاوية بن أبي سفيان على استمرارها وتطويرها باعتبارها الوسيلة الأمثل لردع الروم الأعداء، فمن بين جميع الأمم التي كان يحاربها المسلمون لم يكن هناك إصرار على الالتزام بإرسال حملات عسكرية سنوية كما كان الحال ضدّ الروم، ولن نجد عناء كثيرا في توضيح الأثر السلبي لحملات الصوائف والشواتي على العلاقات مع بيزنطة إذ أنّ 94 حملة بين صائفة وشاتية التي جهّزتها وأرسلتها الدولة الأموية طيلة سنوات وجودها لاستهداف أقاليم الإمبراطورية في آسيا الصغرى، وما كانت تُنزله من هزائم بالروم وما تُلحقه بهم من أضرار لوجستية واقتصادية وبشرية وأيضاً معنوية، لم تكن لتدع مجالا لعلاقات سلمية طبيعية مستدامة بين الطرفين، ويمكن أن نتلمّس الوقع السلبي لتكرّر الحملات على أقاليم آسيا الصغرى وأثرها السيئ على نفسية وموقف البيزنطيين من خلال حوار دار بين معاوية وأحد نبلاء الروم الذي جاء مبعوثا من طرف الإمبراطور إلى دمشق بهدف التوصل إلى عقد اتفاق صلح بين الطرفين، حيث وفي خضمّ التفاوض بين الرجلين تجاوز مبعوث الإمبراطور حدود اللباقة مع الخليفة بعد التشدّد الذي أبداه هذا الأخير فيما يخص شروط الصلح، وبين طيّات الاعتذار الذي قدّمه المبعوث بعدها عمّا بدر منه تجاه معاوية يمكن أن نبيّن السبب الرئيسي لتصرفه غير اللائق، حيث خاطبه قائلاً: «إنك اضطررتني إلى ذلك، غزوتني في البرّ والبحر والصيف والشتاء»<sup>2</sup>، وهذه الحملة لوحدها كافية لإبراز حجم الاستياء الذي كان عليه البيزنطيون بسبب الأعمال العدائية التي يقوم بها المسلمون اتجاههم بفعل استمرار تدفق حملات الصوائف والشواتي سنويا على بلادهم ما جعل منهم بكلّ تأكيد العدو الأول للإمبراطورية، وبالتالي نسفت حملات الصوائف والشواتي أيّ فرصة لإقامة علاقات مستقرة على أساس حسن الحوار بينهما.

وإذا أضفنا إلى ذلك الطابع الأيديولوجي (الجهاد) الذي اصطبغت به هذه الحملات فإنّ الصراع مع المسلمين في الشرق باعتبارهم أعداء الدين كان له اعتبار وقيمة أعلى بالنسبة لبيزنطة مقارنة بمحاربة البرابرة في البلقان وشمال الدانوب مثلا<sup>3</sup>، ويمكن أن نلمس ذلك بوضوح من خلال الاهتمام الشديد الذي كانت تبديه المصادر البيزنطية خلال تلك الفترة، خاصة حولية ثيوفانس المعترف، في تدوين حملات المسلمين على

1 - هاملتون جب: المرجع السابق، ص 63-64.

2 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 142.

3 - هالدون: بيزنطة في حرب، ص 37.

أقاليم آسيا الصغرى وأحداثها وحتى أسماء قادتها سنويًا في أخبارها بما في ذلك الحملات الروتينية العادية، رغم أنّ الإمبراطورية كانت محاطة بأعداء كثير وتهديدات متواصلة، ما يعتبر مؤشراً مهماً جداً يعكس نظرة البيزنطيين لأولوية الصراع مع المسلمين بالنسبة إليهم، حيث يكشف هذا الاهتمام عن موقفهم من الخطر الذي يمثله المسلمون نتيجة استهدافهم المستمر (في إطار تفعيل حملات الصوائف والشواتي) للمدن والحصون البيزنطية في آسيا الصغرى وحتى العاصمة نفسها في أكثر من مرة، كما يعبر عن وعي عميق بحجم التحدي الوجودي الذي كان يشكّله المسلمون بالنسبة للإمبراطورية.

وأمام مداومة المسلمين على التحرش بالأراضي البيزنطية، لم يكن بمقدور هذه الأخيرة أن تتجاهل أو أن تتسامح مع الغزاة بكل بساطة، فكانت تردّ بدورها على هذه الهجمات بعمليات عسكرية انتقامية كلّما سنحت لها الفرصة، ما أدخل الدولتين في دائرة لا متناهية من الفعل وردّ الفعل، وهكذا يمكن الجزم بأنّ حملات الصوائف والشواتي قد ساهمت في تعميق تدهور العلاقات بين المسلمين والروم لتسمها بالطابع العدائي المستديم.

ونتيجة هذه العداوة التي كرسستها وزادت من حدّتها حملات الصوائف والشواتي كما وضّحنا، قامت بين الطرفين كراهية غريزية وازدراء عميق أحدهما للآخر خاصة لأسباب دينية<sup>1</sup>، وأيضاً لأسباب عسكرية واستراتيجية، وهذه الكراهية والتحقير لم تتجلى في الحروب المستمرة فقط كما لم تبق محصورة في أرض المعركة، بل أصبحت هي السمة الغالبة على نظرة كل طرف إلى الآخر على المستويين الرسمي والشعبي، حيث نلاحظ أنّ الأعمال التاريخية وحتى الخطابات السياسية عند الطرفين توظّف الكثير من العبارات التي تعكس هذا المزاج العام السائد والنظرة السلبية المختلطة بشعور الكراهية والازدراء ضدّ الآخر، فنجد المصادر التاريخية العربية مثلاً كثيراً ما تصف الروم بـ "العدو"<sup>2</sup>، أو "أعداء الله"<sup>3</sup> عند التعرّض إلى الأخبار المتصلة بالصراع بينهم وبين المسلمين، أو أنّها بكل بساطة تطلق عليهم عبارة "الكفار"<sup>4</sup>، أي الذين ليسوا على دين الحقّ المنكرين للإسلام ما يبرّر الحرب ضدهم، وأكثر من هذا نجد أنّ المصادر في بعض الحالات تصل حتى إلى نعت ملك الروم بـ "الطاغية"<sup>5</sup>، وهو وصف يجمع الكثير من الصفات السيئة، التي من بينها الشخص الذي غلا في الكفر، وكبير الكفار، الجبار والمستكبر، وهو الظالم للناس<sup>6</sup>، لهذا لا يمكن أن

<sup>1</sup> - Marius Canard: Les Relations Politiques et Sociales entre Byzance et les Arabes, Dumbarton Oaks papers, Vol 18, 1964, Washington DC, p 47.

<sup>2</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 345 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 9، ص 167.

<sup>3</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 182.

<sup>4</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 291.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 410 / البلاذري: المصدر السابق، ص 155 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 188 / الطبري:

المصدر نفسه، ج 7، ص 497.

<sup>6</sup> - ابن منظور: لسان العرب، مج 15، ص 7-9.

يكون سلطانه شرعياً أبداً<sup>1</sup>، بل إن المصادر تنسب في بعض الأحيان حتى إلى الخلفاء أنفسهم استعمالهم لهذا اللفظ في مخاطبتهم الإمبراطور البيزنطي في رسائل رسمية ما سبب استياء كبيراً لملك الروم من هذا الأسلوب في الخطاب<sup>2</sup>، كما تذكر أيضاً أنهم كانوا ينعنونه في بعض الحالات بـ "كلب الروم" في أحاديثهم<sup>3</sup> تحقيراً له بدل استعمال لقب الملك أو صاحب الروم كما جرت عليه العادة.

في المقابل لم يكن البيزنطيون بدورهم أقلّ توظيفاً لعبارات الازدراء مقارنة بالمسلمين، حيث يمكن أن نجد الكثير من العبارات والألفاظ المتداولة في المصادر التاريخية عندهم التي تعبّر عن هذه النظرة الدونية في وصف خصومهم، فهي إن لم تطلق عليهم اسم Hagarenes (أبناء هاجر!) أو لفظ Saracens، كانت في معظم الأحيان تصفهم بنعوت وأسماء تعكس حقداً كبيراً ممزوجاً بكره ديني شديد، فهم الجاحدون الذين ينكرون المسيح Deniers of Christ، وأعداء الرب God's enemies<sup>4</sup>، كما أنّ الكعبة التي يتوجّه إليها المسلمون في أداء صلواتهم ويقصدونها للقيام بأحد أعظم شعائرهم (الحج) ليست في نظر البيزنطيين إلا معبداً وثنياً Pagan Temple<sup>5</sup>، أمّا كلمة "العدو" The Enemy فقد كانت بكلّ تأكيد شائعة جدّاً في كتاباتهم عند الإشارة إلى المسلمين<sup>6</sup>، وما يثير الانتباه بشدّة في هذه النقطة بالذات أنّ هذا اللفظ كان أكثر توظيفاً عند الإشارة إلى المسلمين حتى كاد يكون مقتصرًا عليهم تقريباً دون غيرهم من الأمم والشعوب التي كانت تحاربها بيزنطة وترد أسمائها في مصادرهم التاريخية ما يوضّح بشكل جلي مشاعر الكره الكبيرة التي يحملها البيزنطيون تجاه المسلمين خاصة، باعتبارهم أعداء الدين والقوّة التي تمثّل تحدياً وجودياً حقيقياً لبيزنطية، كما كانت المصادر البيزنطية تصف المسلمين أيضاً في بعض الحالات بـ "البرابرة"<sup>7</sup> الذين يتصرفون بوحشية وليسوا في مستوى حضارة اليونانيين، في المقابل نادراً ما كانت تستخدم لفظ "العرب"<sup>8</sup> ولا تأتي على ذكر كلمة "المسلمين" أبداً للإشارة إليهم رغم أن هذين اللفظين، الذين كانا يعتمدهما دون غيرهما خصوم بيزنطة -العرب المسلمون- لتقدّم أنفسهم وإظهار هويتهم العرقية والدينية أمام الشعوب والأمم الأخرى، كانا معروفين ومتداولين عند البيزنطيين في تلك

<sup>1</sup> - Marius Canard: Op cit, p 47.

<sup>2</sup> - ابن الفراء، الحسين بن محمد: كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 3، 1993، ص 78.

<sup>3</sup> - ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 9، ص 168.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 493 / Nikephoros: Op cit, p 75.

<sup>5</sup> - Theophanes: Ibid, p 509.

<sup>6</sup> - Theophanes: Ibid, pp 494-516-517-520-534-541-545-546 / Nikephoros: Op cit, pp 107-121-123-141.

<sup>7</sup> - Theophanes: Ibid, p 489.

<sup>8</sup> - Theophanes: Ibid, p 486-489-490.

الانعكاسات على العلاقات الإسلامية البيزنطية .....

المرحلة بكل تأكيد، وهذا دليل على أنّ البيزنطيين كانوا ينتقون عن عمد الألفاظ التي تحمل دلالات تحقيرية للمسلمين عند الإشارة إليهم.

ولم تكن المصادر البيزنطية تستثني مع ذلك حتى الخلفاء في محاولاتها للحطّ من شأن المسلمين، وكانت تزديري أعمالهم التي ترى أنها تستهدف المسيحيين المؤمنين، فيزيد بن عبد الملك مثلاً كان "أحمقاً" لأنه اقتنع بنبوّة ساحر يهودي أخبره أنه سيحكم أربعين سنة إن هو قام بإزالة الأيقونات المقدسة من الكنائس المسيحية، ووصفت القرار الذي اتّخذه في هذا الشأن بأنه قرار شيطاني<sup>1</sup>.

إنّ هذه الألفاظ والنعوت التي كان يوظفها المسلمون والبيزنطيون على حدّ سواء للإشارة إلى بعضهم البعض تكفي وحدها لتعكس حجم الكره والعداوة بين الطرفين، ولسنا بحاجة هنا إلى إعادة سرد تاريخ الحروب والمواجهات الطويلة بين الدولتين للدلالة على ذلك، فحملات الصوائف والشواتي وردود الفعل البيزنطية عليها كلّما سمحت الظروف بذلك تمثّل الوجه الأبرز لذلك ويمكن أن تختزل كل شيء.

لكننا مع ذلك لنتساءل عن مدى عمق تأثير حملات الصوائف والشواتي في العلاقات الأموية البيزنطية، وهل حصرتها في دائرة العداوة ووصلت بها حدّ القطيعة بين الطرفين، فلم تدع بذلك مجالاً لأي علاقات خارج إطار المواجهات المستمرة بينهما؟

من المؤكّد أنّ الأخبار التي تركز عليها كتب التاريخ ترسخ هذه الصورة بشكل طاعٍ، وقد عبّر هاملتون جب Hamilton Gibb عن هذه الفكرة بشكل شامل وواضح جدّاً حين قال: «لو أن طلبة تاريخ العصور الوسطى رأوا في ((العلاقات العربية البيزنطية)) سجلاً لا يكاد يتعدى أخبار الحروب المتواصلة لكانوا في ذلك معذورين، وهذا السجل على هذا النحو لا يخالف الحقيقة، لأنّ الحروب عند الثغور استمرت دون انقطاع تقريباً طوال قرون»<sup>2</sup>، حتّى أنّ موضوع هذه الرسالة أيضاً لا يكاد يخرج عن هذا الإطار تقريباً، مع أنّ هناك جوانب أخرى لم تؤثّق بشكل كافٍ تمسّ جميع المجالات، سواء على المستوى الرسمي أو حتّى على مستوى رعايا الدولتين، سنحاول استعراضها فيما يلي من أسطر.

جمعت المسلمين والروم بعيداً عن الصراع العسكري والعداوة المتبادلة روابط متنوّعة، ففي الجانب السياسي كان هناك نوع من العلاقات السياسية بين الطرفين بحكم الأمر الواقع، حيث فرض الجوار الجغرافي بين قوتين متكافئتين تقريباً والمواجهات المستمرة بينهما وجود اتصالات دبلوماسية بين الطرفين منذ الفترة المبكرة للاحتكاك بينهما حتّى قبل قيام الدولة الأموية، وقد تعدّدت دوافع وأغراض هذه الاتصالات سواء من أجل عقد هدنة، أو صلح، أو إجراء مفاوضات لإطلاق سراح أسرى<sup>3</sup>، إنّ هذا

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 555.

<sup>2</sup> - هاملتون جب: المرجع السابق، ص 61.

<sup>3</sup> - إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص 159.

Marius Canard: Op cit, p 35.



التّوع من العلاقات والاتصالات لم يعد مجهولا تماما بفضل الدراسات العديدة التي تناولت هذه الجزئية بكلّ تفاصيلها، وما يهّمنا هنا أساسا هو إبراز نوع محدّد من الاتصالات الدبلوماسية، لا تلك التي تتعلّق أو تتّصل بالأعمال الحربية من قبيل البحث عن فرص تحقيق السلام والتفاوض لعقد هدن للخروج من وضعية عسكرية حرجة كما سنوضّح في المبحث الأخير من هذا الفصل، وإتّما الاتصالات التي تعكس علاقات التعاون البيئية أو حتّى العلاقات ذات الطابع الحضاري والتواصل الودّي والتي قليلا ما يتمّ التركيز عليها.

لم تكن المواجهات المستمرّة بين الدولة الأموية وبيزنطة لتقف عائقا أمام محاولة تأسيس وتطوير علاقات قائمة على التعاون بين الطرفين عند الحاجة، وقد شملت هذه العلاقات التعاونية ميادين عديدة سنسلّط الضوء في هذا العنصر على الجانب الحضاري والعسكري منها، حيث نملك من المعلومات ما يكفي لإبراز بعض تفاصيلها.

كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك إرثا حضاريا ثريّا في مجال التعمير ويبدو أنّ الخلفاء الأمويين كانوا معجبين كثيرا بالنمط البيزنطي في البناء، ويظهر هذا التأثير بوضوح في تقليد النموذج الروماني في المنشآت العمرانية التي استحدثوها خلال فترة حكمهم مثل البنايات في عنجر التي بدأ العمل عليها حوالي سنة 714/هـ 96م على يد العباس بن الوليد<sup>1</sup>، وقد بلغ بهم هذا التأثير حدّ الاستعانة بالبيزنطيين وطلب خبرتهم لتنفيذ مشاريع البناء الكبرى في بلاد الإسلام ما خلق حالة تعاون نادرة بين الطرفين، ولن نجد في هذا المقام أفضل من المثال المتعلّق بالمساعدات البيزنطية للدولة الأموية في دعم عمليّات توسعة وتجديد مسجد دمشق والمسجد النبوي خلال عهد الوليد بن عبد الملك، الذي أرسل إلى ملك الروم يطلب المساعدة في أعمال زخرفة مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم في المدينة والمسجد الكبير في دمشق فأجابه الإمبراطور إلى ما سأل<sup>2</sup>، وقد اهتمّت المصادر الإسلامية كثيرا بهذه الحادثة وذكرت حتّى تفاصيل ونوع المساعدات التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي للخليفة بشيء من الاختلاف، وفي حين توحى رواية البلاذري في هذا الشأن أنّ الوليد طلب مساعدة ملك الروم في بناء المسجدين<sup>3</sup>، إلا أنّ طلب الخليفة في الحقيقة كان حول الدعم الفنيّ من البيزنطيين في مجال الزخرفة والتزيين وتقنيات البناء المتطورة بحكم خبرتهم الواسعة في هذا المجال، وليس الدعم المادي حيث كانت الدولة الأموية تمتلك من الثروة والموارد ما يغنيها عن أيّ

<sup>1</sup> - Alastair Northedge: Umayyad and Abbasid Urban Fortification in the Near East, Reichert Verlag Wiesbaden, 2008, p 44.

<sup>2</sup> - هاملتون جب: المرجع السابق، ص 67.

<sup>3</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 8، ص 72.

مساعدة في هذا الجانب من أجل إنجاز مشاريعها الكبرى، وهو ما تؤكده رواية المقدسي التي تبين أن طلب الوليد كان محدداً ويقتصر على الصنّاع والفسيفساء فقط<sup>1</sup>.

أطلق الوليد هذين المشروعين بشكل متزامن تقريبا، حيث بدأت أشغال توسعة مسجد دمشق بعد تقلده الخلافة بوقت قصير، ولو أنّ المصادر تختلف في تحديد التاريخ بالضبط وتجعله بين سنة 86هـ/705م، وسنة 88هـ/707م<sup>2</sup>، وربما يكون الخليفة قد أعطى الأوامر لبدء العمل في المشروع أواخر سنة 86هـ بعد أشهر قليلة من مبايعته بالخلافة، حيث تمّ في المرحلة الأولى تهديم الجزء المتبقي من كنيسة يوحنا - المكان المخصص للتوسعة - ومباشرة الحفر لوضع أساسات البناء الجديد، وهذا الأمر من دون شكّ يكون قد استغرق عدّة أشهر، وهكذا يمكننا أن نفترض أنّهم لم يباشروا عملية البناء إلّا في أواخر سنة 87هـ/706م، وكرّد على طلب الوليد بن عبد الملك سارع الإمبراطور إلى إهداء آلات وفسيفساء إلى الخليفة، بل وحتى إرسال بعض العمّال المتخصّصين في تشييد وتزيين المباني، حيث تذكر المصادر أنّه شارك في بناء مسجد دمشق حرفيون ومهرة من فارس والهند والمغرب والروم<sup>3</sup>، وهؤلاء الأخيرين من دون شكّ كان فيهم ممّن بعث بهم الإمبراطور مع المساعدات العينية التي قدّمها للوليد من أجل المشروع، حيث ساهموا في بناء القبة الحجرية التي تعلو المسجد، وتولّوا زخرفة البناء من الداخل وزيّنوا الجدران بالرخام والفسيفساء، وقاموا بطلاء تيجان الأعمدة بالذهب<sup>4</sup>، وكان العمل بالغ الاتقان وكتبت المصادر في وصف بناءه وجماله الشيء الكثير، وقد استغرق المشروع عدة سنوات من العمل المستمرّ ولم يتمّ استكماله على ما يبدو إلّا في آخر عهد الوليد بن عبد الملك<sup>5</sup>، وقد أصبح هذا البناء منذ تشييده أحد المعالم البارزة لمدينة دمشق ومقصدا للوفادين على العاصمة الأموية، وقد صادف بعد انتهاء أعمال البناء فيه بسنوات قليلة فقط أن جاء وفد من الروم إلى دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز فطلبوا رؤية هذا الصرح فاعجبوا به كثيرا واستعظموا جماله واتقانه<sup>6</sup>.

أمّا المسجد النبوي، فقد باشر عمر بن عبد العزيز والي المدينة حينها أشغال توسعته وإعادة بناءه بأمر من الوليد بن عبد الملك سنة 88هـ/717م، وقد بعث إمبراطور الروم من أجل هذا المشروع أيضا بمساعدات مالية سخية، وعشرات العمال المهرة المتخصّصين في البناء والزخرفة، وكمية معتبرة من الفسيفساء لتزيين جدران المسجد<sup>7</sup>.

1 - المقدسي، شمس الدين (ت 380هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1991، ص 81.

2 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 147 / ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 465.

3 - المقدسي: المصدر السابق، ص 158.

4 - كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص 141-142-143.

5 - ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 2، ص 466.

6 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 2، ص 276.

7 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 8، ص 72 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 436 / المقدسي: المصدر السابق، ص 81.

وما يهمننا أكثر هنا هو تأكيد حقيقة هذا التعاون بين الطرفين وابرار الظروف والعوامل التي ساعدت على تحقيقه في ظلّ التنافس والتوتر الشديد الذي كانت عليه العلاقات بين المسلمين والروم، حتى أنّ الكثير من المؤرخين شكّكوا في حقيقة الروايات المتعلّقة بالمساعدات البيزنطية للدولة الأموية في جهود التعمير التي كانت تقوم بها، وذلك انطلاقاً من العداوة التي كانت تطبع العلاقات بين الطرفين، لكن هاملتون جب قام بعمل موثوق ومتين في الردّ على هذه الآراء ودحضها، وأثبت صحة الروايات العربية المتعلّقة بالمساعدات البيزنطية بشكل محكم ومقنع جداً<sup>1</sup>.

ولا بدّ أنّ المساعدات التي وقّرتها بيزنطة للدولة الأموية من أجل بناء مسجد دمشق وتزيين المسجد النبوي كانت من طرف الإمبراطور جستنيان الثاني الذي تتصادف فترة تربّعه على العرش البيزنطي للمرّة الثانية مع مجهودات التعمير التي أطلقها الوليد حيث أنّ عمليّات البناء في مسجد دمشق لم تنطلق إلا سنة 87هـ/706م على أقلّ تقدير، وبعدها بسنة في المسجد النبوي بالمدينة عام 88هـ/707م.

إنّ هاتين الروايتين مهمّتين لأهمّتا حدثتا في عهد الوليد بن عبد الملك بالذات الذي تميّز بتصاعد وتيرة الحملات السنوية على الأقاليم البيزنطية في آسيا الصغرى أين تمّ استهداف مناطق حيويّة وفتح مدن مهمّة في تلك الفترة مثل طوانة وهرقلة وطرندة بين سنتي 88-92هـ/707-711م وغيرها من المدن والحصون الأخرى بالتزامن مع الولاية الثانية للإمبراطور جستنيان الثاني الذي لم يتوانَ بدوره في زيادة وتيرة التخرّشات العسكرية بالأراضي الإسلامية حيث قام في ظرف سنتين فقط بإرسال حملتين بحريّتين لمهاجمة الدولة الأموية استهدفت الأولى السواحل الشامية سنة 89هـ/708م أين نزلت الإسكندرونة وروسييس لدعم تمرد الجراجمة الذي اندلع في جبال اللكام من جديد تلك السنة<sup>2</sup>، بينما استهدفت الثانية السواحل المصرية سنة 90هـ/709م ووصلت إلى غاية دمياط<sup>3</sup>، وهذا الأمر مثير جداً للاهتمام إذ كيف لم ير الوليد، في ظلّ كلّ هذه الظروف، غضاضة في طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي؟ وكيف لم يجد هذا الأخير أيّ حرج بدوره في تلبية طلب الخليفة؟

تختلف المصادر في تقدير حجم المساعدة التي قدّمها إمبراطور الروم للوليد بن عبد الملك من أجل اعانته على أشغال توسعة المسجد النبوي، ففي حين يذكر ابن زبالة، والمقدسي (الذي ينقل عنه) أنّ المساعدات كانت تتمثّل في ثمانين ألف دينار، وأكثر من عشرين عاملاً، وأعمال من الفسيفساء (أحسن التقاسيم، ص 81)، يذكر يعقوبي، والبلاذري، والطبري أنّ ملك الروم أرسل مائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وأربعين حملاً من الفسيفساء (تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 206 / أنساب الأشراف، ج 8، ص 72 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 436)، وفي كلا الروايتين يظهر أنّ الأرقام المتعلّقة بالمساعدات المالية مبالغ فيها بشكل واضح، أمّا السهمودي فأورد عدّة روايات تقدّر عدد العمال بين عشرة وأكثر من مائة، وقيمة المساعدات المالية بين أربعين ألفاً وثمانين ألف مع أعمال من الفسيفساء وسلاسل للقناديل (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق وتقدم قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط 1، 2001، ج 2، ص 268-269).

<sup>1</sup> - هامتون جب: المرجع السابق، ص 70 وما بعدها.

<sup>2</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 188.

<sup>3</sup> - عليّة عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1985، ص 48.

يجب الإشارة أولاً أنّ طلب الخليفة وردّ الإمبراطور بالإيجاب عليه لا بدّ أن يكون قد حدث في مرحلة مميّزة واستثنائية في العلاقات بين الطرفين، وهذا لن يكون في رأيي إلاّ أواخر سنة 86هـ/705م أو بداية 87هـ/706م، حيث كان جستنيان حينها قد استرجع لتوّه عرشه في الإمبراطورية للمرة الثانية (في شهر سبتمبر من سنة 705م حسب رأي المؤرخ بيوري، وهو ما يوافق شهري شوّال وذو القعدة في التقويم الإسلامي من سنة 86هـ) بعد أكثر من عشر سنوات قضاها في المنفى عقب الإطاحة به من الحكم سنة 695م/76هـ، وهذا يتزامن مع تولّي الوليد بن عبد الملك الخلافة أيضاً (منتصف شوّال سنة 86هـ)، وعليه لم يكن هناك أيّ احتكاك أو صدام بين الرجلين يمكن أن يفسد العلاقات بينهما عندما تقدّم الوليد بطلبه، خاصة أنّ استرجاع جستنيان للعرش كان في فصل الخريف في حين أن الصوائف كانت تنهي نشاطها داخل آسيا الصغرى أواخر الصيف، وهكذا يبدو أنّ جستنيان أراد أن يترك انطبعا جيّدا عند الوليد بن عبد الملك مع بداية الاتّصال بينهما من خلال استغلال هذه الفرصة لتكون بداية طيّبة مع نظيره الأموي، فاستجاب لطلبه عن طيب خاطر سعياً منه لتأسيس علاقات أكثر استقراراً مع الدولة الأموية، وما يدعم هذا الاستنتاج أنّ الإمبراطور البيزنطي قدّم بشكل ارادي مبالغ مالية معتبرة من ضمن جملة المساعدات التي أرسل بها إلى الخليفة دون حتّى أن يطلب منه هذا الأخير ذلك حيث أشرنا سابقاً أنّ طلب الخليفة كان يقتصر على الدعم الفتي أساساً.

من حالات التعاون النادرة بين الطرفين التي حفظت لنا المصادر بعض الأخبار عنها، لكنّها مع ذلك رغم أهمّيتها لم تحظْ بالاهتمام الكافي للأسف ولم يتمّ التطرّق إليها بالدراسة تفصيلاً في الأعمال التاريخية الحديثة، نجد التعاون في الميدان العسكري، حيث كان كبار رجال الدولة في بيزنطة سواء من القادة العسكريين أو حتّى الأباطرة أنفسهم لا يتحرّجون في طلب المساعدة العسكرية من المسلمين والاستعانة بهم في صراعاتهم الداخلية على السلطة، وسنورد في هذا المقام ثلاث أمثلة نملك عنها معلومات معتبرة في المصادر العربية والبيزنطية والسريانية خلال فترة الدراسة التي تشمل العصر الأموي.

حدثت أولى الاتّصالات بين الطرفين في هذا الشأن خلال السنوات الأولى من قيام الدولة الأموية، ففي سنة 667م (47هـ) عرفت بيزنطة حركة تمرد ضدّ الإمبراطور قنسطانز الثاني في الأقاليم الشرقية والشمالية من آسيا الصغرى قادها ضابط رفيع الرتبة في الهيكل العسكري والإداري لبيزنطة من أصول فارسية يدعى سابور Saborios كان مسؤولاً عن بند الأرمنياق<sup>1</sup>، حيث استغل الأوضاع المضطربة التي كانت تعيشها الإمبراطورية في تلك المرحلة في ظلّ غياب الإمبراطور الذي كان مشغولاً بالصراع مع اللومبارد في الغرب لتثبيت سيادته على ممتلكات الإمبراطورية في إيطاليا تاركاً وراءه ابنه قسطنطين في

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 488.

العاصمة لإدارة شؤون الحكم وكان حينها لا يزال يافعا إذ بالكاد كان يبلغ السابعة عشر من عمره فقط<sup>1</sup>، وكان الإمبراطور قنسطانز الثاني قد اصطحب معه إلى إيطاليا معظم وحدات الجيش التي كانت متمركزة في آسيا الصغرى<sup>2</sup>، ما جعل العاصمة من دون حماية فعلية تقريبا، ومع اندلاع التمرد لجأ سابور من أجل حسم الموقف لصالحه بسرعة إلى طلب الدعم العسكري من المسلمين وبعث في سبيل ذلك أحد مساعديه يدعى سرجيوس Sergius متعهدا بإخضاع بلاد الروم للمسلمين في حالة وافق معاوية على مساندته ضد قوات الإمبراطور، فلما علم قسطنطين (المسؤول عن إدارة شؤون الإمبراطورية في غياب والده) بذلك أرسل بدوره أحد موظفي القصر الملكي يدعى أندرو Andrew محمّلا بالهدايا من أجل اقناع الخليفة بعدم التعاون مع سابور ومساعدة الإمبراطورية ضد حركة التمرد، ونجد في المصادر تفاصيل دقيقة عن مجريات المفاوضات في دمشق بين معاوية ومبعوثي الطرفين، حيث لم يصل ممثل ابن الإمبراطور إلى اتفاق مع الخليفة بعد رفض الشروط التي وضعها معاوية الذي أصّر على دفع الجزية مقابل أيّ مساعدة يقدمها للإمبراطور وابنه، وبعد انسحاب ممثل قسطنطين من المفاوضات أصبح المجال مفتوحا للتحالف بين معاوية وسابور قائد التمرد أين توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بالتعاون بين قوات الخلافة ووحدات التمرد من أجل الإطاحة بحكم الإمبراطور قنسطانز الثاني وتنصيب سابور مكانه على العرش البيزنطي، وهكذا أرسل الخليفة جيشا بقيادة فضالة بن عبيد الله لدعم الحركة المناوئة للحكم في بيزنطة، لكنّ حادثا عرضيا أصاب قائد التمرد في معسكره بمنطقة بيثينيا أدّى إلى وفاته قبل وصول القوات الإسلامية، ما ساهم في انهاء الثورة بعد تجنيد قوات بند الأرمينيا المتمردة ولائها للإمبراطور وتوحد صفوف البيزنطيين من جديد<sup>3</sup>، وهكذا لم يجد اتفاق التعاون بين المسلمين والبيزنطيين المتمردين على سلطة الإمبراطور طريقه إلى التنفيذ على أرض الواقع ولم يُكتب أن نرى الجنود المسلمين والبيزنطيين يقاتلون جنبا إلى جنب ضد قوات الإمبراطور الذي جعلت منه الظروف عدواً مشتركاً للطرفين، ومع ذلك كانت هذه الحادثة (الرغبة في التعاون العسكري المشترك) حالة غير مسبوقة في العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين والأولى من نوعها التي تسجّلها المصادر، صحيح أنّ معاوية أراد استغلال الفرصة التي لاحت له من أجل تحقيق إقما مكاسب مادية (ارغام بيزنطة على دفع الجزية باستغلال المأزق الذي كانت فيه) أو تعزيز موقف المسلمين في مواجهة البيزنطيين باستغلال خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية، لكنّها تؤكد واقعية وقدرة المسلمين على تجاوز خلافاتهم مع طرف من أعدائهم المتصارعين من أجل مصالحهم الاستراتيجية، كما تؤكد أيضا من جهة أخرى استعداد وتناسف البيزنطيين للاستعانة بخصومهم مقابل تنازلات كبيرة متجاوزين بذلك مشاعر الكراهية التي يحملونها ضد المسلمين والاختلاف الديني معهم والتاريخ الطويل من الحروب بينهما.

<sup>1</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 318.

<sup>2</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 94.

<sup>3</sup> - Theophanes: Op cit, pp 488-489.

أما الحالة الثانية التي حفظتها المصادر عن التعاون بين المسلمين وقوات بيزنطية فترجع إلى نهاية القرن الأول هجري/القرن الثامن ميلادي بالتزامن مع الحملة الكبيرة التي قادها مسلمة بن عبد الملك للاستيلاء على القسطنطينية، فعندما أتم المسلمون استعداداتهم في مرج دابق شمال حلب تحرك الجيش عبر مرعش ودخل بلاد الروم وسار مسلمة بقواته حتى أتى مدينة عمورية حاضرة بند الأناضول الذي كان يشرف عليه حينها ليو الإيسوري Leo the Isaurian ففرض عليها الحصار، وبعد مفاوضات مضية بين الطرفين توصل مسلمة وليو إلى اتفاق مشترك يقضي بالتعاون بين القائدين، وفي حين لا تورد المصادر البيزنطية أي شيء عن محتوى الاتفاق، يمكن من خلال الروايات التي أوردتها المصادر الإسلامية والسريانية تبين شروط هذا التعاون والواجبات التي تقع على عاتق كل طرف، حيث تعهد ليو الإيسوري قائد الأناضول لمسلمة بمساعدة المسلمين على غزو بلاد الروم ودخول القسطنطينية والإخلاص في ارشادهم ونصحهم، في المقابل تعهد مسلمة للقائد البيزنطي بدعمه من أجل تتويجه إمبراطورا على العرش البيزنطي<sup>1</sup>، وهكذا يتبين من خلال هذه الشروط أنّ الظروف والمصلحة المشتركة قد جمعت مرة أخرى بين المسلمين وأحد القادة الطامحين للسلطة في بيزنطة ما عبّد الطريق لتحالف غير عادي واستثنائي بين خصمين تجمعهما عداوة شديدة.

وتختلف المصادر بعدها حول سير الأحداث بعد الاتفاق الذي تم بين ليو ومسلمة، ففي حين تذكر المصادر البيزنطية أنّ ليو تحرك بقواته بشكل منفرد متقدماً مسلمة باتجاه نيقوميديا Nicomedia أين دحر القوات البيزنطية الموالية للإمبراطور ثيودوسيوس Theodosios التي كانت متمركزة هناك، ثم تقدم إلى كريسوبوليس Chrysopolis ليدخل بعدها إلى القسطنطينية أين تم تتويجه إمبراطورا بعد تنازل ثيودوسيوس عن العرش مقابل ضمان سلامته الشخصية<sup>2</sup>، فإنّ المصادر الإسلامية تذهب إلى أنّ ليو الإيسوري انضم بقواته إلى مسلمة وسار معه حتى وصلوا إلى القسطنطينية<sup>3</sup>، وهناك استغلّ ظروف الحصار والضغط المسلط على العاصمة لاستلام السلطة بدل الإمبراطور ثيودوسيوس، ومهما يكن الأمر سواء رافق ليو الجيش الإسلامي بقيادة مسلمة وقاتل معه أو أنّه تقدّم وحده بقوات بند الأناضول نحو العاصمة، فإنّ الاتفاق الذي عقده مع المسلمين قبل ذلك والتعاون الذي أبداه معهم قد أثار استياء الإمبراطور والكثير من البيزنطيين الذين اتهموه بالتفريط في الدفاع عن الأقاليم التي يشرف عليها (بند الأناضول) بالتواطؤ مع

<sup>1</sup> - المقدسي، المطهر بن طاهر (ت 355هـ): البدء والتاريخ، مكتبة القافة الدينية، مصر، ج 6، ص 44 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 58، ص 21.

Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 484.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 540 / Bury: Op cit, Vol 2, p 383.

<sup>3</sup> - المقدسي: المصدر السابق، ج 6، ص 43-44.

الانعكاسات على العلاقات الإسلامية البيزنطية .....

المسلمين<sup>1</sup>، حيث لم يقيم بأيّ شيء لمواجهةهم أو حتى العمل على عرقلة تقدّم قوّاتهم عبر المناطق الخاضعة لإشرافه المباشر. وبعد تحقيق هدفه بتتويجه إمبراطورا على العرش البيزنطي بمساعدة غير مباشرة من المسلمين نتيجة الظروف التي خلقها تطويق الجيش الإسلامي الضخم للعاصمة القسطنطينية وجد ليو نفسه حرًا من أيّ التزام تجاه المسلمين وبدأ الاستعداد لمواجهة الحصار وردّ فعل مسلمة بن عبد الملك على الخديعة التي قام بها أبحاهه، وهكذا عرف ليو، تحت الضّغط والتهديد الذي كانت تمثله قوّات المسلمين للإمبراطورية، كيف يستغلّ مجريات الأحداث وتطوّراتها من أجل تحويلها لخدمة مصالحه الشخصية وانقاذ القسطنطينية.

كانت المرّة الأخيرة التي شهدت اتصالات بين المسلمين والبيزنطيين من أجل إيجاد اتّفاق للتعاون العسكري بينهما، وتملك عنها معلومات تفصيلية في المصادر الإسلامية والبيزنطية والسريانية، قد حدثت أواخر العهد الأموي حين تجدد الصراع على السلطة مرّة أخرى في بيزنطة منذ صيف 741م (123هـ) بين الإمبراطور المتوّج حديثا حينها قسطنطين الخامس Constantine V وصهره (زوج أخته) أرتباسدوس Artabasdos قائد بند الأوبسيكيون<sup>2</sup>، وكما حدث أوّل مرّة في عهد معاوية لجأ طرقي الصراع إلى طلب المساعدة من المسلمين، حيث أرسل الإمبراطور وخصمه في سنة 125هـ/743م وفدين إلى الوليد بن يزيد (الذي كان قد تولّى الخلافة منذ فترة قصيرة فقط حينها) من أجل التحالف معه<sup>3</sup>، فبعث قسطنطين الخامس أحد حرسه الخاص (Spatharios) يدعى أندرو Andrew، في حين أرسل قائد التمرد مسؤول الشؤون المالية (Logothete) غريغوري Gregory<sup>4</sup>، وقد استقبلهما الوليد بن يزيد واستمع إلى خطاب كل وفد وحججه، وربّما أيضا الامتيازات والتنازلات التي عرضها كل طرف من أجل التحالف، ورغم ابداءه التعاطف مع الإمبراطور قسطنطين ضدّ خصمه أرتباسدوس (أرتباس في المصادر العربية) إلا أنه في النهاية ردّ سلبا على طلب كلا المبعوثين ورفض التحالف مع أيّ من طرفي الصراع معتبرا أنّ كلاهما عدوّ للمسلمين متوعّدا إياهما بالحرب<sup>5</sup>، وبخلاف المرّتين السابقتين لم يُبد المسلمون هذه المرّة حماسا لاستغلال الوضعية الحرجة التي كانت تمرّ بها بيزنطة، وهكذا بعكس ما قام به معاوية سابقا لم يحسن الوليد بن يزيد استغلال الفرصة الثمينة التي وقرّتها له الظروف الداخلية المضطربة في الإمبراطورية من أجل تحقيق مكاسب للخلافة والعمل على اضعاف البيزنطيين أكثر، خاصة أنّ هذه

<sup>1</sup> - إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 187.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, 575.

<sup>3</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 62، ص 382.

Agapius: Op cit, Partie 2, p 250.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 577.

<sup>5</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 62، ص 382.

الفرصة جاءت بعد فترة قصيرة جدا من الانكسار الكبير الذي أصاب المسلمين في موقعة أكرينون سنة 122هـ/740م حيث خلّفت تلك الهزيمة والخسائر الكبيرة التي تكبّدوها أثارا بالغة على نفسيّتهم، وأكثر من هذا كانت إشارة قويّة على بداية تغيّر موازين القوّة بين الطرفين، وهذا الموقف السلي من الوليد بن يزيد لا يمكن تفسيره إلاّ بضعف حنكته السياسية وسوء تقديره للموقف ومجريات الأحداث.

بجانب علاقات التعاون المشترك التي ذكرناها فيما سبق، كانت هناك أيضا علاقات ذات خصوصية فريدة تعكس تفاعلا ودّيا نادرا واستثنائيا بين المسلمين والروم، مقارنة بحالة المواجهات العسكرية المستمرة بينهما، يتمثل هذا التفاعل الخاص في المراسلات ذات الطابع الثقافي إذا جاز هذا الوصف والتصنيف، والتي تصبّ في خانة المناظرات أو المحاجاة بين خلفاء الدولة الأموية والأباطرة البيزنطيين، والتي لا تخلو في بعض الأحيان من الطرافة والفكاهة، وقد سجّلت كتب الأدب بعض الروايات حول هذا النوع الفريد من الاتّصالات التي يبدو أنّها بدأت في فترة مبكّرة من تاريخ الدولة الأموية، ولحسن الحظّ لدينا أثر عن هذا الموضوع يرجع لعهد معاوية بن أبي سفيان، ورغم أنّ هذا الخليفة كان صارما في مواقفه تجاه الروم وفرض ضغطا رهيبا على الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية وأعاد إطلاق حملات الصوائف والشواقي بنشاط كبير مباشرة بعد انفراده بقيادة الأمة الإسلامية سنة 41هـ/661م، إلاّ أنّ ملك الروم لم يجد حرجا في مراسلته يستأذنه في التواصل معه في غير الشؤون السياسية، حيث عبّر عن رغبته في أن يتبادل معه السفارات في غرائب الأمور كما كان يفعل من سبقه على العرش مع نظرائهم من ملوك الأمم الأخرى، وبعد أن استظرف معاوية الفكرة ووافق على طلبه، أرسل إليه الإمبراطور وفدا يستعرض فيه رجلين من بلاده أحدهما طويل جسيم والآخر قويّ شديد ليرى هل في بلاد المسلمين من يضاهي صفاهما<sup>1</sup>، وترد هذه القصة في مصادر أخرى بصيغة مغايرة مفادها أنّ ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله أن يبعث إليه بسرًاويل أضخم رجل في بلاد المسلمين، فأرسل إليه بسرًاويل قيس بن سعد الأنصاري<sup>2</sup>، وحتّى لو اختلفت ملابسات وحيثيات هذه الحادثة بين المصادر إلاّ أنّها تتفق مع ذلك على حدوثها ما ثبت أنّ التواصل بين المسلمين والروم في هذا النوع من الأمور لم يكن مستحيلا بل بالعكس كان حقيقة واقعة.

كما نسجّل في المصادر قصّة أخرى عن هذا النوع من الاتّصالات مضمونها أنّ الإمبراطور البيزنطي أرسل معاوية أيضا مبعوثا برسالة تحوي ألغازا طرحها عليه يسأله أن يجيب عنها<sup>3</sup>، ويبدو أنّه كان يهدف من وراء ذلك اختبار قدرات الخليفة والمسلمين الفكرية أو تعجيزهم عن الجواب حتّى يثبت ضعفهم أمام التفوّق الحضاري للبيزنطيين، وأرسل له مرّة أيضا قارورة يسأله أن يبعث إليه فيها من كل شيء فملأها

<sup>1</sup> - المبرّد: المصدر السابق، ج 2، ص 639 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 49، ص 432.

<sup>2</sup> - المسعودي: المصدر السابق، ج 4، ص 263 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 49، ص 431.

<sup>3</sup> - ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ): كتاب عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996، ج 2، ص



الانعكاسات على العلاقات الإسلامية البيزنطية .....

معاوية ماءً وأرسلها إلى الملك فأعجب بفتنته ودهاءه<sup>1</sup>، وتجمّع بعض المصادر هاتين الروايتين معا في حادثة واحدة<sup>2</sup>، وتتفق جميعها أنّ معاوية عجز عن حلّ الألغاز التي طرحها عليه ملك الروم فأرسل إلى ابن عباس يستشيريه في الأمر فبعث إليه بجواب كل ما سأل عنه الإمبراطور البيزنطي.

وهذه الأحداث التي تقدّمها الروايات في بعض المصادر الأدبية والتاريخية العربية رغم أنّنا نوظّفها بتحفظ هنا في هذا المقام حيث لا نجد لها أثرا أو ما يدعم صحتها في المؤلفات البيزنطية أو حتى السريانية إلا أنّها مع ذلك يمكن أن تمثل إذا ما كانت حدثت حقًا دليلا وشاهدا على وجود اتصالات ذات طابع سلمي بين الطرفين حتى مع استمرار المواجهات العسكرية بينهما.

كان تبادل الهدايا بين خليفة المسلمين وإمبراطور الروم أمرا مألوفا أيضا، ولا نتحدّث هنا عن الهدايا التي يتم إرسالها مع الوفود المكلفة بمهمة عقد تحالف أو هدنة أو سلام فقط فهذا الأمر كان يُعدّ من ضروريات السفارة ومن مقتضيات الدبلوماسية، وإنّما نعني في هذا المقام الحالات التي كان يتبادل فيها الطرفان هدايا من باب المجاملة دون التزامات سياسية، وهي ممارسات تقيم دليلا واضحا على وجود مساحة من الاحترام المتبادل بينهما حتى في ظل العداوة وزحام الصدمات العسكرية والاختلافات العقديّة والأيدولوجية، ويمكن أن نضرب هنا مثالين عن هذه المجاملات يرجعان إلى النصف الثاني من القرن الأول هجري، المثال الأول حدث خلال فترة خلافة معاوية بن أبي سفيان الذي أرسل على الأقل مرّة واحدة حسب ما ترويّه المصادر هدايا إلى ملك الروم دون أن تحدّد ماهيتها للأسف، وحسب سياق الحادثة فإنّ هذه المبادرة من معاوية جاءت بعد قيامه بتدبير عمليّة اختطاف داخل الإمبراطورية لأحد قادة الدولة المقريّن من الإمبراطور كان قد أساء معاملة أسير من المسلمين من أجل الاقتصاص منه<sup>3</sup>، ما يمكن اعتباره عملا غير دبلوماسي يمثّل تعديا على كرامة الملك وهيبته، فأراد معاوية بهذه المبادرة استدراك ما قام به واسترضاء الملك وجبر خاطره بتلك الهدية مع إكرام القائد البيزنطي وارجاعه إلى بلاده بعد أن اقتصر منه المسلم<sup>4</sup>.

أمّا المثال الثاني فكان في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أمر صاحب الخراج في مصر أسامة بن زيد التنوخي بشراء كمّيّة كبيرة من الفلفل وحفظه من أجل إهداءه إلى ملك الروم، وقد كانت الهدية ذات قيمة معتبرة حيث قُدّر ثمن الكمّيّة التي وقّرها أسامة بن زيد للخليفة بعشرين ألف دينار<sup>5</sup>، وهذا النوع من المنتجات الشرقية كان مطلوبا بشدة في الإمبراطورية البيزنطية ويعتبر من السلع الثمينة المرغوبة التي لا يمكن

1 - المبرّد: المصدر السابق، ج 2، ص 640-641.

2 - ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج 2، ص 71-72.

3 - المسعودي: المصدر السابق، ج 4، ص 175.

4 - المسعودي: المصدر نفسه، ج 4، ص 174-175.

5 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 191.

أن يستغني عنها بلاط الإمبراطور، وكانت البلاد الإسلامية تمثل الوسيط الأساسي في تجارته مع الشرق، أما هذه الحادثة فنملك معلومات أفضل عن حيثياتها وتفاصيلها، فقد جاءت بعد المساعدة التي قدمتها بيزنطة للدولة الأموية في عملية بناء وتزيين المسجد الجامع بدمشق والمسجد النبوي بالمدينة المنورة كما مرّ علينا سابقا، ومن هنا يمكن أن نفهم بوضوح دوافع وأهداف المبادرة التي قام بها الوليد بن عبد الملك تجاه الإمبراطور البيزنطي، فقد أراد من دون شك أن يعبر له عن امتنانه وتقديره العميق لاستجابته الفورية للطلب الذي تقدّم به الخليفة والمساعدات التي بعث بها إلى دمشق، لهذا نعتقد أنّ تاريخ تقديم هذه الهدية من طرف الخليفة جاء بعد وصول المساعدات البيزنطية مباشرة، وبالتالي يمكن أن نفترض أنها كانت بين سنتي 89-90هـ/707-708م.

بالمقابل لا نملك للأسف معلومات كثيرة عن الجانب البيزنطي فيما يخصّ هذا النوع من المبادرات، ففي ظلّ عدم اهتمام المصادر البيزنطية والسريانية بتسجيل أحداث مماثلة لم نجد إلا إشارة واحدة سجلتها المصادر الإسلامية دائما وتجمع بين نفس الشخصيتين أيضا تتمثل في قيام الإمبراطور جستنيان الثاني بإهداء الوليد بن عبد الملك سنة 90هـ/708م شخصية إسلامية رفيعة من قادة الدولة الأموية، هو أمير البحر خالد بن كيسان الذي وقع في الأسر تلك السنة<sup>1</sup> بعد مواجهة جمعت الطرفين في مصر عقب الإنزال الذي قام به الروم في دمياط<sup>2</sup>، ويذكر المقرئزي أنّ ملك الروم أرجع كيسان للوليد من أجل الهدنة التي كانت بينهما<sup>3</sup>، لكنّ هذا غير صحيح على الإطلاق فالمصادر التاريخية لا تذكر أيّ هدنة بين المسلمين والروم في هذه الفترة بل إنّ حملات الصوائف على آسيا الصغرى في عهد الوليد عرفت حيوية ونشاطا غير مسبوقين، كما لا يفسّر المقرئزي أسباب الهجمة البيزنطية على دمياط في ظلّ وجود هدنة بين الطرفين كما يزعم! الحقيقة أنّ ملك الروم أراد بهذه المبادرة تحسين العلاقات مع الخليفة الأموي خاصة بعد التقارب الملحوظ الذي حدث بين الطرفين منذ 87هـ/706م كما وضّحنا ذلك سابقا، ومن المؤكّد أنّ جستنيان قد أرفق عملية تسليم هذه الشخصية الإسلامية الرفيعة بهدايا أخرى قيّمة للخليفة من أجل كسب ودّه لتحقيق بعض الاستقرار في العلاقات بين الدولتين، خاصّة أنّ هذه المبادرة النبيلة جاءت بالتزامن مع تسجيل مؤشّرات قويّة عن تقارب ملحوظ بين ملك الروم وخليفة المسلمين في تلك الفترة، وبخلاف هذا المثال ليس من المستبعد أنّ الأباطرة البيزنطيين قاموا بإرسال هدايا إلى الخلفاء المسلمين في مناسبات مختلفة ردّا على المبادرات التي قاموا بها أو على الأقل من باب الجاملات الدبلوماسية.

بجانب العلاقات المتعدّدة السابقة نسجّل أيضا استمرار علاقات التبادل التجاري بين الدولتين، كما سنوضّح بالتفصيل خلال المبحث اللاحق، حيث لم تؤثر حملات الصوائف والشواقي في المبادلات بينهما

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 442.

2 - عليّة عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص 48.

3 - المقرئزي: المصدر السابق، ج 1، ص 314.

الانعكاسات على العلاقات الإسلامية البيزنطية .....

إلا بشكل طفيف وقد استمر توافد التجار وتدقق السلع بين الدولة الأموية وبيزنطة حتى في ذروة المواجهات العسكرية بينهما، وبهذا استطاعت المصالح التجارية أن تتغلب على النزعة العدائية بين الخصمين.

كما أنّ العلاقات الاجتماعية بين الطرفين لم تكن مستثناة من التفاعلات الحضارية بدورها، فقد استمرّ مثلاً تدفق الحجّاج المسيحيين البيزنطيين على الأماكن المقدّسة في الشام، وعلى الرغم من أنّ المعلومات تعوزنا في الفترة المبكّرة خلال القرن الأول هجري/السابع ميلادي إلا أنّنا نعلم على الأقل أنّ مجموعة بيزنطيين من ملّك الأرض الأغنياء في نواحي قونية بآسيا الصغرى قد قاموا سنة 724م (105-106هـ) بزيارة القدس من أجل الحج، ويبدو جلياً أنّه بفضل هذا الطقس الديني تمّ التأسيس لاتصالات بين البيزنطيين والعرب<sup>1</sup>، فمن الضروري أن يتحصّل هؤلاء الرعايا البيزنطيين على موافقة مسبقة من الحكّام المسلمين للسماح لهم بدخول الأراضي الإسلامية والسفر بحريّة إلى فلسطين بعد التأكّد من نواياهم خاصة أنّهم قاموا برحلتهم برّاً على الأرجح عبر منطقة الثغور ثم سوريا وفلسطين، ولا يمكن الجزم بأنّ هذه الرحلة كانت حالة فريدة في العهد الأموي، بل بالعكس يبدو أنّ توافد المسيحيين على الأراضي المقدّسة كان قائماً حتى في فترة سابقة ولدنيا رحلة موثّقة بكل تفاصيلها قام بها الأسقف أركولف Arculf حوالي سنة 700م (81هـ)<sup>2</sup>، حتى وإن كان رجل الدين هذا من بلاد الغال وليس من رعايا بيزنطة، إلا أنّ هذا المثال يقدّم دليلاً إضافياً على أنّ المسلمين لم يكونوا يمنعون المسيحيين سواء كانوا بيزنطيين أو غيرهم من زيارة المقدّسات في فلسطين ما ساهم في عدم قطع العلاقات الاجتماعية بين العالمين الإسلامي والمسيحي. كما كانت الدولتين تمثّلان ملجأً للمعارضين والقارّين والمطلوبين من رعايا الطرفين بسبب مخالفت ارتكبوها في بلدانهم أو لأيّ سبب من الأسباب، ومن أبرز الأمثلة على ذلك عن الجانب الإسلامي في فترة الدراسة حالة الجحّاف بن حُكيم السُّلمي الذي أغار على قبيلة بني تغلب في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل منهم أعداداً كثيرة ونكّل بهم ثمّ هرب مع بعض أصحابه إلى بلاد الروم، وعاش هناك لفترة متنقلاً بين طرابزنده (طرابزون)، وكمخ، وقاليقلا، وقد حظي بمعاملة جيّدة من طرف البيزنطيين الذين عرضوا عليه الدخول في النصرانية مقابل امتيازات كبيرة، ورغم أنّه رفض هذا العرض مفضّلاً البقاء على دينه إلا أنه لم يتردّد في الاشتراك مع الجند البيزنطي في مواجهة قوّات المسلمين المضطّعة بحملات الصوائف حتى أنّه ألحق بهم خسائر معتبرة، لكنّه ندم على انخراطه في قتال المسلمين بجانب أعدائهم البيزنطيين فرجع إلى بلاد الإسلام أخيراً بعدما تحصّل على عفو ووعد بالأمان من الخليفة عبد الملك بن مروان<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - Marius Canard: Op cit, pp 41-42.

<sup>2</sup> - Thomas Wright: Early Travels in Palestine, London 1848, p 1.

<sup>3</sup> - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 7، ص 79-81 / ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 72، ص 53.

ونجد رواية أخرى مثيرة تتعلّق بشخصية بارزة في الحياة العامة للمجتمع والدولة الأموية هو مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان الذي تذكر المصادر أنّه فكّر في الالتجاء إلى بلاد الروم بعد تضعُّع موقفه العسكري والسياسي أمام الثورة العباسية إثر الهزيمة التي تعرّض لها في معركة الزاب الشهيرة في مواجهة عبد الله بن علي سنة 132هـ/750م حيث قرّر أن يُكاتب الإمبراطور البيزنطي ويعقد معه اتّفاقا على أن ينزل بإحدى مدن الروم يتّخذها مقراً له حتّى يجتمع إليه أنصاره ومواليه فيعيد تنظيم جيشه في ظروف أحسن<sup>1</sup>، ربّما تبدو هذه القصّة للوهلة الأولى غير قابلة للتصديق بسبب الاختلاف الديني أساسا وأيضاً بحكم مركز مروان بن محمد كخليفة للمسلمين وردّ الفعل السلبي الذي سيواجهه من طرف الأمّة في حالة احتماؤه بعدوها الأكبر (الروم) حتّى أنّ أحد مرافقيه، لكن بدافع من الحميّة العصبية ضدّ القيسية وليس بدافع النصيحة، سعى في أثناءه عن هذه الخطوة قائلاً: «أعيذك بالله أن يحكم فيك أهل الشرك وتملّكهم أمرك»<sup>2</sup>، لكنّ الظروف التي كان يواجهها مروان بن محمد في ذلك الوقت لم تترك له مجالاً واسعاً للمناورة وحدّت كثيراً من الخيارات المتاحة أمامه، حيث أنّ استفحال الثورة العباسية ونجاحها في السيطرة على القسم الشرقي من الخلافة، واضطراب أحوال الدولة الأموية في ذلك الوقت مع عدم استقرار الشام الذي كان دائماً يمثّل مركز الدولة وصمّام الأمان فيها خلال فترات الفتن، يجعل من التفكير في اللجوء المؤقت إلى بلاد الروم خياراً منطقياً وخطوة مقبولة على الأقل من الناحية الاستراتيجية بغض النظر عن الاعتبارات الدينية أو السياسية، إنّ هذه الحادثة إن صحّت تعتبر سابقة في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية حيث لم يُقدم على التفكير في هذا الأمر أيّ شخص من المسلمين بهذا المستوى من قبل.

ومن الحالات الشائعة لهروب الأفراد إلى بلاد الروم نجد فئة العبيد، الذين كانوا يجدون في بيزنطة ملاذاً لهم للتخلّص من أسيادهم في بلاد الإسلام، ومن العيّنات التي حفظتها لنا الأخبار في المصادر قصّة أحد موالي أم البنين من بني أمية يكتّى "البريدي"، وإن كنّا نجهل أصله أو حتّى أسباب وملاسات هروبه إلّا أنّنا نعرف بعض أخباره في بلاد الروم، حيث يبدو أنّه استقرّ في ناحية بافلاجونيا (أفلاجونية في المصادر العربية) في الشمال والتحق بالقوّات البيزنطية هناك، كما يظهر من خلال الأحداث التي ترويها المصادر أنّه كان يتمتّع بمقدّرات قتالية معتبرة يمكن تبيّنها من خلال مجريات إحدى المعارك التي خاضها مع البيزنطيين في مواجهة قوّات المسلمين التي كانت تقوم بحملة الصائفة سنة 115هـ/723م، حيث استطاع أن يلحق بهم خسائر معتبرة فقتل خمسة من فرسان المسلمين في مبارزات فردية واحداً تلو الآخر حتّى تصدّى له أخيراً عبد الله البطال قائد الجيش فقتله<sup>3</sup>.

1 - البلاذري: المصدر السابق، ج 9، ص 319 / المسعودي: المصدر السابق، ج 3، ص 208.

2 - البلاذري: المصدر نفسه، ج 9، ص 319 / المسعودي، المصدر نفسه، ج 3، ص 208.

3 - مجهول: العيون والحدايق، ج 3، ص 91.

ولدينا حالة أخرى مشابهة لكن بتفاصيل أكثر قليلا تتعلق بشخصية اشتهرت لاحقا في الصراع بين المسلمين والروم وهو "ميمون الجرجاني" الذي كان عبدا من أصل رومي مملوكا لبني أخت معاوية بن أبي سفيان، ومع اضطراب أحوال الشام بعد وفاة يزيد بن معاوية استغلّ ميمون الفرصة والتحق بمعسكر الروم عبر الانضمام إلى جماعة الجراجمة الذين تمردوا على السلطة الأموية في جبال لبنان بتحريض وتدير من البيزنطيين، وقد اشتهر هو أيضا بالفروسية والشجاعة ويبدو أنّ نشاطه قد أقلق المسلمين كثيرا في المنطقة وسبّب لهم متاعب معتبرة حتى بلغ ذلك عبد الملك بن مروان فعمل على استمالاته والاستفادة من كفاءته العسكرية ومعرفته الواسعة بخصائص المنطقة الحدودية، وهذا ما حدث فعلا، فقد اعتنق الإسلام بعد اعتناقه من طرف مواليه الثقفين بتدخل من عبد الملك الذي قام لاحقا بتعيينه قائدا على مجموعة من الجند في أنطاكية<sup>1</sup>، وقد أثبتت الأحداث لاحقا أنّ تقدير عبد الملك كان في محله حيث أظهر ميمون نشاطا مميّزا في حملات الصوائف ضدّ بلاد الروم خاصة في ناحية قيليقية واشترك في فتح المصيصة مع عبد الله بن عبد الملك قبل أن يستشهد في معركة قرب طوانة سنة 85هـ/704م<sup>2</sup>، وقد بلغ من تأثر عبد الملك بن مروان بموته أن «أغزى الروم جيشا عظيما طلبا بثأره»<sup>3</sup>.

في المقابل كان هناك العديد من الحالات التي فضّل فيها المسيحيون من رعايا الإمبراطور الدخول بشكل فردي وحتى جماعي تحت سلطان الدولة الإسلامية مثل الأرمن الذين قاموا بحركة نزوح كبيرة سنة 94هـ/713م على خلفية الاضطهاد الديني الذي سلّطه عليهم الإمبراطور فيليبكيوس Philippikos واستقرّوا أخيرا في ملطية<sup>4</sup>، أين كان العرب أكثر تسامحا معهم من البيزنطيين<sup>5</sup>، وكان هناك أيضا السلاف (الصقالبة) الذين استقرّوا داخل حدود الدولة الإسلامية هربا من البيزنطيين مرتين على الأقل، الأولى سنة 45هـ/665م، والثانية سنة 73هـ/692م، حيث تمّ توطينهم بالشام والمناطق الحدودية، حسب ما هو متوفّر لدينا من معلومات، كما سنرى بالتفصيل في المبحث القادم.

يتبيّن من خلال هذا العرض أنّ حملات الصوائف والشواتي كان لها أثر سلبي ظاهر في العلاقات بين المسلمين والروم بشكل مؤكّد، إذ ساهمت في تكريس العداوة وتعميق الشرخ بينهما عندما فرضت المواجهات العسكرية المستمرة كقاعدة ثابتة في واقع العلاقات بين الطرفين، لكنّها مع ذلك لم تبلغ بهذه العلاقات إلى حدّ القطيعة التامة، فقد احتفظت الدولتان في بعض الحالات الاستثنائية بجوانب متعدّدة من العلاقات المعتدلة حتى في ظل استمرار المواجهات العسكرية بينهما.

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 188.

2 - خليفة: المصدر السابق، ص 291.

3 - ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 61، ص 369.

4 - Theophanes: Op cit. p 532 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 482.

5 - Laurent: L'Arménie entre Byzance et l'Islam, p 33.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

## المبحث الثاني: انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة

### أولاً- التداعيات الاقتصادية:

إنّ دراسة التأثيرات الاقتصادية التي خلّفها حملات الصوائف والشواقي على الاقتصاد البيزنطي ليست بالأمر الهين، فرغم وجود علاقة تأثير مؤكدة بين هذه الحملات والوضع الاقتصادي للخصم باعتبارها حملات في الكثير من الأحيان تخريبية وتهدف لاستنزاف العدو وحرمانه من موارده وقدراته الاقتصادية كما سبق وذكرنا في الفصل الثاني، حتّى أنّنا نستطيع أن نجزم بجمية الضرر الاقتصادي الذي ألحقته هذه الحملات بالإمبراطورية البيزنطية، إلّا أنّه من الصعب مع ذلك تلمّس هذه التأثيرات بشكل واضح نظراً لقلّة المادة الخبرية التي يمكن أن تفيدنا في رسم صورة متكاملة عن هذا الموضوع من خلال وضع نموذج احصائي يسمح لنا بصياغة التحوّلات الجديدة الناتجة عن التأثيرات التي ألحقها هذه الحملات بالحياة الاقتصادية في بيزنطة خلال القرنين الأول والثاني هجريين/السابع والثامن ميلاديين، حيث تكثفي المصادر عند استعراض الأخبار المتعلقة بحملات المسلمين في تلك الفترة بالتعرّض إلى الخسائر الماديّة التي تسببت فيها، مع الإشارة إلى وقوع أسرى وتحديد عددهم في بعض الأحيان<sup>1</sup>، ولا يسعنا هنا أمام هذا الشخّ في المعطيات إلّا وضع فرضيات استناداً إلى تحليل موضوعي للإشارات القليلة الواردة في المصادر، وأيضاً بالاعتماد على اجتهادات الدارسين في هذا الموضوع والتي تتميز في بعض الأحيان بتضارب كبير لا يمكن معه الوصول إلى توافق مقبول.

سنتعرّض في هذا العنصر إلى تداعيات الحملات الموسمية السنوية على ثلاثة قطاعات اقتصادية أساسية هي: الزراعة بحكم أنّها تمثّل النشاط الاقتصادي الرئيسي في بيزنطة، والتجارة باعتبارها نشاطاً شديد الحساسية والتأثر بالأوضاع الأمنية السائدة خاصة فيما يتعلّق بالتجارة الخارجية العابرة للحدود، وأخيراً مالية الدولة التي تتوقّف عليها سيرورة مختلف مجالات الحياة في البلاد. فكيف تأثرت هذه القطاعات بالصراع الإسلامي البيزنطي؟ وما هي طبيعة وحجم التغييرات التي طرأت عليها بسبب حملات الصوائف والشواقي؟

كانت الزراعة عماد الاقتصاد البيزنطي<sup>2</sup>، وأي ضرر يمكن أن يلحق بها قد يسبّب تداعيات خطيرة على الدولة ككل، وبحكم التفوّق العسكري الذي كانت عليه الدولة الأموية في أغلب فترات صراعها مع الدولة البيزنطية وعجز هذه الأخيرة عن كبح المسلمين من التوغّل في أراضيها كان قطاع الزراعة معرّضاً لحملات المسلمين وإرادتهم، وترسم الروايات التاريخية عن العمليّات العسكرية بين البيزنطيين والقوّات العربية

<sup>1</sup> - Hélène Ahrweiler: L'Asie Mineure et les Invasions Arabes, p 13.

<sup>2</sup> - عائشة سعيد شحاتة: الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي، ص 383.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

في منطقة الحدود صورة واضحة للخراب الذي تعرّضت له المنطقة<sup>1</sup>، ومع تكرّر الحملات العربية بشكل سنوي تقريبا لم تعد الزراعة تتمثل دخلا آمنا للذين يعيشون في هذه المناطق نتيجة الغارات التي كانت تؤدّي إلى احراق الحقول واتلاف المحاصيل أو الاستيلاء عليها من طرف العدو<sup>2</sup>، حتّى أنّ المصادر العربية والبيزنطية لا تخفي ولو بصورة محتشمة استهداف المسلمين في حملاتهم بشكل متكرّر للبنية الزراعية والمراعي والثروة الحيوانية في آسيا الصغرى<sup>3</sup>، وقد كان التواجد شبه الدائم لفرق الغزاة يمثّل عائقا أمام استمرار الفلاحين البيزنطيين في ممارسة نشاطهم الزراعي، ويمكن أن نضيف بجانب كل هذا، عمليّات الأسر الواسعة التي كان يقوم بها العرب بشكل متواصل إلى حدّ أصبحت فيه هذه الممارسة أحد أهم الأهداف الرئيسية لحملاتهم<sup>4</sup>، ما كان يحرم الاقتصاد البيزنطي بشكل عام والزراعة بشكل خاص من اليد العاملة اللازمة لتنشيط هذا القطاع، وقد أدّى الخوف الدائم من الهجمات الإسلامية والحشية من الوقوع في الأسر إلى حركات هجرة واسعة للقرويين من مناطقهم إلى أماكن أكثر أمنا، وقسم كبير منهم رفض العودة مجدّدا إلى قراهم، التي تعرّضت للتدمير على الأرجح، وهكذا بقيت مساحات شاسعة من الأراضي دون استغلال ما تسبّب في آثار كارثية على الاقتصاد<sup>5</sup>، خاصة في القسم الشرقي من آسيا الصغرى أين بقيت المناطق الحدودية مع الخلافة خالية من السكان No man's land لفترة طويلة<sup>6</sup>.

وفي هذه الظروف كان انخفاض الإنتاج الزراعي في آسيا الصغرى نتيجة لا يمكن تفاديها كما يجزم بذلك المؤرخ جون بيوري<sup>7</sup>، ولدينا إشارة مهمّة في هذا الصدد من مصدر بيزنطي (حياة القديس فيليب The vita of Philip of Argyrion) دُوّن على الأرجح في القرن الثامن ميلادي يمكن أن تدعم هذا الاستنتاج، حيث يورد رواية عن نشاط ثلاثة تجار من منطقة ليديا في غرب آسيا الصغرى كانت تجتمعهم شراكة ويقومون بشراء الحبوب من صقلية<sup>8</sup>، وحتّى إن كان هذا المصدر لا يذكر بالتحديد تاريخ

<sup>1</sup> - J. F. Haldon, H. Kennedy: Op cit, p 96.

<sup>2</sup> - J. F. Haldon, H. Kennedy: Ibid, p 99.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 137 / يعقوبي: المصدر السابق، ج 2، ص 259 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 473؛ ج 59، ص 281.

Theophanes; Op cit, p 532.

<sup>4</sup> - Hélène Ahrweiler: Op cit, p 14.

<sup>5</sup> - A. N. Stratos: Op cit, Volume 5, p 59.

<sup>6</sup> - Angeliki E. Laiou and Cécille Morrisson: The Byzantine Economy, Cambridge University Press 2007, p 46.

<sup>7</sup> - Bury: Op cit, Vol 2, p 405 / Hélène Ahrweiler: Op cit, p 13.

<sup>8</sup> - Angeliki E. Laiou: The Economic History of Byzantium from the Seventh through the Fifteenth Century, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington DC 2002, Vol 2, p 708.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

هذه الحادثة كما لا يوضّح أيضا مصير هذه الشحنات من الحبوب هل كان يتمّ تسويقها محلياً في آسيا الصغرى موطن التجّار الثلاثة أو يتمّ إرسالها مباشرة إلى القسطنطينية، إلاّ أنّه مع ذلك يمكن أن يكون دليلاً على عدم قدرة منطقة سهول غرب آسيا الصغرى ولا المناطق المجاورة لها على انتاج ما يكفي من الحبوب -المحصول الرئيسي- لتموين الطلب المحلي رغم ما تتمتع به من مقومات طبيعية ملائمة، وحتى إن كنّا غير متأكّدين بشكل قاطع من العوامل الحقيقية التي سبّبت تراجع الإنتاج الزراعي في هذه المنطقة الخصبّة وهل كانت دائمة أو مؤقتة، ما دمنا لا نعلم بشكل محدّد تاريخ هذه الحادثة التي يرويها المصدر، حيث يمكن ببساطة أن تكون نتيجة عوامل طبيعية طارئة، إلاّ أنّنا يمكننا أيضا أن نفترض أنّها ربّما كانت نتيجة منطقية لحملات المسلمين المدمّرة في المنطقة بين 54-119هـ/674-735م<sup>1</sup>، والتي خلّفت خراباً كبيراً تسبّب في إفقارها وتراجع محسوس في عدد السكان بها، ويمكن أن نبيّن ذلك بشكل واضح من أخبار الحملات السنوية في المصادر العربية والبيزنطية على حدّ سواء، وأن نستنتجها من خلال سياسة توطين العناصر السلافية والقبرصية التي انتهجها الإمبراطور جستنيان الثاني أواخر القرن السابع ميلادي/الأول هجري للنهوض بالحياة الاقتصادية في المنطقة<sup>2</sup>. إنّ هذا المثال الذي يختصّ بالمناطق الغربية لآسيا الصغرى البعيدة عن منطقة الحدود مع الدولة الأموية وأيضاً عن مجال نشاط حملات الصوائف والشواتي، حيث لم تصلها جيوش المسلمين إلاّ مرّات قليلة فقط على فترات متباعدة، يجعلنا نتصوّر أنّ الوضعية كانت أكثر سوءاً في المناطق الشرقية والجنوبية القريبة من الثغور، خاصة قبادوقيا وقيليقية (قبل استيلاء المسلمين عليها) وغلاطية وسط الأناضول، والتي كانت تتعرّض بشكل مستمرّ ومكثّف لحملات المسلمين وقاست أضراراً كبيرة لا يمكن للزراعة تلافيتها.

ويمكن أن نستشفّ هذه التأثيرات على قطاع الزراعة من خلال الإجراءات التي قام بها العديد من الأباطرة على فترات مختلفة ابتداءً من النصف الثاني من القرن السابع ميلادي/القرن الأول هجري مثل سياسة نقل وتوطين السكّان في المناطق التي لحقها ضرر كبير من الغارات العربية في آسيا الصغرى من أجل إعادة بعث الحياة الاقتصادية فيها، صحيح أنّ هذه الإجراءات كانت بدوافع عسكرية أيضاً لكن في الواقع كانت الدوافع العسكرية والاقتصادية غالباً مترابطة<sup>3</sup>، حيث كان من أبرز أهداف عمليّات إعادة التوطين

<sup>1</sup> - خلّف المسلمون دماراً كبيراً في منطقة كيزيكوس خلال حصار السبع سنوات، وألحقوا أضراراً كبيرة بمنطقة ليدا (غرب آسيا الصغرى) سنة 97هـ/716م في طريقهم لحصار القسطنطينية، وكذلك فعلوا بمنطقة بيشينا (شمال غرب آسيا الصغرى) وحاضرته نيقية سنة 109هـ/727م، كما دمروا المنطقة بين كيبيرا (سييرة) وسارديس (غرب آسيا الصغرى) سنة 117هـ/735م.

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, p 334 / Peter Charanis: Studies on the Demography of the Byzantine Empire, Variorum reprints, London 1972, p 143-151 / A. N. Stratos: Op cit, Volume 5, p 61.

<sup>3</sup> - Peter Charanis: Ibid, p 150.



انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

هذه تنشيط الزراعة في المناطق المستهدفة<sup>1</sup>، وهذا دليل على أنّ النشاط الزراعي فيها كان يشهد ركودا أو على الأقل لم تكن جميع الفرص والإمكانيات المتاحة لهذا النشاط مستغلّة بشكل كامل، لهذا لا غرابة أن تُرافق عمليّات التوطين إجراءات منح وتوزيع الأراضي الزراعية على العناصر السكّانية الجديدة من أجل إعادة تعمير هذه المناطق المتضرّرة وانعاش الحياة الاقتصادية فيها مثلما حدث في نواحي بيثينيا (منطقة كيزيكوس) في عهد جستنيان الثاني<sup>2</sup> أواخر القرن السابع ميلادي/القرن الأول هجري كما سبق الإشارة إليه.

وبالإضافة إلى استهداف الإنتاج الزراعي، كانت الحملات أيضا لا تستثني الثروة الحيوانية حيث كان يتمّ الاستيلاء على الماشية والأغنام<sup>3</sup> أيضا، خاصة وأنّ هضبة الأناضول بفعل خصائصها الطبيعية كانت منطقة متخصصة في هذا النوع من النشاط<sup>4</sup>، وبجانب الماشية كانت الخيول ومختلف أنواع الدواب أيضا من أهمّ الغنائم التي يحصلها المسلمون في حملاتهم<sup>5</sup>.

أمّا فيما يخص تأثير حملات الصوائف والشواقي على التجارة فهناك اختلاف بين المؤرّخين حول الموضوع وفيما يخصّ المبادلات عن طريق الخطوط البرية سواء داخل حدود بيزنطة في آسيا الصغرى أو تلك التي تربطها ببلاد الخلافة عند المناطق الشمالية في الشام والجزيرة فتصبح الوضعية أكثر تعقيدا وغموضا.

يرى بعض المؤرّخين أن ظهور المسلمين والغارات المستمرة التي كانوا يشنّونها على بيزنطة خاصة بين القرنين 1-3هـ/7-9م قد أثّرت في البنية التحتية للدولة، وماليتها، وامكانياتها التجارية وجعل المواصلات صعبة داخل آسيا الصغرى، وخسر البيزنطيون السيطرة على العديد من الطرق البرية داخل البلد، خاصة تلك ضمن المنطقة المحصورة بين قيصرية، وأنقرة، وعمورية، وأدرولية، ليس هذا فقط بل استطاعوا حتّى أن يشلّوا الطرق التي تربط القسطنطينية بالحدود الشرقية، وسواحل البحر الأسود بسواحل بحر إيجه، ولم تستمر الطرق عمليّة إلا في المناطق التي كان تأثير العرب عليها محدودا<sup>6</sup>، لكن مع ذلك يجب الإشارة إلى أنّ انقطاع خطوط المواصلات بين التجمّعات الحضرية والسكّانية البيزنطية في آسيا الصغرى لا يمكن أن يكون إلا بشكل مؤقت فقط ومحدود جغرافيا، بالتزامن مع فترة تنفيذ المسلمين حملاتهم السنوية في الصيف أو الشتاء، في محيط نشاط الجيش الاسلامي، وفي بعض الأحيان لفترة أطول عندما كانت القوّات الإسلامية

<sup>1</sup> - Angeliki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p .45

<sup>2</sup> - Warren Treadgold: Op cit, p 333.

<sup>3</sup> - ستيفن رنسيان: المرجع السابق، ص 251.

Theophanes: Op cit, p 532-571.

<sup>4</sup> - جون كلود شينيه: المرجع السابق، ص 38.

<sup>5</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 278 / ابن عساكر: المصدر السابق، ج 56، ص 473.

<sup>6</sup> - Angeliki E. Laiou: Economic History of Byzantium, Vol 1, p 74; Vol 2, p 698 / Hélène Ahrweiler: Op cit, p 14.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

تمضي الشتاء في بلاد الروم لتستعيد نشاطها مبكراً مع حلول فصل الربيع وهذا التواجد العسكري الإسلامي المحدود زمنياً وجغرافياً داخل الأراضي البيزنطية لا يمكن أن يكون مؤثراً كثيراً في المبادلات المحلية إلى حدّ أصابها بالشلل كما تريد بعض المراجع تصويره، ونجد في سيرة القديس فيليب أيضاً أخباراً عن تجارة الماشية في غلاطية وسط الأناضول، قبادوقيا، وأجزاء أخرى من آسيا الصغرى<sup>1</sup>، وإن كانت التجارة استمرت قائمة في هذه الأقاليم المعرضة أكثر من غيرها لهجمات المسلمين بحكم متاخمتها لمنطقة الثغور فإنّ المبادلات حتماً ستكون أكثر نشاطاً في المناطق البعيدة التي لا تصلها حملات المسلمين إلا نادراً ويمكن الاحتياط فيها من الهجمات عن طريق منظومة الإنذار المبكر، وهنا يجب البحث إذا عن سبب إضافي يمكن أن يساعد على فهم الوضع بشكل أفضل، ويتمثل هذا السبب بشكل خاص في تحريب الريف مع اضمحلال الحياة المدنية نتيجة اندثار العديد من المدن وتراجع عدد السكان فيها، كما سنناقشه بالتفصيل لاحقاً، ما يعتبر في حدّ ذاته مؤشراً على تقلص المبادلات الحضرية الريفية<sup>2</sup>، وفي ظلّ هذه الظروف لم يعد السكان بحاجة إلى استيراد كميات كبيرة من البضاعة واكتفوا بما ينتجه من كانوا بجوارهم المباشر<sup>3</sup>، وبجانب هذا العامل يمكن أن نضيف سبباً آخرًا جوهرياً يأتي به وارن تريديغولد Warren Treadgold يتمثل في الانخفاض الكبير في كميّة العملة البرونزية المتداولة (الفلس Follis)، والتي كانت تمثل العملة الرئيسية في العمليات التجارية البسيطة خلال المبادلات اليومية، حيث أصبح حضورها في الدورة الاقتصادية ضعيفاً ما تسبب في انكماش المعاملات التجارية المحلية<sup>4</sup>.

أمّا عن وضعية المبادلات والخطوط التجارية البرية بين آسيا الصغرى من جهة، والشام والجزيرة من جهة أخرى، وهذه النقطة مهمّة جدّاً في موضوعنا باعتبار هذا المجال الجغرافي كان يمثل فضاء للصراع بين الطرفين، فتبدو غامضة إلى حدّ بعيد ومن أجل إلقاء الضوء على هذه المسألة يبدو من الضروري أن نتعرّف على وضعية الطرق التجارية في هذا الفضاء الجغرافي في الفترة التي سبقت ظهور المسلمين وسيطرتهم على المنطقة حتّى يمكن أن نقدّر التغييرات الحاصلة بعدها.

كانت تجارة الشرق تسلك طرقاً مختلفة، فالمسالك البرية منها ربّما مرّت بتركستان إلى بحر قزوين ومنها تتفرّع إمّا شمالاً إلى نهر الفولجا فإلى البحر الأسود انتهاء عند خرسون، أو جنوباً عبر شمال إيران وصولاً إلى نصيبين أو عن طريق أرمينية إلى طرابزون، وكانت هناك طرق برية أخرى تجتاز وسط فارس انطلاقاً من الهند وأفغانستان وصولاً إلى نصيبين أو سورية<sup>5</sup>، لكن أهمّها والأكثر استخداماً من بينها كلّها كانت تلك

<sup>1</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 708.

<sup>2</sup> - Angeliki E. Laiou: Ibid, Vol 2, p 698.

<sup>3</sup> - جون كلود شينيه: المرجع السابق، ص 42.

<sup>4</sup> - Warren Treadgold: Op cit, p 409.

<sup>5</sup> - ستيفن رنسيمن: المرجع السابق، ص 195.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

التي تمرّ بأرض فارس التي خضعت للمسلمين لاحقاً في النصف الأول من القرن السابع ميلادي. أما الطرق البحرية فكان هناك مسارين رئيسيين يصل أحدهما إلى الخليج الفارسي ومن هناك يتمّ نقل السلع إلى مدينة الرقة في سورية إما براً أو عن طريق نهر الفرات، أما الثاني فكان يمتدّ حتى البحر الأحمر ثمّ إلى مصر<sup>1</sup>.

وهكذا يمكن أن نلاحظ أنّ مسارات حركة القوافل التجارية البرية المتدفّقة من الشرق إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية كانت تصل إلى ثلاث نقاط رئيسية تقريباً كانت حدّتها بيزنطة منذ القرن الخامس ميلادي لتلقّي البضائع القادمة من الهند والصين، وهي ارتاجزات (في أرمينية) شمالاً، ونصيبين في الوسط، وأخيراً الرقة جنوباً<sup>2</sup>، ومن هذه الأخيرة خاصة كان يتمّ نقل سلع الشرق إلى مدن الشام الساحلية لتُحمّل على السفن إلى مختلف أسواق البحر الأبيض المتوسط، وكان قسم من هذه التجارة خاصة من ارتاجزات ونصيبين يواصل حركته عبر الطرق البرية في آسيا الصغرى<sup>3</sup>، وهذا يجعل من هذه الأخيرة محطة هامة على طريق التجارة مع الشرق سواء من خلال المسالك التي تربطها بالهضبة الإيرانية أو عن طريق بلاد ما بين النهرين وسورية، وعندما كانت سلع الشرق تتخذ طريقها إلى بيزنطة عبر آسيا الصغرى يبدو من المنطقي أنّها كانت تستخدم المسالك والطرق نفسها التي أنشئت من أجل الأغراض العسكرية والإدارية والتي كانت تصل القسطنطينية بأنطاكية أو أرمينية أو أعالي منطقة الفرات<sup>4</sup>، لكن مع حلول القرن السابع ميلادي كانت الأوضاع الأمنية في هذه المنطقة قد تدهورت كثيراً مع الاجتياح الفارسي للأقاليم البيزنطية في الشرق وما تلاه من فتوحات إسلامية في الشام والجزيرة والعراق بعدها بسنوات قليلة، وقد كان الفرس عادة ما يعتمدون إلى قطع التجارة تماماً عن بيزنطة إبان الحروب بينهما<sup>5</sup> مستفيدين من دورهم كوسطاء أساسيين وتحكّمهم في طرق التجارة بين الشرق والغرب قبل انتقال هذه السيطرة إلى المسلمين لاحقاً، وليس هناك ما يثبت استمرار هذه الطرق التجارية عمليّة في استقبال القوافل التجارية في هذه الفترة بل يبدو من المؤكّد أنّ هذه الأحداث لا بدّ وأنها تركت ترسباتها على النشاط التجاري بين الشرق والغرب، وهذا ما يذهب إليه بعض المؤرخين مثل بيوري ورنسيومان، الذين يعتقدان أنّ سبل المواصلات والتبادل البري المباشر بين الشام مثلاً والإمبراطورية قد قُطع، ويستدلّان في ذلك بحركة انتقال الطاعون من الشام إلى القسطنطينية منتصف القرن الثامن ميلادي/القرن الثاني هجري في بداية عهد قسطنطين الخامس 747-748م

<sup>1</sup> - ستيفن رنسيومان: المرجع السابق، ص 195 / ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا ومراجعة عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ج 1، ص 18-23.

<sup>2</sup> - هايد: المرجع نفسه، ج 1، ص 17-18.

<sup>3</sup> - هايد: المرجع نفسه، ج 1، ص 70.

<sup>4</sup> - Angeliki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p 37.

<sup>5</sup> - ستيفن رنسيومان: المرجع السابق، ص 195.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

(129-130هـ) حيث تبع خط المبادلات التجارية البرية بين الشرق وأوروبا الذي يمرّ بالشام إلى مصر ثم إفريقيا فصقلية ومنها إلى إيطاليا فاليونان وصولاً إلى القسطنطينية، ويرى بيوري أنّ الطاعون من دون شكّ كان سينتقل مباشرة من الشام إلى البوسفور عبر آسيا الصغرى لو كانت الطرق متّصلة كما الحال عندما كانت الشام جزءاً من الأقاليم البيزنطية، ويُرجع في النهاية سبب تراجع حركة المبادلات البرية بين الطرفين إلى اتصال الأعمال العدائية بينهما<sup>1</sup> ما أثار على استقرار الحدود والوضع الأمني فيها، في حين يرى المؤرّخ الأمريكي ميكائيل ماكورميك McCormick أنّ هذا التغيّر في طرق المواصلات حدث لاحقاً، حيث يذكر أنّ التجار من غرب أوروبا كانوا حتّى النصف الأول من القرن الثامن ميلادي/القرن الثاني هجري يقصدون فلسطين عبر الإمبراطورية البيزنطية، لكنّهم بعدها أصبحوا يأخذون طريق شمال إفريقيا ومصر<sup>2</sup>. ومهما يكن الأمر حتّى وإن ظلّت الطرق التجارية البرية عبر آسيا الصغرى عملية ووظيفية - وهذا مستبعد جداً - فإنّها بكلّ تأكيد لم تكن بنفس حيوية الفترة السابقة، كما لا يمكن إنكار إمكانية تأثير استمرار العمليّات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في منطقة الثغور ومختلف أقاليم آسيا الصغرى على اتّصال التجارة البرية في هذه المنطقة وإحاق الضرر بها، لكنّ هذا الشلل مع ذلك لا يمكن تفسيره فقط بهذا المعطى، فكما سبق وذكرنا أنّ الطرق التجارية على الأرجح كانت قد توقفت منذ وقت الاجتياح الفارسي، وتجب الإشارة أيضاً إلى أنّ آسيا الصغرى كانت منذ القرن السابع ميلادي على الأقل تعاني اضمحلالاً في المدن وتراجعا في عدد السكان وانكماشاً في أسواقها الداخلية كما مرّ علينا ما يمثّل عوامل غير مشجّعة لاستمرار تجارة القوافل مع الشام والجزيرة التي كانت تأتي خاصة بالحرير والتوابل وغيرها من منتجات الشرق المتزفة التي تعتبر سلعا ذات قيمة معتبرة وليست في متناول إلاّ الأثرياء والنبلاء، كما يمكن أن نضيف في النهاية عاملاً اقتصادياً يمثّل في تكلفة النقل حيث كان النقل البري دائماً أكثر كلفة من النقل البحري<sup>3</sup> الذي كان يقدّم بديلاً أقلّ خطورة وأدنى كلفة.

وفي ظل انقطاع - أو انحسار - حركة المبادلات البرية بين الدولة الإسلامية وبيزنطة نصل هنا إلى تساؤل مهم وأكثر شمولية حول مصير التجارة بشكل عام بين الطرفين؟ ومدى تأثير الصراع بينهما على العلاقات التجارية البينية؟

يشكّك بعض المؤرخين مثل هنري بيرين Henri Pirenne في إمكانية استمرار التجارة خلال القرن السابع ميلادي مع ظهور المسلمين على الساحة وسيطرتهم على قسم كبير من حوض البحر الأبيض

<sup>1</sup> - ستيفن رنسيومان: المرجع السابق، ص 198.

Bury: Op cit, Volume 2, p 453.

<sup>2</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 703.

<sup>3</sup> - Warren Treadgold: Op cit, pp 409-409 / Angeliki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p 36.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

المتوسط حيث يعتقد أنّ هذا الأمر قد قضى على وحدة هذا الفضاء الجغرافي وتسبّب في قطع ما كان متّصلا بين الشعوب المطلّة عليه<sup>1</sup>، لكن هذا التوجّه لم يلق قبولا كبيرا وسرعان ما تمّ نفيه بالدراسات التاريخية ذات الحجج القوية، ويقول هاملتون جب Hamilton Gibb في الردّ على بعض الآراء التي تفترض تأثير الأوضاع السياسية على العلاقات بين بلاطي بيزنطة ودمشق - بما في ذلك العلاقات التجارية- بأنّ هذا الموقف الذهني المفترض «عصري محدث لا يمكن تطبيقه على أي فترة من فترات تاريخ العصور الوسطى دون أن يتغيّر جانب كبير منه»<sup>2</sup>، ثمّ يضيف: «من نسبة الشيء إلى غير زمنه أن نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة. ذلك أنّ حالة الحرب الرسمية لم تكن تستدعي بالضرورة توقّف جميع العلاقات التجارية أو المحاملات»، ويؤكد أنّ هذه العلاقات استمرّت قائمة ولو أنّها قد شهدت من دون شك انكماشاً شديداً<sup>3</sup>، وهذا الموقف كان تبناه بيوري أيضا حيث يعتقد أنّ المبادلات قد انحسرت كثيرا لكنّها لم تتوقّف تماما واتجهت الحركية التجارية بين الخلافة والإمبراطورية إلى التركيز على الطرق البحرية<sup>4</sup>. وهذا ما سنعمل على توضيحه بالتفصيل فيما يلي من أسطر، ومن الضروري هنا الإشارة إلى أنّ سورية ومصر حتّى قبل خضوعهما للسيادة الإسلامية كانتا محطّتين أساسيتين في طريق التجارة مع الشرق كما ذكرنا سابقا، ومنهما كان يتمّ تنقل البضائع بحرا إلى مختلف أقاليم الإمبراطورية البيزنطية وموانئ البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

هنا يعترف أرشيبالد لويس أنّ الفتوح العربية لم تحدث في البداية إلّا تغييرات طفيفة في تجارة البحر المتوسط فالعرب لم يعمدوا إلى قطع علاقات سورية ومصر الاقتصادية التقليدية بل لقد تركوا حتّى ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الاشراف عليها من قبل<sup>5</sup>، والتغييرات التي حدثت بعد سيطرتهم على الضفاف الشرقية والجنوبية للمتوسط على التجارة كانت على الأرجح ظرفية وقصيرة الأمد، حيث يذكر هايد أنّ انقطاع توافد السفن البيزنطية على مصر والشام في بداية الفتوحات كان مؤقتا ولم يدم طويلا، لكنّه مع ذلك لم يوفّق في تحديد فترة إعادة اطلاق النشاط التجاري واستعادة المبادلات بين البيزنطيين والمسلمين حيويّتها عندما يؤكّد أنّ أول أثر يسجّل في هذا الشأن يرجع إلى مطلع القرن التاسع ميلادي<sup>6</sup>، فهناك ما يكفي من الأدلّة لدحض هذه المزاعم من خلال بعض الإشارات المقتضبة، ولو أنّها ذات أهمية بالغة أيضا، التي تضمّنتها المصادر العربية مثل الروايات التي يوردها ابن سلام فيما يتعلّق بضريبة العُشر المفروضة على

1 - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 357-358.

2 - هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص 70.

3 - هاملتون جب: المرجع نفسه، ص 74.

4 - Bury: Op cit, Volume 2, p 453.

5 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 120.

6 - هايد: المرجع السابق، ج 1، ص 69.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

تجار أهل الحرب ومن لا ذمة لهم التي قام عمر بن الخطاب بسنّها عملا بالمثل ردا على إجراءات فرض الضرائب على التجار المسلمين حيث أنهم ((كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله إذا قدموا بلادهم))<sup>1</sup>، ثمّ يعطينا ابن سلام نقلا عن ابن سيرين صورة واضحة عن هويّة هؤلاء التجار ممّن لا ذمة لهم الذين فرض عليهم عمر بن الخطاب ضريبة العُشر حين يقول: ((الروم، كانوا يقدمون إلى الشام))<sup>2</sup>، وهذا دليل على استمرار توافد التجار البيزنطيين على المدن الشامية للتجارة حتّى بعد الفتوحات بوقت قصير، ونجد أيضا بالمقابل أخبارا في المصادر عن تواجد تجار مسلمين أو مسيحيين من الشام في مدن ساحل آسيا الصغرى<sup>3</sup>، ونملك أيضا معلومات بصورة مؤكّدة على استمرار تدفق التجار من أرض الخلافة إلى بلاد الروم في بداية العهد الأموي وبالضبط خلال حكم معاوية بن أبي سفيان عبر البحر انطلاقا من السواحل الشامية (مدينة صور) إلى القسطنطينية مرورا بقبرص التي تعتبر محطة عبور رئيسية بينهما، وكان يتواجد بها وسيط لديه اتصال مباشر مع ملك الروم يتحصّل منه على تصريح لدخول العاصمة البيزنطية<sup>4</sup>، التي كانت تضمّ مواطنين أغنياء بالقدر الكافي لشراء بعض السلع الفاخرة المستوردة<sup>5</sup>، كما لدينا رواية أخرى أيضا عند الطبري ترجع لنفس الفترة حول استشهاد عبد الله بن قيس، أحد أمراء البحر في عهد معاوية، في بلاد الروم بعدما دخلها متنكرا في هيئة تاجر ليستطلع أخبار البيزنطيين<sup>6</sup>، وهذه الرواية بغض النظر عن صحتها أو موضوعيتها إلّا أنّها مع ذلك تثبت أنّ توافد التجار المسلمين على بلاد الروم مجرا كان أمرا مألّوفا. ونملك شواهد أخرى على استمرار مدن الشام الساحلية في تأدية دورها التجاري بصورة طبيعية حتّى في مطلع القرن الثاني هجري/القرن الثامن ميلادي مثل مدينة بيروت التي تعرّضت لهجوم بيزنطي سنة 120هـ/733م أسفر عن الاستيلاء على سفن للتجارة كانت راسية هناك<sup>7</sup>.

وهذه الحالة من استمرار النشاط التجاري البحري بين الأقاليم البيزنطية ومدن الدولة الإسلامية لا تقتصر فقط على الشام بل تشمل حتّى مصر، فتمّة رحالة يدعى أركولف Arculf وهو أسقف من بلاد الغال قام برحلة حج إلى الأراضي المقدسة (فلسطين)، ثمّ انتقل منها إلى الاسكندرية قبل أن يلتحق بالقسطنطينية وكان ذلك حوالي سنة 700م (81هـ)، وهذا في حدّ ذاته يؤكّد استمرار عمل خطوط النقل البحري بين مصر والعاصمة البيزنطية، وخلال اقامته بالإسكندرية قدّم وصفا للمدينة ومينائها وما يميّز به

<sup>1</sup> - ابن سلام، أبي عبيد القاسم (ت 224هـ): كتاب الأموال، نقله ودراسة وتحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط 1، 1989، ص 636.

<sup>2</sup> - كتاب الأموال، ص 638 / هاملتون جب: المرجع السابق، ص 75.

<sup>3</sup> - Hélène Ahrweiler: Op cit, p 16.

<sup>4</sup> - المسعودي: المصدر السابق، ج 4، ص 172.

<sup>5</sup> - Warren Treadgold: Op cit, p 409.

<sup>6</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 261.

<sup>7</sup> - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 9، ص 67.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

من حيوية حتى عدّها ملتقى التجارة العالمية «ميناء كل العالم» نظرا لاستقطابها عددا لا حصر لهم من الناس من مختلف المناطق، الذين يأتونها للتجارة<sup>1</sup>، ومن المؤكّد أنّها كانت تستقطب جزء من تجارة الشرق، وللتأكيد على ذلك يمكن ربط هذه الرواية بأخرى معاصرة لها حدثت في عهد الوليد بن عبد الملك أواخر القرن الأول هجري/القرن الثامن ميلادي حيث يورد المؤرخ المصري ابن عبد الحكم خبرا عن مكان في مصر في سياق حديثه عن خطط هذا البلد يُعرف بدار الفلفل ويفسّر هذه التسمية بالدور الذي كان يؤدّيه هذا الموضوع، ويتمثل في اتخاذه كمخزن من طرف صاحب الخراج أسامة بن زيد التنوخي ليحفظ فيه فلفلا كان ابتعاه من موسى بن وردان بعشرين ألف دينار بأمر من الخليفة الوليد الذي كان يعتمز اهداءه لإمبراطور الروم<sup>2</sup>، وهذه السلعة كما هو معروف من أهم منتجات الهند، وهذا الخبر يؤكّد استمرار تدفق منتجات الشرق بصفة عامة على مصر وبكميات معتبرة إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبار هذه الكميّة من الفلفل التي دخلت إلى مصر استثناء نتيجة طلب خاص من الخليفة بل بالعكس يمكن الاستدلال بما بكلّ تأكيد على أنّها تمثّل حالة طبيعية لتجارة قائمة ومزدهرة تعتبر فيها مصر محطة هامة لإعادة تسويق السلع الواردة إليها لمختلف أقاليم البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) وبشكل خاص نحو الإمبراطورية البيزنطية. ويقدم لنا هايد بالتفصيل سير هذا الخط التجاري أين كانت السفن من الهند تصل إلى القلزم (أو كليسا Clisma) ومنه تنقل البضائع إلى البحر المتوسط إمّا براً على ظهور الجمال أو عن طريق الماء عبر نهر النيل الذي يتّصل مع البحر الأحمر بهذه القناة المائية التي ظلّت عمليّة حتى مطلع القرن السادس ميلادي<sup>3</sup>، وأعيد تأهيلها واستخدامها من جديد بعد فتح مصر مباشرة وطالما كانت القناة صالحة للملاحة كان التجار يستخدمونها لنقل بضائعهم وتصديرها إلى البحر المتوسط عن طريق النيل<sup>4</sup>. ولا بدّ أنّ بيزنطة ظلّت دائما جزء مهما في تجارة البحر المتوسط هذه ويتبيّن ذلك من خلال الأبحاث الخاصة بالموظفين المركزيين المكلفين بمراقبة التجارة الخارجية وترجع لسنوات 654-720 م<sup>5</sup> (34-102هـ)، وهي في الحقيقة إجراءات تنظيمية هدفت الدولة من ورائها فرض رقابتها على التبادل التجاري وهذا في حدّ ذاته دليل آخر على استمرار العلاقات التجارية مع المسلمين وغيرهم في القرنين السابع والثامن ميلاديين/القرنين الأول والثاني هجريين.

وحتى الحالة البارزة الوحيدة التي حفظتها المصادر عن حرب تجارية بين الطرفين، والمعروفة بحرب الدنانير والقراطيس، فلم تكن نتيجة رد فعل على التحرش الإسلامي بالأراضي البيزنطية وإنما كانت على

<sup>1</sup> - Thomas Wright: Early Travels in Palestine, London 1848, p 10.

<sup>2</sup> - ابن عبد الحكم: فتح مصر، ص 191.

<sup>3</sup> - هايد: المرجع السابق، ج 1، ص 23.

<sup>4</sup> - هايد: المرجع نفسه، ص 57-58.

<sup>5</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 360.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

خلفية قرار عبد الملك تغيير شعارات ورق البردي الذي كان يصنع في مصر ويصدّر إلى بيزنطة حيث أمر بإزالة المؤنّرات المسيحية منها مثل علامة الصليب وعبارات التثليث، وتغييرها بنص عربي يحمل عبارة التوحيد ﴿ قل هو الله أحد ﴾، وقد استفّر هذا الإجراء إمبراطور الروم الذي أرسل إلى عبد الملك يهدّده بنقش عبارات مسيئة للنبي صلّى الله عليه وسلّم في النقود البيزنطية التي تردّ إلى بلاد الإسلام ردّا على إزالة الشعارات المسيحية من ورق البردي، وقد دفع هذا الأمر بعبد الملك إلى اتّخاذ قرار فك الارتباط بالنقد البيزنطي واصدار عملة عربية خاصة بدولته، كما أوقف تصدير أوراق البردي إلى بيزنطة<sup>1</sup>، وأدّى هذا الخلاف بين الطرفين إلى نقض معاهدة السلام التي عقدها سنة 690هـ/690م وعودة المواجهات العسكرية بينهما ابتداء من سنة 693هـ/693م بعدما رفض جستنيان الثاني تسلّم الاتاوة، التي كان يدفعها المسلمون سنويا بموجب الاتفاق، بالعملة العربية الجديدة بدل العملة البيزنطية كما في السابق، ويحتمل أنّه بجانب ذلك قرّر أيضا قطع التجارة مع أعدائه<sup>2</sup>، لكن يبدو أنّ هذه المقاطعة التجارية بين الطرفين لم تستمر طويلا إذ اتّجهت إرادة الدولتين لاحقا إلى التهدئة خاصة بعد الثورة التي أطاحت بجستنيان في الجانب البيزنطي، كما تمّ السماح باستئناف تصدير البردي إلى بلاد الروم من جديد من طرف المسلمين حسب ما يُستنتج من قول البلاذري: « فمكثّ حيناً لا يحمل إليهم »<sup>3</sup>، وإجراءات التهدئة المتبادلة هذه جاءت تحت ضغط الخسائر الاقتصادية التي تكبّدها الطرفان (خاصة البيزنطيين) الذين أدركا أنّهما لا يمكنهما الاستغناء عن بعضهما البعض في ميدان التجارة، وهكذا تمّ تغليب المصالح التجارية على الخلافات السياسية في نهاية المطاف والعودة إلى الوضع الطبيعي السابق بعد تقديم تنازلات متبادلة لإنهاء الخلاف.

وفي النهاية تُقيم كلّ هذه الدلائل والروايات التاريخية الحجّة على استمرار العلاقات الاقتصادية التجارية بين دولة الخلافة والأقاليم البيزنطية بصورة طبيعية حتّى وإن افترضنا تراجع حجم التبادل بينهما، ففي حين لم يقيم المسلمون بأيّ إجراء يعرقل حركة التجارة لم تكن بيزنطة بالمقابل تستطيع الاستغناء عن منتجات الشرق من توابل و سلع، وهي مواد ضرورية لسلامة الاقتصاد البيزنطي، والتي يقوم العرب في تجارتها بدور الوسيط<sup>4</sup>، كما لم يكن من مصلحتها شل الحركة التجارية مع جيرانها إذا أخذنا في الاعتبار الفوائد التي كانت تحصلها من وراء هذا النشاط حيث كانت تفرض ضريبة 10% تعرف بـ *Kommerkion*

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 280 / البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت حوالي 320هـ): المحاسن والمساوي، تحقيق الشيخ محمد سويد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1، 1988، ص 524.

2 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 135.

3 - البلاذري: المصدر السابق، ص 280.

4 - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 140.



انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

كحقوق جمركية مقابل ولوج التجار لأسواقها ورغم صعوبة تقدير حجم عوائدها<sup>1</sup> إلا أنّ النسبة المطبقة في حدّ ذاتها يمكن أن تحقّق لها دخلا محترما ليس من مصلحتها الاستغناء عنه خاصة إذا أخذنا في الاعتبار تراجع موارد الدولة المالية بعد فقدانها أهم وأغنى مقاطعاتها لصالح المسلمين.

وهكذا يتبيّن أنّ تأثير حملات الصوائف والشواتي على العلاقات التجارية بين الطرفين كان طفيفا ومحدودا ولم يكن أبدا حاسما أو جذريا، ورغم أنّ طرق المواصلات البرية مع آسيا الصغرى على الأغلب قد تضرّرت وفقدت دورها، لكن هذا الأمر في الحقيقة لم يؤدّي إلى شلل التبادل التجاري وإلّا ساهم في تعزيز وانتقال طرق المبادلات إلى البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

وكما استطاعت الحملات السنوية الإضرار بالزراعة والقوى الحيوية المنتجة في آسيا الصغرى، وبشكل جزئي التأثير في التجارة البرية، فهل كان لها دور كذلك في التأثير على الحالة المالية للدولة البيزنطية خلال تلك الفترة؟

يبدو من الصعب الفصل قطعا في هذا الأمر من خلال تبين تأثير الحملات الإسلامية السنوية على بلاد الروم في الوضعية المالية للبلاد خاصة في ظلّ غياب معطيات كافية ودقيقة عن مقادير الجباية والنفقات خلال فترة الدراسة، كما أنّ هذه المسألة أيضا تعتبر خلافية بين المؤرخين، فرغم أنّ الكثير من الدارسين يؤكّدون على أنّ بيزنطة نتيجة عوامل عديدة عانت انخفاضاً رهيباً في مواردها الجبائية خلال هذه الفترة<sup>2</sup>، وأنّها من دون شك كانت دولة فقيرة<sup>3</sup>، إلا أنّ هناك من يرى خلاف ذلك مثل تريديغولد Treadgold الذي يؤكّد أنّه لا توجد أي إشارة إلى أنّ الدولة عانت من مشاكل مالية في أيّ وقت بين فترة حكم قنسطانز الثاني وليو الرابع، بل ويعتبر أنّ الخزينة كانت ممتلئة سنة 711م (93هـ)، ويورد من أجل التأكيد على كلامه جدولاً لميزانية الدولة في القرنين السابع والثامن ميلاديين/القرنين الأول والثاني هجريين للدلالة على استقرار الوضعية المالية لبيزنطة، حيث يقدرها مع نهاية عهد قنسطانز الثاني سنة 668م (48هـ) بأكثر من مليوني قطعة ذهبية (نوميسما Nomismata)، وفي عهد قسطنطين الخامس سنة 775م (158هـ) بموالي 1.94 مليون قطعة ذهبية، مع تسجيل فائض في الميزانية (الفرق بين المداحيل والنفقات) في كلا الحالتين يقدر بمائتي ألف نوميسما في الحالة الأولى وثلاثمائة ألف نوميسما في الحالة الثانية، وهذه الموارد في ظلّ الظروف التي كانت تعيشها بيزنطة في تلك المرحلة تعتبر من دون شك محترمة جدّاً<sup>4</sup>، لكننا بالمقابل نجد بعض المعلومات في المصادر ربّما تشير إلى عكس ما ذهب إليه تريديغولد حيث يمكن تفسير لجوء الإمبراطور ليو الثالث مثلاً إلى فرض ضريبة رأس على سكان جنوب إيطاليا (صقلية وكالابريا) سنة

<sup>1</sup> - Angelki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p 52.

<sup>2</sup> - Angelki E. Laiou and Cécile Morrisson: Ibid, pp 42-54.

<sup>3</sup> - Jonathan Shepard: Op cit, p 486.

<sup>4</sup> - Warren Treadgold: Op cit, pp 411-412-413.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

732م (114هـ)<sup>1</sup>، وقيامه لاحقا بإقرار التزام مالي إضافي بجانب الضرائب العادية المقررة على السكان أين أوعز للحكومة بجمعها من أجل صيانة أسوار مدينة القسطنطينية التي تعرّضت لأضرار جراء زلزال سنة 740م (122هـ)<sup>2</sup> بأثما إجراءات تعكس ضعف الحالة المالية للدولة ومحاوله من الإمبراطور لزيادة موارد الجباية تلافيا للعجز، وفيما يخصّ السؤال الذي طرحناه في بداية هذه الفقرة حول العلاقة بين حملات الصوائف والشواقي والوضعية المالية للإمبراطورية، يقطع تريبدغولد بأنّ العمليات العسكرية للمسلمين ضدّ الدولة البيزنطية لم تساهم في حدوث أزمات مالية حادة ناهيك عن انهيار مالي<sup>3</sup>، إنّ هذا الاستنتاج في الحقيقة يتماشى مع فرضية الوضعية المالية الصحيّة للدولة الذي يعتمده هذا المؤرّخ، لكننا في المقابل نعلم أنّ الحملات السنوية للمسلمين قد ألحقت أضرارا بالزراعة وأفقرت قسما واسعا من الأناضول ووجهت ضربة شديدة أيضا للقوى النشيطة المنتجة في آسيا الصغرى، وبشكل جزئي أثرت كذلك في التجارة البرية، وبما أنّ الزراعة كانت تمثل النشاط الاقتصادي الأساسي في البلاد والضرائب المحصّلة منها تمثل قاعدة الدولة المالية والمصدر الرئيسي للدخل فيها<sup>4</sup>، فإنّ أيّ ضربة سيتعرض لها هذا النشاط ستكون لها ارتدادات سلبية على مداخيل الدولة من الضرائب المحصّلة من هذا القطاع، حيث كان الفلاح في المتوسط يقدم ما بين رُبع وثلث محصوله للضرائب<sup>5</sup> ويمكن أن نتصوّر حجم الخسائر المالية التي تعرّضت لها بيزنطية في ظل معاناة أقاليمها المتبقية في آسيا الصغرى من هجمات سنوية بإصرار كبير من طرف المسلمين ما تسبّب في اقفار قسم واسع منها وحرمانها من جزء معتبر من مواردها المحدودة أصلا، بعد فقدانها أغنى مقاطعاتها، الشام ومصر وأفريقية لصالح المسلمين أيضا، بالإضافة إلى تدمير جانب كبير من بنيتها التحتية مع ما يترتب عنه من نفقات إضافية حتمية للترميم وإعادة البناء والتحصين، وفيما يخصّ عمليات البناء والتشييد بالذات والتي تحتاج إلى مبالغ معتبرة لا نجد أيّ من أباطرة الأسرة الهرقلية مثلا انصرف إلى تشييد البناءات العامة إلّا جستينيان الثاني الذي قام بإضافات هامة على القصر الإمبراطوري في القسطنطينية أواخر سنوات ولايته الأولى<sup>6</sup>، وهذه المنجزات كانت حتما مكلفة حيث تمّ مثلا تزيين البهو المستحدث الذي يصل القصر بميدان Hippodrome بالذهب والفسيفساء<sup>7</sup>، وإننا لتساءل عن تزامن اطلاق هذه المشاريع من

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 568.

<sup>2</sup> - Theophanes: Ibid, p 572.

<sup>3</sup> - Warren Treadgold: Op cit, p 410.

<sup>4</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 383.

Angelki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p 50.

<sup>5</sup> - جون كلود شينيه: المرجع السابق، ص 38.

<sup>6</sup> - Theophanes: Op cit, p 513.

<sup>7</sup> - A. N. Stratos: Op cit, Volume 5, pp 57-58.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

طرف الإمبراطور مع توقّف عمليّات الصوائف والشواتي ضدّ بلاده قبل ذلك بسنوات نتيجة الاضطرابات الداخلية التي كانت تعيشها الدولة الأموية وعلاقة ذلك بالوضع المالي للدولة؟

رغم أنّ المصادر تحاول أن تربط الأمر بتشدّد موظفي الإمبراطور في تحصيل الأموال اللازمة من المكلفين بجمع الضرائب وحتىّ من النبلاء عن طريق استعمال أساليب قاسية مثل التعذيب والسجن والمصادرة<sup>1</sup>، إلّا أنّه يجب الإشارة إلى أنّ تحسّن الوضع المالي للإمبراطورية تحت حكم جستنيان، خاصة قبيل مباشرته أشغال البناء في القصر الملكي بسنوات قليلة، ربّما يرجع إلى السلام الذي كانت تنعم به مع توقّف ضغط المسلمين عليها، والأكثر من هذا استفادة الإمبراطور من مداخيل معتبرة بعد توقيع معاهدة السلام مع عبد الملك بن مروان سنة 689م (70هـ) التي نصّت على دفع الدولة الأموية ما مقداره 365 ألف قطعة ذهبية سنويا لصالح بيزنطة<sup>2</sup>.

وحتىّ لا نذهب بعيدا في تحليلنا وتحميل وجهة النظر هذه ما يمكن أن يتجاوز الواقع الحقيقي ربّما، يجب أن نؤكّد بكل ثقة مع ذلك أنّ حملات الصوائف والشواتي، حتىّ وإن لم تكن سببا رئيسيا في تراجع الوضع المالي للإمبراطورية الروم إلّا أنّها على الأقل كانت عاملا إضافيا ساهم في استنزاف ثروة بيزنطة ومواردها والضغط على الوضع المالي فيها.

#### ثانيا- التدايعات الاجتماعية:

ما يمكن التأكيد عليه في بداية هذه العنصر أنّ حملات الصوائف والشواتي التي كانت تنفّذها القوات الإسلامية سنويا استهدفت بشكل متكرّر الكتلة السكّانية في آسيا الصغرى، حيث ساهمت هذه الحملات في أسر وقتل عشرات الآلاف من البيزنطيين على مدار عقود من الهجمات المتكرّرة، فهل كان لهذه الممارسات انعكاسات على البنية الاجتماعية في بلاد الروم والتركيب السكانية فيها؟ وهل أثّرت أيضا على نمط الحياة المدنية بها؟ إنّ معالجة هذه التساؤلات هي ما يتمحور حوله هذا العنصر، حيث سنعمل على توضيح طبيعة التغييرات التي تسبّبت فيها حملات الصوائف والشواتي على السكان والحياة الاجتماعية في الإمبراطورية البيزنطية.

لقد كانت هجمات المسلمين على بلاد الروم كثيرا ما تحلّف دمارا كبيرا في المناطق المستهدفة مع عمليّات قتل وأسر واسعة للسكان المحليين، ومع استمرار النشاط العسكري للمسلمين بشكل سنوي تقريبا ترسّخ شعور عام بالأمن خاصة في المناطق غير المحصّنة للتجمّعات السكّانية في السهول والتي تمّ اهمالها تدريجيا<sup>3</sup> بعد هجرة سكانها إلى مناطق أكثر أمنا سواء نحو المدن المحصّنة والقلاع أو نحو مناطق يصعب

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 513 / Nikephoros: Op cit, p 95.

<sup>2</sup> - Theophanes: Ibid, p 503 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 237 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 469.

<sup>3</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 624.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

الوصول إليها، لكنّ هذا الأمر لم يكن مقتصرًا فقط على المواقع ضعيفة التحصين بل تعرّضت له حتّى المدن التي تحتوي على أسوار منيعة وإمكانات دفاعية أفضل وأقوى، فعندما كانت الحملات العسكرية الإسلامية تنتهي في بعض الأحيان بالسيطرة على المدن كان يتمّ تخريبها وتدمير سكانها كما حدث لمدينة طُوانة مثلاً التي تمّ فتحها وتدميرها سنة 88هـ/707م<sup>1</sup>، حتّى أن المؤرخ البيزنطي ثيوفانس الذي عاش إلى غاية مطلع القرن التاسع ميلادي/أواخر القرن الثاني هجري يذكر في حويلته أنّ هذه المدينة بقيت مهجورة حتّى أيّامه رغم مرور أكثر من قرن على الحادثة، وقام بعدها المسلمون بأسر عدد معتبر من سكانها<sup>2</sup>، أمّا بقيّة السكّان فقد تمّ نقلهم على الأرجح بشكل دائم إلى ماجدة المجاورة الأكثر تحصيناً<sup>3</sup>. وقد نتج عن استهداف المسلمين للقوّة البشرية والبنية الاقتصادية للبيزنطيين بشكل متكرّر، تراجع عدد السكان في آسيا الصغرى، إلى حدّ أنّ مناطق عديدة قد أقفرت وأصبحت خالية من السكّان، ما زاد من مصاعب الإمبراطورية البيزنطية<sup>4</sup>.

ولمواجهة هذا الوضع اعتمدت الإمبراطورية سياسة نقل وتوطين عناصر سكّانية متنوّعة في مناطق متفرّقة من آسيا الصغرى خاصة تلك الأكثر عرضة وتضرراً من الهجمات العربية، وأوّل عملية تسجّلها المصادر في هذا الشأن ترجع لفترة حكم الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي قام بأسر آلاف السلاف في حملته الموفقة في البلقان سنة 658م (37-38هـ) ليقوم بإرسالهم بعدها إلى آسيا الصغرى لتوطينهم هناك حتّى يمكن الاستفادة منهم في التعمير والنشاط الاقتصادي، وأيضاً تجنيدهم في الجيش البيزنطي لاحقاً<sup>5</sup>، ولو أنّ هذه المبادرة ربّما يمكن ربطها أيضاً بعملية التغطية على سحب حوالي عشرين ألفاً من قوّاته في آسيا الصغرى للقتال معه في إيطاليا<sup>6</sup>، لكنّ الأمثلة اللاحقة ستكون أكثر ارتباطاً بالنتائج التي خلّفتها حملات المسلمين، وقد شهدت عمليّات تعزيز الوضع الديمغرافي في آسيا الصغرى نشاطاً كبيراً في عهد الإمبراطور جستنيان الثاني الذي قاد حملة ضدّ البلغار سنة 688م (68-69هـ) كلّلت بجلب عدد معتبر من السلاف (في حدود مائة ألف حسب بعض المراجع) قام بتوطينهم في بند الأوبسيكيون في نواحي بيثينيا وألحق حوالي ثلاثين ألف منهم بالجيش ومنحهم أراضي في منطقة كيزيكوس على الأرجح، والتي كانت قد

<sup>1</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 478.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 526 / Agapius: Op cit, Partie 2, p 239 / Michel le Syrien: Ibid, p 478.

<sup>3</sup> - J. F. Haldon, H. Kennedy: Op cit, p 96.

<sup>4</sup> - وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص 166.

<sup>5</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 180 / عمر يحي محمد: المرجع السابق، ص 155.

George Ostrogorsky: Op cit, p 117.

<sup>6</sup> - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 94.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

تعرّضت للتخريب من طرف العرب خلال حكم قسطنطين الرابع<sup>1</sup> بالتزامن مع حصار السبع سنوات الذي تعرّضت له القسطنطينية، ولاحقا قام جستنيان أيضا بسحب اثنا عشر ألف عنصر من المردة من جبال لبنان بعد اتّفاق بينه وبين الخليفة عبد الملك بن مروان حوالي سنة 70هـ/689م وتوزيعهم على مختلف مناطق آسيا الصغرى خاصة في بامفيليا Pamphylia على السواحل الجنوبية، وفي جزر بحر أيجه<sup>2</sup>، ويبدو أنّ جستنيان لم يكتفِ بكلّ ما قام به فلجأ هذه المرّة إلى نقل قسم كبير من سكان قبرص سنة 691م (72هـ) إلى داخل آسيا الصغرى أين قام بتوطينهم في المناطق المهجورة قرب كيزيكوس، وأسّس هناك مدينة لهم تحمل اسم جستنيانوبوليس Justinianopolis وكان هذا العمل يهدف من دون شكّ إلى دعم جهود إعادة تعمير المنطقة التي تعرّضت لتخريب كبير من طرف المسلمين كما سبق وذكرنا، وجاء لتعزيز خطواته السابقة في نفس المنطقة عندما وطنها بالسلاف، لكن القبارصة ما لبثوا أن عادوا إلى جزيرتهم بعد ذلك بفترة قصيرة، وهجروا تجمعاتهم في آسيا الصغرى، وليس هناك من شكّ أن عمليّات توطين السكان هذه كانت من العوامل الرئيسية في إنعاش الجوانب العسكرية والديمغرافية والاقتصادية في الإمبراطورية<sup>3</sup>، والأكثر من ذلك أنّها كانت أحد أهم عوامل التغيير الديمغرافي في تلك الفترة<sup>4</sup>.

وبجانب هذا التأثير الديمغرافي الذي خلفته الحملات الإسلامية على آسيا الصغرى، بشكل مباشر أو غير مباشر، فإنّها تركت أثرا مدمّرا كذلك على الحياة المدنية فيها، فقد أدّت الحملات المنتظمة التي كان يقوم بها المسلمون في عمق آسيا الصغرى ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع ميلادي إلى اضمحلال المدن البيزنطية<sup>5</sup>، فبفعل التخريب الذي تعرّضت له العديد من المدن التي كان بعضها مزدهرا في الفترة السابقة عرفت تفهقرا بعد الحملات العربية، ونظرا لافتقارها للإمكانيات الدفاعية تمّ اختلاؤها من سكانها لأماكن أكثر تحصينا، وهكذا فقدت هذه المدن شيئا فشيئا طابعها المدني<sup>6</sup>.

حتّى وإن كان بعض المؤرّخين مثل كلايف فوس Cliv Foss، وأنجليكي لايو Angeliki Laiou يُرجعون هذا التدهور الذي عرفته المدن إلى الاحتلال الفارسي للأناضول منذ 615م الذي أنهى تماما نشاط مدن آسيا الصغرى، ولو أنّ أنجليكي لايو ترى أنّ مؤشرات هذا التحوّل بدأت في الظهور حتّى

<sup>1</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 187.

Warren Tradgold: Op cit, p 333 / Peter Charanis: Op cit, p 143.

<sup>2</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 185-186.

Warren Treadgold: Ibid, p 26 / Peter Charanis: Ibid, p 143.

<sup>3</sup> - Warren Treadgold: Ibid, p 334 / Peter Charanis: Ibid, pp 143-151 / A. N. Stratos: Op cit, Volume 5, p 61.

<sup>4</sup> - Hèlène Ahrweiler: Op cit, p 16.

<sup>5</sup> - وسام عبد العزيز فرج: بيزنطة، قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 93.

<sup>6</sup> - Hèlène Ahrweiler: Op cit, p 30.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

في الفترة قبيل الاجتياح الفارسي للأناضول<sup>1</sup>، إلا أن تأثير حملات المسلمين يبدو واضحا كذلك فالمصادر تعطي معلومات كثيرة عن عمليات التخريب التي طالت المدن في آسيا الصغرى على يد المسلمين مثل طوانة 88هـ/707م، وطرزدة 92هـ/711م، وأنطاكية (في بيسيديا) 94هـ/713م، وهرقلة سنة 95هـ/714م، ودبسة 102هـ/720م، وقيصرية 107هـ/726م، وخنجرة 109هـ/727م، وربما أيضا نيقية في نفس السنة ... إلخ، فمدينة قيصرية قبادوقيا مثلا كانت في الفترة قبل وصول العرب وبداية نشاطهم في آسيا الصغرى مدينة مزدهرة وتحتوي على منشآت ومباني جميلة وتعيش رخاء كبيرا حسب المصادر السريانية<sup>2</sup>، لكنّها بعد ذلك عرفت تقهقرا كبيرا نتيجة استهدافها ومحيطها بالحملات العربية في مرّات عديدة حتى سقطت في يد المسلمين سنة 107هـ/726م وفقدت قسما كبيرا من سكانها بعد تعرض أهلها إلى السبي<sup>3</sup>، ولم تعد مركزا حضريا مهما كما في السابق، وهو نفس المصير الذي لاقته طوانة أيضا قبل ذلك سنة 88هـ/707م التي خربت وأُخليت من سكّانها من طرف المسلمين إلى درجة أنّها بقيت مهجورة على الأقل حتى مطلع القرن التاسع ميلادي/أواخر القرن الثاني هجري رغم مرور أكثر من قرن على تدميرها<sup>4</sup>، وإذا اتجهنا غربا سنلاحظ أنّ مدن هذه الجهة عاشت نفس الوضعية تقريبا فمدينة افسوس Ephesus التي كانت مزدهرة عمرانيا واقتصاديا في فترة سابقة اضمحلت بشكل كبير، وهجر المدينة من بقي من سكانها خلال القرنين السابع والثامن ميلاديين إلى التلة المجاورة الأكثر تحصينا<sup>5</sup>، وسارديس Sardis التي كانت مدينة مزدهرة أيضا في القرن السادس ميلادي وتضمّ عددا كبيرا من السكان وتعدّ مركزا لنشاطات اقتصادية متنوّعة انحدرت بعد الهجوم الفارسي على آسيا الصغرى إلى مجرّد تجمّع سكاني صغير محصّن بشكل جيّد، لكنّها تلقت ضربة جديدة على يد المسلمين هذه المرّة سنة 716م (97هـ) عندما أخضعها مسلمة بن عبد الملك في طريق حملته على القسطنطينية، حيث تشير الأطلال إلى عملية تخريب تعرضت لها ما تسبّب في اهمالها وهجرة سكانها لفترة<sup>6</sup>، وغير بعيد عنها لاقت برجمة Pergamum نفس المصير فالمدينة التي شهدت انخفاضا كبيرا في عدد سكانها منذ القرن السابع ميلادي أصبحت مع حلول القرن الثامن قليلة السكان جدّا على ما يبدو وأُهملت حتى أنّ أسوارها لم يكن

<sup>1</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 342.

Angeliki E. Laiou and Cécile Morrisson: Op cit, p 40.

<sup>2</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 441.

<sup>3</sup> - خليفة: المصدر السابق، ص 337.

Agapius: Op cit. Partie 2, p 246.

<sup>4</sup> - Theophanes: Op cit, p 526.

<sup>5</sup> - وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص 215.

Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 400.

<sup>6</sup> - Angeliki E. Laiou: Ibid, Vol 2, pp 615-618.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

في امكانها أن تدافع عنها بشكل مُرضٍ حين سقطت على يد مسلمة سنة 716م (97هـ)، وهكذا لم تعد المدينة التي كانت يوماً ما مهمّة حتى مركزاً حضرياً<sup>1</sup>، ولم يكن مصير مدينة سنادة Synada أحسن حالاً على كل حال، فقد اضمحلّت بدورها خلال نفس الفترة ولدينا إشارات ذات دلالة على وضعيتها العمرانية والديمغرافية الضعيفة حتى في المصادر العربية، حيث يبدو أنّها بقيت تعاني من الخراب على الأقل إلى غاية منتصف القرن الثامن ميلادي/القرن الثاني هجري<sup>2</sup>. وحتى إن كانت هذه المدن لم تندثر كلياً إلا أنّها تحوّلت إلى تجمّعات متواضعة، وهذه أمثلة يمكن ببساطة تعميمها على نطاق أوسع<sup>3</sup>، وفي الواقع يمكن تأكيد هذا الطرح بالرجوع إلى الوثائق الكنسية إذ أنّ مقارنة بسيطة بين قوائم عدد الأسقفيات، التي تعكس بشكل عام حالة الفترة السابقة للغزوات العربية، مع أخبار مصادر الفترة اللاحقة تؤكّد اختفاء أو اضمحلال عدد معتبر من المدن<sup>4</sup>.

وفي حين نجت مدن أخرى، لأنّه يسهل الدفاع عنها أو لأنّها لم تتعرّض لحملات المسلمين بشكل مستمر، فإنّ تجمّعات سكّانية أخرى تدين بنجاحها إلى موقعها خارج مجال طرق حملات المسلمين<sup>5</sup>، لكن حتى مع استمرار بعض المدن في الوجود إلا أنّها لم تحافظ على نفس الخصائص التي كانت تتميز بها في السابق، فمدن آسيا الصغرى عموماً أصبحت أصغر وانكمشت من حيث عدد السكان والحجم واختفت ضواحيها الواقعة خارج الأسوار، وتقلّص عدد سكانها بشكل كبير، وهكذا تحوّلت هذه المدن المضمحلّة إلى مراكز إدارية وأسقفية وأصبح دورها يقتصر على إيواء سكان المناطق الزراعية والرعية المحيطة بها، وأضحى شغلها الأوّل الاستجابة للحاجيات الدفاعية بحيث بدأت في تحصين نفسها<sup>6</sup> لدفع حملات المسلمين والحفاظ على وجودها واستمرارها، وقد دمّرت هذه التغيّرات كلّ التقاليد السابقة للمتدّن،

<sup>1</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 624.

<sup>2</sup> - ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 33، ص 405-406.

<sup>3</sup> - Hélène Ahrweiler: Op cit, p 31.

<sup>4</sup> - Hélène Ahrweiler: Ibid, p 32.

يستخدم مؤرخون آخرون مثل أوستروجورسكي Ostrogorsky هذه القوائم الأسقفية لنفي ظاهرة اضمحلال المدن في القرن السابع ميلادي وتقلّص عددها، بل ويذهبون إلى عكس ذلك من خلال التأكيد على ظهور مدن جديدة بالإضافة إلى استمرار وجود القديمة، ويعتمد أوستروجورسكي بشكل خاص على قوائم الأسقفيات للمجمّعين الكنسيين المنعقدين سنتي 680م (60-61هـ)، و692م (72-73هـ)، حيث وقّع قرارات الجمع الأول 174 أسقفاً بينما وقع على قرارات الجمع الثاني 211 أسقفاً، ما اعتبره دليلاً على ضعف وبطلان فرضية اختفاء المدن رغم أنّه يعترف بعد ذلك بأنّ القوائم قد لا تتّصف بالدقّة، لاحتوائها ربّما على أسماء أساقفة لم يشهدوا المجتمين، وأكثر من هذا فإنّ القائمة الثانية ضمت أسماء ممثلين عن أسقفيات من خارج أقاليم الإمبراطورية البيزنطية مثل أنطاكية والقدس مثلاً، بالإضافة إلى أنّ المراكز الأسقفية التي شاركت بممثليها لم تكن بالضرورة تقع في المدن فرّماً بعضها كان يقع في قرية بغضّ النظر عن مساحتها. أنظر عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 246-347-354.

<sup>5</sup> - J. F. Haldon, H. Kennedy: Op cit, p 96.

<sup>6</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, pp 397-700.

وسام عبد العزيز فوج: بيزنطة، قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 93.

انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

فخصوصيات حياة المدينة كما كانت معروفة خلال الحقتين الاغريقية والرومانية اختفت بالكامل تقريبا، وأصبح سكان آسيا الصغرى بدلا عن ذلك يعيشون في مدن صغيرة وحصون<sup>1</sup>، وهكذا يمكن القول أنّ المدن المتبقية لم يكن لها لتستمرّ لولا تكيّفها مع الظروف المستجدة بحيث أخذت طابع مدينة العصور الوسطى (قلعة، سوق جهوي) أمّا المدن الأخرى التي لم تستطع، لأسباب مختلفة، اكتساب الخصائص الجديدة فقد اضمحلت بكل بساطة<sup>2</sup>، وكنتيجة حتمية لهذه التغيّرات أصبحت الإمبراطورية تبدو أكثر ريفية من ذي قبل<sup>3</sup>، وتعزز الطابع الريفي حتّى في جهات كانت تعتبر حضرية بشكل كبير في وقت سابق مثل الساحل الغربي أين كانت تتواجد شبكة حضرية كثيفة منذ العصر الهلينيستي، إذ من بين جميع مدن هذه المنطقة التي ذكرها الجغرافي البيزنطي هيروكلس Hiéroclès في كتاباته (كتب في النصف الأول من القرن السادس ميلادي) لم يبق موجودا منها إلاّ الموانئ الكبرى والمراكز الاقتصادية والإدارية<sup>4</sup>.

إنّ تراجع الحياة المدنية في آسيا الصغرى بسبب الحملات العربية واكبه كذلك انخفاض في عمليات التعمير والتشييد، حيث ساهمت في كبح وتيرة إنجاز المنشآت العمرانية واقتصرت منذ القرن السابع ميلادي على التحصين وبناء الأسوار الدفاعية بدل بناء المسارح والحمامات والكنائس قبل ذلك في المرحلة المتأخرة لفترة العصور البيزنطية القديمة<sup>5</sup>، فالعديد من الآثار تؤرّخ لعمليات تحصين واسعة في الأناضول منذ منتصف القرن السابع ميلادي خلال فترة حكم قنسطانز الثاني مثلا، حيث تمّ إنجاز أسوار جديدة لأفسوس Ephesus، برقاموم (برجمة) Pergamum، سارديس (سارد) Sardis، وأنقرة Ancyra<sup>6</sup>، وقد ذكرنا سابقا عمليات التوطين الواسعة التي قام بها جستنيان في منطقة بيتينيا بالقرب من كيزيكوس التي كان المسلمون قد خرّبوها، ولا شك أنّ عملية إعادة تأهيل هذه المنطقة قد رافقها عمليات تحصين واسعة لتعزيز قدراتها الدفاعية، كما كان التركيز في هذه المرحلة أيضا على بناء الحصون في المناطق الاستراتيجية للتمكّن من التحكم في الطرق داخل آسيا الصغرى<sup>7</sup>، حتّى أنّ مصدرا جغرافيا عربيا دُوّن

---

<sup>1</sup> - Bryan Ward-Perkins: Urban Survival and Urban Transformation in the Eastern Mediterranean, p 143.

<sup>2</sup> - Héléne Ahrweiler: Op cit, p 32.

<sup>3</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, pp 699-700.

<sup>4</sup> - Héléne Ahrweiler: Op cit, p 31.

<sup>5</sup> - Jonathan Shepard: Op cit, p 470.

<sup>6</sup> - Warren Treadgold: A History of the Byzantine state, pp 316-317 / Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 2, p 618.

<sup>7</sup> - Angeliki E. Laiou: Op cit, Vol 1, p 74.



انعكاسات الحملات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة .....

لاحقا في القرن العاشر ميلادي/القرن الرابع هجري عندما وصف أقاليم بلاد الروم لم يكد يذكر فيها إلا الحصون<sup>1</sup>.

وعلى الرغم من التأثير الواضح الذي خلّفته حملات الصوائف والشواتي على بلاد الروم في المجال العمراني ودفعتها نحو التركيز على تشييد المنشآت الدفاعية بالدرجة الأولى، إلّا أنّها لا تفسّر لوحدها هذه الظاهرة، حيث يجب الإشارة مع ذلك إلى أنّ تراجع الاهتمام بالعمارة المدنية يمكن ايعازه أيضا إلى تراجع قدرة الإمبراطورية على الانفاق العام بسبب تدهور وضعيتها الاقتصادية والمالية وتغيّر الأولويات.

في نهاية هذا المبحث يمكن من خلال كلّ الحجج والقرائن التي تمّ استعراضها أن نستنتج بكلّ ثقة أنّ حملات الصوائف والشواتي كان لها انعكاسات سلبية ملموسة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أقاليم الإمبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى، حيث ساهم هذا النشاط العسكري الموسمي السنوي في اضعاف البنية الاقتصادية والمالية للإمبراطورية من خلال الاستهداف المتكرر للموارد والنشاط الزراعي بصفة خاصة، والقوى العاملة فيها، ما انعكس سلبا على قدرتها الإنتاجية وأيضا الجبائية وبالتالي على مواردها المالية، كما ساهم الأسلوب التخريبي الذي ميّز نشاط الحملات وأيضا عدم تحييد واعفاء المسلمين للسكان المحليين من خلال استهدافهم بعمليات قتل وأسر كبيرة في إلحاق أضرار بالغة بالبنية التحتية والديمغرافية والحياة المدنية في الأقاليم الآسيوية للإمبراطورية.

<sup>1</sup> - ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 106 وما بعدها.

### المبحث الثالث: انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم

إنّ اتصال المعارك بين المسلمين والروم قد يعطي انطباعاً أولياً وسطحياً أنّ التفاعل بين الطرفين لم يخرج عن هذا الإطار السلبي، لكن في الحقيقة لم يُعَدِّم هذا الصراع بين الطرفين كلّ الفرص الممكنة لإقامة علاقات طبيعية خارج الاحتكاك الحربي كما فصلنا في عنصر سابق من هذا الفصل، وقد نتج عن هذا الاحتكاك المستمرّ لعقود طويلة حدوث تفاعل وتأثير متبادل غير مقصود في بعض الأحيان بين شعبين كبيرين لا يخلو من التطور الداخلي لدى كلّ من الدولتين، وإذا كانت التجارة قد تأتّى في المقام الأوّل من حيث هي عامل في التطوّر والتواصل الثقافي بين الشعوب فإنّ الحوادث السياسية أيضاً قد خدمت الثقافة في كثير من الأحيان، فيتبادل المسلمون والروم الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والآداب<sup>1</sup>، وهكذا ساهم الاحتكاك الحربي الدائم بين الدولتين في حدوث ارتدادات شملت مجالات عديدة في العلاقات بين الطرفين، ومنها الجانب الحضاري، من خلال توفير الفرص لإقامة روابط اجتماعية وإنسانية متبادلة وانعاش وتطوير بعض الجوانب الفنية والأدبية داخل الدولتين.

#### أولاً- في المجال الأدبي:

إنّ الأدب باعتباره أحد الأدوات الفنية التي تعبّر عن نفسية وواقع المجتمعات واهتماماتها والقضايا التي تشغل أفرادها وتتفاعل معها يعتبر بحق مرآة للشعوب يمكن من خلاله رصد مواقفهم من التطوّرات والأحداث التي ميّزت عصرهم سواء كانت داخلية بين مختلف المكوّنات المحلية للمجتمع أو خارجية مع الشعوب والقوى المجاورة خاصة إذا كان التنافس بينهما كبيراً كما كان الحال بين المسلمين والروم، الذين جمعتهما علاقات نديّة ومواجهات عديدة طويلة عقود من الزمن كان لأهمّ أحداثها ومجرياتها صدى في المجال الأدبي داخل الدولتين، حيث امتلأت آدابهما بالأشعار والقصص التي تصوّر وتتغنّى بالإنجازات التي تحقّقها الجيوش في ساحات المعارك ضدّ الخصوم، وتمجّد الأعمال والبطولات التي كانت تقوم بها الشخصيات الأساسية في هذا الصراع وتتمنّ تضحياتها.

#### 1- الشعر:

لقد شكّلت الحروب الإسلامية البيزنطية والمواجهات المستمرة في إطار حملات الصوائف والشواقي على بلاد الروم مصدر إلهام للشعراء الذين أثارت انتصارات المسلمين حماسهم ففتحوا بطولات وفتوحات الجيوش الأموية ضدّ أعدائهم، ومدحوا قادة الحملات مفتخرين بما حقّقوه من مكاسب، حيث خلّدت القصائد والأشعار هذه الإنجازات العظيمة في مواجهة قوّة مقتدرة مثل الإمبراطورية البيزنطية، واهتمام الشعراء بفتوحات جبهة الروم حتّى مع قلّة ما وصلنا من أشعارهم يبيّن قيمة هذه الانتصارات عند المسلمين، وسنحاول فيما يلي من أسطر أن نظهر صورة الصراع مع الروم في العهد الأموي من خلال

<sup>1</sup> - قازيليف: العرب والروم، ص 18.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الشعر العربي الذي كان يمثل بكل تأكيد مرآة تعكس الأحداث الهامة المؤثرة في تلك الفترة ومنها السياسية والحربية.

لقد استطاع المسلمون بفضل نشاطهم العسكري الكبير ضد البيزنطيين في العهد الأموي أخذ أسبقية جيدة في مواجهة خصومهم، وكثيرا ما كانت الحملات السنوية الموسمية تُنزل هزائم كبيرة بالروم وتفتح مدنا وحصونا قوية، وهذه الأحداث العظيمة لم تكن لتمر دون أن يتم تخليدها في الأشعار العربية، ومن أهم تلك الإنجازات التي تعرّض لها الشعراء بالذكر، فتح مدينة طوانة سنة 88هـ/707م على يد مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، حيث قال أحد أشهر شعراء العصر الأموي، جرير، في ذلك:

إن الطوانة أرض الكفر خرّتها نصر من الله يوم الزحف معلوم<sup>1</sup>.

وكان للشاعر النابغة الشيباني بدوره نصيب من شعر المدح في حروب الروم حين وصف عملية حصار وفتح مدينة طرندة البيزنطية على يد مسلمة بن عبد الملك سنة 92هـ/711م، حيث يقول في ذلك:

أَحْرَى طُرُنْدَةَ مِنْهُ وَأَبْلُ بَرْدٌ وَعَسْكَرٌ لَمْ تُقْدَهُ الْعُرْلُ الْجُوفُ  
مَا زَالَ مَسْلَمَةُ الْمِيمُونَ يَحْضُرُهَا وَرَكْنُهَا بِتِقَالِ الصَّخْرِ مَقْدُوفُ  
وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا أَبْطَالُ ذِي الْجَبِّ كَمَا أَحَاطَ بِرَأْسِ النَّخْلَةِ اللَّيْفُ  
حَتَّى عَلَوْا سُورَهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَحَانَ مِنْ كَانَ فِيهَا فَهُوَ مَلْهُوفُ  
فَأَهْلُهَا بَيْنَ مَقْتُولٍ وَمَسْتَلْبٍ وَمِنْهُمْ مَوْتَقٌ فِي الْقِدِّ مَكْتُوفُ<sup>2</sup>.

وقد كان اهتمام وتمسك الدولة الأموية بإعداد وإطلاق حملات الصوائف والشواتي دافعا قويا للشعراء للتغني بإنجازات قادتها وسياسة الخلفاء في هذا المجال لإبراز فضلهم على غيرهم وإظهار قدرتهم على الالتزام بواجباتهم التي تقتضيها أعباء الخلافة في الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد أعدائها، وقد حظي الخلفاء وأبنائهم بشكل خاص بنصيب وافر من الثناء على لسان الشعراء الموالين للبيت الأموي خاصة في الفترة المروانية، ونال عبد الملك بن مروان حظه من المدح في هذا الشأن بفضل ما قام به من جهود في الصراع مع الروم وتفانيه في الجهاد ضدّهم بعد انقطاع طويل وذلك حين استتب له أمر الخلافة، حيث قال في ذلك الأخطل الذي كان يُعدّ أكثر الشعراء قربا ومدحا لبني أمية:

وَفِي كُلِّ عَامٍ مِنْكَ لِلرُّومِ غَزْوَةٌ بِعَيْدَهُ أَثَارِ السِّنَابِكِ وَالسَّرْبِ  
وَإِنَّ لَهَا يَوْمَيْنِ: يَوْمَ إِقَامَةٍ وَيَوْمًا تَشْكِي الْقَضَّ مِنْ حَدْرِ الدَّرْبِ<sup>3</sup>.

1 - مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 3.

2 - النابغة الشيباني، عبد الله بن المخارق (ت 125هـ): ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 3، 2000، ص 52 / زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي، ص 131.

3 - ديوان الأخطل، شرح وتصنيف مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1994، ص 26-27 / زكي المحاسني: المرجع نفسه، ص 131.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

غير أن الوليد بن عبد الملك، الذي شهد عهده أكبر التوسّعات الإسلامية في العهد الأموي، كان أكثر خلفاء بني أمية الذين اهتمّ الشعراء بمدحهم وتخليد إنجازاتهم، بما في ذلك تلك التي تحقّقت على الجبهة البيزنطية، ومن بين كل شعراء هذا العصر كان الأخطل أكثر من تميّز في مدح الوليد ودوره في قتال الروم حين كان ولياً للعهد وحين تولّى الخلافة بعد ذلك أيضاً، حيث يقول:

بِكَفَيْهِ الْأَعْنَةُ، لَا سَـؤُومٌ      قِتَالِ الْأَعْجَمِيِّ، وَلَا ضَـجُورٌ  
قَتَلْتُ الرُّومَ، حَتَّى شَدَّ مِنْهَا      عَصَائِبُ، مَا تُحْرِزُهَا الْفُصُورُ<sup>1</sup>.

وأُشَدُّ أيضاً مفاخرها بما تحقّق في عهد الوليد من انتصارات ضدّ البيزنطيين:

وإِنْ أَتَعَرَّضَ لِلْوَلِيدِ، فَإِنَّهُ      نَمَّتْهُ إِلَى خَيْرِ الْفُرُوعِ مَضَارِيهُ  
وَمَا بَلَغَتْ خَيْلُ امْرِئٍ كَانَ قَبْلَهُ      بَحِيثٌ انْتَهَتْ آثَارُهُ وَحَارِيهُ  
وَتُضْحِي جِبَالُ الرُّومِ غُـبْرًا فِجَاجُهَا      مَا أَشْعَلَتْ غَارَاتُهُ وَمَقَانِبُهُ<sup>2</sup>.

وبالإضافة إلى الأخطل ساهم النابغة الشيباني بدوره في تمجيد إنجازات الوليد بن عبد الملك حيث

أثنى على دوره في ردع الروم وإثخانه فيهم حتى خشوه وخافوا جيوشه، في قصيدة من بين ما جاء فيها:

تَنُوي الْوَلِيدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ      طَالَ السَّفَارُ وَأَضْحَتْ دُونَهُ الطَّبَسُ  
دَانَتْ لَهُ عَرَبُ الْآفَاقِ خَشْيَةً      وَالرُّومُ دَانَتْ لَهُ جَمْعَاءُ وَالْفَرَسُ  
خَافُوا كِتَائِبَ غُلْبًا أَنْ تُطِيفَ بِهِمْ      لِسَابِغَاتِ عَلَى أَبْطَالِهَا جَرَسُ  
بِهِنَّ تَحْوِي سُـبِيًّا ثُمَّ تَقْسِمُهَا      كَمَا يُصِيدُكَ وَحَشَ الْقَفْرِ الْفَرَسُ  
قَسْرًا عَدْوُكَ، إِنْ الضُّغْنُ قَاتَلَهُمْ      وَإِنْهُمْ إِنْ أَرَادُوا غَدْرًا تَعَسَّوْا  
لَا يُبْصِرُونَ فِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ      إِذَا نَعَشَتْهُمْ فِي فِتْنَةٍ رَكَسُوا  
هُمُ الَّذِينَ سَمِعَتْ اللَّهُ أَوْعَدَهُمْ      الْمَشْرُكُونَ وَمَنْ لَمْ يَهُوَكُمْ بَحْسُ<sup>3</sup>.

ولم يتخلّف جرير، وهو أحد أكثر شعراء العصر الأموي شهرةً، بدوره عن المساهمة في تخليد إنجازات

هذا الخليفة والانتصارات غير المسبوقة التي تحقّقت له في كل مكان، وقهره لأعدائه وعلو كعبه على غيره من ملوك الدنيا، مرجعاً ذلك إلى فضل الله عليه، فيقول:

هَذَاكَ الَّذِي يَهْدِي الْخَلَائِفَ لِلتَّقَى،      وَأَعْطَيْتَ نَصْرًا لَمْ تَنْلَهُ الْخَلَائِفُ  
وَأَدَّتْ إِلَيْكَ الْهِنْدُ مَا فِي حُصُونِهَا،      وَمَنْ أَرْضِ صِينِ اسْتَانَ بُحَيِّ الطَّرَائِفُ  
وَأَرْضَ هِرْقُلَ قَدْ قَهَرْتَ وَدَاهِرًا،      وَتَسْعَى لَكُمْ مِنْ آلِ كِسْرَى النَوَاصِفُ

1 - ديوان الأخطل، ص 183 / زكي المحاسني: المرجع السابق، ص 132.

2 - ديوان الأخطل، ص 39-40 / زكي المحاسني: المرجع نفسه، ص 132.

3 - ديوان نابغة بني شيبان، ص 28.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

وَدَلِّكَ مِنْ فَضْلِ الَّذِي جَمَعَتْ لَهُ صُفُوفُ الْمُصَلِّيِّ وَالْمَهْدِيُّ الْعَوَاكِفُ<sup>1</sup>.

وقد أبرز الأخطل فضل بني أمية بصفة عامة، خلفاء وأمراء، في الصراع ضد أعداء الأمة وأجمل

دورهم في حفظ الثغور التي تحمي ديار الإسلام من هجمات البيزنطيين في بيت من شعره:

إِمَامُ النَّاسِ وَالْخُلَفَاءِ مِنْهُمْ وَفَتِيَانُ تُسَدُّ بِهَا الثُّغُورُ<sup>2</sup>.

لم يقتصر اهتمام الشعراء على مدح الخلفاء فقط للتقرب منهم ونيل رضاهم لاستحقاق صلّتهم وهباتهم، بل لم يخلوا بأشعارهم ومدحهم حتى على من اشتهر من القادة والفرسان في حملات الصوائف والشواتي، وبشكل خاص أولئك الذين ينتسبون إلى البيت الحاكم، مثل مسلمة بن عبد الملك الذي قاد الحملات على بلاد الروم لأكثر من عشرين سنة حقق فيها إنجازات عظيمة استحقّ بها لقب "ناب بني مروان"، واستحقّ أيضاً معها مدح أعظم شعراء العصر الأموي، فنجد جريراً مثلاً يشيد بحصاله القيادية ونكايته في العدو فينشد هذين البيتين:

مَسْلَمٌ جَرَّارُ الْجِيُوشِ إِلَى الْعِدَى كَمَا قَادَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ نُوحٌ

يَدَاكَ: يَدُ تَسْقِي السَّمَامَ عَدُونَا وَأُخْرَى بَرَّتَاتِ السَّحَابِ تَفُوحُ<sup>3</sup>.

ويثني عليه في موضع آخر بفضل دوره في حماية ثغور الإسلام وردعه الروم، حيث خصّه ببيت من

الشعر كان خاتمة قصيدة طويلة أنشدها في مدح أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك:

وَمَا زَالَ مِنْ آلِ الْوَلِيدِ مُدَبَّبٌ، أَخُو ثِقَةٍ، عَنْ كُلِّ نَعْرِ يُقَاذِفُ<sup>4</sup>.

وأثنى عليه الفرزدق أيضاً، الذي اشتهر بالمدح والهجاء، في سياق قصيدة نظمها في مدح أخيه

الخليفة سليمان بن عبد الملك، فأفرد له بيتاً منها عبّر فيه عن قيمته العسكرية من خلال ما تحقّق على يديه من الفتوح والانتصارات بتأييد من الله:

وَأَخَاكَ، إِذْ فَتَحَ الْإِلَاهُ بِهِ وَأَعَزَّهُ بِالْيُمْنِ وَالنَّصْرِ<sup>5</sup>.

ومن بين أمراء بني مروان الذين قادوا حملات الصوائف والشواتي، واستحقّوا بذلك المدح أيضاً

بفضل إنجازاتهم العسكرية في مواجهة الروم، العباس بن الوليد، الذي قام بحملات كثيرة في آسيا الصغرى أواخر القرن الأول هجري واشترك مع عمّه مسلمة بن عبد الملك في فتح طُوانة سنة 88هـ/707م، فقال فيه الفرزدق:

يَا ابْنَ الْوَلِيدِ أَلَيْسَ النَّاسُ قَدْ عَلِمُوا أَنَّكَ وَالسَّيْفَ إِسْلَامٌ لِمَنْ كَفَرَا<sup>1</sup>.

1 - ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1986، ص 303.

2 - ديوان الأخطل، ص 184.

3 - ديوان جرير، ص 82.

4 - نفسه، ص 304.

5 - ديوان الفرزدق، شرح وتقديم علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987، ص 234.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

وعموما يمكن اعتبار شعر الحماسة والبطولة هذا الذي اختصّ بمدح الخلفاء وقادة الحملات السنوية من أمراء بني أمية خاصة، نوع من الدعاية السياسية لصالح البيت الحاكم لما للشعر من تأثير في العرب، حيث كان الشعراء يمجّدون دور الأمويين الريادي في قيادة الجهاد ضدّ أعداء الدين لإبراز فضلهم على غيرهم وتبرير أحقيّتهم بقيادة الأمة دون سواهم.

وبرز بجانب القادة من البيت الأموي شخصيات أخرى كان لها دور فعّال في الصوائف أيضا خاصة في الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الأموية، لعلّ أشهرهم سفيان بن عوف الغامدي الذي كان يقود جيوش الصوائف في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقال أحد الشعراء من أهل الشام يذكر مهاراته القيادية ونكايته في الروم، مخاطبا خليفته على الجيش ابن مسعود الفزاري:

أَقِم يَا ابْنَ مَسْعُودٍ فَنَاءً قَوْمَهُ  
وَ سُمِّ يَا ابْنَ مَسْعُودٍ مَدَائِنَ قَيْصَرَ  
كَمَا كَانَ سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ يُقِيمُهَا  
كَمَا كَانَ سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ يَسُومُهَا.

وكان سفيان بن عوف غازيا فأدركه الموت ببلاد الروم فاستخلف على جيش الصائفة ابن مسعود هذا وأوصاه بالحرص على سلامة الناس قبل السعي وراء أي مكسب عسكري، لكنّه كان قليل الحذر ولم يأخذ بهذه النصيحة فأصيب معه كثير من المسلمين، فلمّا رجع إلى الشام وبّخه معاوية بن أبي سفيان وأنشده هذين البيتين فاعتذر له ابن مسعود معترفا بتفوّق وفضل سفيان بن عوف<sup>2</sup>.

ومن بين الذين اشتهروا في الصوائف لاحقا في العهد المرواني، الفارس عبد الله البطّال، وقد خلّدت الأشعار بطولاته وشجاعته في ساحات المعارك ضدّ الروم، ومن بين ما قيل فيه قصيدة لأحد الشعراء يعبر في مطلعها عن حزنه على فراق هذا الفارس بعد استشهاده في معركة أكروينون (أقرن) سنة 122هـ/740م، ثمّ يصف فيها اقدامه وصبره وجلدّه في القتال ضدّ الجيش البيزنطي في تلك الموقعة حتّى سقط شهيدا:

ولم تهمل على البطال عين  
عشية باشر الأهوال صبرا  
يكرّ عليهم بالخيال طعنا  
إذا ما خيله حملت عليهم  
فإن يعلونه الأسباب يوما  
ولم أر مثله أمضى جنانا  
هناك بعبرة تشفي الهياما  
بخيال تخرق الجيش اللهاما  
وضربا بقتل البطال الهماما  
تداعوا من مخافته انضماما  
فقد تلقاه مغوارا حماما  
وأحمد مشهدا وأقلل ذاما

1 - ديوان الفرزدق، ص 297.

2 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 21، ص 350.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

فلا تبعد هنالك من شهيد فإنك كنت للهيح حساما<sup>1</sup>.

ومن الفرسان الذين نالهم نصيب من مدح الشعراء أيضا، الوضاح، قائد فرقة الوضاحية الذي ورغم أصوله البربرية أشاد به جرير، وبجهاده وما حققه من أمجاد، فقال:

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا فأورث مجدا باقيا آل بربرا<sup>2</sup>.

ويذكر الفرزدق في مدح الأبرش الكلبي وبلاء قومه في حرب الروم، أبيات من الشعر:

وَجَدْنَا الْأُبْرَشَ الْكَلْبِيَّ تَنَمِي بِهِ أَعْرَاقُ ذِي حَسَبٍ كَرِيمٍ

مَرَيْتَ بِسَيْفِكَ الْمَسْلُوقِ فِيهِمْ مَوَاطِنَ كُلِّ مُبْدِيَةِ الْعُومِ

وَكَايْنِ مِنْ وَقَائِعِ يَوْمِ بَأْسٍ لِكَلْبٍ كُنَّ فِي عَرَبٍ وَ رُومِ<sup>3</sup>.

كان من نتائج الصراع بين المسلمين والروم أيضا، اهتمام الشعراء بمناطق الثغور التي يمكن أن ينفذ منها العدو لاستهداف بلاد الإسلام، فنظّموا في ذلك أشعارا تنبّه لضرورة حفظ هذه المناطق واسناد أمرها للأكفاء من الشجعان، فقال الفرزدق في هذا الشأن:

يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ الثَّغَرَ، فَانْتَبِهُوا قَدْ ضَاعَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَهُ غَيْرُ

لَا يُصْلِحُ الثَّغَرَ إِلَّا كُلُّ مُحْتَبِكٍ ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ أَوْ صَمَّصَامَةٌ ذَكْرُ<sup>4</sup>.

وفي الأخير نشير إلى أنّ كثرة الأحداث التي شهدتها حملات الصوائف والشواتي، وما حقق فيها المسلمون من انتصارات وفتوحات ذات قيمة استراتيجية ومعنوية عالية، لا نجد ما يقابل أهميتها من شعر الحرب والحماسة في الموروث الأدبي للمسلمين في هذه الفترة، وإننا لنستغرب كيف لم يخلد الشعراء ذكرى حدثين مهمين كحصار القسطنطينية أواخر فترة حكم معاوية بين أبي سفيان، ومع نهاية القرن الأول هجري مثلا، رغم أنّ هذا الأمر في حد ذاته يعدّ استثنائيا وعظيما ومبعثا للفخر، وهذا النقص في اعتقادنا يرجع لعدّة عوامل أهمها:

- تأثير الأحداث السياسية الداخلية التي عاشها المجتمع الإسلامي خلال العهد الأموي وما شهدته من صراعات وتشكّل للتيارات والأحزاب وإحياء للعصبية، ربّما كان أكثر استقطابا وإلهاما للشعراء فاستحوذ على اهتمامهم نظرا لاتصالهم المباشر بأحداث عصرهم، ما غطّى على الصراع مع الروم فلا نجد لها في أصداء الشعر العربي خلال تلك الفترة إلا الشيء القليل.

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 407.

2 - نجدت خمّاش: الشام في صدر الإسلام، ص 348.

3 - ديوان الفرزدق، ص 558.

4 - نفسه، ص 243-244.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

- استقرار أهم وأبرز شعراء العصر الأموي في الأمصار، خاصة في العراق والحجاز، مع عدم اهتمامهم بالمشاركة في الحملات ضدّ الروم حرّمهم من الاتصال بأحداثها فلم يشهدوا وقائعها ولم يختبروا حقيقتها حتى تجود قرائحهم بوصف مجرياتها وتخليد منجزاتها وبطولات الفاعلين فيها.

- على الأغلب أنّ الكثير من الأشعار التي نظمت في هذا الشأن قد ضاعت ولم تحفظه الكتب فلم يبلغنا منها إلا القليل نتنّسّم فيه نفحات البطولة العربية في ديار الروم<sup>1</sup>، وهذا يرجع ربّما إلى زوال حكم بني أمية ورغبة العباسيين من بعدهم في محور مآثرهم وكلّ ما يمجّد أعمالهم، والقليل من الأشعار التي صمدت لا تعبّر على كل حال عن حقيقة قيمة تلك الأحداث وصورتها في الشعر العربي، ولا تعكس مدى اهتمام الشعراء بها.

أما عن خصائص شعر الحرب في العصر الأموي فيمكن أن نسجّل الملاحظات الآتية:

- يعتبر في بعض الجوانب امتدادا لشعر الحماسة والبطولة الذي عرفته الحياة الجاهلية لكنّه اصطبع مع ذلك ببعد إسلامي فهو يصدر عن روح الجماعة أو الأمة الإسلامية عكس الشعر الجاهلي الذي كان يعكس روح الفرد أو القبيلة<sup>2</sup>، وتبرز هذه السمة خاصّة في الشعر الذي يتعلّق بالصراع مع الروم فهو لا يخلو من احتواءه على ألفاظ جديدة دينية وتعابير إسلامية لم تكن موجودة في شعر الحماسة خلال الجاهلية، واقتباسات لألفاظ مستوحاة من القرآن والحديث النبوي، ومعاني إسلامية كالشهادة والثواب والنعيم<sup>3</sup>.

- كما أنّه تميّز أيضا بإدماج معاني وعبارات الفخر في مواضعه لعلاقتها الوثيقة بالحماسة.

- احتوائه في بعض الحالات على صفات الملاحم<sup>4</sup> التي كانت كثيرا ما تتجاوز الواقع في بعض الأحيان وتنزع إلى المبالغة في تقدير البطولات والتضحيات.

## 2- الأدب الشعبي:

مثما كان للأحداث بين المسلمين والروم صدى في الشعر العربي خلال العصر الأموي، كان هذا الصراع "الإسلامي-المسيحي" بأحداثه والشخصيات الفاعلة التي شاركت فيه محورا للأدب العربي أيضا ممثلا في القصص الشعبي، إذ شكّل أحد العوامل والمواد التي انتجت أدب البطولة عند العرب، وقد كان هذا القصص معرضا عاما التقى فيه الخيال بالواقع، والمهدف هو تصوير الفروسية العربية في صراعها ضد المسيحية<sup>5</sup>، فأوجدت تلك الاشتباكات بين الطرفين قصصا وملاحم بطولية، ومن أهم النماذج التي

1 - زكي المحاسني: المرجع السابق، ص 133.

2 - فتحي عثمان: المرجع السابق، ج 3، ص 280-281.

3 - زكي المحاسني: المرجع السابق، ص 136-137.

4 - زكي المحاسني: المرجع نفسه، ص 137.

5 - نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 30-32.



انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

تناولتها لبطل قومي يتحلّى بالبسالة والإقدام، هو عبد الله البطال<sup>1</sup>، الذي تنقل المصادر العربية مغامراته وبطولاته ضدّ البيزنطيين وما تميّز به من شجاعة وفروسية استحق بها لقب بطل الإسلام<sup>2</sup>.

وإن كان هذا الفارس قد ساهم بقسط وافر حقاً في الصراع ضدّ الروم لأكثر من ثلاثة عقود<sup>3</sup> إلا أنّ ما قدّمه من بطولات تمّ تضخيمه بشكل كبير حتّى في المصادر التاريخية التي يُفترض أنّها تلتزم الموضوعية في تناولها للأحداث، فتذكر ترجمة هذا الفارس عند ابن عساكر مثلاً أنّ نشاطه الكبير في مناطق الثغور جعل منه مصدر خوف ورهبة عند البيزنطيين كبيرهم وصغيرهم، نظير ما أحقه بهم من هزائم وفجائع في غزواته المتكرّرة عليهم، حتّى أنّ اسمه كان مصدر رعب في بلاد الروم والنساء كنّ يُخفن أبنائهن به<sup>4</sup>، ولا تتردد المصادر في ذكر بطولات خيالية لهذه الشخصية تشكّل مزيج من الشجاعة الفائقة والذكاء الحاد والحيلة الواسعة، مثلما نجد في إحدى الروايات التي تُنسب له شخصياً يذكر فيها خبر توغّله منفرداً في بلاد الروم بحثاً عن سرية للمسلمين كان قد أرسلها لاستطلاع أخبار العدو وجعل لها أجلاً فلما تجاوزت المدّة المتفق عليها خرج في إثرها بحثاً عنها حتّى انتهى به المطاف في عمورية، فدخل على قائد بند الأناضول متنكراً في زيّ مبعوث الإمبراطور، فلما انفرد به في مجلسه قبض عليه واستجوبه عن خبر سرية المسلمين التي دخلت بلاده حتّى أقرّ له بموضعهم وحالهم، ثمّ خرج من عنده سالماً قاصداً أصحابه فرجع معهم بما غنموا، ويذكر البطال أنّ هذه الحادثة كانت أعجب ما حدث له في بلاد الروم<sup>5</sup>. وكما يبدو واضحاً يغلب على هذه الرواية طابع المبالغة والقصص أكثر من الموضوعية التاريخية.

واشتهر بجانب البطال أيضاً عدة فرسان آخرون مثل بُسر بن أبي أرطاة الذي قاد عدّة حملات ضدّ الروم في خلافة معاوية، ومن أهمّ بطولاته التي تذكرها الروايات انفصاله مرّة عن جيش الصائفة، وكان حينها مكلفاً بقيادة الحملة، من أجل رصد الفرق البيزنطية التي ألحقت خسائر معتبرة بجيش المسلمين نتيجة الكمائن التي كانت تقوم بها لاستهداف المتخلفين من الجند، فلحق بالروم إلى كنيسة بإحدى القرى فدخل عليهم وكانوا في ثلاثين فارساً فجعل يقاتلهم وحده بعدما أغلق عليهم باب الكنيسة فقتل عدداً منهم حتّى لحق به أصحابه، وقد تعجّب من بقي من الروم من شجاعته وصبره على قتالهم وهو مصاب، فكان يمسك، بعدما تعرّض إلى الطعن في بطنه، جزءاً من أمعائه بيده اليسرى والسيوف بيده اليمنى<sup>6</sup>.

1 - وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990، ص 116.

2 - إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص 148.

3 - أقدم تاريخ توثقه المصادر لمشاركة البطال في الحملات ضدّ الروم سنة 86هـ وآخر مواجهة جمعه بهم كانت سنة 122هـ وفيها استشهد.

4 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 33، ص 402 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 111.

5 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 33، ص 404-405 / ابن كثير: المصدر نفسه، ج 13، ص 113-114.

6 - ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 10، ص 149-150.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

ومن بين أشهر قادة الصوائف في الفترة المبكرة لقيام الدولة الأموية مالك بن عبد الله الحثعمي، الذي اقترن اسمه بهذه الحملات حتى كان يعرف بمالك الصوائف<sup>1</sup>، وتذكر المصادر فيه روايات عن التزامه وتقواه وحرصه على جند المسلمين في الغزو، وتبالغ الروايات بشكل واضح في تقدير سيرته العسكرية، ومن الروايات الغربية التي ارتبطت به أنه كان يحمل في ساقه كلمة ((الله)) وأن هذه الكلمة لم يكتبها هو ولا أحد من الناس وإنما ظهرت على ساقه بشكل طبيعي<sup>2</sup>، ويمكن أن نتبين بكل وضوح أن هذه الرواية قصة مصطنعة ولها دلالات محدّدة، وتهدف لإبراز مكانة هذا الشخص في الصراع المقدّس ضد الروم، ولترسيخ الانطباع أنه أحد جند الله الذين يسخرهم للجهاد في سبيله من أجل إعلاء كلمته ودينه.

من القصص التي ترد في المصادر حول بطولات وتضحيات المسلمين في حروبهم ضدّ الروم، قصة الفتية المدنين التوابين التي أوردها ابن أعثم ووصفها بالخبر الحسن رغم الطابع القصصي الواضح الذي تحمله، وتدور هذه الرواية في جو ملحمي حول قصة فتية من المدينة تقلّبت حياتهم من الفسق والمعصية إلى التوبة والجهاد في سبيل الله ثمّ الشهادة، وتبدأ بتصوير حياة اللهو والفجور التي كانوا عليها في المدينة ثمّ الندامة والرجوع إلى طريق الحقّ والاتجاه نحو الجهاد في سبيل الله للتكفير عن ذنوبهم، ومن بين كل جهات الجهاد على تعدّدها يقرّر هؤلاء الفتية الاشتراك في الحرب ضدّ الروم بالتحديد والالتحاق بجيش مسلمة بن عبد الملك الذي كان يتأهب لغزو طُوانة، وهذه في حدّ ذاتها إشارة ذات دلالة قويّة على مكانة الصراع ضدّ الروم بالنسبة للمسلمين، وتواصل الرواية بعدها سرد أحداث الحملة ووقائع المعارك بتفاصيلها الدقيقة، مع التركيز على البطولات والتضحيات النادرة التي سطرها هؤلاء الفتية في القتال ضدّ الروم حتى نالوا الشهادة جميعا الواحد تلو الآخر وكانوا تسعة نفر<sup>3</sup>.

ويبدو واضحا أنّ الروايات التي تتعرّض لحياة البطل تتضمن بعض مميزات وعناصر القصص والفن الشعبي التي تسلّلت إليها، مثل عنصر الأحلام أو النبوءة أو الأمنية التي تحدث مع بطل القصة ثمّ لا تلبث حوادثها أن تتحقّق في الواقع، وقصة عبد الله البطال لا تخرج كثيرا عن هذا الإطار حين تذكر الروايات التاريخية مثلا رغبته في الشهادة خلال السنة التي حجّ فيها، فغزا سنته تلك فاستشهد<sup>4</sup>، فتحققت أمنيته واستجيبت دعواته أخيرا، وتعرّض الروايات في نفس هذا الإطار إلى بطل آخر في حرب الروم هو عبد الوهاب بن بخت الذي كان يرّد في أحد غزواته نبوءة كان سمعها عن «سرية ثمانية آلاف ونحوها يليها رجل من قيس، فيقتل ومن معه إلا الشريد، وآية ذلك أنّها خيل جريدة ليس معها إلا راحلة»<sup>5</sup>، وقد توقّرت كلّ

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 56، ص 473.

2 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 56، ص 477.

3 - ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج 7، ص 112 وما بعدها.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 405.

5 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 37، ص 310.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

عناصر هذه النبوءة في تلك الحملة بالذات حسب الروايات التاريخية إذ كان يقود السرية مالك بن شبيب الباهلي وهو رجل من قيس، وكانت تضم ثمانية آلاف فارس، ليس فيهم إلا راحلة واحدة، وقد تحققت نبوءة عبد الوهاب في النهاية فاستشهد في معركة أكرينون سنة 122هـ/740م بعد مقاومة شديدة، ونجد أيضا قصة أحد المجاهدين من الشام يدعى أبو الأبيض العبسي وكان تقياً فخرج لغزو الروم في حملة طؤانة وعسكر في دابق، فرأى في المنام أنه دخل الجنة، ففسّر ذلك بأنها الشهادة فقاتل العدو حتى قتل<sup>1</sup>، والروايات والأحداث المشابهة لهذه الأمثلة كثيرة في المصادر العربية لا يتسع المجال لذكرها كلها هنا في هذا الموضوع.

كما حفّزت الأحداث الكبرى للصراع بين المسلمين والروم بعض المؤرخين على تجاوز الالتزام بالدقّة التاريخية وتوظيف الطابع الملحمي والأسطوري في تناول المواجهات الهامة مثل حملة القسطنطينية التي قادها مسلمة بن عبد الملك أواخر القرن الأول هجري، حيث تمّ في بعض الأحيان المبالغة في وصف التفاصيل والتقدير غير الموضوعي للقدرات العسكرية للمسلمين وكفاءة قادتهم، فابن أعثم يذكر مثلاً عن هذه الحملة أنّ المسلمين كانوا في وضع عسكري جيّد جعل مسلمة يقسم ألا يرجع حتى يدخل المدينة أو يموت دون ذلك، وبسبب الإنهاك الذي أصاب الروم خلال الحصار قرّر الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإيسوري، من أجل التوصل إلى اتفاق مع المسلمين لإنهاء حالة الحرب، أن يسمح لمسلمة بدخول المدينة منفرداً حتى يفني بقسمه ويرجع عنهم، فلمّا دخل مسلمة القسطنطينية ووصل إلى القصر الإمبراطوري سارع ليو لاستقباله وتقبيل يده، وهي إشارة أزد من ورائها الراوي الانتفاص من قيمة ملك الروم وإظهار خضوعه للمسلمين، ثمّ توجه بعدها مسلمة إلى كنيستهم الكبرى راكبا فنزع صليبهم الأعظم وخرج به إلى أصحابه منكباً على رمح والروم ينظرون إليه ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً خوفاً من ردّ فعل المسلمين المتمركزين أمام باب المدينة بقيادة البطال، وعندما همّ مسلمة برفع الحصار والرجوع إلى الشام خرج إليه ليو مودعاً فقبّل يده مرة أخرى وطلب تشييعه فرفض مسلمة ذلك وأمره بالانصراف إلى مدينته<sup>2</sup>، وهذه الرواية المليئة بالمبالغة والأحداث المصطنعة لا تمتّ بصلة للحقيقة التاريخية الموضوعية إذ أنّ المسلمين واجهوا صعوبات كثيرة في هذه الحملة، ففتك بهم الجوع والأمراض، وتعرّضوا لخسائر كبيرة في مواجهة القوات البيزنطية والبلغارية فلم يكن أحد من المسلمين يخرج من المعسكر منفرداً، ومع الفشل الذي سقطت فيه الحملة أمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز برفع الحصار وعودة الجيش الإسلامي، ويبدو أنّ الهدف من إعادة صياغة أحداث الحملة بشكل خرافي مصطنع هو إبراز تفوّق المسلمين على الروم وخلق انتصارات وهمية للتغطية على النكسة التي واجهتها المحاولة الثانية والأخيرة لفتح القسطنطينية خلال العهد الأموي، لهذا لا نستغرب أنّ الأدب الشعبي

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 66، ص 9.

2 - ابن أعثم: المصدر السابق، ج 7، ص 198-199-200-202.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

اهتمّ كثيراً بهذه الحملة وأعاد صياغة أحداثها بما يوافق إبراز تفوق المسلمين، كما نرى صدى لأحداثها بتفاصيلها -المزيفة- حتى في سيرة ذات الهمة التي تحدّث عن مشاركة الصحصاح جدّ بطلّة القصّة مع مسلمة في حملته على القسطنطينية حيث تذكر بدورها أنّ المسلمين ضيقوا على الروم حتى خضع ملكها ليو ووقع اتفاقية هدنة مع الخليفة<sup>1</sup>.

إن سيرة "ذات الهمة" تعتبر أشهر قصص الأدب الشعبي التي تتمحور حول الصراع بين المسلمين والروم، وعلى الرغم من عدم التزامها الدقّة التاريخية إلّا أنّها تعكس مكانة هذا الصراع في الخيال الشعبي، وهذه السيرة التي ظهرت في منطقة الثغور خلال القرن الذي تلا سقوط الدولة الأموية وكانت تُروى شفويًا بصيغتها النهائية في نسختها الأصلية في عهد الخليفة العباسي الواثق<sup>2</sup>، ربّما كان ظهورها يرجع إلى فترة زمنية قريبة من بداية الأحداث التي تتناولها السيرة مع نهاية العصر الأموي، فهذا النوع من الأدب يتمّ تداوله عبر العصور عن طريق الذاكرة في طابعه الشفوي أكثر من تداوله عن طريق الكلمة المكتوبة<sup>3</sup>، وتبدأ أحداثها التي تتعرّض للصراع مع الروم كما سبق الإشارة إليه مع مشاركة الصحصاح جدّ الشخصية الرئيسة في السيرة "فاطمة ذات الهمة" مع مسلمة بن عبد الملك في حملته على القسطنطينية والتي أضفت عليها مشاهد ملحمية، ثمّ تستعرض القصّة هجرة البطلّة أواخر العهد الأموي إلى ملطية في منطقة الثغور مع أفراد قبيلتها بني كلاب للتفرغ لنصرة الاسلام والخلافة في مواجهة الروم حيث كان الجهاد على أشده في تلك المنطقة ضدّ أعداء الدين المتربّصين بالمسلمين<sup>4</sup>، واختيار الزمان (بداية الصراع مع الروم)، والمكان (الثغور) له دلالة قويّة، فعلى الرغم من أنّ السيرة لا يمكن اعتبارها تاريخًا على كل حال بقدر ما هي تعبير عن الخيال الشعبي المتأثر ببعض الأحداث التاريخية إلّا أنّها مع ذلك لا تغفل الإشارة إلى أنّ العهد الأموي الذي انتظمت فيه حملات الصوائف والشواقي ووصلت فيه الجيوش الإسلامية أسوار القسطنطينية أكثر من مرّة ينظر إليه كمرحلة تأسيسية في الصراع الاسلامي البيزنطي، أمّا اختيار منطقة الثغور كفضاء جغرافي لاستقرار أبطال السيرة وقاعدة لنشاطهم وأعمالهم البطولية ضدّ أعداء الأمة الإسلامية فيعكس دون شك قيمة هذه المنطقة الحدودية ودورها في الصراع مع الروم من الناحيتين الدفاعية والهجومية.

ومن الشخصيات المحورية في هذه السيرة نجد "عبد الوهاب" ابن ذات الهمة وصديقه "محمد البطل"، وكما هو واضح فإن اختيار هذين الاسمين يمثّل عملية استرجاع وإحياء لشخصيتين إسلاميتين حقيقيتين اشتهرتا في الحروب ضدّ الروم في النصف الثاني من العصر الأموي وهما عبد الله البطل وعبد

1 - نبيلة إبراهيم: المرجع السابق، ص 37-39.

2 - نبيلة إبراهيم: المرجع نفسه، ص 59-62.

3 - نبيلة إبراهيم: المرجع نفسه، ص 15.

4 - نبيلة إبراهيم: المرجع نفسه، ص 37-39.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الوهاب بن بخت<sup>1</sup>، ويؤكد ذلك المؤرخ ابن كثير الذي أورد ترجمة مختصرة لعبد الله البطال أشار فيها إلى أنّ العامة تنسب بعض الأحداث والأخبار غير الواقعية لهذه الشخصية في سيرة ذات الهمة، فكذب ما تناولته هذه القصة حول البطال وعدّ ذلك من الافتراء والوضع غير المنطقي<sup>2</sup>، وهذا ما يثبت أنّ البطال في سيرة ذات الهمة هو نفسه البطال الحقيقي في الخيال الشعبي.

أمّا على الجانب البيزنطي فالشعراء والأدباء لم يهملوا بدورهم تخليد مآثر أبطالهم في مواجهة أعدائهم، خاصّة المسلمين، في أعمال أدبية متنوعة مثل القصائد والأناشيد وحتى الملاحم في وقت لاحق<sup>3</sup>، رغم أنّه لم يصلنا منها إلّا القليل خاصة فيما يتّصل بالفترة بين القرنين السابع والتاسع ميلاديين التي تعرّضت خلالها الإمبراطورية والحضارة البيزنطية لأزمة عميقة شهدت فيها تغييرات مسّت جميع الميادين بما في ذلك الجانب الأدبي والتي يتمّ الإشارة إليها عادة في الكتابات التاريخية للمدرسة الأنجلوساكسونية بالعصور المظلمة<sup>4</sup>، وهي الفترة التي تزامنت مع وجود الدولة الأموية حتّى منتصف القرن الثامن ميلادي وتمثّل مجال دراستنا هنا، حيث يبدو غياب الأعمال الأدبية التي تحلّد بطولات شخصيات المرحلة غير منطقيًا مقارنة بالأحداث التي عرفتها هذه الفترة وشكّلت تحديًا وجوديًا لبيزنطة مثل تفاقم الخطر الإسلامي وحصار القسطنطينية، أين ظهرت على الساحة شخصيات كان لها دور بارز في انقاذ الإمبراطورية والتصدي للخطر الإسلامي، مثل ليو الثالث الإيسوري، كما شهدت هذه الفترة من جهة أخرى أحداثًا كان من المفترض أن تكون مبعث فخر للأمة البيزنطية وجزء من أمجادها مثل دحر المسلمين من أمام أسوار القسطنطينية على مرّتين في ظرف أقلّ من نصف قرن، والانتصار الكبير في معركة أكرينون سنة 122هـ/740، والتفوق الباهر على البحرية الإسلامية في قبرص سنة 130هـ/748م.

وهذا الشحّ في المآثر الأدبية لهذه الفترة راجع أساسًا حسب هنري غريغوار Henri Grégoire إلى انطماس الأعمال الخاصة بهذه المرحلة في وقت لاحق إبان حكم الأسرتين العمورية والمقدونية أين حلّت أناشيد ذلك العصر محلّ الإنتاج الأدبي الملحمي للعصور السابقة، وبالمثل أنسى أبطال القرنين التاسع والعاشر أولئك الذين ينتمون إلى القرنين السابع والثامن، ويمكن أن نضيف أيضًا من جهة أخرى تأثير العامل الديني على الأقل فيما يتعلق بطمس ذكرى الملكين العظيمين ليو الثالث وابنه قسطنطين من القرن

1 - نبيلة إبراهيم: المرجع السابق، ص 64.

2 - البداية والنهاية، ج 13، ص 115.

3 - يتفق كل المتخصّصين تقريبًا أنّ أدب الملاحم والفروسية لم يظهر في بيزنطة إلّا في القرن العاشر ميلادي.

4 - José Marin: Byzantium and the Dark Ages. A Civilization on Trial, Imago Temporis Medium Aevum, Universitat de Lleida, 2008, pp 59-60.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الثامن، حيث تمّ منع التغيّي بانتصاراتهما حتّى على مستوى الخيال الشعبي<sup>1</sup>، بسبب سياستهما الدينية التي وسّما الكثير من رجال الدين والمؤرّخين بالهرطقة حين قادا حركة معادية للأيقونات داخل الإمبراطورية. لكن من حسن الحظ وصل إلينا عملين أدبيين مهمّين لم يتركا هذه الفترة دون أثر ملحني يعبر عن أحداثها المفصلية، الأوّل يتعلّق بقصيدة تتكوّن من ثمانين مقطعاً لشخص يدعى ثيودوس النحوي Théodose le Grammaire تدور وقائعها حول حصار السفن الإسلامية للعاصمة البيزنطية، وتذكر هذه القصيدة اسم الإمبراطور "الورع" هرقل عن الجانب البيزنطي كمدافع عن المدينة، في حين يعتقد الباحث والمتخصص في التاريخ البيزنطي لامبروس Lampros الذي قام بنشر هذه القصيدة أنّ اسم الإمبراطور هرقل هنا ورد بالخطأ فيها، وأنّ المعني هو ليو Léon<sup>2</sup>، ما يجعل هذه القصيدة في الحقيقة تعبّر عن أحداث الصمود الكبير للقسطنطينية في مواجهة حملة مسلمة بن عبد الملك الضخمة أواخر القرن الأوّل هجري.

كما نجد أيضاً أعمالاً بيزنطية تدور أحداثها حول الصراع البيزنطي-العربي انتقلت إلى شعوب مجاورة (مثل السلاف) بصيغة محرّفة، حيث تحتوي بعض قصائد الشعر القصصي الروسية القديمة التي تعرف بـ Bylines مثلاً على مقاطع تحتفي بشكل شبه مؤكّد بأعمال الإمبراطور ليو وابنه قسطنطين، وهي قصائد Saur Levanidovic (أو Saul Vanidovic) التي يؤكّد المنظر الأدبي الروسي فيزولوفسكي Veselovskiy أنّ أصلها بيزنطي وأن اسم Levanidovic كما هو واضح يعني ابن ليو، ويدور موضوع القصيدة حول صراع الملك صور وابنه قسطنطين (مثل اسم ابن ليو الثالث في الواقع) مع العرب الذين نجحوا في أسر الملك فسار إليهم ابنه قسطنطين الذي استطاع في النهاية أن يبيد العدو ويجرّ أبيه<sup>3</sup>.

أمّا العمل الأشهر الذي وصلنا بشكل كامل، لكنّه مع الأسف يتعلّق بفترة لاحقة عن مجال دراستنا، فهو ملحمة ديجينيس أكريتاس Digenis Akritas التي تتناول قصّة شخصيتين رئيسيتين، أمير عربي تحوّل إلى المسيحية بعد زواجه من نبيلة بيزنطية، وابنتها ديجينيس أكريتاس، الذي قام بدوره باختطاف ابنة حاكم محلي بيزنطي، وتدور معظم أحداث هذه الملحمة في المنطقة الحدودية عند الفرات<sup>4</sup>، وصورّت الآداب البيزنطية بطولات هذا المغامر (ديجينس) في ملحمة شعرية تضم ما بين 3094 و4778 بيت

<sup>1</sup> - Henri Grégoire: Etudes sur l'Épopée Byzantine, Revue des Etudes Grecques, Tome 46, Fascicule 214, Janvier-Mars 1933, p 31.

<sup>2</sup> - Henri Grégoire: Ibid, p 30.

<sup>3</sup> - Henri Grégoire: Ibid, p 30.

<sup>4</sup> - Barry Baldwin: An Anthology of Byzantine Poetry, J. C. Gieben, publisher, Amsterdam, 1985, p 213 / Henri Grégoire, Roger Goossens: Les recherches récentes sur l'épopée Byzantine, L'antiquité Classique, Tome 1, Fasc 1-2, 1932, pp 421-422

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

حسب تنوع واختلاف النسخ الخمسة المتوفرة منها، بجانب النسخة النثرية<sup>1</sup>، حيث تتعرض لمغامراته وغارات السلب والنهب التي كان يقودها على حدود الدولة الإسلامية في القرن الثامن ميلادي<sup>2</sup> حتى وفاته أواخر ذلك القرن، أين دفن بالقرب من مدينة طرسوس<sup>3</sup>، ويعتقد هنري غريغوار أنه نفس الشخص الذي ذكره ثيوفانس في حوليته وتوفي في معركة بين البيزنطيين والمسلمين سنة 788م (171-172هـ)<sup>4</sup>. لكن تاريخ تأليف هذه الملحمة يعود على الأرجح إلى القرن العاشر ميلادي، فحتى إن كان صحيحاً أنّ ديجنيس قد عاش في القرن الثامن ميلادي، فإنّ العناصر الأساسية لأسطورته تلك التي تظهر في الملحمة وحتى في الأناشيد ترجع للقرن العاشر أو التاسع ميلاديين على الأقل<sup>5</sup>، أو بتعبير آخر ربما يكون قد تمّ استحضار سيرته واسقاطها على أحداث القرنين التاسع والعاشر حتى تبدو أكثر ملائمة لخصائص تلك المرحلة. وبالاعتماد على أدلة تاريخية وأدبية يعطي هنري غريغوار تاريخاً محدداً لكتابتها يقدره بسنة 940م (328-329هـ)<sup>6</sup>.

وما يهّمنا أكثر هنا هو التأثيرات الثقافية للمسلمين على الأدب البيزنطي، خاصة فيما يتعلّق بملحمة ديجنيس التي تحتلّ مكانة مرموقة في الإنتاج الأدبي البيزنطي إلى درجة أنّ هنري غريغوار يعتبر أنّ قيمتها الأدبية يمكن أن تقارن بملحمة هوميروس<sup>7</sup>، وقد لاحظ هذا الباحث أنّ الجزء الأوّل من الملحمة في كل النسخ يتحدّث عن سيرة الأمير العربي مع التركيز على الانتصارات التي حقّقها المسلمون في مواجهة البيزنطيين، وبنوع من الفخر يعدّد الشاعر الذي ألف هذه الملحمة قائمة غزوات الأمير والمدن البيزنطية التي استولى عليها وخرّبها وتروى لنا مسيرته المتوّجة، بعبارة كانت أكثر تداولاً عند العرب خلال القرنين التاسع والعاشر ميلاديين، ما جعله يعتقد أنّ الجزء الأوّل من الرواية كان في الأصل عربياً، وأنّ بطولات أمراء ملطية وخاصة الشهير عمر الأقطع هي التي حفرت على إنتاج هذا العمل الأدبي الذي انتقل إلى

---

<sup>1</sup> - Homère-Alexandre Théologitis: Digénis Akritas et la Littérature Byzantine: problèmes d'approche, Maison de l'Orient et de la Méditerranée, Jean Pouilloux, 2001, pp 393-394.

<sup>2</sup> - إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص 148-149.  
Youval Rotman: Byzance face à l'Islam Arabe, 7<sup>e</sup>-10<sup>e</sup> siècle, D'un droit territorial à l'identité par la foi, Annales. Histoire, Sciences Sociales, 2005/4 (60<sup>e</sup> année), p 778.

<sup>3</sup> - نبيلة إبراهيم: المرجع السابق، ص 184.

<sup>4</sup> - Henri Grégoire, Roger Goossens: Les recherches récentes sur l'épopée Byzantine, p 427.

<sup>5</sup> - Henri Grégoire, Roger Goossens: Ibid, p 427.

<sup>6</sup> - Henri Grégoire: Etudes sur L'épopée Byzantine, p 63.

<sup>7</sup> - Henri Grégoire, Roger Goossens: Ibid, p 419.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

البيزنطيين لاحقا بعد الاستيلاء على هذه المدينة الحدودية، ليصل في النهاية إلى استنتاج أنّ هذا الاقتباس جاء من سيرة السيد البطال التي كان يرويها العرب ابتداء من القرن التاسع<sup>1</sup>.

وهكذا يمكن أن نتبين بشكل واضح كيف يمكن للتأثيرات الثقافية الانتقال بين طرفي الحدود، وكيف أنّ البيزنطيين أنفسهم قد تأثروا بقصص البطولة والفروسية التي كان يتناقلها المسلمون لتخليد أعمال شخصيات بارزة في الصراع ضدّ خصومهم الروم، حتّى أنهم استلهموا سيرة أحد هذه الشخصيات لتأليف إحدى أعظم الملاحم الشعرية التي أنتجها الأدب اليوناني على الإطلاق.

ثانيا- على المستوى الإنساني:

### 1- فداء الأسرى:

يُعتبر موضوع الأسرى من المسلمين والروم ومصيرهم، على أهميته، من المواضيع التي لم تحظْ بالدراسة بشكل وافٍ فيما يتصل بالعلاقات بين الطرفين خلال الفترة المبكرة حتّى نهاية العصر الأموي حيث يتمّ إهمال هذا الجانب تماما أو التعرّض له بشكل سطحي وعابر في هذا النوع من الدراسات التي عادة ما يطغى عليها التركيز على الجانبين العسكري والسياسي رغم أنّ موضوع فئة الأسرى يمثل جانب مهم من التفاعل الإنساني والديبلوماسي وحتّى الثقافي بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وربما يمثل مجالا يجب التركيز عليه أكثر في المستقبل لتوضيح تفاصيله وإيفاء حقه من الدراسة والاهتمام.

كان من نتائج الحملات السنوية التي شنّها المسلمون على بلاد الروم سقوط أعداد كبيرة من الأسرى بين الطرفين خاصة من الجانب البيزنطي أين كان المسلمون يأسرون بشكل سنوي تقريبا ما بين بضع عشرات إلى بضع آلاف من الروم في كلّ حملة، أمّا عدد الأسرى من المسلمين فمن المؤكد أنه كان أقل بكثير<sup>2</sup>، حيث لم يكن يتعرّض المسلمون للأسر سواء في الحدود أو داخل بلاد الروم إلّا في حالات نادرة، وهذا راجع لعدّة أسباب يأتي على رأسها تفوّق المسلمين عسكريا وأيضا لسياسة الدفاع التي انتهجها الروم في التعامل معهم حيث كانوا يفضّلون غالبا الاحتماء بمدنهم وحصونهم على الاصطدام بالمسلمين في مواجهات مفتوحة. ويبدو مستحيلا معرفة عدد الأفراد الذين وقعوا في الأسر من المسلمين والروم، على حدّ سواء، بشكل دقيق خلال المواجهات بين الطرفين حيث لا تقدّم لنا المصادر في هذا

<sup>1</sup> - Henri Grégoire, Roger Goossens: Op cit, pp 428-429.

<sup>2</sup> - قام الأستاذ طه خضر عبيد من جامعة الموصل (العراق) بدراسة في هذا الميدان خلص فيها إلى أنّ مجموع ما صرّحت بأرقامه المصادر حول عدد الأسرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية في الفترة ما بين 41-132هـ/661-750م، بلغ أكثر من عشرين ألفا (20 ألف) من المسلمين مقابل أكثر من مائة وست وأربعون ألفا (146 ألف) من الروم، لكنّ هذه الدراسة لم تكن شاملة والأرقام فيها غير دقيقة حيث يعتمد -دون تحقّق- رواية محبوب المنبجي فيما يتعلق بأسر الروم لأكثر من عشرين ألف مسلم في معركة أكرينون مثلا.

لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة مقاله تحت عنوان: الأسرى بين الأمويين والبيزنطيين 41-132هـ/661-750م، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 6، سنة 2005، ص 9-10.



انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الشأن أرقاما محدّدة إلّا في بعض الحالات الاستثنائية النادرة والتي تخصّ الأسرى البيزنطيين بشكل خاص، كما لا توفّر لنا المصادر كذلك معلومات إلّا بصورة شحيحة للأسف عن وضعية الأسرى داخل الدولتين، لكن سنحاول مع ذلك توضيح هذه المسألة بما هو متوفّر لدينا من معطيات.

على الرغم من أنّنا لا نملك صورة متكاملة عن وضعية الأسرى المسلمين في الإمبراطورية البيزنطية وكيف كان يتمّ التعامل معهم، إلّا أنّ حالات بعض الأشخاص التي حفظتها الأخبار في المصادر تظهر لنا أنّ الروم لم يكن لديهم قاعدة عامة تحكم وتضبط تعاملهم مع الأسرى المسلمين على ما يبدو، وإتّما كان يخضع ذلك لطبيعة المرحلة وخصوصيّة العلاقات مع الدولة الإسلامية، حيث كان الأسرى يتعرّضون في بعض الحالات لضغوطات كبيرة لإجبارهم على التخلّي عن الإسلام واعتناق المسيحية، سواء عن طريق تقديم الاغراءات والامتيازات<sup>1</sup>، أو من خلال استعمال التعذيب<sup>2</sup>، كما كان يتمّ تسخير بعضهم في مختلف الأعمال والصنائع<sup>3</sup>، حتّى اضطرّ كثير منهم إلى التنصّر تجنبا للتضييق عليهم، وكان من الأسرى حتّى من دخل في خدمة الإمبراطور والدولة البيزنطية، وحفظت لنا الأخبار حتّى أسماء البعض منهم مثل شخصين من أهل بعلبك يحمّلان اسم سابور وقابوس<sup>4</sup>، وكان الأسرى في بعض الحالات يتعرّضون لمحاولات ممنهجة للتأثير على قناعاتهم الدينية ودفعهم إلى التشكيك في عقيدتهم من خلال اخضاعهم لسجلات ومناظرات لاهوتية مع كبار رجال الدين في الإمبراطورية كانت غالبا ما تنتهي بالفشل وبتفوّق واضح للمسلمين<sup>5</sup>، وبالإضافة إلى كلّ هذه الضغوطات النفسية والجسدية التي كانت تمارس على الأسرى المسلمين الذين كان يتمّ الاحتفاظ بهم في مناطق متفرّقة من بلاد الروم نسجّل أيضا قيام البيزنطيين في بعض الأحيان بعمليات اعدام لهؤلاء الأسرى<sup>6</sup>.

لكن مع ذلك لم تكن هذه الحالات قاعدة عامة، فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في الكثير من الأحيان تحسن معاملة الأسرى المسلمين<sup>7</sup>، كما في عهد أحد الأباطرة الروم المعاصرين لمعاوية بن أبي سفيان (قسطنطين الرابع على الأرجح) الذي لم يكن يُستتصام في عهده أسير من المسلمين<sup>8</sup>، وكانت

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 36، ص 228؛ ج 72، ص 53.

2 - ابن عبد الحكم، أبي محمد عبد الله (ت 314هـ): سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح وتعليق أحمد عبيد، مكتبة وهبة، ط 2، ص 144 / ابن الجوزي: المنتظم، ج 7، ص 55.

3 - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص 144 / المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 148.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 21، ص 357.

5 - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 62، ص 378-379.

6 - أبي العرب، محمد بن أحمد (ت 333هـ): طبقات علماء افرقية، دار الكتاب اللبناني، ص 31 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 36، ص 228.

7 - التنوخي، الحسن بن علي (ت 384هـ): الفرج بعد الشدة، تحقيق عيود الشالحي، دار صادر، بيروت 1978، ج 2، ص 192.

8 - المسعودي: المصدر السابق، ج 4، ص 175.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

بيزنطة غالبا ما تراعي الأحكام الإسلامية في التعامل معهم فلم تكن تكره أحدا على تناول لحم الخنزير، كما لم تكن تمثل بهم أو تلحق بهم عاهات جسدية<sup>1</sup>، إلا في بعض الحالات النادرة، وكانت تسمح لهم أيضا بأداء طقوسهم الدينية مثل الصلاة جماعة وقراءة القرآن<sup>2</sup>، ويبدو أنّها قد سمحت بتشييد مسجد في القسطنطينية من أجل ذلك منذ عهد الإمبراطور ليو الإيسوري على الأقل<sup>3</sup>، وربما ترجع هذه المعاملة الحسنة من طرف البيزنطيين إلى خوفهم من ردّة فعل الدولة الأموية في حالة الإساءة إلى من تحتفظ بهم من أسرى المسلمين<sup>4</sup>، خاصة أنّ الخلافة كانت تحتفظ بدورها بعدد لا بأس به من الأسرى الروم، وتمتلك القدرة على الانتقام من البيزنطيين إذا أساءوا معاملة رعايا الدولة الإسلامية في الأسر.

ويبدو أنّ الدولة الأموية اجتهدت مع ذلك في تحسين ظروف سجن الأسرى المسلمين في بلاد الروم من خلال استحداث مكان لإيوائهم في العاصمة البيزنطية كان يطلق عليه اسم البلاط، وقد أعطى المقدسي وصفا دقيقا لمكان هذا البناء داخل القسطنطينية، فيذكر أنّه كان يقع بالقرب من الميدان، غير بعيد عن القصر الإمبراطوري الذي يقابله على الطرف الآخر من الميدان، ويشير إلى أنّ الفضل في انشاء هذا البناء يرجع إلى مسلمة بن عبد الملك الذي اتّفق مع ملك الروم (على الأرجح خلال حملته على المدينة أواخر القرن الأول هجري) أن يتّخذ مكانا يقيم فيه الأشراف من المسلمين إذا أسروا حتّى يكونوا تحت رعايته وفي ضمانته<sup>5</sup>، وترد في المصادر الجغرافية إشارات حول حقيقة هذا المكان الذي استمرّ موجودا إلى غاية القرن الرابع هجري (القرن العاشر ميلادي على الأقل)<sup>6</sup>، أمّا باقي الأسرى فكان يتمّ توزيعهم على مختلف مناطق الإمبراطورية والاحتفاظ بهم في سجون على مستوى الأقاليم<sup>7</sup>.

كانت مدّة الأسر تختلف حسب الحالات والظروف ومدى تحمّس الدولة الأموية لتخليص رعاياها، حيث يمكن أن تطول في بعض الأحيان إلى سنوات عديدة، فقد تعرّض أحد المسلمين من لحم مثلا إلى الأسر زمن معاوية بن أبي سفيان ولم يتمّ إطلاق سراحه من طرف الروم إلا في خلافة عبد الملك بن مروان<sup>8</sup>، في حين بقي الأسرى من حملة القسطنطينية التي قادها مسلمة أواخر القرن الأول هجري عند الروم أقل

1 - المقدسي: المصدر السابق، ص 148.

2 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 195.

3 - Hugh Goddard: A History of Christian-Muslim Relations, Edinburgh University Press 2000, p 47.

4 - نجدت خمّاش: المرجع السابق، ص 365.

5 - المقدسي: المصدر السابق، ص 147.

6 - الحموي: معجم البلدان، مج 1، ص 477.

7 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 192.

8 - التنوخي: المصدر نفسه، ج 2، ص 197.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

من سنتين قبل أن يخلّصهم عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ/718م<sup>1</sup>، وترد الأخبار في المصادر أيضا عن بقاء أربعة من المسلمين في الأسر حوالي خمس سنوات كاملة بين 117-121هـ/735-739م<sup>2</sup>، وليس معلوما الطريقة التي تخلّصوا بها من وضعيتهم حيث تصمت المصادر في هذا الشأن ولا تسعفنا بأي معلومة ممكنة.

في المقابل نجد أنّ المسلمين بخلاف البيزنطيين كانت لديهم قواعد وضوابط واضحة عن كيفية التعامل مع الأسرى وتوضّح وضعيتهم في الدولة الإسلامية استنادا إلى ما نصّت عليه الشريعة الإسلامية وإلى التجربة النبوية العمليّة، وعلى هذا الأساس كان الأسرى البيزنطيون في الدولة الأموية يلقون معاملة حسنة عموما تقيّدا بما نصّ عليه تعاليم القرآن والضوابط الشرعية<sup>3</sup>، وعلى مستوى التنظير الفقهي كانت وضعية الأسرى تخضع إلى أربع حالات: المنّ، والفداء، والقتل، والرّق<sup>4</sup>، وإذا تتبّعنا الواقع العملي نجد أنّ الأسرى البيزنطيين قد خضعوا لكل هذه الأحكام تقريبا حسب الحالات، فقد استخدمتهم الدولة الأموية في عمليات تبادل مقابل أسرى من المسلمين أو مقابل مبالغ من المال كما سنوضح لاحقا، وكانت أيضا تقوم باسترقاق بعضهم والاستعانة بهم في أعمال الدولة، أو تقوم بتوظيفهم للعمل في ممتلكات الخلفاء<sup>5</sup>، ونسجّل أيضا بعض الحالات التي كان يتمّ فيها إعدام الأسرى، ويمكن أن نورد في هذا الموضوع بعض الأمثلة، الحادثة الأولى وقعت أواخر خلافة الوليد بن عبد الملك الذي أصدر أمرا بإعدام الأسرى المسيحيين في بلاد الشام<sup>6</sup>، ولا ندري الدوافع التي جعلت الخليفة يقدم على هذه الخطوة حيث لا تفيّدنا المصادر بأي إشارة عن أسبابها، أمّا الحادثة الثانية فقد وقعت داخل بلاد الروم بالتزامن مع إحدى الحملات التي قادها مسلمة بن عبد الملك واستطاع أن يأسر فيها الكثير من الناس فأقام بموضع هناك وقتل عددا كبيرا منهم<sup>7</sup>، وليس معلوما أيضا سبب قيامه بهذا الأمر حيث لا نجد أي إشارة حول الموضوع، أمّا الحادثة الثالثة فوُجعت في خلافة سليمان بن عبد الملك الذي استقبل وهو بالمدينة منصرفا من الحج حوالي أربعمئة

1 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 140.

2 - الأزدي، يزيد بن محمد (ت 334هـ): تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1967، ص 37. من بينهم شخص يدعى عبد الرحمن بن زياد المعافري، تولّى القضاء في إفريقية في خلافة مروان بن محمد، ويذكر أبو العرب أنّ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور هو الذي فداه من الروم وولّاه القضاء في إفريقية. طبقات علماء إفريقية، ص 27-28.

3 - طه خضر عبّيد: المرجع السابق، ص 3.

Youval Rotman: Op cit, p 773.

4 - ابن سلام: المصدر السابق، ص 221.

5 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 5، ص 60؛ ج 12، ص 247.

6 - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 479.

7 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 29 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 6، ص 271.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

أسير فدفعتهم إلى بعض مرافقيه فقتلوه<sup>1</sup>، وهذه الحادثة وقعت أواخر ذي الحجة سنة 97هـ/أوت 716م، ويتزامن هذا الوقت مع نهاية موسم الغزو وعليه من المؤكد أنّ هؤلاء الروم قد تمّ أسرهم في الحملة التي قادها ابنه داود ناحية ملطية، أو أنّ مسلمة بن عبد الملك هو من أرسل بهم أين باشر حينها الحملة الكبيرة لاستهداف العاصمة البيزنطية، ونسجّل أيضا حادثتين في خلافة هشام بن عبد الملك، الأولى تتعلق بأمر أصدره يقضي بإعدام كلّ الأسرى البيزنطيين في بلاد الإسلام بعدما بلغه اقدم الإمبراطور ليو الثالث على قتل الأسرى المسلمين في بيزنطة، وهو ما لم يكن صحيحا حسب زعم المصادر المسيحية<sup>2</sup>، أمّا الحالة الثانية فتتعلّق بشاب بيزنطي كان قد أُسر سابقا وهو صغير في خلافة عمر بن عبد العزيز فاسترجعه أهله مقابل فدية كبيرة ثمّ وقع أسيرا مرّة أخرى أواخر عهد هشام فتمّ إعدامه<sup>3</sup>، لكنّ المسلمين عموما لم يكونوا يقتلون الأسرى إلّا إذا كانوا لقوا منهم أذى شديدا خلال المواجهات معهم.

لم يكن الأسر وضعيّة نهائية لمن انتهى به المطاف عند أحد طرفي الصراع بل كانت هناك محاولات لتحرير الرعايا من هذه الوضعيّة خاصة من طرف الدولة الأموية، ومن الأساليب المعتمدة في تحرير الأسرى بين الطرفين نظام الفداء الذي يكون إمّا عن طريق دفع المال أو التبادل<sup>4</sup>.

على الرغم من أنّ كلمة الفداء في القرآن<sup>5</sup> لم تأت في حقّ المسلمين الذين يؤسرون من طرف العدو، وإمّا جاءت خاصة بأسرى الأمم التي في حالة حرب ضدّ المسلمين<sup>6</sup>، إلّا أنّ هذا الأمر كان شائعا وموجودا عند العرب من قبل كتقليد قبلي وأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان قد أقرّ فداء المؤمنين حسب ما يذكره ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق في وثيقة المودعة بين مكونات مجتمع المدينة عندما هاجر إليها، وأكثر من هذا اعتبر هذا الأمر مسؤوليّة جماعية (الأمة)<sup>7</sup>، والتي أصبح يمثلها بعد قيام الخلافة أمير المؤمنين باعتباره قائد الأمة والمسؤول عن حفظ أفرادها ورعاياها.

تردّ أولى الإشارات في المصادر عن فداء المسلمين لأسراهم في بلاد الروم خلال العهد الأموي في فترة مبكّرة من قيام هذه الدولة، وبالضبط في السنوات الأولى من خلافة مؤسسها معاوية بن أبي سفيان

---

1 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 547 / الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356 هـ): كتاب الأغاني، تحقيق احسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط 3، 2008، م 15، ص 232.

2 - Theophanes: Op cit, p 573 / Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 501.

3 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 382 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 16، ص 284.

4 - طه خضر عبید: المرجع السابق، ص 6.

Youval Rotman: Op cit, p 773.

5 - سورة محمد، الآية 4.

6 - Youval Rotman: Op cit, p 773.

7 - ابن هشام، أبي محمد عبد الملك (ت 218 هـ): السيرة النبوية، تعليق وتخرّيج عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1990، ج 2، ص 143.

Youval Rotman: Ibid, p 775-776.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الذي بعث رجلا لتخليص من كان في أيدي الروم من أسرى المسلمين<sup>1</sup>، وفي نفس الفترة نجد رواية مشابهة عند المسعودي حول إرسال معاوية في فداء بعض المسلمين كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي الروم بعد أن بلغه استغاثة رجل منهم قرشي معاتبا الخليفة على تقصيره في حقهم بعدما تعرّض للإهانة والضرب على يد أحد القادة البيزنطيين في مجلس الملك<sup>2</sup>، وربما الروايتين هنا تتناولان نفس الحادثة خاصة أنهما متزامنتين، وإن كانت الرواية الأولى لا تقدّم أيّ تفاصيل عن العملية أو نتيجتها فإنّ الرواية الثانية تذكر أنّ معاوية استطاع أن يخلّص ذلك الأسير القرشي، وعلى الأرجح من كان معه من المسلمين أيضا، بعد أن أرسل في فداءه من عند ملك الروم؛ ثمّ استقبله بعد عودته إلى بلاد الاسلام فأحسن إليه وأكرمه<sup>3</sup>، لكنّ الرواية مع ذلك لا تعطينا صورة مكتملة عن هذه العملية حيث لا تذكر ترتيبات هذا الفداء وهل تمّ عن طريق أموال دفعها معاوية لملك الروم أو عن طريق مبادلتها بأسرى من البيزنطيين.

إنّ أهم وأكثروايات وضوحا واكتمالا المتوقّرة عن الفداء في العهد الأموي ترجع لفترة خلافة عمر ابن عبد العزيز أواخر القرن الأول هجري، الذي تصوّره المصادر في صورة الخليفة الحرّيص جدا على استعادة الأسرى المسلمين من عند الروم، حيث جعل من تحرير المسلمين الذين كانوا محتجزين في بيزنطة بعد حصار القسطنطينية أولويّة سياسته مع اعتلاءه عرش الخلافة، فبادر إلى إرسال عبد الأعلى بن أبي عمرة مبعوثا للإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإيسوري في هذا الأمر مع تعليمات تقضي بفداء كلّ من وقع في يد البيزنطيين سواء كان رجلا أو امرأة، حرّا أو عبدا، وأبدى الخليفة من أجل ذلك استعدادا واضحا للقبول بشروط الطرف البيزنطي من أجل التوصل إلى اتفاق يقضي بتخليص المسلمين من الأسر، كما أوصى مبعوثه بإبلاغ الأسرى اهتمام الخليفة بوضعيتهم وتعهده بالعناية بأهلهم حتّى تحريرهم، وبعث إلى كلّ واحد منهم مبلغا من المال معونة يقدر بخمسة دنانير<sup>4</sup>، ينفقونها في حاجاتهم حتّى يحفظ كرامتهم في انتظار إتمام عمليّة فدائهم، وهؤلاء المسلمين المسجونين في بلاد الروم تمّ أسرهم خلال مشاركتهم في حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية أواخر القرن الأول هجري وربما كان عددهم يقدر بالآلاف، وقد صادفت بادرة الفداء هذه التي قادها عبد الأعلى نجاحا كبيرا حيث استطاع في النهاية أن يحرّر أسرى المسلمين بعد الاتفاق مع الطرف البيزنطي على تقديم رجلين من الروم مقابل كل أسير مسلم<sup>5</sup>.

1 - البلاذري: المصدر السابق، ج 5، ص 45.

2 - المسعودي: مروج الذهب، ج 4، ص 172.

3 - المسعودي: المصدر نفسه، ج 4، ص 172.

4 - ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 121-140.

5 - ابن عساكر: المصدر السابق، ج 33، ص 419.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

ونجد أخبارا عن فداء آخر أيضا في عهد عمر بن عبد العزيز حدث بعد أن هاجمت البحرية البيزنطية مدينة اللاذقية وأسرت قسما من أهلها سنة 100هـ/718م<sup>1</sup>، ويظهر هنا اسم شخص آخر غير عبد الأعلى المذكور سابقا تمّ تكليفه بهذه المهمة من طرف الخليفة، وهو إسماعيل بن أبي حكيم، ولا تذكر المصادر أيّ تفاصيل عن هذا الفداء ولا النتيجة التي انتهت إليها ولا حتى الكيفية التي تمّ بها، ما عدا رواية حول رجل عربي من قريش يدعى الواصي التقاه مبعوث الخليفة في القسطنطينية، كانت الروم قد أسرتهم فتنصّر وتروّج هناك، رفض عرض إسماعيل بن أبي حكيم فداءه والرجوع إلى ديار الإسلام<sup>2</sup>، وفي عهد عمر ابن عبد العزيز دائما تمّت عملية فداء رجل مسلم مقابل عشرة من الروم<sup>3</sup>.

وبجانب كلّ عمليات الفداء هذه التي حدثت في عهد هذا الخليفة، كان حريصا أيضا على حفظ المسلمين من الأسر فأوصى عمرو بن قيس عندما ولّاه الصائفة أن يستنقذ من يقع من المسلمين في يد الروم خلال العمليات الحربية ولا يدعه أسيرا عندهم ولو أعطى في سبيل ذلك جميع من في يده من الأسرى البيزنطيين مقابل رجل من المسلمين<sup>4</sup>، وهذا يعكس مدى حرص عمر بن عبد العزيز على تجنب المقاتلين المسلمين البقاء في الأسر وما يمكن أن يتعرّضوا له من تعذيب أو ضغوطات خلال فترة اعتقالهم.

إنّ هذه الأمثلة التي تذكرها المصادر عن الفداء في القرن الأول هجري تُبيّن أنّ الطريقة المعتمدة في المقام الأول لتحرير المسلمين من الأسر كانت من خلال مبادلتهم بأسرى بيزنطيين وليس عن طريق دفع الأموال في سبيل ذلك، خاصة أنّ الدولة الأموية كانت تحتفظ دائما بأعداد كبيرة من البيزنطيين الذين يتمّ أسرهم في الحملات السنوية بشكل يفوق كثيرا عدد الأسرى المسلمين. لكنّ المصادر مع ذلك عندما تستعرض هذه الصور المبكّرة عن عمليات الفداء لا تذكر أبدا أين كانت تتمّ العملية ولا حتى الإجراءات المتعلقة بها، عكس ما نسجّله في العهد العباسي أين نجد تفاصيل أكثر تعطينا صورة كاملة عن العملية من بدايتها إلى نهايتها، وهنا لا يسعنا إلاّ التخمين أنّ عمليات الفداء في العصر الأموي على الأرجح لم تكن تتمّ في الثغور بحضور ممثلين عن الدولتين كما سيحدث لاحقا في العهد العباسي لأنّها ببساطة لم تكن تشمل دائما أعدادا كبيرة من الأسرى من جهة، وبيزنطة حتى نهاية العهد الأموي تقريبا لم تكن معنيّة بصفة رسمية باسترجاع أسراها عند المسلمين من جهة أخرى، كما سنرى فيما يلي من أسطر، وعلى ضوء هذا التحليل يبدو أنّه كان يتمّ إرسال الأسرى المحرّرين مع مبعوث الخليفة بعد إتمام صفقة الفداء والإجراءات المتعلقة بها بين الطرفين دون مراسم خاصّة، ولا بدّ أنّهم كانوا يتوجّهون في البداية إلى دمشق

1 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 152.

2 - ابن الحوزي: المصدر السابق، ج 7، ص 54-55 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 8، ص 384-385-386.

3 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 347.

4 - ابن سعد: المصدر نفسه، ج 7، ص 360 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 68، ص 225.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

أين يتم استقبالهم من طرف الخليفة وكبار رجال الدولة للاطمئنان على حالتهم وتهنئتهم وربما تقديم المساعدات لهم قبل انصرفهم إلى ديارهم وأهلهم.

ومن الطرائف التي حفظتها المصادر حول تحرير الأسرى، أنّ أحد المسلمين من دمشق يدعى واصل كان قد وقع في يد الروم أسيرا في إحدى الحملات أواخر العهد الأموي بعد أن تعرّض لإصابات بليغة خلال المعركة، وقد ظلّ في بلاد الروم يتلقّى معاملة حسنة، فلمّا وقع الخلاف بين الإمبراطور قسطنطين الخامس وصهره أرتياسدوس قائد تيم الأوبسيكيون، قرّر الإمبراطور طلب المساعدة من الخليفة لحسم الصراع ضدّ خصمه فأرسل واصل ضمن وفد إلى دمشق لمقابلة الوليد بن يزيد سنة 125هـ/743م، وتعهّد له بإكرامه وإطلاق سراحه إن هو نجح في أداء الوظيفة التي كُلف بها لإقناع الخليفة بمساعدته ضدّ صهره المتمرّد عليه، فلمّا دخل على الوليد وعلم بأمره وما جرى معه رفض رده إلى الروم وأطلقه<sup>1</sup>.

في المقابل لا نجد معلومات ذات شأن سواء في المصادر العربية أو غيرها يمكن أن تبرز لنا حرص الإمبراطورية البيزنطية لفداء أسراها عند المسلمين والذين كانوا بأعداد كبيرة جدا من دون شك، باستثناء استفادة البيزنطيين من مبادرات المسلمين لفداء أسراهم من أجل مبادلتهم برعايا الإمبراطورية المحتجزين في بلاد الإسلام كما أشرنا سابقا، والحوادث القليلة التي تعرّضت لها المصادر العربية تذكر مثلا قبول مسلمة ابن عبد الملك عرضا من أحد نبلاء الروم وقع أسيرا في إحدى الحملات يفدي نفسه مقابل شابين من المسلمين كانا عنده<sup>2</sup>، وأيضا إطلاق عمر بن عبد العزيز أحد الروم مقابل فدية، وهو مثال فريد من نوعه حيث يمكننا الاطلاع حتّى على المبلغ المتفق عليه في صفقة الفداء هذه، حيث يشير الخبر أنّ أهل أسير من الروم افتدوا صاحبهم من الخليفة مقابل مائة مثقال<sup>3</sup>، ونجد رواية أخرى مشابهة في عهد عمر بن عبد العزيز دائما منسوبة لصاحب الشرطة في دمشق يزيد بن بشر الكلبي عن ربط عائلة من الروم الاتّصال بالمسلمين من أجل استرجاع صبي لهم وقع في الأسر خلال حملة الصائفة، وبعد مشاورات قام بها الخليفة مع بعض رجال حاشيته، الذين تضاربت مواقفهم من العرض، قرّر الموافقة على طلبهم ففدوه بمبلغ كبير لم تذكر الرواية قيمته للأسف<sup>4</sup>، وكما توضّحه هذه الأمثلة لم تكن عمليّات الفداء المذكورة ذات صفة رسمية بإشراف من الدولة البيزنطية، وإنّما جاءت بمبادرة فردية من الأسير نفسه في الحادثة الأولى، ومن أهل الأسيرين في الحادثين الثانية والثالثة والذين يبدو أنّهما كانا ينتميان لعائلات ذات شأن وتتمتع بمقدرات مالية معتبرة، بينما نرى عكس ذلك مع الدولة الإسلامية التي كان رأس السلطة فيها (الخليفة شخصيا) هو من يحرص على فداء الأسرى ويبدل في ذلك كل ما يتطلّبه الأمر باعتباره أمير المؤمنين المسؤول الأول عن

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 62، ص 382.

2 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 30 / ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 6، ص 272.

3 - ابن سعد: المصدر السابق، ج 7، ص 347.

4 - ابن سعد: المصدر نفسه، ج 7، ص 382 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 16، ص 284.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الأمة الإسلامية التي تتجاوز في مفهومها البعد الجغرافي، ومن واجباته الأساسية العناية بأفرادها وضمأن سلامتهم وحرّيتهم.

إنّ اهمال الإمبراطورية البيزنطية لرعاياها وعدم السعي لفدائهم من الدولة الإسلامية يمكن تفسيره بالتقاليد الرسمية التي ترجع إلى فترة سابقة تقضي بعدم تحمّل الدولة مسؤولية تحرير الأسرى الذين يفقدون في هذه الحالة وضعيتهم كأحرار وخصيتهم كقانونية كرعايا للدولة، حتّى بعد السماح للكنيسة ابتداء من منتصف القرن السادس ميلادي بإجراء عمليات فداء للأشخاص المسيحيين في الأسر بموجب مرسومين أصدرهما الإمبراطور جستينيان Justinien سنتي 544م و545م، والذي سمح أيضا للأسير الاحتفاظ بوضعيته العائلية قبل الأسر من خلال إبطال حالة إلغاء الزواج كما كان معمولا به في السابق، ومع ذلك لم تعتبر الدولة مسؤولة قانونيا بصورة مباشرة عن العملية إلّا مع ظهور المسلمين على الساحة السياسية كخصم رئيسي للدولة البيزنطية، عندما أصبحت بيزنطة طرفا لأول مرّة في عمليّة تبادل للأسرى سنة 769م (152هـ) في ظلّ حكم الإمبراطور قسطنطين الخامس، وهذا التغيير يرجع أساسا إلى قانون الإيكولوجا Ecloga الذي أصدره الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري سنة 741م (123هـ) والذي جعل مسؤولية فداء الأسرى من واجبات الدولة<sup>1</sup>، كما أنّ بيزنطة لم تعترف بحقّ الأشخاص في الاحتفاظ بوضعيتهم كأحرار بعد تخليصهم من الأسر إلّا سنة 741م (123هـ) بموجب قانون الإكلوجا دائما وذلك مقابل تعويض يقدمونه للشخص الذي افتداهم أو العمل عنده حتّى يفي بالثمن المطلوب، وقد أحدثت الإيكولوجا تغييرا في وضعية أسرى العدو كذلك، حيث لم يعد اعتبارهم جزء من الغنائم، وإتّما يتمّ الاحتفاظ بهم اجباريا سواء عند قادة الثيمات (ستراتيجوس) أو عند الإمبراطور من أجل أي تبادل محتمل للأسرى<sup>2</sup>، وبهذه التغييرات القانونية لم تضع بيزنطة نفسها كطرف رسمي في عمليات الفداء، كما لم تصبح مسؤولة بشكل مباشر عن تحرير رعاياها من عند خصومها المنافسين إلّا أواخر عهد الدولة الأموية ما يفسّر غياب أي مبادرة رسمية من جانبها طيلة الفترة السابقة إلى غاية قيام الدولة العباسية.

ونسجّل أيضا قيام الدولتين في بعض الحالات بإطلاق الأسرى دون مقابل أو تعويض إمّا بدوافع إنسانية أو سياسية، من ذلك قرار معاوية بإطلاق سراح من كان مع عبد الرحمن بن أم الحكم من أسرى بيزنطيين عندما كان ببلاد الروم غازيا سنة 53هـ/673م<sup>3</sup>، أو عن طريق العتق كما فعل الشاعر الشهير الفرزدق مع أحد أسرى الروم سنة 97هـ/716م وكان قد دفعه إليه سليمان بن عبد الملك ليقتله، فاستوهبه من عند الخليفة فوهبه له فقام بالإحسان إليه وأطلق سراحه<sup>4</sup>، وكان البيزنطيون بدورهم يقومون

<sup>1</sup> - Youval Rotman: Op cit, pp 771-772-773.

<sup>2</sup> - Youval Rotman: Ibid, p 772.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 62، ص 221.

<sup>4</sup> - الأصفهاني: المصدر السابق، ج 15، ص 233.



انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

بمبادرات مماثلة كما فعل أحد الأباطرة الروم (قسطنطين الرابع على الأرجح) عندما أطلق بعض الأسرى المسلمين في بلاده بعدما خسر رهانا كان بينه وبين معاوية بن أبي سفيان<sup>1</sup>، وأيضا كما فعل أحد ملوك الروم مع المسلم من لحم الذي أُسر زمن معاوية فأطلق سراحه في خلافة عبد الملك بن مروان بعد تفوقه في مناظرة جمعته مع كبير رجال الدين في البلاط الملكي<sup>2</sup>، وأطلق جستنيان الثاني سنة 90هـ/708م شخصية إسلامية رفيعة من قادة الدولة الأموية هو أمير البحر خالد بن كيسان الذي وقع في الأسر تلك السنة<sup>3</sup> بعد مواجهة بحرية مع الأسطول البيزنطي في مصر عقب الإنزال الذي قاموا به في دمياط<sup>4</sup>.

ولاحقا أطلق الإمبراطور ليو الثالث أسيرا مسلما في بلاده كان يعيش ظروفًا سيئة بعد أن كتب له عمر بن عبد العزيز في أمره سنة 101هـ/720م، ويبدو أنّ هذا المسلم قد أُسر قبل حملة القسطنطينية التي قادها مسلمة بن عبد الملك بسنوات عديدة حيث لم تشمله عملية الفداء الكبرى التي عقدها عمر بن عبد العزيز مع ملك الروم، ولم يتم اكتشاف أمره إلا بمحض الصدفة عندما خرج مبعوث الخليفة (لعله اسماعيل بن أبي حكيم) يتجوّل في القسطنطينية فسمعه يقرأ القرآن في محلّ للرحى فاستفسره عن قصته، فلمّا رجع إلى دمشق أبلغ الخليفة بذلك فتأثّر لحاله وأرسل إلى ملك الروم يتوعده ويطلب منه إطلاقه وارجاعه إلى المسلمين فاستجاب لطلبه وحزّره<sup>5</sup>.

وهذه الأمثلة القليلة التي حفظتها المصادر يمكن أن نعتبرها نماذج فقط عن حالات أخرى كثيرة مشابهة تعبّر عن ممارسات ربّما كانت تتم على نطاق أوسع، كما أنّها تُقيم الدليل على المعاملات الإنسانية الراقية التي تحلّى بها الطرفين حتّى في ظلّ التنافس واتّصال الحروب بينهما.

## 2 - التفاعل الاجتماعي والثقافي:

كان من نتائج حملات الصوائف والشواتي انتقال عدد معتبر من العناصر المسيحية رعايا الإمبراطورية البيزنطية للاستقرار داخل الدولة الأموية، سواء كان ذلك عن طريق الأسر أو بصورة طوعية، فقد كانت هناك العديد من الحالات التي فضّل فيها رعايا الإمبراطورية الدخول بشكل فردي أو حتّى جماعي تحت سلطان الدولة الإسلامية، وإن كانت المعلومات المتوفّرة عن حياة ودور الأسرى الروم في المجتمع الإسلامي شحيحة جدا، ففي المقابل لدينا معلومات أفضل عن حركة الانتقال والاستقرار الجماعي من بيزنطة إلى الدولة الأموية ونحن هنا معنيين بالحالات المرتبطة بحملات الصوائف والشواتي فقط دون غيرها من الحالات

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 49، ص 432 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 11، ص 360.

2 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 203-204.

3 - الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 442.

4 - عليّة عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية، ص 48.

5 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 144.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

<sup>1</sup>، والمثال الأبرز هنا يتعلّق بشكل خاص بالسلاف الذين تطلق عليهم المصادر الإسلامية اسم الصقالبة، والحالة المتعلّقة بهذه الفئة فريدة من نوعها إذ أنّنا نستطيع تتبّع حركة انتقالهم وأحوالهم، وهي من الحالات النادرة التي توفّر لنا المصادر، انطلاقاً من مناطق استقرارهم في أوروبا مروراً بآسيا الصغرى وصولاً إلى الأراضي الإسلامية، هذه الفئة من السكّان عرفت عملية نزوح كبيرة هرباً من البيزنطيين إلى داخل الدولة الأموية مرتين على الأقل حسب ما هو متوفّر لدينا من معلومات حفظتها الأخبار، أين تمّ توطينهم بالشام والمناطق الحدودية.

إنّ الاشارات الأولى في هذا الشأن ترجع للسنوات المبكّرة لقيام الدولة الأموية عندما أعاد معاوية بن أبي سفيان إطلاق حملات الصوائف والشواتي من جديد، ففي سنة 45هـ/665م انضمت مجموعة من السلاف يقدر عددهم بحمسة آلاف شخص إلى عبد الرحمن بن خالد الذي كان على رأس حملة ضدّ بلاد الروم تلك السنة فعاد بهم إلى الشام أين تمّ توطينهم في سقيلية Seleukobolos بمنطقة أفامية Apameia<sup>2</sup> شمال غرب حماة في سورية، وليس واضحاً في أيّ منطقة من آسيا الصغرى صادف عبد الرحمن هؤلاء السلاف فالمصادر لا تسعفنا بشيء في هذا الأمر، لكنّهم من المؤكّد من العناصر التي أسرها قنسطانز الثاني في حملته الموفقة على تسالونيكاً في البلقان سنة 658م (37-38هـ) وقام بإرسالهم إلى آسيا الصغرى لتوطينهم هناك<sup>3</sup>، وفي حين يمكننا تخمين دوافع انضمامهم إلى المسلمين بسهولة والتي ترتبط بشعورهم المعادي للبيزنطيين الذين قاموا بنقلهم قسراً من مراكزهم في البلقان وتوطينهم في آسيا الصغرى ضدّ ارادتهم<sup>4</sup>، إلّا أنّنا لا نجد بالمقابل تفسيراً منطقياً لقبول المسلمين اصطحاب هؤلاء السلاف (الصقالبة) إلى الشام إلّا إذا كانت هناك رغبة في استغلال وتوظيف خبراتهم العسكرية والجغرافية في الصراع مع البيزنطيين أو الاستفادة منهم في تأمين وتعمير المناطق الحدودية.

أمّا الحالة الثانية فنملك عنها معلومات أكثر وتفصيلاً أدقّ، وحدثت بعد أوّل انتقال للسلاف إلى الدولة الإسلامية بثلاثين سنة تقريباً، لكن هذه المرّة انضمّ عدد أكبر منهم إلى صفوف المسلمين بعد معركة سياستوبوليس عند الحدود الأرمينية سنة 692م (73هـ)، حيث قرّر عشرون ألف من السلاف (أو سبعة آلاف حسب تقديرات ميخائيل السرياني) بقيادة شخص يدعى نبولوس Neboulos بعد اتّفاق بينه وبين قائد المسلمين محمد بن مروان، الانفصال عن الجيش البيزنطي والانخياز إلى جيش الخلافة مقابل

<sup>1</sup> - كانت هناك مثلاً حالة انتقال جماعي للأرمن من داخل الإمبراطورية للاستقرار في ملطية سنة 94هـ/713م بعد الحصول على موافقة الخليفة الوليد بن عبد الملك لكنّها كانت بسبب السياسة الدينية للإمبراطور البيزنطي فيليبوس الذي قام بطردهم نحو الحدود وليست لها علاقة مباشرة بالحملات الموسمية لهذا لا يعنينا هذا المثال هنا في هذا المقام.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit. P 487

<sup>3</sup> - Peter Charanis: Op cit, p 143.

<sup>4</sup> - John Haldon: Warfare, State and Society in the Byzantine World, p 241.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

امتيازات واغراءات كبيرة<sup>1</sup>، وبترتب عن هذه الرواية، التي لا نشك في صحتها بغض النظر عن بعض تفاصيلها والأرقام التي تقدّمها، يترتب عنها تساؤلات كثيرة عن حقيقة إدراك المسلمين لوضعية وأحوال السلاف في الإمبراطورية والجيش البيزنطي؟ واستغلالهم لهذا الأمر، وعن كيفية ربط الاتصال بهم من أجل استمالتهم؟ على كل حال كان هؤلاء السلاف قد جلبهم جستنيان الثاني من البلقان أيضا قبل هذه المعركة بفترة قصيرة جدا حوالي سنة 688م (68-69هـ) فقط، وقام بتوطينهم في كيزيكوس بمنطقة بيشنيا من أجل إعادة إعمارها أين تمّ منحهم أراض زراعية هناك<sup>2</sup>، ما يوحي أنّهم كانوا على الأرجح يحترفون هذا النشاط في مناطق استقرارهم بالبلقان، وبعد التحاقهم بأرض الخلافة تمّ توطينهم في منطقة الثغور، بالتحديد في أنطاكية وقورس<sup>3</sup> من أجل الاستفادة منهم من الناحيتين الاقتصادية والدفاعية حيث نتصور أنّهم باعتبارهم مزارعين قد منحوا أراض زراعية في الحدود لتنشيط هذا القطاع ولتأمين مصدر دخل لهم، كما تمّ أيضا الاستفادة من قدراتهم القتالية لتأمين الحدود وحتى المشاركة في الغزو، حيث نجد لهم أثرا في أخبار المصادر لاحقا في هذا الفضاء الجغرافي خاصة في أنطاكية، كما نعرف أيضا أنه تمّ نقل قسم منهم على الأقل إلى المصيصة على يد مروان بن محمد بعدما قام بتوسعة المدينة<sup>4</sup> في أواخر العقد الثالث من القرن الثاني هجري/القرن الثامن ميلادي، وقد دخل هؤلاء السلاف في خدمة الدولة الإسلامية حيث نجدهم مثلا يشاركون في الغزو ضمن حملات الصوائف والشواتي على بلاد الروم بجانب المسلمين<sup>5</sup>، ونعتقد أنّ هذا الدور العسكري الذي كانوا يقومون به راجع لقدراتهم العسكرية المعتبرة ويُتّهم جدا أن يكونوا قد أعفوا من دفع الجزية مقابل ذلك، بل ربما تمّ تخصيص عطاء لهم أيضا، حيث يذكر ميخائيل السرياني في هذا الشأن أنّ المسلمين كانوا يشركونهم في الجزية والمؤن (الأرزاق)<sup>6</sup>، كما نجد منهم حتى من اكتسب مكانة معتبرة وأصبح من خاصة كبار رجال الدولة الأموية مثل حالة "سلساق" وهو فارس من مدينة أنطاكية تقدّمه المصادر على أنّه قائد الصقلية في جيش مروان بن محمد أواخر عهد الدولة الأموية<sup>7</sup>، ويبدو أنّ البعض منهم أو من الأجيال التي أعقبتهم قد تحوّلوا إلى الإسلام حيث نجد في سنوات خلافة

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 511 / Michel le Syrien: Op cit, Partie 2, p 470.

<sup>2</sup> - عائشة سعيد شحاتة: المرجع السابق، ص 187.

Warren Treadgold: A History of Byzantine State, p 333 / Peter Charanis: Op cit, p 143.

<sup>3</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Tome 2, p 470.

<sup>4</sup> - البلاذري: فتوح البلدان، ص 195.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 513.

<sup>6</sup> - Michel le Syrien: Op cit, Partie 2, p 470.

<sup>7</sup> - الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 324.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

مروان بن محمد رجلين من السلاف كانا من قادة الثغور يحملان أسماء عربية أحدهما يعرف باسم "سلمان" والآخر باسم "زياد الصقلي" <sup>1</sup>.

إنّ تعزيز الوضع الديمغرافي في مناطق الثغور بعناصر من خارج الفضاء الجغرافي للدولة الإسلامية من المؤكّد أنه ساهم ليس فقط في تنويع التركيبة الاجتماعية للدولة الأموية، وإنما أيضا قد أدّى إلى تفاعل حضاري بين مختلف هذه العناصر حيث يبدو من المنطقي جدّا أنّ هؤلاء السلاف قد أدخلوا معهم بعض موروثهم الثقافي والحضاري إلى المجتمع الأموي خاصة في المناطق الثغرية.

من النتائج الاجتماعية المهمّة المترتبة عن اتّصال حملات الصوائف والشواتي على بلاد الروم أيضا، زواج رعايا الدولتين من بعضهم البعض، وهذا الميدان من التفاعل الاجتماعي بين المسلمين والروم على أهميته لم يلق العناية الكافية بالدراسة للأسف وهذا يرجع في جانب منه بشكل كبير لنقص المادة الخيرية في المصادر عن هذه الظاهرة خاصة في الفترة المبكرة، لكن مع ذلك تسعفنا المصادر لحسن الحظّ ببعض الأخبار في هذا الشأن مثل حالة أحد المسلمين من الحجاز يدعى الوابصي كان قد وقع أسيرا في إحدى الحملات خلال القرن الأول هجري فتعرّض لعذاب شديد على يد البيزنطيين حتّى دخل في النصرانية، فاستقرّ في القسطنطينية وتزوَّج هناك بامرأة من الروم وكان له أولاد منها، وفي سنة 100هـ/718م التقاه صدفة مبعوث عمر بن عبد العزيز إلى إمبراطور الروم لفداء المسلمين، فسأله عن حاله فأخبره قصّته، فعرض عليه أن يفتديه ويرجع به إلى أهله في الحجاز فرفض ذلك وفضّل البقاء في بلاد الروم <sup>2</sup>، ومن الأمثلة المشهورة أيضا حالة عبد الله البطّال الفارس المشهور الذي سبى في بعض الغزوات التي شارك فيها مجموعة من النساء من أحد الأديرة فجعل له قائد الحملة نفله منهنّ فاختار احدهنّ فتزوج منها، وكانت ابنة لأحد نبلاء الروم ومن كبار رجال الدولة حيث نعرف أنّه كان يشغل منصب حاكم قلعة أكروينون (أقرن) عندما وقعت المعركة المشهورة بين المسلمين والروم في هذه المنطقة سنة 122هـ/740م حسب المعلومات التي توردها المصادر، وكانت علاقة المصاهرة هذه بين البطّال وهذا النبيل من بلاد الروم سببا في ربط تواصل مستمر بين الرجلين فكان أبوها يرأسه ويبعث له الهدايا <sup>3</sup>.

ونعلم حالة أخرى أيضا مشابهة لحالة البطّال تتعلّق بشاب مسلم من بني كلاب من أمّ بيزنطية تعرّضت للسخي، وكان يشارك في حملات الصوائف مع مسلمة بن عبد الملك <sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - البلاذري: المصدر السابق، ص 176.

<sup>2</sup> - ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 7، ص 55 / ابن عساکر: المصدر السابق، ج 8، ص 385-386.

يذكر الأصفهاني أنّ الوابصي هذا، هو الصلّت بن العاصي بن وابصة من بني مخزوم (قريش)، لكنّه يقدّم رواية مغايرة عن ظروف وأسباب تنصّره واستقراره ببلاد الروم، حيث يروي أنّه التحق بما طوعا بعدما شعر بالإهانة والغضب بعد قيام والي المدينة عمر بن عبد العزيز بجلده بسبب تعاطيه الخمر. راجع كتاب الأغاني، ج 6، ص 86.

<sup>3</sup> - ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 33، ص 403-404 / ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 113.

<sup>4</sup> - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 29-30.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

كما ساهمت حملات الصوائف والشواتي في سبي عدد كبير من البيزنطيين الذين تم الاحتفاظ بهم في بلاد الإسلام ما ساهم في اندماجهم في المجتمع، وقد ترتب عن ذلك على الأرجح نقل وتوطين بعض عاداتهم وأوجه ثقافتهم وموروثهم الحضاري في المجتمع الإسلامي، ومع استمرار جلب البيزنطيات كسبايا في كل حملة تقريبا تزايد عددهن في المجتمع الأموي خاصة في ظل الاقبال المتزايد عليهن وقد كان عبد الملك ابن مروان مثلا ينصح باتخاذ الروميات للخدمة<sup>1</sup>، أما البيزنطيات اللاتي يتم الاحتفاظ بهن كمحظيات وإماء في قصور الخلفاء والأمراء أو حتى الأشراف فقد كنّ أكثر قدرة على التأثير في محيطهن أين حظين بمكانة أفضل باعتبار أنّ بعضهن أصبحن أمهات ولد لأبناء من الأسرة الحاكمة، ومع اختلاط العنصر البيزنطي بالعرب ظهر عدد معتبر من المولّدين من نساء روميات في المجتمع الإسلامي، وقد أتيح للعديد منهم أن يبرزوا ويلعبوا دورا فعالا في التاريخ السياسي والعسكري والاجتماعي للعصر الأموي، ولدينا على الأقل مثالين بارزين عن ذلك.

المثال الأوّل يتعلّق بالعباس، ابن الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهو من أم رومية<sup>2</sup>، وكان أكبر أبناء أبيه وأحبّهم إليه، وقد ترك أثرا في أحداث الدولة بفضل انتسابه للبيت الأموي الحاكم، ولكن أيضا بفضل مؤهلاته وقدراته، فقد كان واليا على حمص في خلافة أبيه الوليد، وكان أيضا بشكل خاص فارسا بمؤهلات جيّدة، وقائدا عسكريا على كفاءة عالية، حيث اشترك في العديد من الحملات العسكرية على بلاد الروم وقاد بنفسه حملات الصوائف لأكثر من 15 سنة تقريبا فتح فيها مدنا وحصونا كثيرة، وساهم مع عمّه مسلمة بن عبد الملك في القضاء على حركة تمرّد يزيد بن المهلب في العراق، وهكذا بفضل كل هذه الإنجازات وسجّله العسكري الحافل استحقّ لقب "فارس بني مروان"<sup>3</sup>.

أمّا المثال الثاني فيخصّ خالد بن عبد الله القسري، الذي كان هو أيضا من أم رومية ويُعدّ من أشراف أهل دمشق<sup>4</sup>، وتختلف الروايات في ظروف اجتماع أبيه عبد الله بن أسد بأمه البيزنطية، ففي حين يورد المبرّد رواية توحى بأنّها كانت أسيرة لديه حيث يذكر أنّ أباه أستلبها من الروم في يوم عيد لهم<sup>5</sup>، نجد صاحب كتاب رغبة الأمل يذكر أنّها كانت عند عبد الملك بن مروان فأهداها له<sup>6</sup>، وقد بقيت أمّ خالد رغم استقرارها في بلاد الخلافة لعقود طويلة، مع إلحاح ابنها خالد عليها لاعتناق الإسلام، على ديانتها النصرانية وكانت تقطن بالشام فكان يكاتبها حتى تلتحق به في الكوفة عندما كان واليا على العراق فلم

1 - ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 7، ص 111.

2 - البلاذري: أنساب الأشراف، ج 9، ص 131 / الطبري: المصدر السابق، ج 6، ص 592.

3 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 26، ص 438.

4 - الأصفهاني: المصدر السابق، ج 22، ص 14 / ابن عساکر: المصدر نفسه، ج 2، ص 275 / ابن العديم: المصدر السابق، ج 7، ص 3069-3070.

5 - المبرّد: المصدر السابق، ج 2، ص 989.

6 - سيد بن علي المرصفي: رغبة الأمل في كتاب الكامل، مطبعة النهضة، مصر، ط 1، 1930، ج 8، ص 290.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

تستجيب لدعوته حتى بنى لها كنيسة هناك<sup>1</sup>، وقد لاقى هذا العمل استنكارا واستهجانا كبيرين من طرف المسلمين، وعبر الفرزدق أشهر شعراء العراق حينها عن هذا الامتعاض بأبيات من الشعر جاء فيها:

أَلَا قَطَعَ الرَّحْمَنُ ظَهْرَ مَطِيَّةٍ      أَتَشَاءُ تَهَادَى مِنْ دِمَشْقَ بِخَالِدِ  
وَكَيْفَ يَبُوءُ النَّاسَ مَنْ كَانَتْ أُمُّهُ      تَدِينُ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِوَاحِدِ  
بَنَى بِيَعَةً فِيهَا النَّصَارَى لِأُمِّهِ      وَيَهْدِمُ مِنْ كُفْرٍ مَنَارَ الْمَسَاجِدِ<sup>2</sup>

أما ابنها خالد فقد تبوأ مكانة مشهودة في منظومة الحكم الأموي أين تدرج في مناصب كثيرة في الجهاز الإداري للدولة طيلة أكثر من ثلاثين سنة، فقد كان أميراً على مكة في خلافة الوليد وجزء من خلافة سليمان بن عبد الملك<sup>3</sup>، وقائداً لشرطة الكوفة لفترة قصيرة في ولاية عمر بن هبيرة على العراق<sup>4</sup> خلال خلافة يزيد بن عبد الملك، ثم ارتقى إلى ولاية العراق وخراسان في عهد هشام بن عبد الملك<sup>5</sup>، ما يعني أنه كان مسؤولاً فعلياً عن كل الجناح الشرقي للدولة الأموية تقريباً، وبقي محتفظاً بمنصبه لمدة 15 سنة وهي أطول فترة ولاية من بين كل الولاة الذين تعاقبوا على هذا المنصب، وقد شهد العراق في عهده استقراراً سياسياً وأمنياً ملحوظاً.

أما عن الأسرى من الرجال، فليس لدينا معلومات مستفيضة عن حالتهم ودورهم في المجتمع في عصر الدولة الأموية لكن مع ذلك نملك على الأقل معلومات كافية عن حالتين اهتمت كتب التاريخ والطبقات بتسجيل أخبارهما، تتعلق الحالة الأولى بـ "أبي عبد رب الزاهد" وهو رجل من أصل رومي كان اسمه "قسطنطين"، ليس معروفاً تماماً كيف ومتى انتهى به المطاف في الشام، لكن من خلال ارتباطه بالولاء لشخص يعرف بابن غيلان الثقفي يبدو ربما أنه قد جلب أسيراً في سن مبكرة إلى بلاد الإسلام وكان مملوكاً لهذا الشخص من ثقيف قبل أن يتم اعتقاله لسبب ما، وقد اعتنق الإسلام وتسمى بعبد الرحمن، والروايات تظهر أنه كان يحضر مجالس كبار العلماء من التابعين في خلافة معاوية فيسمع منهم<sup>6</sup>، وقد سكن دمشق وكان يتمتع بوضع مالية واجتماعية جيدة بفضل اشتغاله بالتجارة أساساً ليس فقط على المستوى المحلي بل امتد نشاطه حتى إلى أذربيجان، وكان يمتلك أموالاً وعقارات كثيرة جعلت منه أحد أغنى أهل دمشق<sup>7</sup>، وكان يحظى باحترام كبير في المجتمع أولاً بفضل أسلوبه البسيط في العيش رغم امتلاكه كل مقومات

1 - البلاذري: المصدر السابق، ج 9، ص 63.

2 - المبرد: المصدر السابق، ج 2، ص 989.

3 - خليفة: المصدر السابق، ص 310-317.

4 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 16، ص 140.

5 - البلاذري: المصدر السابق، ج 9، ص 31 / الطبري: المصدر السابق، ج 7، ص 26.

6 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 67، ص 49-51.

7 - البسوي، يعقوب بن سفيان (ت 277 هـ): المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط 1، 1410هـ،

ج 2، ص 417-419.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

الترف والحياة الرغيدة فكان ذلك سببا لأن يرتبط اسمه بكنية الزاهد، وأيضا بفضل أخلاقه وطيبته واهتمامه بالفقراء والضعفاء من الناس حيث تذكر المصادر في هذا الشأن أنه باع كل ممتلكاته وداره مقابل أموال كثيرة وأنفق جميع ثروته في أعمال البرّ والخير فما وجدوا معه عند موته إلا قدر ثمن كفنه، وقد توفي في خلافة هشام بن عبد الملك، في نهاية العقد الأول من القرن الثاني هجري<sup>1</sup>.

أما الحالة الثانية فتتعلق بأحد موالى عبد الملك ويدعى "مغيث"، تمّ سببه من بلاد الروم وهو صغير وانتهى به المطاف في دمشق عند عبد الملك بن مروان الذي قام برعايته وتأديبه مع ابنه الوليد<sup>2</sup>، ما يوحي أنّ وقوع مغيث في الأسر كان في النصف الثاني من القرن الأول هجري وأنّه كان قريب السنّ من ابن الخليفة، وقد أتاحت له التنشئة في بيت ذو نفوذ وحظوة مستوى عال في الأدب والفروسية حيث درس العربية وآدابها وتحكّم فيها حتّى أنه كان ينظم الشعر والنثر، وتدرّب على ركوب الخيل والقتال ما ساهم في تطوير مهاراته العسكرية والقيادية فكان يتّصف بالشجاعة وحسن الرأي والتدبير، وقد ضمنت له هذه المؤهلات ثقة الخلفاء من بني مروان خاصة الوليد وسليمان الذين كانا يستشيرانه خاصة فيما يتّصل بالمسائل المتعلقة بالأندلس<sup>3</sup>، وكانت أكبر الأعمال التي اضطلع بها المشاركة في فتح الأندلس مع طارق بن زياد، حيث قاد سرية من سبعمائة فارس توجه بها إلى قرطبة، وكانت تعدّ من أعظم مدن الأندلس حينها، ففتحها وأسر حاكمها فتفرّد بهذا العمل على غيره من قادة الفتح حيث لم يؤسر من أمراء الأندلس غيره<sup>4</sup>، وقد استمرّ مغيث في خدمة الخلافة حتّى وفاته في بلاد المغرب مشاركا في جهود اخماد ثورة البربر هناك سنة 122هـ/740م حيث عينه هشام بن عبد الملك مساعدا ومستشارا لكثوم بن عياض قائد الجيش الذي جمّعه الخليفة لمواجهة التمرد أين أسندت له قيادة رجالة أهل افريقية ضمن الجيش<sup>5</sup>.

في الأخير يمكننا الجزم بأنّ هذه الحالات التي تمّ الاستشهاد بها كنماذج، لوضعية ربّما كانت أكثر انتشارا ورسوخا في المجتمع الأموي ممّا تعكسه الأخبار القليلة في المصادر خلال القرن الأول هجري، تُبيّن قدرة الأسرى البيزنطيين في بعض الحالات المعيّنة على الاندماج في المجتمع الإسلامي وتحقيق مكانة محترمة ضمن بنيته، وحتّى المساهمة بفعالية في الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيه.

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 67، ص 56-57.

2 - المقرئ، أحمد بن محمد (ت 1041هـ): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، لبنان، مج 3، ص 12.

3 - المقرئ: المصدر نفسه، مج 3، ص 13.

4 - ابن عذاري، أحمد بن محمد (ت 712 هـ): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2013، م 2، ص 15-16.

5 - مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة؛ دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط 2، 1989، ص 37-38-39.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

في المقابل نجد على الجانب البيزنطي مثالا فريدا عن تأثير بعض الروم، الذين اختبروا تجربة الأسر، في الحياة العامة في بلادهم بعد تحرّهم من جديد، والمثال البارز عن ذلك يخصّ أحد كبار رجال الدولة الذي اهتمّت المصادر البيزنطية بتسجيل جوانب من دوره في الحياة السياسية والدينية في الإمبراطورية، ويتعلّق الأمر بابن أحد نبلاء الروم كان قد وقع في الأسر بداية القرن الثاني هجري/القرن الثامن ميلادي على الأرجح فنشأ في قصر الخليفة الأموي (ربما يزيد أو هشام ابني عبد الملك) الذي أطلق عليه اسم بشير (Beser في المصادر البيزنطية) واهتمّ برعايته وتأديبه ووفّر له تنشئة اسلامية فاستطاع إتقان العربية وآدابها وقرأ القرآن والحديث وأدّى مناسك الحج، فلما شبّ هرب إلى بلاد الروم وارتدّ إلى النصرانية أين تمّ التحقّق عليه هناك وإرساله إلى الملك (كان على العرش البيزنطي حينها ليو الثالث الإيسوري) الذي حاوره فأعجب به وجعله من خاصة قادة دولته<sup>1</sup>، وتؤكّد الروايات البيزنطية هذه الأحداث بشكل عام وتعمل على إبراز دوره السليبي في الشأن العام داخل الإمبراطورية في تلك الفترة، حيث تجعل منه أحد العناصر المؤثّرين في سياسة الإمبراطور ليو الثالث الدينية وأحد أكبر المؤيدين له في حملته المعادية للأيقونات، ولا تنوان في إبراز خلفيته الفكرية المتأثّرة بالمعتقدات الإسلامية ومحاولة ربطها بموقفه المناهض لعبادة الصور المقدّسة<sup>2</sup>، ما يوحي أنّها كانت ترى في تصرفاته المناهضة للمسيحية في اعتقادها تأثير واضح للأفكار الدينية التي اعتنقها خلال فترة أسره بالشام وهذا ما يفسّر وصفها له بأنه عربي التفكير - Saracen minded<sup>3</sup>، وفي الحقيقة لا يبدو هذا الربط بين تنشئة بشير "Beser" في بلاد الإسلام وموقفه من عبادة الصور أمرا غريبا فالمعلوم أنّ الإسلام له موقف معارض لكل أشكال الصور والتماثيل التي تجسّد الكائنات الحية<sup>4</sup>، خاصة إذا كانت جزء من طقوس تعبدية، كما يبدو من المحتمل جدّا أنّ بشير عايش خلال الفترة التي قضاه في بلاد الخلافة أحداث الحملة التي قام بها الخليفة يزيد بن عبد الملك على هذه المظاهر أو تداعياتها حين أصدر مرسوما بإزالة الأيقونات من الكنائس في بلاد الإسلام بتحريض وتأثير من ساحر يهودي من سكان اللاذقية حسب ما تورده المصادر البيزنطية<sup>5</sup> ابتداء من سنة 103هـ/721م، وبجانب الترسبات الفكرية الإسلامية التي تكون قد ترسّخت فيه لا يبدو مستبعدا تأثر بشير بهذه الحملة حتّى أنّ بعض الأساقفة البيزنطيين أنفسهم ممّن عاصروا الحركة اللاأيقونية أشاروا إلى التأثير الاسلامي في هذا العمل، حيث يذكر الأسقف يوحنا المقدسي John of Jerusalem مثلا أنّ انتشار التيار

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 62، ص 377-378.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, pp 555-559.

<sup>3</sup> - Theophanes: Ibid, p 575.

<sup>4</sup> - عبد الرحمن محمد العبد الغني: إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة الإمبراطور ليو الثالث اللاأيقونية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 57-58، 1996، ص 74.

<sup>5</sup> - Theophanes: Op cit, p 555.



انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

المناهض للأيقونات يرجع إلى انتقال «وباء التحريم» من الدولة الإسلامية إلى بيزنطة<sup>1</sup>، وهكذا نجد أنّ ليو الثالث بتأييد من بشير يطلق بعد خمس سنوات من إجراء يزيد بن عبد الملك، حملته الخاصة ضدّ الأيقونات في بلاده سنة 108هـ/726م. على أنّنا هنا نريد من وراء هذا المثال الخاص ببشير إبراز فرص انتقال التأثيرات الإسلامية إلى بيزنطة عبر الأسرى الروم الذين استطاعوا التخلّص من احتجازهم والعودة إلى بلادهم وليس التفصيل في مختلف الدوافع التي حفزت الحركة المناهضة لتقديس الأيقونات في الإمبراطورية لعقود طويلة. وقد استمرّ بشير في لعب دور بارز في الحياة السياسية والعسكرية والدينية في الإمبراطورية خلال عهد ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس حتّى مقتله في معركة ضد المتمرّد أرتاباسدوس Artabasdos سنة 741م (123هـ) بناحية تيم الأوبسيكيون<sup>2</sup>.

كان من نتائج حروب الصوائف والشواني على الصعيد الحضاري أيضا بداية التفاعل اللغوي بين جانبي الحدود، فقد أصبحت اللغتين العربية واليونانية مألوفتين خاصة بين سكان منطقة الثغور بحكم الاختلاط وضرورة التعايش والتعامل اليومي بين المسلمين والروم، حيث يتمّ استغلال هؤلاء غالبا كمرشدين وجواسيس لأحد الطرفين<sup>3</sup>.

تفيد المصادر العربية في هذا الشأن مثلا أنّ الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري كان يتكلّم العربية بطلاقة، وهذا على الأرجح راجع إلى نشأته في منطقة الثغور، وهو التفسير الذي تعتمده المصادر أيضا التي تربط في إشارة خفيفة بين "لسانه العربي" ونشأته في مدينة مرعش<sup>4</sup>، التي تناوبت الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية السيطرة عليها في الكثير من المرات، كما أنّه كان قائدا لبند الأناضول ما جعله في احتكاك مباشر ومتواصل تقريبا مع العرب المسلمين، لهذا لا يبدو مستبعدا أبدا أن يكون هذا الشخص البارز في التاريخ المشترك البيزنطي-العربي متمكّنا من لغة خصومه الرئيسيين، وإن ركّزت المصادر على حفظ هذا المثال لشخصية ذات شهرة كبيرة فالأكيد أنّ العديد من الأشخاص الآخرين الأقل رتبة أو حتّى العاديين كانوا هم أيضا يتمتّعون بنفس الميزة حيث كان العديد من الروم من سكان الثغور يتكلّمون العربية ويتمّ استغلالهم في التجسس على المسلمين وجمع الأخبار عن حملاتهم من خلال الاختلاط بجيوشهم<sup>5</sup>، عادة في هيئة تجّار أو رعاة وقرويين بسطاء.

وبالمقابل تعلّم كثير من المسلمين أيضا اللغة اليونانية في ظروف مختلفة، ومن الأمثلة على ذلك الفارس المشهور عبد الله البطال الذي كان واليا على أنطاكية في الحدود، وبحكم استقراره في هذه المنطقة

<sup>1</sup> - العبد الغني: المرجع السابق، ص 77.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 575.

<sup>3</sup> - Marius Canard: Op cit, p 45.

<sup>4</sup> - الميرد: المصدر السابق، ج 2، ص 637 / مجهول: العيون والحدائق، ج 3، ص 25.

<sup>5</sup> - ابن عسّكر: المصدر السابق، ج 46، ص 445.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

فترة طويلة وكثرة غزواته لبلاد الروم تعلّم لغتهم وكان يتقنها بشكل جيّد<sup>1</sup>. وكان الأسر أيضا من الأسباب التيّ تساعد على تعلّم لغة البيزنطيين حيث كانت الإقامة لوقت طويل داخل الإمبراطورية البيزنطية والاحتكاك المباشر اليومي بالروم تقتضي بالضرورة أن يتعلّم الأسرى اللغة اليونانية لتسهيل قضاء شؤونهم اليومية هناك، مثل حالة قباث اللخمي الذي تعرّضنا لقصته سابقا<sup>2</sup>.

وهكذا يظهر أنّ الحملات السنوية والمواجهات المستمرة مع الروم شكّلت محفّز لإثراء المجال الأدبي فكان الشعر والقصص وسيلة لتخليد البطولات وتمجيد الفاعلين فيها، كما كانت المواجهات المستمرة سببا في وضع أسس لتفاعل وتبادل حضاري بين الطرفين من خلال انتقال متبادل للعناصر السكانية سواء بشكل إرادي أو عن طريق الأسر، وهذا الاحتكاك المباشر ساهم في التعرّف على الخصائص الثقافية والحضارية للمجتمعين الإسلامي والبيزنطي ما سهّل انتقال مثل هذه التأثيرات بين الطرفين.

### ثالثا- على المستوى الدبلوماسي:

خلقت حالة الحرب المستمرة بين المسلمين والروم ضرورة إيجاد سبل دبلوماسية في بعض الأحيان لإنهاء العمليات العسكرية بين الطرفين وتجاوز حالة الانهك بسبب الصراع المزمّن أين كان يجري تبادل السفارات بين دمشق والقسطنطينية لعقد هدن تتيح للطرفين خروج مقبول ومعقول من وضعية عسكرية حرجة، وقد كانت هذه السفارات تتمّ بمبادرة أحد الطرفين حسب الحالة التي يمرّ بها والحاجة التي يشدها، لكنّ هذه الاتّصالات في نهاية الأمر قد ساعدت على التأسيس لنوع من العلاقات القائمة على الاحترام المتبادل بين دولتين كانتا تعتبران الأكثر تحضرا في زمانهما من بين جميع الأمم الأخرى، وترجع بداية الاتّصالات إلى فترة سابقة لقيام الدولة الأموية واستمرت قائمة منذ ذلك الحين، وتحتفظ المصادر العربية وحتى البيزنطية بمعلومات معتبرة عن هذه الاتّصالات المبكّرة بين الدولتين، وقد كانت هذه المبادرات بين الطرفين تقابل عموما بارتياح وإيجابية ويتمّ فيها استقبال المبعوثين بحفاوة مع إظهار كل إشارات التقدير والاحترام<sup>3</sup>، ولا يهّمنا في هذا المقام إلّا استعراض تلك الاتّصالات والسفارات المرتبطة بموضوع بحثنا وتعتبر كانعكاس مباشر للنشاط العسكري الموسمي الذي كانت تقوم به الدولة الأموية ضدّ الإمبراطورية البيزنطية، ذلك أنّ الاتّصالات بجانب هذا أيضا كانت قائمة من أجل مصالح ذاتية كطلب المساعدة عند الحاجة، أو من أجل التدخّل لبحث شروط تحرير الأسرى، وكانت هناك حتىّ سفارات شخصية خاصة بحكّام الدولتين تحمل خطابات متبادلة وكذلك هدايا ومجاملات، وهذا ممّا لا يعني هذا العنصر من بحثنا بشكل مباشر.

أولى الاتّصالات التيّ سُجّلت في العهد الأموي حدثت في السنوات الأولى من حكم الإمبراطور قسطنطين الرابع، حيث شكّل ضغط المسلمين الكبير على أقاليم الإمبراطورية في آسيا الصغرى ازعاجا

1 - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 33، ص 404.

2 - التنوخي: المصدر السابق، ج 2، ص 194.

3 - إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 250.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

مزمنا للبيزنطيين ما دفع الإمبراطور لإرسال مبعوث خصي إلى معاوية سنة 53هـ/673م من أجل التحايل لعقد صلح ينهي الحملات الموسمية على بلاده، وقد انتهت هذه السفارة إلى اتفاق بين الطرفين يقضي بتوقيف العمليّات العسكرية وإطلاق سراح الأسرى الذين كانوا مع عبد الرحمن بن أم الحكم في بلاد الروم، وكان حينها يمضي فصل الشتاء هناك، مقابل تنازلات من طرف البيزنطيين، وأرسل معاوية اثنا عشر رجلا من حرسه كرهائن لضمان الاتفاق، لكنّ الإمبراطور لم يفي بوعده وقتل معظم الرهائن ولم يحتفظ إلاّ باثنين منهم فقط<sup>1</sup>، وقد كان هذا العمل العدائي غير المبرّر سببا في تجدد الحملات الموسمية الإسلامية على بلاد الروم وفرض الحصار على القسطنطينية لمدة سبع سنوات كاملة. ولا ترد هذه الرواية إلاّ في المصادر العربية ولا نجد ما يدعمها للأسف في المصادر البيزنطية أو السريانية ما يجعلنا نعتمدها بنوع من التحفظ وهذا لا يعني بتاتا رفضها دون دليل يمكننا أن نطمئن إليه في نقضها.

بعد ذلك بسنوات قليلة وعلى إثر فشل حملة الاستيلاء على القسطنطينية بين سنوات 54-60هـ/674-680م، وتزايد خطر المردة في جبال لبنان، اضطرّ معاوية هذه المرّة لإرسال سفراء إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع من أجل بحث ترتيبات انهاء الحصار والعمليّات العدائية بين الدولتين وإقرار السلام بين الطرفين، وقد تفاعل الإمبراطور مع هذه الخطوة التي بادر بها معاوية، بشكل إيجابي حيث رحّب بهذا العرض وأرسل إليه أحد النبلاء البيزنطيين يدعى يوحنا John، الذي تذكره المصادر بتقدير كبير وتصفه بالرأي والخبرة الواسعة، وقد تمّ استقباله في دمشق بحفاوة كبيرة من طرف معاوية شخصيا مع كبار الأمراء ورجال الدولة، ويبدو أنّ هذا المبعوث كان حقّا كما تصفه المصادر يتميّز بالحنكة السياسية ويتمتع بقدرات دبلوماسية عالية وامكانيات كبيرة في فن التفاوض إذ استطاع أن يصل إلى اتفاق مع المسلمين يقضي بالتزام الخلافة دفع مبلغ ثلاثة آلاف قطعة ذهبية سنويا، مع خمسين عبدا وخمسين جوادا لصالح الإمبراطورية البيزنطية لمدة ثلاثين سنة، وتمّ تبادل نسختين من الاتفاق بين الطرفين، ليعود بعدها إلى الإمبراطور محمّلا بالهدايا<sup>2</sup>، وامتيازات كبيرة لصالح الروم بموجب هذا الاتفاق.

إنّ هذه الاتفاقية لا نجد لها أي إشارة في المصادر العربية أو السريانية حتّى نتأكد من صحّة مضمونها، كما أنّ بعض شروطها تبدو غير منطقية أبدا، فبالإضافة إلى قيمة مبلغ الصلح الهزيلة والتي يعتقد كلّ من بيوري وأرشيبالد لويس أنّها ثلاثة آلاف رطل سنويا<sup>3</sup> وليس ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، نلاحظ أنّ

<sup>1</sup> - ابن عساکر: المصدر السابق، ج 62، ص 221.

يذكر اليعقوبي عكس هذه الرواية تماما، وأنّ معاوية قد رفض طلب ملك الروم عقد الصلح بين الطرفين مقابل مائتي ألف دينار، واستمر في إطلاق حملات الصوائف والشواني، انظر تاريخه، ج 2، ص 125.

<sup>2</sup> - Theophanes: Op cit, p 496.

<sup>3</sup> - أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية، ص 97.

Bury: Op cit, Vol 2, p 312.

انعكاسات الحملات على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم .....

مدّة سريان الاتفاق طويلة جدًا ولا تتوافق مع سياسة معاوية تجاه الروم وجهوده في مواجهتهم حيث يصعب التصديق أنّ معاوية الذي كان يرى أنّ الصراع مع الروم يعتبر أولوية من بين كل المواجهات التي كانت الدولة الإسلامية تخوضها مع القوى المجاورة يقبل بهذه الفترة الطويلة من السلم معهم حتّى في ظلّ حاجته الملّحة للهدنة حينها نظرًا للظروف التي كانت تمرّ بها الدولة.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك عندما اشتدّت وطأة الجيوش الإسلامية على آسيا الصغرى وارتفعت وتيرة عمليّات الصوائف استعدادًا لغزو القسطنطينية من جديد، لجأ الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس Anastasios إلى التفاوض من أجل السّلم، فأرسل وفدا يضمّ كبار رجال الدولة، منهم المشرف على العاصمة الإمبراطورية دانييل سينوبيتس Daniel Sinopites، وبجانب محاولة الحصول على اتفاقية سلام مع الدولة الأموية اضطلعت هذه السفارة بمهمّة أخرى سرّية حسب المصادر البيزنطية تقضي باستطلاع حجم القوّة وطبيعة الاستعدادات التي يقوم بها المسلمون لغزو القسطنطينية<sup>1</sup>، ولا تذكر بعد ذلك المصادر أي تفاصيل أخرى عن حيثيات هذه السفارة ولا النتيجة التي حققتها، لكن مع ذلك يمكن أن نصل إلى استنتاج منطقي عن ذلك من خلال تتبّع توالي الأحداث بعدها، حيث يدلّ مباشرة الإمبراطور جهودًا استثنائية لتعزيز القدرات الدفاعية للعاصمة بعد عودة الوفد<sup>2</sup> على فشل السفارة في اقناع المسلمين بعقد اتفاقية السلام، لكن الاستعدادات الكبيرة التي قام بها أنستاسيوس لتحصين العاصمة ومواجهة الخطر المرتقب لم تكن إلّا نتيجة معلومات دقيقة عن تحضيرات المسلمين الجديّة للزحف على حاضرة الإمبراطورية البيزنطية، ونجاح الوفد في معاينة قدرات المسلمين الحقيقية، وبالتالي يمكن الجزم أنّ هذه السفارة قد حققت أدنى أهدافها المتمثّلة في استطلاع حجم الخطر الوشيك الذي يهدّد العاصمة القسطنطينية.

في ختام هذا المبحث نلاحظ أنّ حملات الصوائف والشواتي ساهمت بشكل كبير - وغير مقصود في بعض الأحيان - في خلق مجالات متعدّدة من التفاعل الحضاري والانساني بين الدولتين الأموية والبيزنطية وشعبيهما خارج إطار المواجهات والحروب المستمرة التي تتجلّى خاصة في هذه الحملات الموسمية وتحتلّ مساحة كبيرة في فضاء العلاقات بين الطرفين حتّى تكاد تغطّي تماما على بقية الجوانب الأخرى، ومجالات التفاعل الحضاري هذه بكلّ خصائصها تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة لإبرازها بكلّ تفاصيلها الدقيقة اسهاما في استكمال صورة طبيعة العلاقات بين المسلمين والروم والتفاعلات القائمة بينهما.

<sup>1</sup> - Theophanes: Op cit, p 534 / Nikephoros: Op cit, p 117.

<sup>2</sup> - Theophanes: Ibid, p 534.

جامعة الأمير عبد القادر  
العلمية الإسلامية

## خاتمة:

إنّ حملات الصوائف والشواتي التي تمّ اعتمادها منذ العهد الراشدي كاستراتيجية تركز على إرسال حملات عسكرية موسمية سريعة وخاطفة تستهدف الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى لم تعرف أوج نشاطها وعنفوانها إلا في ظل الحكم الأموي، حيث تركت الأسرة الأموية بصمة واضحة في تاريخ هذه الحملات تنظيماً وقيادة من خلال دورها الحيوي والفعال في اطلاق وتثبيت وتطوير هذه المنظومة الوقائية في مواجهة الروم، فقد رسّخ معاوية بن أبي سفيان منذ كان والياً على الشام والجزيرة ثمّ خليفة على الأمة الإسلامية بعد ذلك هذا التقليد السنوي بحرص شديد وإصرار كبير وإليه يرجع الفضل في وضع معالم هذه الاستراتيجية بكل تنظيماتها ومعالمها، ثمّ قام لاحقاً عبد الملك بن مروان بتأكيد الالتزام بهذه المنظومة والتمسك بها، وسار من جاء بعده على هذا النهج إلى غاية تفكك دولتهم.

وبعد استعراض تفاصيل حملات الصوائف والشواتي التي قام المسلمون بتجهيزها واطلاقها ضدّ الروم خاصة العهد الأموي، مع دراسة وتوضيح كلّ الجوانب المرتبطة بهذا النشاط العسكري الموسمي، من دوافع وأهداف، إلى العوامل المؤثرة فيها ومراحل اعدادها والاستراتيجيات التي طبقتها، وصولاً إلى الانعكاسات المترتبة عنها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وحضارياً، يمكن أن نستخلص أخيراً أهم ما توصلنا إليه في هذه الدراسة من نتائج وملاحظات في النقاط التالية:

\* صعوبة دراسة الموضوع، إذ أنّ المعلومات المتوفرة عن هذا النشاط في المصادر الرئيسية، سواء كانت عربية أو بيزنطية أو حتى سريانية، غير كافية فرغم اهتمامها بالإشارة إلى الحملات الموسمية بشكل سنوي تقريباً وحرصها على تدوين أسماء قادتها، إلا أنّها مع ذلك تسجّل الكثير من الارتباك والتضارب في الأخبار التي توردها فيما يتعلّق بأسماء قادة الحملات ومناطق نشاطها، مع اهمال تام في معظم الحالات لأحداث الحملات ونتائجها، بالإضافة إلى نقص أو غياب المعلومات المتعلقة ببعض الجوانب المتصلة بالظاهرة موضوع الدراسة مثل الدوافع والأهداف والانعكاسات المترتبة عن حملات الصوائف والشواتي.

\* تركيز المسلمين على اعتماد حملات الصوائف بشكل رئيسي، خاصة في ظلّ حكم الفرع المرواني من الدولة الأموية، نظراً للظروف المساعدة التي ترافق تنفيذ العمليات في فصل الصيف بعكس حملات الشواتي التي تتعرض لصعوبات لوجستية ومناخية كثيرة تحدّ من فعاليتها، لهذا لم يكن يتمّ اللجوء إليها إلا عند الضرورة.

\* حيوية الدور الذي قامت به الأسرة الأموية في تأسيس وتثبيت وتطوير منظومة حملات الصوائف والشواتي منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام والجزيرة في العهد الراشدي حتى آخر خلفاء هذه الدولة، حيث كان التزام الأمويين بهذا النشاط العسكري عاملاً مهماً في الحفاظ على استمراره وترسيخه كتقليد سنوي خاصة مع استحداث نظام الصائفتين (اليمنى واليسرى) مع نهاية

القرن الأول هجري/القرن الثامن ميلادي، وبلغ من اهتمامهم واعتنائهم بحملات الصوائف والشواتي أن حصروا تقريبا قيادتها في أفراد البيت الحاكم من إخوة وأبناء الخلفاء خاصة في الفترة المروانية.

\* حملات الصوائف والشواتي كانت جزء من استراتيجية عامة تبنتها الدولة الإسلامية في مواجهة خصمها الرئيسي الإمبراطورية البيزنطية، وهي تتكامل مع نظام الثغور الذي وضعته الدولة وكلّ الإجراءات المرافقة له لتحجيم خطر الروم وتحييدهم.

\* تعدّد دوافع وأهداف هذا المجهود العسكري الذي كانت تقوم به الخلافة، واختلاف أولوياته حسب الظروف العامة لكلّ فترة ومميزاتها طيلة العهد الأموي، ويمكن حصرها في الجوانب الأمنية والعسكرية، والإيديولوجية، والاقتصادية، مع ملاحظة الأفضلية النسبية للعوامل الأمنية التي كانت حاضرة بقوة دائما في استراتيجية حملات الصوائف والشواتي منذ انطلاقها في العهد الراشدي وطيلة العهد الأموي.

\* خضعت حملات الصوائف والشواتي إلى تأثيرات عديدة داخلية وخارجية كان لها انعكاس مباشر على أداء مهامها وحيويتها وفعاليتها ومن ثمّ النتائج التي حققتها، فالحملات كانت تعرف انتعاشا كبيرا في فترات السلم والاستقرار وتماسك الجبهة الداخلية، بينما تتراجع وتيرتها، بل وتنقطع استمراريتها، كلّما دخلت الأمة في فتن وصراعات داخلية، كما أنّ الأوضاع الإقليمية بدورها كانت تؤثر على وتيرة الحملات الموسمية حيث نلاحظ أنّها تصبح أكثر توفيقا ونجاحا كلّما كانت بيزنطة تنحدر إلى الفوضى وتنشغل بانقساماتها واضطراباتها الداخلية، بينما تواجه صعوبات وتحديات حقيقية تُضعف من فعاليتها كلّما كانت الإمبراطورية أكثر استقرارا وتماسكا، كما نلاحظ أيضا تأثير الأوضاع في أرمينية والقوقاز كذلك على وتيرة الحملات الموسمية التي تصبح أكثر روتينية ومحدودة النشاط والقوة كلّما بدأ الأرمن والخزر التحرك ضدّ المسلمين في المنطقة، ما يساهم في استقطاب تركيز ومجهودات الخلافة بتطوّرات الأحداث هناك فيشغلها عن صراعها مع خصمها الرئيسي الإمبراطورية البيزنطية.

\* دقّة الإجراءات المرتبطة بإعداد وتحضير حملات الصوائف والشواتي، التي تمتد طيلة عدّة أشهر من الاستعدادات المضنية والتجهيز، مع ضخامة الإمكانيات البشرية والمادية التي يتمّ تسخيرها لتوفير كلّ الظروف الضرورية لنجاح الحملات، وتنوّع وسائل وأساليب القتال والمواجهة التي يوظفها المسلمون المشاركون في عمليّات الصوائف والشواتي في مواجهة القوّات والأهداف البيزنطية داخل أراضي الإمبراطورية في آسيا الصغرى.

\* تطوّر أداء عمليّات الصوائف والشواتي مع مرور الوقت وبلوغها مستوى عال من الاحترافية في الاعداد والتجهيز والتنفيذ وتحديد الأهداف نتيجة الإمام الجيّد بالخصائص الجغرافية والعسكرية

لبلاد الروم، وكذا تراكم الخبرات والتجارب لعشرات السنوات في ميادين القتال داخل آسيا الصغرى.

\* نجاح حملات الصوائف والشواتي في تحقيق الأهداف الرئيسية التي استحدثت من أجلها إلى حدّ كبير، حيث تمكّنت من ردع الروم وشلّ قدراتهم العسكرية الهجومية واشغالهم بالدفاع المستمرّ كلما كانت الحملات نشيطة وتعمل في ظروف مساعدة، كما أنّها استطاعت أن تُلحق أضراراً معتبرة بالبنية العسكرية والاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية البيزنطية، ما ساهم في ترسيخ وتعميق حالة العداوة في العلاقات بين الطرفين، لكنّها مع ذلك لم تبلغ بها حدّ القطيعة إذ حافظت الدولتين، حتّى في ظلّ استمرار المواجهات بينهما، على علاقات متنوّعة في جميع المجالات خاصة في الجانب الاقتصادي والديبلوماسي وحتّى الاجتماعي الانساني.

\* ساهمت الحملات الموسمية، بشكل غير مقصود، في إرساء معالم تفاعل حضاري إيجابي بين المسلمين والبيزنطيين خاصة نتيجة تدفّق عناصر من رعايا الإمبراطورية للاستقرار داخل حدود الدولة الإسلامية من خلال عمليات الأسر الواسعة التي كانت تقوم بها حملات الصوائف والشواتي أو من خلال عمليّات الهجرة الطوعية، وما ترتّب عن ذلك من اختلاط وتفاعل وتزاوج، ما ساهم في تنوع التركيبة البشرية للمجتمع الإسلامي وانتقال بعض خصائص الموروث الثقافي والحضاري البيزنطي إليه.



جامعة الأميرة  
عبد القادر  
مُلاص  
العلوم الإسلامية

## ملخص:

جمعت المسلمين بالروم علاقات صراع مزمن تجلت أبرز مظاهره في حملات الصوائف والشواتي، التي دأبت الدولة الإسلامية منذ العهد الراشدي على إرسالها لاستهداف المراكز البيزنطية الرئيسية في آسيا الصغرى سنويا تقريبا منذ انقضاء موجة الفتوح الكبرى في الشام، كاستراتيجية فعّالة في مواجهة إمبراطورية الروم، وهذه الدراسة "الصوائف والشواتي ضدّ الروم في العهد الأموي" تقدّم عرض وصفي تحليلي لهذه المنظومة في الفترة الأموية وتتمحور اشكالياتها الرئيسية حول هذا النشاط العسكري وما يرتبط به من فعاليات واجراءات في الفترة بين 41-132هـ/661-749م؟ وتهدف إلى إبراز حملات الصوائف والشواتي كاستراتيجية ومنظومة متكاملة من خلال توضيح طبيعة هذه العمليّات التي تنفذها ومجرياتهما، وشرح دوافعها وأهدافها والانعكاسات المترتبة عنها، وكيفية تحضير الحملات وسيورتها، مع ملاحظة التطوّرات التي طرأت على هذه المنظومة طيلة فترة الدراسة، وقد تمّ الاعتماد على مصادر ومراجع متنوعة من أجل اخراج دراسة موضوعية متكاملة مع توظيف مناهج متعدّدة حسب مقتضيات البحث.

عرفت حملات الصوائف والشواتي، التي تمّ استحداثها واطلاقها في الفترة السابقة لقيام الدولة الأموية واقتصرت على عمليّات الصوائف حصرا في البداية، انتعاشا كبيرا في ظلّ الدولة الأموية التي تركت بدورها بصمة واضحة على هذه الاستراتيجية العسكرية، ليس فقط بفضل الالتزام والإصرار الكبير الذي أبداه خلفاء هذه الدولة على الاحتفاظ بهذا التقليد، بل أيضا من خلال المساهمة في ترسيخها وتثبيت معالمها واستكمال حلقاتها مع إضافة الحملات الشتوية إليها، بالإضافة إلى العمل على تحسين وتطوير أدائها حتّى بلغت بها مستوى عالٍ من الفعالية والأداء العسكري، وقد شهد العهد الأموي تجهيز وإطلاق أكثر من تسعين حملة ضدّ بلاد الروم بين صائفة وشتاية على امتداد أكثر من سبعة عقود من نشاطها خلال فترات الاستقرار في عمر الدولة، طالت كلّ ربوع آسيا الصغرى وحققت فيها مكاسب حيوية لصالح المسلمين في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية.

إنّ دوافع وأهداف استحداث واعتماد هذا النشاط الحربي المعتر متعدّدة، متنوعة، ومتداخلة، وتتجاوز مظهرها الأمني العسكري المحض لتشمل كذلك الأبعاد الاقتصادية والسياسية الأيديولوجية، التي تخضع في ترتيب أولوياتها لظروف كل مرحلة. وقد ارتبطت استمرارية وحيوية الصوائف والشواتي بالعديد من العوامل والمؤثرات الذاتية والإقليمية، مثل حالة الاستقرار وتماسك الجبهة الداخلية أو الفوضى والاضطرابات التي تعترى الدولة الإسلامية من جهة، أو الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى، وكذا الأوضاع على المستوى الإقليمي خاصة في أرمينية والقوقاز اللتين كانتا تستقطبان تركيز الخلافة وجهودها كلّما فقدت المنطقة استقرارها سواء بفعل تمرد الأرمن أو تزايد خطر الخزر ما يحدّ من فعالية الحملات الموسمية على الجبهة البيزنطية، وكان اعداد الحملات، الذي يستغرق وقتا طويلا ويستهلك إمكانيات مادية وبشرية معتبرة، يسير وفق قواعد محدّدة استقرت معالمها بشكل واضح خلال العهد الأموي.

استطاعت منظومة حملات الصوائف والشواقي كلما كانت نشيطة أن تحقق الغايات التي أستخدمت من أجلها وتلبي الحاجيات الأمنية والاقتصادية والاستراتيجية الملحة للدولة الأموية في مواجهة بيزنطة، وأن تُلحق أضرارا معتبرة بالبنية العسكرية والاقتصادية والسكانية للإمبراطورية، ما كرس وعمق واقع العداوة بين الطرفين، لكن حتى في ظل مداومة المسلمين التحرش بالأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى كل سنة تقريبا احتفظت الدولتين مع ذلك، بدافع المصالح المشتركة، بعلاقات متنوّعة شملت مختلف الميادين، كما ساهمت الحملات بشكل مباشر ولكن غير مقصود، في تحقيق تفاعل حضاري إيجابي بين المسلمين والروم، حيث أدت عمليات الأسر الكثيرة التي كانت تقوم بها قوات المسلمين داخل الأراضي البيزنطية، بالإضافة إلى الهجرة الطوعية التي كان يقوم بها بعض رعايا الإمبراطورية داخل الأراضي الإسلامية بمرافقة قوات الحملات الموسمية، وما ترتب عن ذلك من اختلاط وتفاعل وتزاوج، إلى تنويع تركيبة المجتمع الإسلامي وانتقال بعض خصائص الموروث الثقافي والحضاري البيزنطي إلى الدولة الأموية.

Résumé :

Pendant des siècles, les relations entre les Musulmans et les Byzantins ont été caractérisés par les guerres quasi-permanentes qui se présentent notamment par les expéditions militaires annuelles dans l'été (*sawa-if*) et l'hiver (*chawa-ti*), que le califat envoie depuis la fin de la grande conquête du levant (La Syrie et L'gypte), pour attaquer les villes Byzantines d'Asie Mineure. Ce travail fournit une étude descriptive et analytique de cette activité militaire durant la période Omeyyade 41-132AH/661-749AD, et elle vise à mettre en évidence les campagnes estivale et hivernale entant que stratégie efficace contre l'Empire Byzantin, en présentant les évènements et le déroulement de ces opérations, en expliquant leurs motifs, leurs objectifs, et ces conséquences.

Les campagnes militaires estivale et hivernale, qui ont été adoptés et lancées depuis l'époque des premiers califes, ont connu une grande poussée sous le Califat Omeyyade, qui, à son tour, a marqué son empreinte sur cette stratégie militaire en contribuant à sa consolidation, et à l'amélioration, et le développement de son activité afin qu'elle atteigne un haut niveau d'efficacité et de performances.

Les raisons et les objectifs de la création, et de l'adoption de cette activité militaire saisonnière sont nombreux et comprennent les plans militaires, économiques et politiques. Ainsi que sa continuité a été soumise à l'influence de nombreux facteurs, internes tels que l'état de la stabilité ou le chaos qui règne dans le Califat, ou externes au niveau de l'Empire Byzantin, et de la situation régionale, notamment en Arménie et dans le Caucase.

Chaque fois qu'elles étaient actives et efficaces, les campagnes militaires saisonnières ont été en mesure d'atteindre les objectifs pour

Résumé .....

lesquels elles ont été créées, et de répondre aux besoins nécessaires en matière de sécurité, d'économie, et de politique du Califat Omeyyade face à l'ennemi Byzantin, et de causer des dommages sérieux à la structure militaire, économique, et démographique de l'Empire. Ce qui a approfondi la hostilité entre les deux puissants voisins, mais même si les Musulmans continuent de harceler le territoire Byzantin en Asie Mineure presque chaque année, les deux États ont, néanmoins, maintenu une variété de relations positives aux différents domaines.

أبو الفوارس  
عبد القادر للعطوم الإسلامية

Abstract

The relations between Arab Caliphate and Byzantine Empire have been characterized by a struggle continued for a long time, whose most prominent manifestations were «the Summer and the Winter military campaigns» (*sâwa-if* and *shâwati*), which the Caliphate had been sending to attack Byzantine territory in Asia Minor almost every year since the end of the great conquests in the east. This work provides a descriptive and analytical study of this military activity during the Umayyad period 41-132AH/661-749AD. It also aims to highlight «the Summer and the Winter campaigns» as an effective strategy against the Byzantine Empire, by presenting the events and progress of these operations, explaining their motives, objectives and consequences.

«The Summer and the Winter military campaigns» which have been adopted and launched at the time of the first Caliphs, had known a great evolution under the Umayyad Caliphate, which has made an impact on this military strategy by contributing to its consolidation, besides the improvement and development of its activity so that it achieves a high level of efficiency and performance.

There are multiple motives and objectives for creating and adopting this seasonal military activity, which includes military, economic and political fields. As well as its continuity had been influenced by many factors, internal such as the state of stability or chaos prevailing in the Caliphate, as well as external such as the situation within the Byzantine Empire or on the regional scene, notably in Armenia and the Caucasus.

Whenever they were active and effective, the seasonal campaigns were able to achieve the objectives for which they were created, and to realize the security, economic, and political aims of

Abstract .....

Umayyad Caliphate against the Byzantine Empire, and to cause serious damage to the military, economic, and demographic structure of the Enemy. Which deepened the hostility between the Caliphate and Byzantium, but even though Muslims continue to harass the Byzantine territory in Asia Minor almost every year, the two States have nevertheless maintained a variety of positive relations in many different types.

المعهد الإسلامي  
عبد القادر للعطوم الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر  
الملا حف  
مركز العلوم الإسلامية



## الملحق 1: جدول حملات الصوائف والشواتي خلال العهد الأموي:

فترة الفرع السفيناني 41-60هـ/661-680م:

السنة	قائد الحملة	نوعها	المنطقة المستهدفة	النتيجة	المصادر
41هـ 661م	حبيب بن مسلمة	؟	؟	؟	تاريخ البعقوي، ج 2، ص 152.
42هـ 662م	بسر بن أبي أرطأة	؟	اللان؟	انتصار المسلمين (غنائم وأسرى)	تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 172. Theophanes, p486 / Agapius, Partie 2, p 227.
43هـ 663م	بسر بن أبي أرطأة	صائفة	القسطنطينية	انتصار المسلمين (غنائم وأسرى)	Agapius, Partie 2, p 228 / Elie Bar Sinaya, p 88.
44هـ 664م	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد	؟	قلونية	تخريب مناطق متفرقة من آسيا الصغرى	تاريخ البعقوي، ج 2، ص 152. Elie Bar Sinaya, p 89.
45هـ 665م	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد	شائية	؟	الاستيلاء على حصون ومدن	تاريخ خليفة، ص 207.
46هـ 666م	مالك بن عبد الله الختعمي	صائفة	قبادوقيا	انتصار المسلمين (غنائم كثيرة)	فتوح البلدان، ص 226.
47هـ 667م	مالك بن هبيرة عبد الرحمن القيني	صائفة/شائية صائفة/شائية	؟ أنطاكية	؟ ؟	تاريخ خليفة، ص 208 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 229.
48هـ 668م	عبد الله بن قيس الفزاري عبد الرحمن القيني	صائفة صائفة/شائية	ملطية أنطاكية	؟ ؟	تاريخ خليفة، ص 209 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 231.
49هـ 669م	فضالة بن عبيد الله عبد الله بن كرز البحلي مالك بن هبيرة	شائية صائفة شائية	خرشنة ؟ ؟	انتصار المسلمين وتحقيق غنائم كثيرة	تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 232 / البداية والنهاية، ج 11، ص 180.

50هـ 670م	يزيد بن معاوية مع سفيان بن عوف	شاتية	القسطنطينية (أو خلقدونية)	انتصار المسلمين وتخريب مناطق متفرقة من آسيا الصغرى (وربما الاستيلاء على عمورية)	تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 152-153 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 232-234 / تاريخ دمشق، ج 65، ص 405. Theophanes, p 490.
51هـ 671م	بسر بن أبي أرطاة	صائفة	؟	؟	تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 253.
52هـ 672م	بسر بن أبي أرطاة وسفيان بن عوف محمد بن عبد الله الثقفى	شاتية صائفة	؟ ؟	انتصار المسلمين وأسر عدد كبير من الروم /	تاريخ خليفة، ص 218 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 287. Agapius, Partie 2, p 231 / Theophanes, p 492.
53هـ 673م	عبد الرحمن بن أم الحكم	شاتية	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 219 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 289.
54هـ 674م	محمد بن مالك معن بن يزيد السلمي	شاتية صائفة	؟ ؟	؟ ؟	تاريخ خليفة، ص 223 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 293.
55هـ 675م	يزيد بن شجرة الرهاوي سفيان بن عوف	صائفة شاتية	؟ كزيكوس (خازق)	؟ هزيمة كبيرة للمسلمين ووفاة سفيان بن عوف	تاريخ خليفة، ص 223 / تاريخ دمشق، ج 21، ص 351-352. Theophanes, p 494.
56هـ 676م	جنادة بن أبي أمية أو مسعود ابن أبي مسعود (عبد الرحمن بن مسعود) عياض بن الحارث؟	شاتية صائفة	؟ ؟	؟ ؟	تاريخ خليفة، ص 224 / تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 301.
57هـ 677م	عبد الله بن قيس	شاتية	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 225 / تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 153.
58هـ	مالك بن عبد الله	شاتية	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 225.

678م	الحصين بن نمير	صائفة	؟	؟	
59هـ	عمرو بن مرة	شائية	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 226.
679م	المهري صفوان بن معطل وعمير بن الحباب	صائفة	الحدود الأرمينية	فتح حصن كمخ	فتوح البلدان، ص 218.
60هـ	مالك بن عبد الله	شائية	إيسوريا (سورية)	؟	تاريخ الرسل والملوك، ج 5، ص 322.
680م					

## فترة الفرع المرواني 73-125هـ/693-743م:

السنة	قائد الحملة	نوعها	المنطقة المستهدفة	النتيجة	المصادر
73هـ	محمد بن مروان	صائفة	سيبستوبوليس (سبسة)	انتصار حاسم للمسلمين	تاريخ خليفة، ص 270 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 194 / تاريخ دمشق، ج 55، ص 241. Theophanes, p 511.
74هـ	محمد بن مروان	صائفة	أندرلية	؟	تاريخ خليفة، ص 270 / تاريخ دمشق، ج 55، ص 241. Theophanes, p 513.
75هـ	محمد بن مروان	صائفة	؟	انتصار المسلمين وأسر عدد كبير من الروم	
76هـ	محمد بن مروان	صائفة	أرمينية الرابعة	انتصار المسلمين وأسر عدد كبير من الروم	تاريخ خليفة، ص 275 / تاريخ دمشق، ج 55، ص 240. Theophanes, p 514.
77هـ	الوليد بن عبد الملك	صائفة	منطقة خرشنة	فتح عدة حصون منها حصن صملة	تاريخ خليفة، ص 276 / تاريخ البيعتوي، ج 2، ص 203 / تاريخ دمشق، ج 63، ص 170
78هـ	يحيى بن الحكم بن أبي العاص أو محرز بن أبي محرز	صائفة	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 277 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 321 / تاريخ دمشق، ج 57، ص 79
81هـ	عبد الله بن عبد الملك	صائفة	قالقلا	فتح حصن قالقلا وتحصيل غنائم كثيرة	تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 331 / المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 6، ص 224 /

الكامل في التاريخ، مج 4، ص 195.					
تاريخ خليفة، ص 288 / تاريخ دمشق، ج 29، ص 345.	فتح حصن سنان	المصيصة	صائفة	عبد الله بن عبد الملك	82هـ 701م
تاريخ خليفة، ص 288-289 / تاريخ دمشق، ج 29، ص 346-345.	انتصار المسلمين	إيسوريا	صائفة	عبد الله بن عبد الملك	83هـ 702م
تاريخ خليفة، ص 291 / فتوح البلدان، ص 193. Theophanes, p 519.	فتح المصيصة	قبليقية	صائفة	عبد الله بن عبد الملك	84هـ 703م
تاريخ خليفة، ص 291 / تاريخ دمشق، ج 61، ص 369. Theophanes, p 520.	هزيمة كبيرة للمسلمين	طوانة	صائفة	يزيد بن حنين الطائي	85هـ 704م
تاريخ خليفة، ص 292 / تاريخ دمشق، ج 55، ص 241.	هزيمة المسلمين فتح حصنين	قبليقية ناحية المصيصة	شائية ؟	محمد بن مروان مسلمة بن عبد الملك	86هـ 705م
تاريخ خليفة، ص 301 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 429.	فتح عدة حصون	؟	صائفة	مسلمة بن عبد الملك	87هـ 706م
تاريخ خليفة، ص 302 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 434.	فتح المدينة وإلحاق هزيمة كبيرة بالروم	طوانة	صائفة/شائية	مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد	88هـ 707م
تاريخ خليفة، ص 302 / فتوح البلدان، ص 196 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 439.	فتح عدة حصون: أذرولية، هرقلية، وقمودية	قبادوقيا	صائفة	مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد	89هـ 708م
تاريخ خليفة، ص 303 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 442 / تاريخ دمشق، ج 26، ص 442؛ ج 58، ص 31.	فتح عدة حصون ؟	إيسوريا	صائفة	مسلمة بن عبد الملك	90هـ 709م
تاريخ دمشق، ج 26، ص 442؛ ج 58، ص 31.	أرزن	أرزن	صائفة	العباس بن الوليد	
تاريخ البيهقي، ج 2، ص 216 / تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 454.	؟	؟	صائفة	عبد العزيز بن الوليد	91هـ 710م
Michel le Syrien, Tome 2, p 479. تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 468.	فتح طرندة، وجرجومة، وطنادة، وتدمير مدينة سوسنة	قبادوقيا	صائفة	مسلمة بن عبد الملك	92هـ 711م

93هـ 712م	مسلمة بن عبد الملك مع مروان بن الوليد	الصائفة اليمنى	شمال آسيا الصغرى بين أماسية وخنجره	فتح أماسية	تاريخ خليفة، ص 305 / تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 469. Theophanes, p 532 / Agapius, Partie 2, p 239 / Michel le Syrie, Tome 2, p479.
94هـ 713م	عبد العزيز بن الوليد العباس بن الوليد يزيد بن أبي كبشة	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى الصائفة اليسرى	؟ جنوب آسيا الصغرى ؟	فتح حصن غزالة فتح وتخريب أنطاكية ؟	تاريخ خليفة، ص 306 / تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 384 / الكامل في التاريخ، مج 4، ص 282.
95هـ 714م	العباس بن الوليد بشر بن الوليد	صائفة شائية	قبادوقيا ؟	فتح حصن هرقله ؟	تاريخ خليفة، ص 313 / تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 492 / الكامل في التاريخ، مج 4، ص 288.
96هـ 715م	مسلمة بن عبد الملك	صائفة	وسط الأناضول	فتح حصن عوف	تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 522. Theophanes, p 534.
97هـ 716م	داود بن سليمان	صائفة	؟	فتح حصن المرأة	تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 523.
98هـ 717م	الوليد بن هشام مع عمر بن قيس	صائفة	؟	؟	تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 532.
100هـ 101هـ 719م	الوليد بن هشام المعيطي عمر بن قيس السكوبي	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى	ضواحي الروم	؟ ؟	تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 556 / تاريخ دمشق، ج 46، ص 320.
102هـ 721م	عمر بن هبيرة	صائفة	أرمينية الرابعة	انتصار المسلمين وأسر حوالي 700 بيزنطي	تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 243.
103هـ 104هـ 721م	العباس بن الوليد	صائفة	قبادوقيا	فتح حصن دبسة	تاريخ الرسول والملوك، ج 6، ص 619 / تاريخ اليعقوبي، ج 2،

عثمان بن حيان المزني مع عبد الرحمن بن سليم الكلبي	؟	قبادوقيا	فتح حصن سسسة	ص 243 / تاريخ دمشق، ج 26، ص 442-443.
104هـ 105هـ 722م	الصائفة اليمنى	؟  وسط	؟  فتح حصن قيصرة	تاريخ خليفة، ص 330 / تاريخ دمشق، ج 38، ص 348.
105هـ 723م	الصائفة اليسرى	نواحي كمشخ	فتح قلونية وحصن مواسا	تاريخ خليفة، ص 331 / الكامل في التاريخ، مج 4، ص 371 / العيون والحداثق، ج 3، ص 89.
106هـ 724م	الصائفة اليمنى	؟	إصابة سرية تضم ألف جندي من المسلمين. تخريب مناطق نشاط الحملة.	تاريخ خليفة، ص 337 / تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 259 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 21 / تاريخ دمشق، ج 21، ص 216-217.
107هـ 725م	شائية	قبادوقيا	فتح قيصرية (قيسارية)	تاريخ خليفة، ص 337 / العيون والحداثق، ج 3، ص 89. Theophanes, p 559 / Agapius, Partie 2, p 246.
108هـ 726م	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى	ناحية مسونه  ؟	فتح عدة حصون  ؟	تاريخ خليفة، ص 338 / تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 259. تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 43 / تاريخ دمشق، ج 25، ص 255؛ ج 58، ص 39.
109هـ 727م	صائفة	مناطق متفرقة	فتح حصن أتيوس (العطاسين) وخنجرة	تاريخ خليفة، ص 339 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 46. Theophanes, p 560- 563 / Michel le Syrie, Tome 2, p 501.

110هـ م728	معاوية بن هشام	صائفة	الأرمنياق	فتح حصنين	تاريخ خليفة، ص 340 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 54 / البداية والنهاية، ج 13، ص 41
111هـ م729	سعيد بن هشام معاوية بن هشام	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى	مدينة قيصرية ؟	؟ ؟	تاريخ خليفة، ص 341 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 67 / تاريخ دمشق، ج 59، ص 282
112هـ م730	معاوية بن هشام	صائفة	قبادوقيا	فتح حصن خرشنة المهم	تاريخ خليفة، ص 343 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 70 / تاريخ دمشق، ج 59، ص 282
113هـ م731	معاوية بن هشام	صائفة	منطقة الثغور (مرعش)	/	تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 260 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص .88
114هـ م732	سليمان بن هشام معاوية بن هشام مع عبد الله البطل وعمرو بن الوضاح	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى	مدينة قيصرية ؟	تحقيق غنائم معتبرة	تاريخ خليفة، ص 345-346 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 90 / تاريخ دمشق، ج 46، ص 345-346؛ ج 59، ص .281
115هـ م733	معاوية بن هشام مع عبد الله البطل	صائفة	بافلاجونيا (أفلاجونية)	تحقيق عدد معتبر من الغنائم والأسرى	تاريخ خليفة، ص 346 / تاريخ دمشق، ج 59، ص 282. Theophanes, p 568 / Agapius, Partie 2, p 247.
116هـ م734	معاوية بن هشام	صائفة	؟	؟	تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 260.
117هـ م735	معاوية بن هشام سليمان بن هشام	الصائفة اليمنى الصائفة اليسرى	غرب آسيا الصغرى (بين سييرة وسارديس)	الحاق دمار كبير بالمنطقة مع أسر عدد معتبر من الروم ؟	تاريخ خليفة، ص 348 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 99 / تاريخ دمشق، ج 59، ص 282. Theophanes, p 569 / Agapius, Partie 2, p 248.
118هـ م736	معاوية بن هشام	الصائفة اليمنى	؟	؟	تاريخ خليفة، ص 349 / تاريخ دمشق، ج 59، ص 282.

	؟	؟	الصائفة اليسرى	سليمان بن هشام	
تاريخ خليفة، ص 349.	؟	بلونية (أو فلونية)	الصائفة اليمنى	معاوية بن هشام	119هـ 737م
	؟	؟	الصائفة اليسرى	سليمان بن هشام	
تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 139 / المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 7، ص 199. Theophanes, p 571 / Agapius, Partie 2, p 248.	فتح حصن سندرة وسي من فيه	غرب آسيا الصغرى	صائفة	سليمان بن هشام	120هـ 738م
تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 160.	فتح مطاير	؟	صائفة	مسلمة بن هشام	121هـ 739م
تاريخ دمشق، ج 33، ص 405- 406؛ ج 56، ص 459- 460. Theophanes, p 571.	هزيمة حاسمة للمسلمين	وسط الأناضول (حتى أكروينون)	صائفة	سليمان بن هشام مع مالك بن شبيب وعبد الله البطال	122هـ 740م
فتوح البلدان، ص 220-221 / أنساب الأشراف، ج 8، ص 408.	ترميم وإعادة بناء المدينة	ملطية (بعد أن تعرضت لهجوم الروم)	صائفة	هشام بن عبد الملك (الخليفة)	123هـ 741م
تاريخ البيهقي، ج 2، ص 260 / تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 199. Theophanes, p 576 / Agapius, Partie 2, p 250.	انتصار المسلمين والاستيلاء على غنائم وأسرى	بافلاجونيا (أفلاجونية)	صائفة	سليمان بن هشام	124هـ 742م
تاريخ خليفة، ص 262 / تاريخ البيهقي، ج 2، ص 260. Theophanes, p 577.	تحقيق عدد معتبر من الغنائم والأسرى	؟	صائفة	الغمر بن يزيد	125هـ 743م



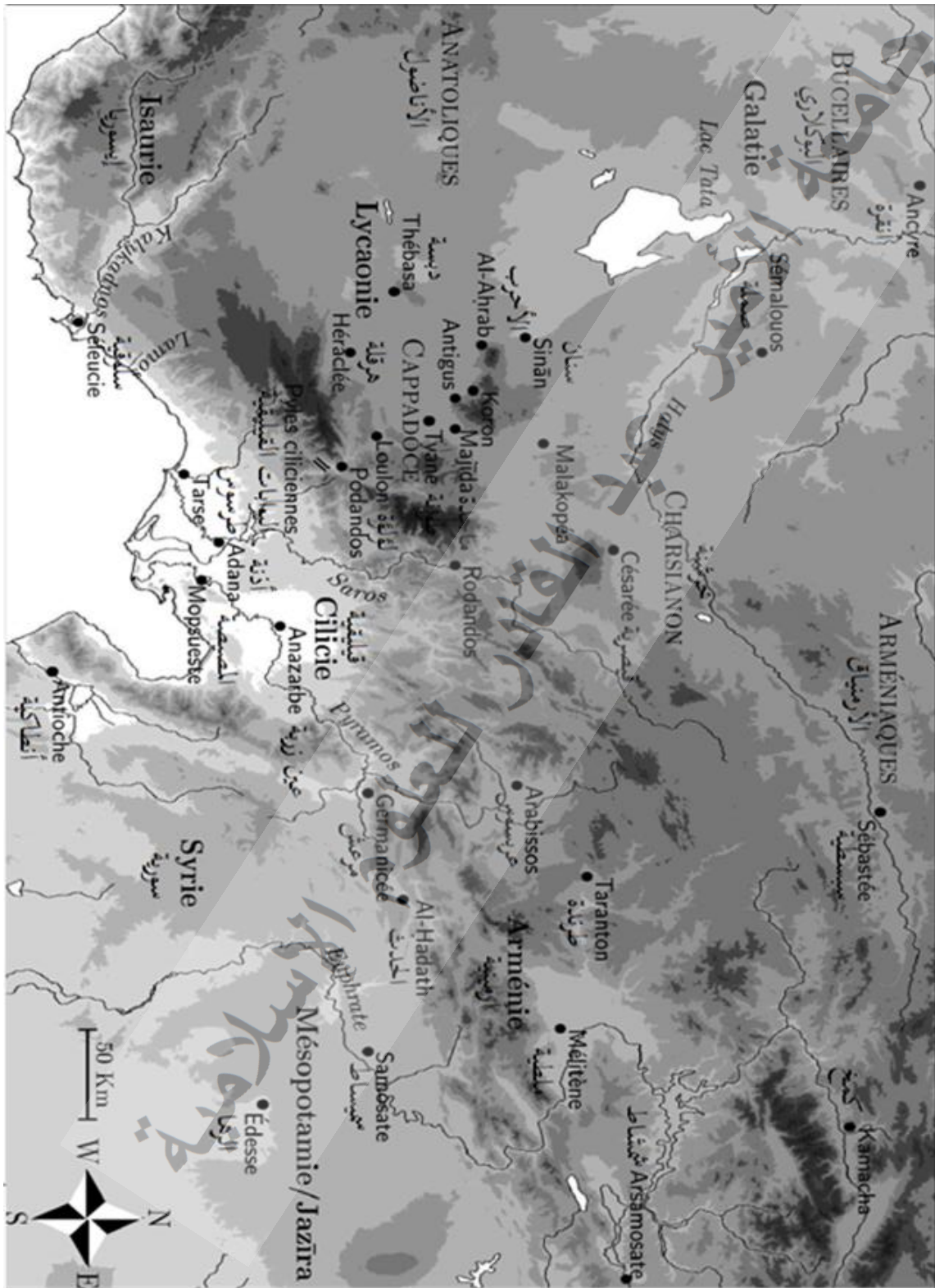
## الملحق 2: أباطرة الدولة البيزنطية المعاصرين للدولة الأموية

الأسرة الهرقلية		
48-21هـ	668-641م	Constans II قنسطانز الثاني
66-48هـ	685-668م	Constantine IV قسطنطين الرابع
76-66هـ	695-685م	Justinian II جستنيان الثاني فترة مغتصبي العرش:
79-76هـ	698-695م	Leontius ليونتس
87-79هـ	705-698م	Tiberius III طيريوس الثالث
93-87هـ	711-705م	جستنيان الثاني (المرّة الثانية)
94-93هـ	713-711م	Philippicus فليبيكوس
96-94هـ	715-713م	Anastasius II أنسطاسيوس الثاني
98-96هـ	717-715م	Theodosius III ثيودوسيوس الثالث
الأسرة الإيسورية		
123-98هـ	741-717م	Leo III ليو الثالث
158-123هـ	775-741م	Constantine V قسطنطين الخامس
(125-123هـ)	(743-741م)	(Artavasdus أرتباسدوس)

المصدر:

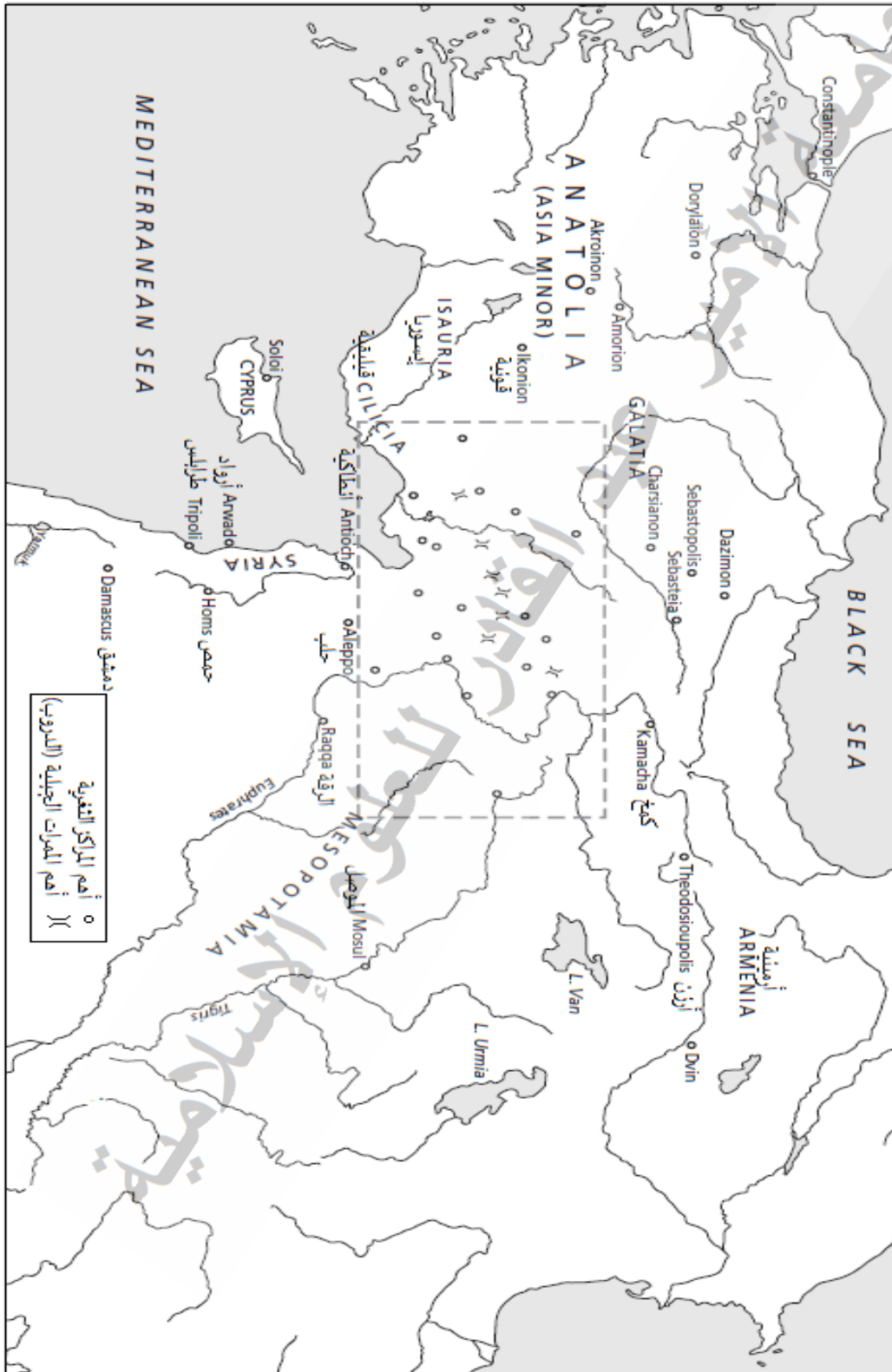
Timothy Venning: A Chronology of the Byzantine Empire, p 737-738.

الملحق 3: المناطق الحدودية بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية



المصدر:

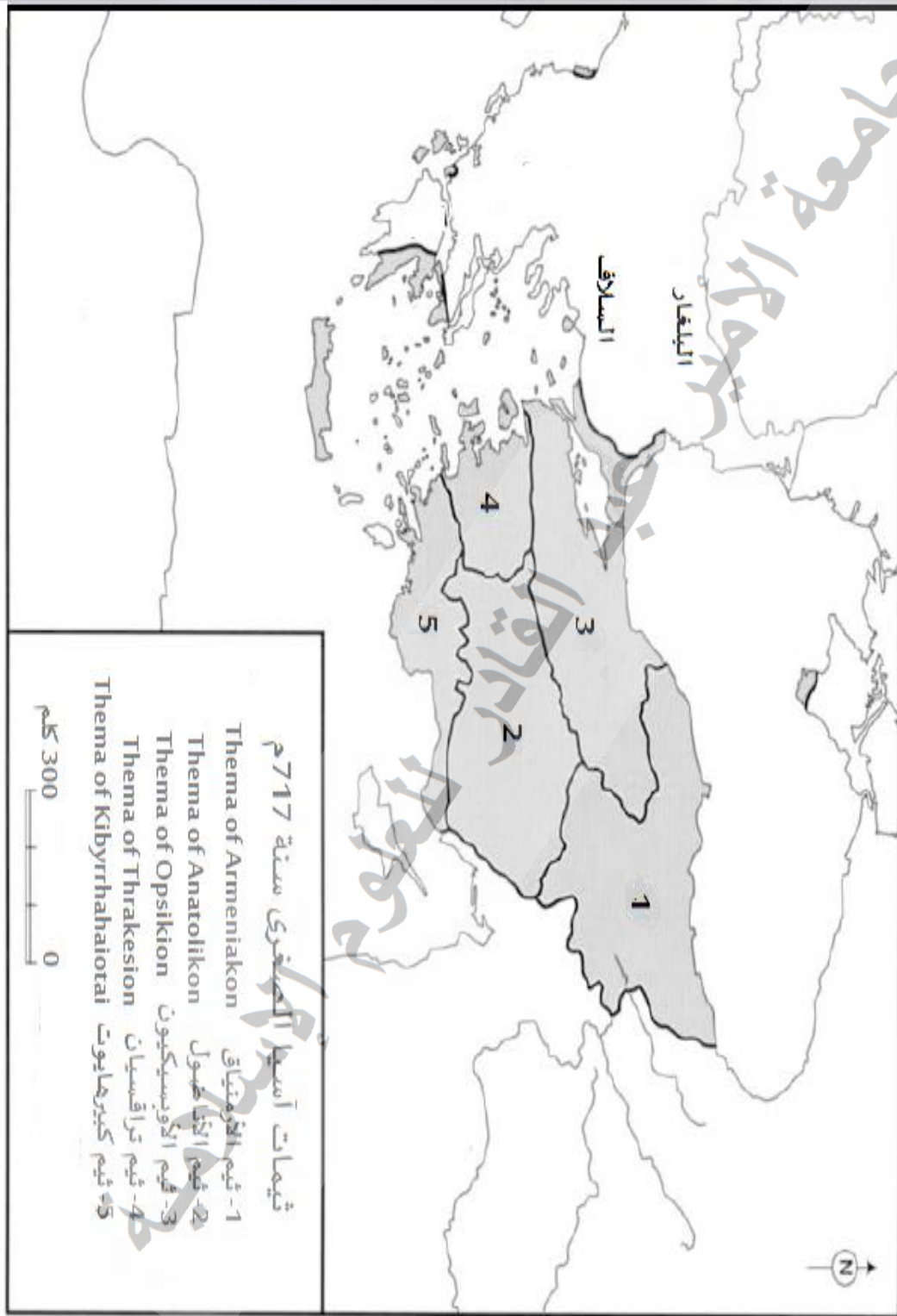
Sophie Métivier: L'Organisation de la frontière arabo-byzantine en cappadoce, p 454.



المصدر:

Jonathan Shepard: The Byzantine Empire, p 371.

الملحق 4: الثيمات البيزنطية في آسيا الصغرى مطلع القرن الثامن ميلادي

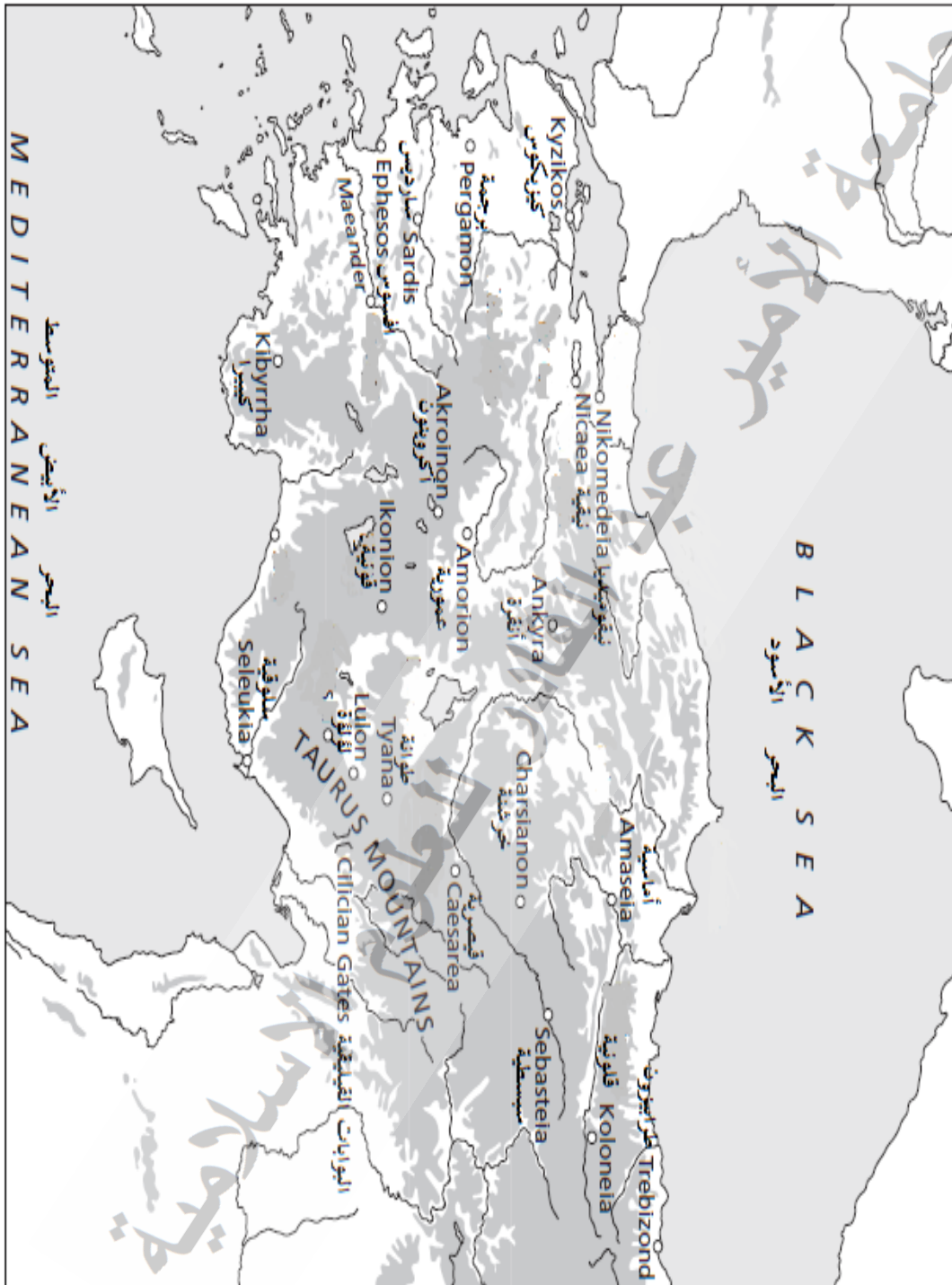


المصدر:

ohn Haldon: Warfare, State and Society in the Byzantine World

565-1204, p 75.

الملحق 5: أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى



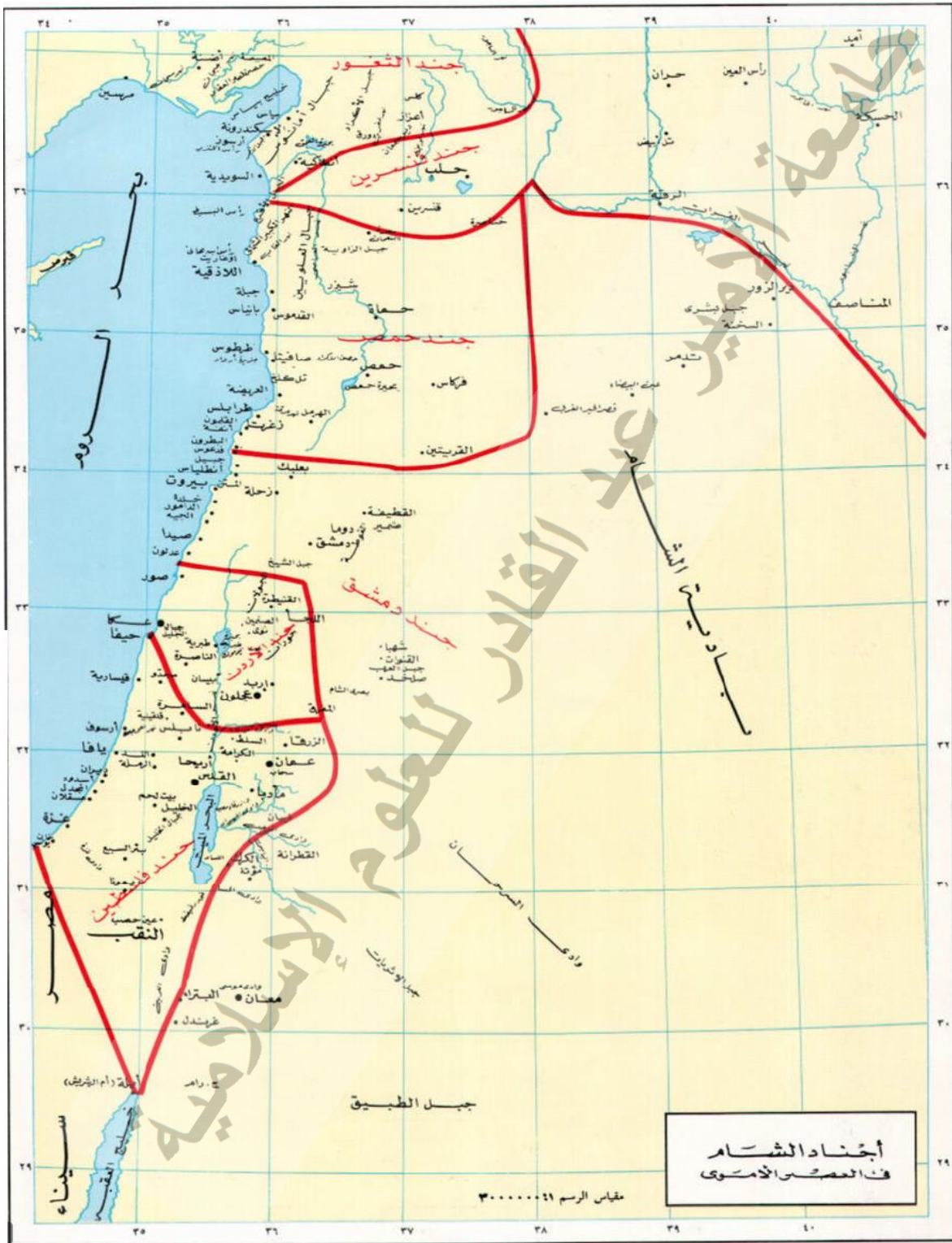
المصدر:

Jonathan Shepard: The Byzantine Empire, p 253.

الملحق 6: أهم المناطق التي استهدفتها حملات الصوائف والشواتي داخل بلاد الروم (آسيا الصغرى) خلال العهد الأموي 41-132هـ/661-749م



## الملحق 7: أجناد الشام خلال العصر الأموي



المصدر:

حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط 1، 1987، ص 142.

# قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد الوهاب  
المصدر للعلوم الإسلامية



## قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- القرآن الكريم (رواية ورش)، دار ابن الجوزي، القاهرة.

ثانياً- المصادر:

أ.

- 1- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987.
- 2- الأخطل، غياث بن غوث (ت 92هـ): ديوان الأخطل، شرح وتصنيف مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1994.
- 3- الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله (ت 321هـ): فتوح الشام، تصحيح وليم ناسوليس، كلكتة، 1854.
- 4- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت 334هـ): تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1967.
- 5- الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ): كتاب الأغاني، تحقيق احسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط 3، 2008.
- 6- ابن أعثم، أبي محمد أحمد (ت 314هـ): كتاب الفتوح تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط 1، 1991.

ب.

- 7- البسوي، يعقوب بن سفيان (ت 277هـ): المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط 1، 1410هـ.
- 8- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ): أنساب الأشراف، الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر / باقي الأجزاء تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1996.
- 9- البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1992.
- 10- البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت حوالي 320هـ): المحاسن والمساوي، تحقيق الشيخ محمد سويد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1، 1988.

ت.

- 11- ابن تغري بردي، جمال الدين (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992.

12- التنوخي، الحسن بن علي (ت 384 هـ): الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالحي، دار صادر، بيروت 1978.

- ج -

- 13- جرير بن عطية (ت 111 هـ): ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1986.
- 14- ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن (ت 597 هـ): سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ضبط وشرح وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1984.
- 15- ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن (ت 597 هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992.

- ح -

16- ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي (ت 367 هـ): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992.

- خ -

- 17- ابن خردادبة، عبيد الله بن عبد الله (ت أواخر القرن 3 هـ): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن 1889.
- 18- خليفة بن خياط العصفري (ت 240 هـ): تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 2، 1985.

- د -

- 19- الدينوري، أحمد بن داود (ت 282 هـ): الأخبار الطوال، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1330 هـ.
- 20- ديونسيوس التلمحري (ت حوالي 230 هـ): تاريخ الأزمان، ترجمة شادية توفيق حافظ، مراجعة السباعي محمد السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2008.

- ذ -

21- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748 هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1990.

- ز -

22- الزهري، محمد بن سعد (ت 230 هـ): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ط 1، 2001.

- س -

23- ابن سلام، أبي عبيد القاسم (ت 224هـ): كتاب الأموال، تقديم ودراسة وتحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط 1، 1989.

24- السمهودي، نور الدين بن علي (ت 911هـ): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط 1، 2001.

- ش -

25- النابغة الشيباني، عبد الله بن المخارق (ت 125هـ): ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 3، 2000.

- ط -

26- الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1969.

- ع -

27- ابن عبد ربه، أحمد (ت 328هـ): العقد الفريد، تحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983.

28- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن (ت 275هـ): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1996.

29- ابن عبد الحكم، عبد الله (ت 214هـ): سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح وتعليق أحمد عبيد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2.

30- ابن العديم، كمال الدين (ت 660هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

31- ابن عذاري، أحمد بن محمد (ت 712هـ): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2013.

32- أبي العرب، محمد بن أحمد (ت 333هـ): طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني.

33- ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 571هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، دراسة وتحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995.

- ف -

34- ابن الفراء، أبي علي الحسين بن محمد (ت خلال القرن 5هـ): كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 3، 1993.

35- الفرزدق، همام بن غالب (ت 110هـ): ديوان الفرزدق، شرح وتقديم علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987.

- ق -

36- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله (ت 276هـ): الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1990.

37- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996.

38- قدامة بن جعفر (ت 329هـ): الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1981.

- ك -

39- ابن كثير، عماد الدين (ت 774هـ): البداية والنهاية، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، ط 1، 1997.

40- ابن كثير: البداية والنهاية، حققه محمد حسان عبيد، راجعه عبد القادر الأرنؤوط وبشار عواد معروف، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2، 2010.

41- الكندي، محمد بن يوسف (ت 350هـ): الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن گست، مطبعة الآبا اليسوعيين، بيروت، 1908.

- م -

42- الماوردي، أبي الحسن علي (ت 450هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ط 1، 1989.

43- المبرد، محمد بن يزيد (ت 285هـ): الكامل، حققه وعلّق عليه محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 3، 1997.

44- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة -، دار الكتاب اللبناني - بيروت -، ط 2، 1989.

45- مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مطبعة بريل، 1869.

46- المسعودي، علي بن الحسين (ت 346هـ): التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن، 1893.

47- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2005.

48- المقدسي، شمس الدين (ت 380هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1991.

49- المقدسي، المطهر بن طاهر (ت 355هـ): البدء والتاريخ، مكتبة القافة الدينية، مصر.

50- المقرّي، أحمد بن محمد (ت 1041هـ): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، لبنان.

51- المقرّزي، تقي الدين (ت 845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 2، 1987.

52- ابن منظور، جمال الدين (ت 711هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت.

53- مسكويه، أبي علي أحمد بن محمد (ت 421هـ): تجارب الأمم وتعاقب المهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003.

- ن -

54- النصري، عبد الرحمن بن عمرو (ت 281هـ): تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1996.

55- النويري، شهاب الدين (ت 733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004.

- ه -

56- الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون ومراجعة محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة.

57- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت 218هـ): السيرة النبوية، تعليق وتخرّيج عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1990.

- و -

58- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 207هـ): فتوح الشام، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997.

- ي -

59- ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت 626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

60- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 292هـ): تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 2000.

ثالثا- المراجع:

- أ -

61- إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر.

62- إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون، البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

63- إبراهيم بيضون: تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع.

64- إبراهيم بيضون: من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دراسة في تكوّن الاتجاهات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، ط 3، 1991.

65- أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1992.

66- أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، ط 1، 1955.

67- إسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، مصر 1983.

68- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط 500-1100 م، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.

- ب -

69- بثينة بنت حسين: الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ط 1.

70- بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، دار الفكر، بيروت، 1988.

- ج -

71- ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ومراجعة طه حسين، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة.

72- جرجي زيدان: جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

73- جون باجوت جلوب: الفتوحات العربية الكبرى، تعريب وتعليق خيرى حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.

74- جون كلود شينييه: تاريخ بيزنطية، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2008.

75- جون هالدون: بيزنطة في حرب 600-1453، ترجمة وتعليق فتحي عبد العزيز محمد، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ط 1، 2001.

- ح -

76- حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة.

77- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط 1، 1987.

78- حنان قرقوتي: الزراعة والصناعة والتجارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2006.

- د -

79- د. م. دنلوب: تاريخ يهود الخزر، ترجمة وتقديم سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط 2، 1990.

- ز -

80- زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، دار المعارف.

- س -

81- ستيفن زسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1997.

82- سيد بن علي المرصفي: رغبة الآمل في كتاب الكامل، مطبعة النهضة، مصر، ط 1، 1930.

- ص -

83- صالح أحمد العلي: الفتوحات الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط 1، 2004.

84- صلاح طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2009.

- ط -

85- طارق منصور: المسلمون ودولة الروم، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008.

- ع -

86- عائشة سعيد شحاته: الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) دراسة في التطورات والتغيرات، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1995.

87- عبد الله كامل موسى عبده: الأمويون وآثارهم المعمارية، في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وافريقية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2003.

88- عبد العزيز سالم السيد: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1982.

89- عبد العزيز عبد الله السلومي: ديوان الجند نشأته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، ط 1، 1986.

- 90- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة.
- 91- عدي سالم عبد الله حمد الجبوري: أساليب المجاهدة بين العرب والبيزنطيين، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2004.
- 92- عُلا عبد العزيز أبو زيد: الدولة الأموية دولة الفتوحات 41-132هـ/661-750م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط 1، 1996.
- 93- علي جمعة محمد: المكايل والموازن الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 2001.
- 94- علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 95- علية عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1985.
- 96- عمر يحيى محمد: البيزنطيون والعرب (641-711م/30-93هـ)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2009.

- ف -

- 97- فازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، راجعه فؤاد حسنين علي، دار الفكر العربي.
- 98- فايز نجيب إسكندر: بلاد الكرج بين المسلمين والبيزنطيين حتى أواخر القرن الثاني الهجري/أواخر القرن الثامن الميلادي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية.
- 99- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر.
- 100- ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا ومراجعة عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

- ك -

- 101- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1968.
- 102- كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1985.

- م -



103- محمد عبد الحي محمد شعبان: صدر الإسلام والدولة الأموية 600-750م (132هـ)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

104- محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

105- محمد ضياء الدين الرئيس: عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

106- محمد فرقاني: السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة.

107- محمد كرد علي: رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1913.

108- محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة (330-1453م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، ط 1، 2007.

109- محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الفرنجية والقبطية، المطبعة الميرية ببولاق، مصر، ط 1، 1311هـ.

- ن -

110- نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

111- نجدت خماش: الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1987.

112- نجدت خماش: الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1980.

113- نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 1، 1950.

- ه -

114- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة احسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1979.

115- هشام جعيط: الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 4، 2000.

- و -

116- وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990.

117- وسام عبد العزيز فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، 1982.

118- وسام عبد العزيز فرج: بيزنطة، قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط 1، 2003.

119- وفيق بركات: فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1995.

- ي -

120- يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، تعريب محمد عبد الهادي أبوريده، مراجعة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 2، 1968.

رابعاً- المقالات والرسائل الجامعية:

121- أحمد بدر: التنظيم العسكري عند العرب المسلمين، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، عدد 1، سنة 1980.

122- طه خضر عبيد: الأسرى بين الأمويين والبيزنطيين 41-132هـ/661-750م، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 6، سنة 2005.

123- عبد الجبار محمود السامرائي: نظم التعبئة عند العرب، مجلة المورد، مجلد 12، عدد 4، بغداد 1983.

124- عبد الرحمن محمد العبد الغني: إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة الإمبراطور ليو الثالث اللايقونية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 57-58، 1996.

125- عبد الرحمن محمد العبد الغني: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية (40-339هـ/660-950م)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الولاية الحادية عشرة، 1990.

126- محمود أحمد محمد عواد: الجيش في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1992.

خامساً- المراجع الأجنبية:

1- Agapius de Menbidj: Histoire Universelle, Edite et traduite en français par Alexandre Vasiliev, Paris 1909.

2- Alastair Northedge: Umayyad and Abbasid Urban Fortification in the Near East, Reichert Verlag Wiesbaden, 2008.

3- Angeliki E. Laiou and Cécille Morrisson: The Byzantine Economy, Cambridge University Press 2007.

- 4- Angeliki E. Laiou: The Economic History of Byzantium from the Seventh through the Fifteenth Century, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington DC 2002.
- 5- Barry Baldwin: An Anthology of Byzantine Poetry, J. C. Gieben, publisher, Amsterdam, 1985.
- 6- Elie Bar Sinaya: Chronographie de Mar Elie Bar Sinaya, Traduite par L. J. Delaporte, Paris 1910.
- 7- George Ostrogorsky: History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Basil Blackwell, Oxford 1968.
- 8- Hélène Ahrweiler: L'Asie mineure et les invasions arabes (7<sup>e</sup>-9<sup>e</sup> siècles), Revue Historique, Presses Universitaires de France, Fasc. 1, 1962.
- 9- Henri Grégoire, Roger Goossens: Les recherches récentes sur l'épopée Byzantine, L'antiquité Classique, Tome 1, Fasc 1-2, 1932.
- 10- Henri Grégoire: Etudes sur l'Epopée Byzantine, Revue des Etudes Grecques, Tome 46, Fascicule 214, Janvier-Mars 1933.
- 11- Homère-Alexandre Théologitis: Digénis Akritas et la Littérature Byzantine: problèmes d'approche, Maison de l'Orient et de la Méditerranée, Jean Pouilloux, 2001.
- 12- Hugh Goddard: A History of Christian-Muslim Relations, Edinburgh University Press 2000.
- 13- J. B. Bury: A History of Later Roman Empire, Macmillan and co, London 1889.
- 14- J. F. Haldon and H. Kennedy: The Arab-byzantine frontier in the eighth and ninth centuries.
- 15- J. Laurent: L'Arménie entre Byzance et L'Islam depuis la conquête Arabe jusqu'en 886, fontemoing et Cie éditeurs, 1919.

- 16- J. R. Partington: A History of Greek Fire and Gunpowder, The Johns Hopkins University Press, Baltimore 1999.
- 17- James Rose Macpherson: The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land, London 1889.
- 18- John H. Pryor and Elizabeth M. Jeffreys: The Age of the Dromon, the Byzantine Navy ca 500-1204, Brill, Leiden, 2006.
- 19- John Haldon: Warfare, State and Society in the Byzantin world 565-1204, UCL Press, London, 1999.
- 20- Jonathan Shepard: The Cambridge History of The Byzantin Empire c. 500-1492, Cambridge University Press, UK 2008.
- 21- José Marin: Byzantium and the Dark Ages. A Civilization on Trial, Imago Temporis Medium Aevum, Universitat de Lleida, 2008.
- 22- Leif Inge Ree Petersen: Siege Warfare and Military Organization in the Successor States (400-800 AD) Byzantium, the West and Islam, Brill, Leiden-Boston, 2013.
- 23- M. A. Cheira: La lutte entre Arabes et Byzantins, La conquête et l'organisation des frontières aux 7 et 8 siècles, Société de publications égyptiennes, Alexandrie 1947.
- 24- Marius Canard: Les Relations Politiques et Sociales entre Byzance et les Arabes, Dumbarton Oaks papers, Vol 18, 1964, Washington DC.
- 25- Michel le Syrien: Chronique de Michel le Syrien, Traduite par J. B. Chabot, Paris 1901.
- 26- N. Stratos: Byzantium in the seventh century, Adolf M. Hakkert, Amsterdam, 1980.
- 27- Nikephoros: Short History, Translation and Commentary by Cyrill Mango, Dumbarton Oaks, Washington D.C. 1990.

- 28- Peter Charanis: Studies on the Demography of the Byzantine Empire, Variorum reprints, London 1972.
- 29- Sebéos: Histoire d'Héraclius, traduite et annotée par Frédéric Macler, Imprimerie nationale, Paris.
- 30- Sophie Métivier: L'organisation de la frontière Arabo-byzantine en Cappadoce (8<sup>e</sup>-9<sup>e</sup> siècles), 2008.
- 31- The Chronicle of Zuqnin: Translated from Syriac by Amir Harrak, Pontifical Institute of Mediaeval Studies, Canada, 1999.
- 32- Theophanes: The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History AD 284-813, Translated with introduction and commentary by Cyrill Mango and Roger Scott. Clarendon press. Oxford 1997.
- 33- Thomas Wright: Early Travels in Palestine, London 1848.
- 34- Timothy Venning: A chronology of the Byzantine Empire, Palgrave Macmillan, New York 2006.
- 35- W. M. Ramsay: Cilicia, Tarsus, and the Great Taurus Pass, The geographical Journal , Vol 22, No 4, 1903, p 357.
- 36- Walter Emil Kaegi: Byzantine Military Unrest 471-843, Adolf M. Hakkert Publisher, Amterdam 1981.
- 37- Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, Stanford University Press, California, 1997.
- 38- Warren Treadgold: Byzantium and its Army 284-1081, Stanford University Press, California, 1995.
- 39- Youval Rotman: Byzance face à l'Islam Arabe, 7<sup>e</sup>-10<sup>e</sup> siècle, D'un droit territorial à l'identité par la foi, Annales. Histoire, Sciences Sociales, 2005/4 (60<sup>e</sup> année).

جامعة الأمير  
عبد القادر  
الغلام  
الإسلامية

# فهرس الأعلام والأماكن

أولا - فهرس الأعلام والقبائل والأقوام:

أ. -

- أبان بن الوليد بن عقبة: 28، 76، 186.  
إبراهيم بن هشام: 46.  
الأبرش الكلبي: 234.  
أبسيماروس (امبراطور): 29، 94، 111.  
أبو الأبيض العبسي: 238.  
ابن الأثير: 3، 45، 112، 115، 142، 161.  
الأحطل (شاعر): 230، 231، 232.  
أرتباسدوس (قائد): 47، 54، 55، 202، 250، 260.  
أرشيالد لويس: 56، 216، 262.  
أركولف: 206، 217.  
الأرمن: 37، 67، 73، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 208، 266.  
الأزد (قبيلة): 180.  
الأزدي: 4.  
أسامة بن زيد التنوخي: 204، 218.  
استاثيوس (نبيل بيزنطي): 51.  
إسماعيل بن أبي حكيم: 249، 252.  
الأسود بن بلال المحاري: 55، 84، 87، 89.  
أشوط باجراتوني: 113.  
الأصغ بن الأشعث الكندي: 180.  
ابن أعثم: 237، 238.  
الأقباط: 82.  
أم البنين: 50، 207.  
بني أمية: 24، 25، 50، 63، 127، 136، 166، 180، 183، 207، 230، 231، 232، 233.  
الأنباط: 72.  
أنجليكي لايو: 224، 225.  
أندرو: 200، 202.

أنستاسيوس (امبراطور): 37، 263.

إياد (قبيلة): 4.

إيرين: 117.

إيليا النصبي (مؤرخ): 8، 13، 16، 21، 46.

أبو أيوب الأنصاري: 21، 128، 184.

- ب -

باجراتوني (عائلة): 113.

باجوت جلوب: 128.

باهلة (قبيلة): 180.

بجيلة (قبيلة): 180.

البربر: 27، 128، 135، 258.

برتوزي: 91.

برنار لويس: 130.

بروكلمان: 140.

البريدي: 50، 207.

بُسر (ابن أبي أرتأة): 7، 11، 12، 13، 14، 18، 19، 65، 84، 155، 236.

بشر بن الوليد: 38.

بشير: 259، 260.

أبو بكر (خليفة)، 126.

البلاذري: 4، 14، 16، 34، 54، 58، 63، 77، 82، 107، 111، 118، 188، 196،

219.

البلغار -البرحان-: 37، 40، 93، 97، 101، 115، 223.

البيزنطيين -البيزنطيون-: 4، 8، 15، 17، 19، 22، 29، 31، 33، 35، 38، 42، 51، 52،

53، 54، 55، 62، 69، 74، 75، 76، 79، 82، 83، 84، 99، 100، 104، 105، 106،

108، 109، 110، 112، 118، 122، 123، 124، 126، 128، 130، 133، 134،

137، 138، 140، 142، 146، 147، 151، 154، 160، 166، 168، 169، 170،

178، 185، 186، 187، 188، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 201، 202،

203، 206، 208، 209، 210، 215، 216، 217، 219، 222، 223، 229، 230



231، 232، 236، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251،  
253، 255، 256، 258، 259، 260، 261، 262، 267.

بينز: 91.

بيوري: 91، 93، 199، 210، 214، 215، 216، 262.

- ت -

الترك: 128.

تسالونيكاً: 253.

تغلب (قبيلة): 150، 206.

ثقيف: 182، 257.

تميم (قبيلة): 180.

تنوخ (قبيلة): 4.

تيربوس الثالث (امبراطور): 29.

- ث -

ثابت بن معبد المحاربي: 84.

ثبيت النهراي: 115.

ثيودوس النحوي: 241.

ثيودوسيوس (امبراطور): 201.

ثيوفانس (مؤرخ): 9، 16، 27، 46، 48، 63، 92، 93، 100، 106، 192، 223، 242.

- ج -

جبله بن الأيهم (الغساني): 5.

الجحاف بن بن حُكيم السلمي: 206.

جذام (قبيلة): 180، 181.

الجراجمة: 23، 26، 28، 35، 70، 105، 106، 107، 108، 109، 182، 198، 208.

الجراح بن عبد الله الحكمي: 115، 116، 118، 119، 161، 162.

الجرمي: 96.

جرير (شاعر): 182، 230، 231، 234.

جستنيان (امبراطور): 251.

جستينان الثاني (امبراطور): 25، 26، 27، 63، 86، 94، 97، 103، 107، 108، 109، 110،  
151، 157، 186، 191، 198، 199، 205، 211، 212، 219، 221، 222، 223،  
224، 252، 254.

جستين الثاني (امبراطور): 124.

جعونة بن الحارث: 61.

جنادة بن أبي أمية الأزدي: 19، 20، 65، 84، 87، 88.

ابن الجوزي: 3، 45.

جون كلود شينيه: 147.

- ح -

الحارث بن عمرو الطائي: 117.

حبيب بن مسلمة (الفهري): 6، 7، 11، 61، 63، 68، 69، 180.

الحجاج: 72، 153، 167، 171.

حسان بن ماهويه الأنطاكي: 70.

الحسن بن علي: 11، 124.

الحسين بن علي: 24، 147.

الحموي: 82.

حمير (قبيلة): 180.

حوشب بن سيف: 176، 177.

ابن حوقل: 58.

- خ -

خالد بن عبد الرحمن: 15، 19.

خالد بن عبد الله القسري: 256، 257.

خالد بن كيسان: 84، 205، 252.

خالد بن الوليد: 3، 15، 61، 123.

أبو خراسان: 84.

ابن خرداذبة: 58، 59، 184.

الخزر: 43، 47، 48، 49، 77، 106، 110، 112، 114، 115، 116، 117، 118، 119.

141، 161، 162، 163، 170، 177، 266.

خليفة (ابن خياط): 18، 24، 28، 37، 39، 43، 46، 48، 50، 54، 63.

- د -

داركو: 91.

دانييل سينوبيتس (نبيل بيزنطي): 263.

داود بن سليمان، 39، 247،

دوغلاس دنلوب (دنلوب): 116.

ديجنيس أكريتاس: 241، 242.

ديل: 91.

- ذ -

ذي الكلاع الحميري: 180.

- ر -

رالف ليلي: 74.

رامبو: 91.

ربيعة (قبيلة)، 180.

ربيعة بن الغاز: 135، 136.

رجاء بن حيوة: 176.

الرسول - النبي - (صلّى الله عليه وسلّم): 21، 125، 127، 129، 191، 196، 219، 247.

رنسيما: 214.

الروم: 2، 4، 6، 8، 11، 12، 13، 14، 15، 18، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27،

29، 30، 31، 32، 34، 35، 38، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 48، 49، 51، 53، 54،

56، 58، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 73، 75، 77، 78، 80، 83،

84، 85، 87، 90، 97، 99، 100، 101، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110،

111، 117، 118، 119، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130،

131، 133، 134، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 146،

147، 148، 150، 151، 153، 154، 158، 159، 161، 162، 163، 166، 170،

174، 175، 176، 177، 178، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 192، 194،

195، 197، 198، 203، 204، 205، 207، 208، 217، 218، 219، 222، 230،

231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 243، 244، 245، 247،

248، 249، 250، 251، 252، 255، 256، 258، 259، 260، 261، 262، 263،

265، 266، 267.

- ز -

أبي زرة: 18، 21، 42،

الزط (قوم): 71.

زفر بن الحارث - الكلابي -: 150، 180.

زوكرمان: 92.

زياد الصقلبي: 255.

- س -

سابور (قائد بيزنطي): 15، 17، 18، 100، 157، 199، 200.

سبرنجر: 130.

سُحيم بن المهاجر: 83، 107.

سرجيوس: 200.

سعيد بن عبد العزيز: 21.

سعيد بن عبد الملك: 45، 104، 159.

سعيد بن عمرو الحرشي: 116.

سعيد بن هشام: 48.

سعيد بن يزيد: 87.

سفيان بن عمرو: 180.

سفيان بن عوف (الغامدي): 7، 16، 18، 19، 20، 155، 165، 166، 171، 176، 179،

233.

سفيان الفارسي: 84.

السلاف - الصقالبة -: 13، 27، 73، 94، 97، 152، 156، 208، 223، 224، 241، 253،

254، 255.

ابن سلام: 216، 217.

سلساق: 152، 254.

بنو سليم (قبيلة): 180.

سليمان بن عبد الملك (خليفة): 38، 40، 41، 101، 166، 168، 232، 246، 251، 257،

258.

سليمان بن هشام: 27، 45، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 57، 98، 119، 129، 135،

152، 155، 183.

سمباط (باجراتوني): 29، 110، 111، 112.

السيابجة (قوم): 71.

سبيوس: 8.

ابن سيرين: 217.

سيف بن عمر التميمي: 2.

- ش -

شبيب بن يزيد الشيباني: 135.

شتاين: 91.

شراحيل بن عبيدة: 40.

شريك - ابن سُمي المرادي -: 14.

- ص -

الصحصاح: 239.

صدقة بن اليمان الهمداني: 180.

صفوان بن عمرو: 21.

صفوان بن معطل السلمي: 62.

صوفي متيفي: 74، 100.

- ض -

الضحاك بن قيس الشيباني: 176.

الضحاك بن قيس الفهري: 148، 180.

الضحاك بن مزاحم الأسدي: 180.

- ط -

طارق بن زياد: 258.

الطبري: 3، 4، 12، 16، 18، 36، 43، 45، 48، 66، 86، 112، 125، 142، 153،

217.

طيء (قبيلة): 180.

- ع -

ابن عائذ (محمد): 13، 24.

عائشة سعيد شحاتة: 91، 92.

عابس بن سعيد: 84.

- عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي: 46.  
ابن عباس: 204.  
العباس بن الوليد: 27، 32، 33، 34، 35، 36، 38، 42، 43، 57، 62، 63، 66، 68، 86،  
134، 135، 136، 151، 155، 159، 166، 174، 175، 176، 177، 196، 230،  
232، 256.  
عبد الأعلى بن أبي عمرة: 126، 248، 249.  
أبي عبد رب الزاهد - عبد الرحمن، قسطنطين -: 257.  
ابن عبد الحكم: 218.  
عبد الحميد الكاتب: 176، 182، 183،  
عبد الرحمن بن الحكم: 150.  
عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي: 20، 251، 262.  
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: 13، 14، 155، 166، 253.  
عبد الرحمن بن ربيعة: 114.  
عبد الرحمن بن سليم الكلبي: 44.  
عبد الرحمن بن صعصعة: 179، 180.  
عبد الرحمن بن عمارة: 85.  
عبد الرحمن العبد الغني: 92.  
عبد الرحمن - ابن محمد - بن الأشعث: 30، 135، 152، 167.  
عبد الرحمن بن يزيد الأزدي: 177.  
عبد العزيز بن حاتم الباهلي: 115.  
عبد العزيز بن حيان الأنطاكي: 70.  
عبد العزيز بن مروان: 30، 80.  
عبد العزيز بن الوليد: 37.  
عبد الله بن أسد: 256.  
عبد الله البطال: 47، 49، 50، 51، 52، 53، 159، 173، 179، 182، 183، 207، 233،  
236، 237، 238، 239، 240، 255، 260.  
عبد الله بن الزبير (ابن الزبير): 24، 25، 27، 61، 67، 73، 78، 147، 148، 151، 176.  
عبد الله بن سعد بن أبي سرح: 83.  
عبد الله بن عبد الملك: 27، 29، 57، 63، 66، 72، 135، 152، 153، 155، 173، 208.

- عبد الله بن عدي الطائي: 180.  
 عبد الله بن علي: 207.  
 عبد الله بن عمرو بن العاص: 180.  
 عبد الله بن قرط: 180.  
 عبد الله بن قيس: 4، 15، 21، 60، 88، 180، 217.  
 عبد الله بن كُرز البجلي: 16.  
 عبد الله بن مروان: 176.  
 أبي عبد الرحمن القيني: 14، 15.  
 عبد الملك بن مروان (خليفة): 12، 25، 26، 27، 28، 30، 31، 38، 56، 77، 78، 79، 84،  
 86، 106، 107، 109، 110، 111، 113، 114، 124، 125، 129، 134، 135، 136،  
 148، 149، 150، 151، 152، 155، 167، 172، 179، 182، 185، 191، 206،  
 208، 219، 222، 224، 230، 245، 252، 256، 258، 265.  
 عبد الهادي شعيرة: 8، 11، 13، 22، 38، 43، 56، 141.  
 عبد الواحد بن عبد الله النصري: 177.  
 عبد الوهاب بن بخت: 52، 182، 183، 237، 238، 240.  
 عبيد الله بن زياد: 24، 149.  
 أبو عبيدة بن الجراح: 4.  
 عثمان بن حيان المرسي: 36، 44، 169، 170.  
 عثمان بن عفان (خليفة): 5، 9، 63، 64، 109، 114، 146، 168، 174.  
 عدي بن أرطاة: 135.  
 العرب: 6، 22، 23، 27، 29، 59، 59، 64، 77، 78، 91، 94، 102، 107، 109،  
 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 123، 136، 140، 147، 150، 151،  
 171، 187، 191، 194، 206، 208، 210، 212، 216، 219، 224، 225، 231،  
 234، 235، 241، 242، 243، 247، 256، 260.  
 ابن عساكر: 4، 13، 14، 16، 18، 20، 21، 24، 35، 42، 46، 54، 179، 180، 233،  
 236.  
 عطية بن معبد الحاربي: 84.  
 عقبة بن عامر الجهني: 84.  
 عقبة بن نافع: 14، 84.

علقمة بن يزيد العُطيفي: 81.

علي بن أبي طالب (خليفة): 128، 147، 180.

عمر الأقطع: 242.

عمر بن الخطاب (خليفة): 2، 3، 4، 5، 60، 68، 76، 77، 122، 123، 126، 146، 169، 174، 217.

عمر بن عبد العزيز (خليفة): 41، 42، 61، 64، 66، 67، 69، 70، 72، 73، 79، 82، 83، 84، 86، 101، 126، 127، 129، 140، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 179.

188، 197، 238، 246، 247، 248، 249، 250، 252، 255.

عمر العرجي: 167.

عمر بن هبيرة: 39، 43، 84، 112، 257.

عمرو بن سعيد الأشدق: 26، 107.

عمرو بن العاص: 80، 83.

عمرو بن قيس (الكندي، السكوني): 41، 42، 167، 179، 249.

عمرو بن قيس اللحمي: 83.

عمرو بن الوضّاح: 47، 49، 104، 173، 182.

عمير بن الحباب: 62، 150.

عمير بن سعد الأنصاري: 4، 5، 60.

عياض بن غنم: 3.

- غ -

غريغوار ماميكونيان: 109، 110، 113، 114.

غريغوري: 202.

غسان (قبيلة): 4، 180.

الغمر بن يزيد: 55.

ابن غيلان الثقفي: 257.

- ف -

فازيليف: 88.

فاطمة "ذات الهمة": 239، 240.

الفرزدق (شاعر): 232، 234، 251، 257.

الفرس: 71، 73، 90، 92، 123، 214، 231.



فضالة بن عبید الله الأنصاري: 15، 16، 17، 18، 19، 83، 200.  
فلهوزن: 25.

فيلوفسكي: 241.

فيليب (قديس): 210، 213.

فيليبكوس (امبراطور): 37، 73، 112، 208.

ق .

قابوس: 244.

قباث اللحمي: 261.

قدامة بن جعفر: 58، 77، 167.

قريش (قبيلة): 180، 249.

قسطنطين (قائد): 49.

قسطنطين - الرابع - (امبراطور): 3، 18، 23، 93، 106، 199، 200، 224، 244، 252،  
261، 262.

قسطنطين - الخامس - (امبراطور): 51، 53، 54، 55، 97، 99، 104، 117، 156، 163،  
202، 214، 220، 240، 241، 250، 251، 260.

قسطنطين السابع (امبراطور): 91.

قضاة (قبيلة): 150، 180.

قطري بن الفجاءة: 135.

قسطنطين الثاني (امبراطور): 13، 102، 109، 156، 157، 199، 200، 220، 223، 227،  
253.

قيس (جذم): 150، 180، 237، 238.

قيس بن سعد الأنصاري: 203.

ك .

كارل بيكر: 130.

كالينيكوس: 23.

ابن كثير: 127، 240.

بني كلاب (قبيلة): 180، 239، 255.

كلایف فوس: 224.

كلب (قبيلة): 148، 150.

ابن الكلبي: 28.

كلثوم بن عياض: 258.

كمسراكان (عائلة أرمنية): 113.

كنانة (قبيلة): 180.

كندة (قبيلة): 180.

الكندي: 82.

كنيدي: 75، 103.

- ل -

لامبروس: 241.

لامنس: 130.

لحم (قبيلة): 180، 245، 252.

اللومبارد: 14، 101، 156، 199.

ليمرل: 92.

ليو - الثالث - الإيسوري (قائد، امبراطور): 39، 40، 52، 54، 94، 95، 96، 97، 98، 103،

104، 115، 117، 126، 131، 134، 141، 156، 159، 163، 172، 186، 187،

201، 202، 220، 238، 239، 240، 241، 245، 247، 248، 251، 252، 259،

260.

ليو الرابع (امبراطور): 220.

ليون كايثاني: 130.

ليونتيوس (قائد، امبراطور): 94، 110، 157.

- م -

مالك بن شبيب: 51، 52، 53، 96، 104، 183، 238.

مالك بن عبد الله الخثعمي: 14، 24، 144، 155، 177، 183، 185، 188، 237.

مالك بن هبيرة السكوني: 14، 16، 84.

ماميكونيان (عائلة أرمنية): 109، 113.

الميرد: 256.

محرز بن أبي محرز: 28.

محمد بن الأحنف بن قيس التميمي: 179، 180.

محمد البطال: 239.

- محمد بن عبد الله الثقفي: 19.  
محمد بن عبد العزيز بن مروان: 179.  
محمد بن القاسم: 72، 131.  
محمد بن مالك: 20.  
محمد بن مروان: 27، 28، 31، 44، 57، 73، 77، 111، 114، 135، 136، 152، 155،  
179، 180، 186، 253.  
المخارق بن ميسرة الطائي: 83، 84.  
مذحج (قبيلة): 180.  
المردة، 23، 25، 26، 94، 106، 107، 108، 109، 224، 262.  
بني مروان: 44، 136، 150، 152، 182، 207، 232، 256، 258.  
مروان بن الحكم (خليفة): 148، 149، 150.  
مروان بن محمد (خليفة): 44، 45، 62، 68، 69، 72، 73، 75، 77، 117، 118، 119،  
136، 152، 169، 171، 207، 254، 255.  
مروان بن الوليد: 36.  
مسعدة: 40.  
ابن مسعود الفزاري: 179، 233.  
المسعودي: 71، 147، 248.  
ابن مسكويه: 3.  
أبو مسلم الخولاني: 105، 182.  
مسلم بن عقبة المري: 24، 43، 148.  
مسلمة بن عبد الملك: 27، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 45،  
46، 48، 57، 62، 64، 69، 70، 77، 98، 100، 101، 108، 115، 116، 117، 118،  
119، 127، 130، 131، 134، 135، 136، 151، 155، 159، 160، 162، 163،  
166، 167، 168، 169، 170، 171، 173، 174، 175، 176، 177، 179، 181،  
183، 201، 202، 225، 226، 230، 232، 237، 238، 239، 241، 245، 246،  
247، 248، 250، 255.  
مسلمة بن مخلد الأنصاري: 82، 180.  
مسلمة بن هشام: 142.

المسلمون (المسلمين): 2، 3، 4، 6، 8، 9، 11، 12، 15، 16، 17، 18، 20، 22، 23، 24،  
 25، 26، 27، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 37، 40، 41، 42، 43، 47، 48، 49،  
 51، 52، 53، 54، 55، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 72،  
 73، 74، 75، 77، 78، 79، 82، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 96، 97، 99،  
 100، 101، 102، 103، 104، 104، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112،  
 113، 114، 115، 117، 118، 119، 120، 122، 123، 124، 125، 126، 127،  
 128، 131، 132، 133، 134، 136، 137، 138، 139، 141، 142، 143، 144،  
 146، 147، 148، 149، 150، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159،  
 160، 161، 163، 167، 169، 170، 172، 174، 175، 177، 178، 179، 180،  
 182، 183، 184، 185، 186، 187، 189، 191، 192، 193، 194، 195، 198،  
 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211،  
 212، 213، 214، 215، 216، 217، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225،  
 226، 227، 228، 229، 230، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240،  
 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254،  
 255، 257، 260، 261، 262، 263، 265، 266، 267.

مصعب بن الزبير: 26، 107، 149.

معاوية بن أبي سفيان (والي، خليفة): 5، 6، 7، 8، 11، 13، 14، 15، 16، 17، 19، 21، 22،  
 23، 24، 26، 38، 57، 61، 62، 65، 68، 71، 78، 79، 80، 81، 83، 85، 88،  
 100، 106، 109، 124، 125، 128، 129، 131، 133، 134، 135، 139، 140،  
 144، 146، 147، 148، 150، 151، 154، 160، 165، 166، 168، 171، 174،  
 180، 181، 184، 185، 192، 200، 202، 203، 204، 208، 217، 233، 234،  
 245، 247، 248، 251، 252، 253، 257، 261، 262، 265.

معاوية بن هشام: 27، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 57، 86، 104، 105، 119،  
 135، 136، 142، 155، 163، 169، 173، 175، 177، 236، 244.

معاوية بن يزيد (خليفة): 148.

معلق بن صفار البهراني: 115.

معن بن يزيد السلمي: 20.

مغيث: 258.

المغيرة بن عمير: 84.

المقدسى: 197، 245.

المقرىزى: 82، 205.

المنبجى -أغابىوس، محبوب بن قسطنطين- (مؤرخ): 11، 12، 16، 43، 46، 54، 116.

منصور بن جَعُونَة العامرى: 69.

المهاجر بن بشير بن الضحاك: 85.

المهلب بن أبى صفرة: 167.

موسى بن نصير: 85، 132.

موسى بن وردان: 218.

مىخائىل السرىانى (الرهاوى): 6، 8، 16، 27، 27، 41، 100، 253، 254.

مىسرة بن مسروق: 4، 60،

مىكائىل ماكورمىك: 215.

مىمون الرومى -الجرجمانى-: 180، 208.

مىمون بن مهران: 46، 86.

- ن -

النابعة الشىبانى: 230، 231.

نافع بن أبى عبيدة الفهرى: 85.

نبولوس: 253.

نجدت خماش: 77.

نقفور: 34، 140، 158.

نقفور الأول (امبراطور): 92.

- ه -

هارون الرشيد (خليفة): 66.

هالدن -هالدون-: 74، 75، 91، 103، 137، 142.

هامازاب: 109، 110.

هاملتون جب: 195، 198، 216.

هايد: 216، 218.

ابن هشام: 247.

هشام جعيط: 126.

هشام بن عبد الملك (خليفة): 45، 55، 66، 68، 70، 71، 72، 78، 80، 82، 84، 116،  
129، 141، 155، 162، 166، 174، 176، 177، 247، 257، 258، 259.

هرقل (امبراطور): 3، 6، 8، 90، 91، 92، 93، 94، 99، 123، 186، 241.

هرقل (قائد عسكري): 29، 31.

ابن هرمز الأعرج القاري: 81.

همدان (قبيلة): 180.

هنري بيرين: 215.

هنري غريغوار: 240، 242.

الهنود: 71.

هوميروس: 242.

هيروكلس: 227.

- و -

الوابصي: 255.

الواثق (خليفة): 239.

وارن تريديغولد: 213، 220، 221.

الواصي: 249.

واصل: 250.

الواقدي: 4، 12.

والتر كايجي: 97، 98.

وردان: 83.

الوضّاح: 45، 142، 182، 234.

الوليد بن عبد الملك (خليفة): 28، 32، 34، 35، 37، 38، 45، 60، 70، 72، 74، 81، 84،

86، 88، 108، 127، 129، 135، 140، 142، 153، 166، 169، 174، 176، 177،

196، 197، 198، 199، 204، 205، 218، 231، 232، 246، 256، 257، 258،

263.

الوليد بن هشام المعيطي: 41، 42.

الوليد بن يزيد (خليفة): 53، 55، 56، 69، 71، 87، 151، 152، 202، 203، 250.

- ي -

يحي بن عبد الله بن بكير: 21.

- يحيى بن الحكم بن أبي العاص: 28، 113، 149.  
 يزيد بن أبي كبشة: 36.  
 يزيد بن أبي مرثم: 84.  
 يزيد بن أبي مسلم: 127.  
 يزيد بن أسد القسري: 24.  
 يزيد بن بشر الكلبي: 250.  
 يزيد بن الحر العبسي: 7.  
 يزيد بن حنين الطائي: 30، 31، 182.  
 يزيد بن شجرة الرهاوي: 20، 83.  
 يزيد بن عبد الملك (خليفة): 42، 44، 72، 79، 84، 112، 118، 134، 136، 151، 161،  
 162، 177، 195، 257، 259.  
 يزيد بن معاوية (خليفة): 16، 18، 20، 21، 24، 25، 56، 62، 68، 75، 76، 78، 85،  
 88، 106، 110، 128، 135، 136، 147، 148، 149، 208.  
 يزيد بن المهلب: 42، 43، 112، 118، 131، 134، 135، 151، 152، 256.  
 يزيد بن الوليد (خليفة): 87.  
 اليعقوبي: 4، 13، 18، 48، 86، 129، 142.  
 اليهود: 46، 79.  
 يوحنا (نبيل): 262.  
 يوحنا المقدسي (أسقف): 259.  
**ثانياً - فهرس الأماكن والبلدان:**

أ.

- أبتيماطي (ثيم - بند): 98.  
 أبيدوس (أبُدس): 39.  
 أدرولية (درولية): 7، 34، 146، 212.  
 أذربيجان: 26، 43، 47، 48، 62، 77، 106، 110، 112، 114، 115، 116، 118،  
 119، 137، 141، 161، 162، 163، 257.  
 أذنة: 14، 58، 65، 71، 73.  
 ارتاجرات: 214.  
 أردبيل: 116.

- الأردن: 76، 83، 148، 162، 173، 180، 181.
- أرضروم (أرزن): 29، 35، 62.
- الأرمنيانق (ثيم - بند): 15، 16، 47، 51، 64، 77، 93، 94، 95، 113، 114، 134، 157، 161، 199، 200.
- أرمينية: 6، 8، 11، 26، 28، 29، 31، 33، 35، 43، 47، 62، 63، 64، 77، 93، 102، 106، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 118، 133، 137، 141، 155، 159، 160، 161، 163، 177، 213، 214، 266.
- أرمينية الرابعة: 7، 28، 43، 113، 160.
- أرواد (جزيرة): 19، 20، 84.
- اسطادنة (جزيرة): 85.
- الإسكندرونة: 34، 70، 108، 198.
- الإسكندرية: 80، 81، 82، 89، 217.
- أفامية: 13، 253.
- افسوس: 225، 227.
- أفلاجونية (بافلاجونيا): 43، 47، 49، 50، 54، 141، 207.
- آسيا الصغرى: 2، 5، 14، 15، 17، 19، 22، 26، 28، 30، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 39، 41، 43، 45، 47، 49، 50، 51، 53، 57، 59، 60، 61، 65، 67، 86، 90، 92، 93، 94، 95، 97، 99، 100، 101، 102، 103، 106، 107، 108، 113، 118، 119، 123، 126، 132، 133، 134، 137، 138، 139، 141، 143، 151، 152، 153، 154، 155، 157، 158، 159، 160، 161، 169، 181، 184، 185، 186، 187، 191، 192، 193، 198، 199، 200، 205، 206، 210، 211، 213، 214، 215، 217، 220، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 253، 261، 263، 265، 266، 267.
- أزمير: 19.
- الأعماق: 27.
- افريقية (افريقيا): 40، 83، 135، 215، 221، 258.
- أكرويونون (أقرن): 39، 49، 51، 52، 53، 54، 104، 119، 141، 159، 186، 203، 233، 238، 240، 255.
- أماسية (ماسة): 36، 140، 160.



- الأمانوس (جبال): 26، 59، 61، 108.  
الأناضول: 18، 24، 28، 32، 35، 36، 38، 39، 42، 48، 51، 54، 59، 92، 95، 99،  
102، 108، 130، 138، 146، 157، 160، 161، 211، 212، 213، 221، 224،  
225، 227.  
الأناضول (ثيم - بند)، 32، 93، 94، 95، 98، 157، 160، 172، 181، 201، 236،  
260.  
أندولية: 27، 160.  
الأندلس: 258.  
أنطاكية: 2، 3، 4، 6، 7، 16، 28، 29، 30، 35، 46، 64، 67، 71، 72، 74، 75، 76،  
79، 91، 103، 106، 107، 108، 123، 152، 153، 155، 182، 186، 208، 214،  
254، 260.  
أنطاكية (بيسيدا): 15، 36، 103، 139، 140، 160، 225.  
أنطرسوس: 77.  
أنقرة: 8، 13، 28، 47، 48، 212، 227.  
الأوبسيكيون - الأبيق - (ثيم - بند)، 54، 90، 93، 94، 98، 157، 202، 223، 250،  
260.  
أوربا: 92، 93، 215، 253.  
إيران: 213.  
إيسوريا (سورية): 7، 8، 9، 24، 30، 35، 36، 140.  
إيطاليا: 14، 18، 101، 156، 157، 199، 200، 215، 220، 223.

- ب -

- بالس: 70، 175.  
بامفيليا: 224.  
البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم): 38، 58، 59، 70، 85، 87، 88، 214، 215، 216،  
218، 220.  
البحر الأحمر: 214، 218.  
البحر الأسود (بحر الخزر): 112، 212، 213.  
بحر إيجه: 41، 56، 88، 212، 224.  
بحر قزوين: 213.

بحيرة الفرسان، 32.

البدندون، 34.

برجمة - برقاموم -: 39، 225، 227.

البردان (نهر): 59.

البرلس: 83.

البصرة: 71، 135، 151، 153، 168، 180.

بطنان حبيب: 149.

بعلبك: 16، 85، 242.

البقيع: 175.

بلاد (أرض) الروم: 2، 3، 5، 6، 7، 8، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22،

23، 24، 28، 29، 30، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 43،

44، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 54، 55، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64،

65، 67، 69، 73، 76، 78، 79، 82، 85، 86، 87، 104، 107، 108، 112، 113،

118، 119، 126، 127، 131، 132، 134، 135، 136، 137، 140، 142، 144،

149، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 163،

165، 166، 168، 169، 170، 174، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 184،

185، 188، 189، 200، 201، 206، 207، 208، 213، 217، 219، 220، 228،

229، 232، 233، 236، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 250، 251، 253،

254، 255، 256، 258، 259، 260، 262، 267.

بلاد الغال: 206، 217.

بلاد الكرج: 109، 110، 112.

بلاد المغرب (المغرب): 14، 27، 88، 132، 197، 258.

بلنجر: 114، 115، 117، 118.

البلقان: 26، 92، 101، 156، 192، 223، 253، 254.

بلونية (فلونية): 50.

بنطس: 13.

بوتي: 112.

البوسفور (مضيق): 17، 32، 40، 215.

بوقا: 71.

بوكولاري - البقلار - (ثيم - بند)، 94، 98.

بيثينيا: 41، 47، 169، 200، 212، 223، 227، 254.

بيروت: 77، 84، 217.

بيزنطة: 4، 5، 8، 9، 11، 12، 13، 18، 22، 24، 25، 41، 54، 82، 87، 99، 101،

102، 109، 113، 117، 120، 126، 127، 129، 133، 143، 150، 156، 157،

158، 160، 161، 163، 164، 186، 191، 192، 194، 195، 199، 200، 202،

205، 206، 207، 209، 212، 214، 215، 216، 218، 219، 220، 222، 240،

245، 247، 249، 251، 252، 259، 266.

بيسيدا: 36، 139، 140.

- ت -

تراقيا: 20، 37، 39، 93، 94.

تراقية (ثيم - بند)، 98.

تراقيسيان - ترقيسيس - (ثيم - بند): 94.

تركستان: 213.

توخارك: 112.

- ث -

الثغور: 2، 58، 59، 60، 61، 62، 64، 67، 69، 71، 73، 74، 75، 76، 80، 83، 84،

87، 89، 118، 123، 129، 133، 134، 144، 150، 152، 154، 155، 162، 163،

168، 173، 174، 175، 188، 195، 206، 211، 232، 234، 236، 239، 249،

254، 255، 260، 266.

الثغور البكرية: 58.

الثغور الجزرية (ثغور الجزيرة): 14، 57، 58، 59، 61، 64، 73، 174.

الثغور الشامية (ثغور الشام): 30، 56، 57، 58، 59، 64، 70، 77، 85، 103، 130، 167.

الثغور المصرية: 77، 85.

ثيودوسيوبوليس: 62.

- ج -

الجابية: 3، 4، 5، 76، 122، 148، 174.

جرجان: 131.

جرحومة: 35، 108.

الجزيرة (الفراتية): 2، 3، 5، 6، 8، 27، 33، 35، 39، 43، 44، 46، 48، 49، 50، 59،  
61، 63، 67، 69، 73، 75، 76، 77، 90، 99، 112، 118، 124، 128، 134، 137،  
138، 139، 146، 150، 151، 152، 154، 155، 161، 162، 165، 174، 175،  
177، 181، 212، 213، 214، 215، 265.

جستنيانوبوليس: 224.

الجولان: 107.

جيحان (نهر): 59، 66، 72، 73.

- ح -

حاني: 58.

الحجاز: 21، 80، 149، 235، 255.

الحدث (حصن، مدينة): 58، 61، 68، 69، 75.

حرّان: 69، 174، 181.

حصن الحديد: 138.

حصن سلوقية: 70.

حصن طولس: 86.

حصن قطر غاش: 70.

حصن الماغوصة: 85.

حصن المثقّب: 70.

حصن المرأة: 8، 39، 137.

حصن مسلمة: 69.

حصن منصور: 69.

حصن مورة: 70.

حصن يانس: 85.

حلب: 45، 72، 76، 173، 174، 201.

حمّاة: 253.

حمص: 14، 42، 68، 76، 77، 83، 123، 162، 177، 180، 181.

- خ -

خازق: 20.

خراسان: 132، 151، 181، 257.

خرسون: 213.

خرشنة: 16، 28، 48، 113، 135، 139، 141، 160.

الخصوص: 72، 73.

خلاط: 111.

خلقدونية: 8، 16، 17، 21، 140، 146، 157.

الخليج الفارسي: 214.

خنجرة: 36، 47، 140، 141، 160، 225.

- د -

دايق: 39، 45، 129، 166، 168، 173، 174، 178، 181، 201، 238.

الدانوب (نهر): 93، 192.

دبسة (حصن): 43، 138، 159، 225.

دجلة: 72.

درب أنطاكية: 66.

درب بغراس: 4، 7، 35.

درب البوابات (الأبواب) القيليقية: 30، 32، 34، 36، 38، 43، 46، 59، 60، 65، 155،

170، 173، 181.

درب الحدث: 14، 29، 35، 59، 68، 73، 144، 155، 181.

درب السلامة: 59، 181.

درب مرعش: 59.

درب ملطية: 44، 46، 54، 64، 69.

دريند -الباب-: 116، 117، 162، 170، 171، 181.

الدردينيل (مضيق): 20، 39.

الدروب: 3، 5، 6، 33، 51، 59، 60، 63، 67، 74، 90، 99، 100، 137، 138، 154،

168، 170، 174، 177، 181، 188.

دسلة -رسلة- (حصن): 43.

دمشق: 8، 24، 26، 33، 76، 83، 101، 107، 110، 111، 124، 135، 149، 165،

162، 170، 173، 180، 181، 185، 188، 192، 196، 197، 198، 200، 205،

216، 249، 250، 252، 256، 257، 258، 261، 262.

دمياط: 198، 205، 252.

دير الجائلق، 149.

دير الجماجم، 153.

- ر -

الران: 109، 110.

الرس (نهر): 112.

الرصافة: 54.

رفع: 77.

الرقة: 54، 69، 166، 214.

الرملة: 80.

الرها: 69.

رهوة مالك: 188.

رودس (جزيرة): 19، 25، 66، 84، 87، 148.

روسيس: 34، 198.

الروضة (جزيرة): 82.

- ز -

زبطرة: 58، 69، 75.

زندة: 4.

- س -

سيبسة - سبسة -: 26، 186.

سبسية (سبسية): 36، 113.

سجستان: 167.

سردا - سرده، سردوسل، سارديس -: 39، 50، 141، 225، 227.

سسرة - سميرة - (حصن): 44.

سُقيلية: 253.

سلوقية: 65، 74.

سمندر: 118.

سميساط: 7، 29، 31، 53، 58، 69، 103.

سنادة: 51، 53، 226.

سنان (حصن): 30.

السند: 72، 131.

سندرة: 37، 51، 141.

سوسنة (حصن): 31، 32، 34، 35، 52، 139، 186.

سوريا (سورية): 5، 83، 123، 206، 213، 214، 216، 253.

السويس: 82.

سيباستوبوليس: 26، 27، 73، 97، 103، 186، 253.

سييرة - كبيرا-: 50، 95، 141.

سيحان (نهر): 59، 71.

- ش -

الشام: 2، 3، 4، 5، 6، 8، 13، 14، 15، 16، 23، 24، 28، 29، 32، 34، 36، 39،

44، 46، 49، 55، 57، 58، 59، 61، 64، 65، 67، 69، 71، 72، 73، 76، 77، 78،

79، 80، 81، 82، 83، 84، 87، 89، 90، 91، 99، 100، 102، 103، 106، 107،

108، 116، 117، 122، 123، 124، 125، 127، 128، 132، 135، 137، 138،

139، 140، 142، 143، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154،

161، 162، 163، 165، 166، 168، 172، 174، 175، 176، 180، 181، 184،

191، 206، 207، 208، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 221، 233، 238،

246، 253، 256، 257، 259، 265.

شمشاط: 7، 58.

- ص -

صفين: 147، 180، 181.

صقلية: 13، 18، 156، 210، 215، 220.

صملة - صمالة - (حصن): 28، 47، 135، 141.

صور: 23، 77، 78، 82، 83، 84، 217.

صيدا: 23، 77.

الصين: 214، 231.

- ط -

طبرستان: 131.

طرابلس (الشام): 77، 79، 80، 83، 84، 107.

طرابلس الغرب: 39.

طرابزون - طرابزنده -: 206، 213.

طرسوس: 6، 30، 36، 58، 59، 65، 70، 73، 242.

طُرُنْدَة: 30، 35، 43، 61، 63، 64، 66، 67، 73، 138، 140، 158، 160، 169، 198،  
225، 230.

طُنادة: 35.

طُوَانَة: 32، 33، 34، 52، 60، 96، 103، 104، 108، 138، 140، 144، 158، 166،  
174، 176، 177، 182، 186، 198، 208، 223، 225، 230، 232، 237، 238.

طوروس (جبال): 2، 11، 32، 43، 44، 58، 59، 60، 61، 67، 74، 90، 91، 99، 100،  
101، 137، 138، 169، 191.

طبية (حصن): 46، 159.

- ع -

العراق: 24، 26، 42، 43، 59، 72، 107، 112، 132، 134، 136، 149، 151، 152،  
167، 171، 175، 214، 235، 256، 257.

عربسوس: 100.

العريش: 77.

عسقلان: 25، 77، 78.

العطاسين - أتيوس - (حصن): 46، 159.

العقبة البيضاء (درب): 70.

عقبة الركاب: 104.

عكا: 77، 78، 81، 82، 83.

عُمان: 151.

العمق: 48.

عمواس: 173.

عمورية: 6، 13، 17، 28، 34، 38، 39، 44، 51، 98، 113، 139، 140، 146، 160،  
169، 170، 178، 201، 212، 236.

عنجر: 196.

- غ -

غذقذونة - قرقذونة، فرقدونة -: 16.

غزالة (حصن): 37.



غلاطية: 38، 46، 160، 211، 213.

. ف .

فارس: 197، 213، 214.

الفرات (نهر): 59، 62، 69، 175، 214، 241.

الفرما: 77.

فريجيا: 39، 51.

فلسطين: 23، 76، 81، 162، 173، 180، 181، 206، 215، 217.

الفولغا (نهر): 114، 213.

. ق .

قالقلا: 6، 27، 29، 58، 62، 75، 113، 158، 160، 206.

قبادوقيا: 8، 14، 24، 30، 35، 42، 44، 45، 48، 67، 100، 118، 138، 159، 162،

211، 213.

القباقب (نهر): 59.

قبرص (جزيرة): 7، 25، 26، 46، 55، 56، 78، 82، 86، 87، 89، 148، 217، 224،

240.

القدس: 206.

قرطبة: 258.

القسطنطينية: 8، 12، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 27، 32، 37،

38، 39، 40، 41، 42، 56، 59، 84، 85، 89، 98، 99، 100، 106، 109، 112،

115، 117، 118، 119، 127، 128، 129، 131، 135، 136، 139، 140، 141،

146، 155، 156، 159، 160، 166، 201، 202، 203، 211، 212، 214، 215،

217، 221، 225، 234، 238، 239، 240، 241، 245، 248، 249، 252، 255،

261، 262، 263.

قرقيسيا: 150.

قنسرين: 4، 6، 28، 35، 42، 68، 75، 76، 77، 134، 152، 162، 175، 180، 181،

القازم - كليسما-: 82، 218.

قلوذما نلس: 32.

قلونية: 13، 44.

قمودية: 34.

قورس: 4، 72، 75، 254.

القوقاز: 44، 48، 109، 114، 115، 117، 118، 159، 161، 162، 163، 171، 266.

قونية: 24، 45، 206.

قيسارية: 25، 77، 78.

قيصرة (حصن): 44.

قيصرية (قيسارية): 6، 8، 24، 44، 45، 48، 49، 103، 119، 138، 141، 212، 225،

فيليقية، 5، 6، 7، 14، 15، 19، 30، 31، 35، 42، 46، 50، 59، 64، 65، 66، 67،

71، 72، 75، 91، 99، 108، 130، 138، 152، 155، 208، 211.

#### ك .

كبرهايون (ثيم - بند): 93، 94، 95.

كرت - أقرطش، أقرطية - (جزيرة): 56، 89.

كريسوبوليس: 201.

كسكر: 72.

كفريا: 72.

كلابريا: 220.

كلوديوبوليس: 13.

كمخ (حصن): 44، 62، 169، 206.

الكوفة: 24، 124، 180، 256، 257.

كيزيكوس: 19، 20، 212، 223، 224، 227، 254.

#### ل .

اللاذقية: 77، 79، 82، 83، 84، 249، 259.

لاريسا: 43.

اللامس (نهر): 65، 70.

اللان: 11، 115، 118.

لبنان: 23، 26، 26، 28، 81، 106، 107، 108، 208، 224، 262.

اللد: 173.

اللكام (جبال): 25، 34، 59، 66، 70، 107، 108، 182، 198.

لؤلؤة (قلعة): 30.

ليديا: 210.

ليقيا: 19.

- م -

ماجدة: 138، 223.

المدينة (يثرب): 24، 81، 81، 86، 147، 148، 174، 175، 197، 198، 205، 237،  
246، 247.

محلة الزط: 71، 73.

مرج راهط: 148، 149،

مرج الشحم: 8، 28، 137،

مرج القبائل: 4، 137.

المرزبانين (حصن): 36.

مرعش: 7، 25، 28، 35، 39، 48، 58، 59، 61، 62، 68، 69، 75، 76، 119، 155،  
163، 175، 181، 186، 201، 260.

مرمرة (بحر): 19، 20، 23، 93، 157.

المرواني (حصن): 68.

مسونه: 46.

مصر: 15، 16، 30، 39، 40، 77، 80، 81، 82، 83، 84، 89، 90، 132، 149، 175،  
191، 204، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 221، 252.

المصيصة: 7، 26، 28، 30، 31، 46، 58، 63، 65، 66، 70، 71، 72، 74، 103، 138،  
158، 170، 173، 208، 254.

مكة: 24، 147، 148، 151، 257.

ملطية: 7، 8، 13، 15، 25، 28، 35، 37، 39، 48، 50، 53، 54، 58، 61، 63، 64،  
67، 68، 69، 73، 75، 103، 129، 142، 155، 166، 170، 176، 181، 208، 239،

242، 247.

ملكين: 58.

منبج: 76.

مواسا (حصن): 45.

الموصل: 49، 116، 162.

ميسيا: 19.

- ن -

النخيلة: 124.

نصيبين: 213، 214.

النهر الأزرق: 59.

نهر مسلمة: 175.

نهر النيل: 218.

نيقوميديا: 41، 201.

نيقية: 41، 47، 141، 169، 225.

- ه -

هرقلة: 34، 38، 138، 140، 198، 225.

الهند: 132، 197، 214، 218.

- ي -

اليرموك: 6، 102.

اليمن: 150.

اليونان: 215.

## المحتوى

أ-ر	مقدمة
9-2	تمهيد
120-10	الفصل الأول: حملات الصوائف والشواتي ورد الفعل البيزنطي
57-11	المبحث الأول: عمليات الصوائف والشواتي (عرض عام)
89-58	المبحث الثاني: نظام الثغور في العصر الأموي
120-90	المبحث الثالث: استراتيجية الدفاع البيزنطية
189-121	الفصل الثاني: الإجراءات المرتبطة بالصوائف والشواتي
145-122	المبحث الأول: دوافعها وأهدافها
164-146	المبحث الثاني: العوامل المؤثرة فيها
189-165	المبحث الثالث: اعداد وسيرورة الحملات
263-190	الفصل الثالث: الانعكاسات المترتبة عن حملات الصوائف والشواتي
208-191	المبحث الأول: على العلاقات الإسلامية البيزنطية
228-209	المبحث الثاني: على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بيزنطة
263-229	المبحث الثالث: على التفاعل الحضاري بين المسلمين والروم
267-264	خاتمة
274-268	ملخص
290-275	الملاحق
304-291	قائمة المصادر والمراجع
335-305	فهرس الأعلام والأماكن
336	خطة البحث

People's Democratic Republic of Algeria  
Ministry of Higher Education and Scientific Research

Emir Abd El Kader University  
of Islamic Sciences  
Constantine



Faculty of Arts and Islamic  
Civilization  
Department of History

Serial Number: .....

Registration Number: .....

**The Summer and The Winter Military  
Campaigns (*Sâwa'if and Shâwati*) against  
the Byzantines (*Rûm*) During the Umayyad  
Era 41–132AH/661–749AD  
Descriptive and Analytical Study**

**Thesis Submitted in Candidacy for the Degree of Doctorate Es Sciences in History**

Option: Economic and Social life in Islamic Near East (1-132AH/622-749AD)

Presented by :

**Moncef Mebarkia**

Supervised by:

**Dr. Mourad lakhal**

Name and Surname	The Original University	rank
Ibrahim Benmehaia	Emir Abd El Kader University	chairman
Mourad lakhal	Mohamed Boudiaf University of M'sila	Supervisor
Nacera Azroudi	Emir Abd El Kader University	examiner
Abdeldjalil Gueriane	Emir Abd El Kader University	examiner
Abdelghani Harouz	Mohamed Boudiaf University of M'sila	examiner
Khemissi Boulaares	Lamine Debaghine Setif 2 University	examiner

College year: 1442-1443AH/2021-2022AD